رواية

T

نمر الليل

يانغسي شو

ترجمة

صالح رزّوق / رنيم العامري

دار الرافدين

نمر الليل

نمر الليل

يانغسي شو

ترجمة: صالح رزّوق و رنيم العامري

The Night Tiger

By Yangszy Choo

Translated by Saleh Razook and Raneem Al-Ameri

الطبعة الأولى: يوليو ـ تموز، 2020 (1000 نسخة)

بيروت ـ بغداد

هذا الكتاب تمت ترجمته وطباعته بالاتفاق مع فلاتيرون بوكس،
نيويورك، الولايات المتحدة الاميركية.

This book published by arrangement with Flatiron Books, NY, USA.



لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

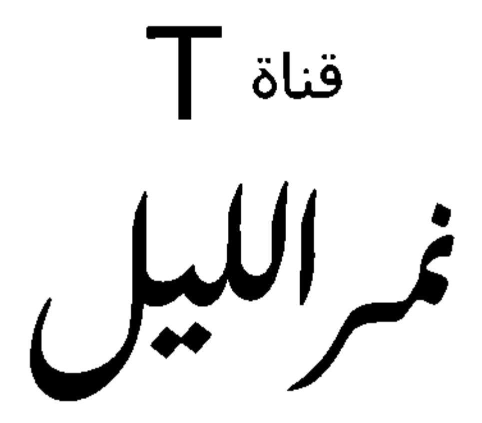
بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Daralrafidain
دار الرافدين@daralrafidain

ISBN. 978 - 9922 - 634 - 11 - 1

يانغسي شو



telegram @tea_sugar

ترجمة
صالح رزّوق / رنيم العامري



الإهداء

إلى والدي ووالدتي
اللذين وُلدا وعاشا في وادي كينتا.

يانغسي شو



تليجرام
مكتبة سور الأزبكية

مقدّمة المترجم

إنه شهر أيار، والطبيب مكفارلين الذي يعمل عنده رين ذو الأحد عشر عاماً كصبي خدمة؛ يحتضر. وعلى فراش موته يضع على عاتق رين مهمة إيجاد إصبعه المبتورة والضائعة قبل مضي مهلة التسعة وأربعين يوماً، وإلا ستبقى روحه تهيم على الأرض كشبح إلى الأبد!

نعم، إنها المالايو (ماليزيا سابقاً) تحت الحكم البريطاني في ثلاثينيات القرن العشرين، التي تحكمها الخرافات وتسيّر مصائر الناس معتقداتهم بأرقام الحظ والنحس والجُناسات اللغوية.

يتقاطع درب رين مع درب جي لين الشابة التي تعمل خيّاطة نهاراً وراقصة صالة في السر ليلاً، ومع ويليام أكتون الطبيب الإنجليزي وزير النساء. ثمة رابط يبدو أول الأمر خرافياً، يجمع بين الشخصيات الثلاث، وبين كل شخصيات الرواية، وخلال مسار الرواية يكشف هذا الرابط عن نفسه حيث الحدث يأتي كردّة فعل، مثل قطع لغز مبعثرة فيها كل عنصر في الرواية يمثل قطعة من اللغز.

أنت تلاحق الشخصيات الرئيسية وهي دائماً تعدو بين الأزقة الضيقة التي ينيرها ضوء الغروب الأزرق الخابي، وهي تحاول أن تنقذ نفسها مرة بالخروج من باب خلفي يفضي إلى زقاق آخر أو مرة بتمني اختفاء الخطر، وفي الخفاء هناك من سيحقق هذه الأمنية مهما كانت شريرة. كلّ ذلك وهناك نمر يتربص من داخل الأدغال، أنت تشعر بشخيره وهو يحرك سكون الليل فيما تقرأ، ويكاد قلبك ينقبض عندما ترى آثار أقدامه في الحديقة وتقرأ خبر ضحاياه منشوراً في جريدة الصباح، ولكنّك لا تراه، وأنت في الحقيقة، لم تره ولا لمرة.

لقد خلقت الكاتبة الماليزية يانغسي شو عالماً منغلقاً على نفسه، إنه قطعة من

الخيال التاريخي الساحر. شو تنسج بلمسة «خفيفة كالريشة» لغزاً عن الأسرار الطبيعية والخارقة للطبيعة «لدرجة أن المواضيع الحقيقية داخل القصة التي تدور عن الاستعمار وديناميكية السلطة والجندرية والطبقية؛ كلّ تلك المواضيع سوف تستوعب بنفس القدر من الحساسية. لقد جعلت شو من روايتها متاهة حديقة باذخة تجعل القرّاء ينغمسون في عالم معقد لم يعد له وجود».[1]

وعن ثنائية الخدم والأسياد داخل روايتها، تقول الكاتبة: «كطفلة عاشت في ماليزيا، كنت مسحورة بالمنازل الخشبية الكولونيالية أو الأكواخ الكولونيالية البيض والسود التي تركتها البريطانيون خلفهم، وبقيت تقبع في الخراب. بعضها كان فخماً فعلاً، وفيه أجنحة منفصلة للخدم، وفيها سقوف عالية ونوافذ رحبة، كانت كما لو أنها تروي حكاية حياة اختفت، شيء يشبه داونتاون آبي[2] ولكن خاص بالمناطق الاستوائية، حيث هناك تفاعل خفيّ بين الخدم والأسياد. إن فكرة العالم الموازي، الخدم والأسياد، المحليون والأجانب، الغابة والمنازل المتحضّرة؛ كانت تملؤني بالفضول. كان عالماً مشمساً من الأمسيات الصامتة، حيث يُعتقد بالأشباح وأرقام الحظ بالقدر الذي يُعتقد به بالقصص على الراديو، ويمكن لصبي خدمة أن يكون بعمر الحادية عشرة فحسب».

تعمد الكاتبة يانغسي شو إلى الكتابة بطريقة تفصيلية مغرية وغنية تنقل القارئ إلى المكان الذي يدور فيه الحدث، بين الأزقة المظلمة والمزدحمة بالبيوت في إيبوه وبابان وباتو جاجاه، وتصف الأطعمة الشهية والحريفة التي تبيعها الأكشاك على الأرصفة حتى يسيل لعابك. وهي إذا نقلت الحدث إلى غرفة، فهي تصف ألواح الأرضية الخشبية والستارة المصنوعة من خرز البامبو، وإذا تحدثت عن قاعة الرقص فتنقلها إليك بجوّها الحار والرطب الذي يعبق برائحة العرق، وهي تُريك حتى إضاءة القاعة في مساء ممطر وتُسمعك صوت نقر القطرات على السقوف القصديرية، إنها حتى لم تنسَ الفرقة التي تغني، وما هي الأغنية التي تعزفها والتي يتراقص عليها الآن الحضور المزدحم في القاعة.

---

(1) عن موقع كيركاس ريفيوز.

(2) مسلسل تلفزيوني بريطاني يتناول حياة عائلة ارستقراطية في بداية القرن العشرين وحكاياتهم مع الخدم.

وخلال دراساتها لبناء عالم ماليزيا في الثلاثينيات، قامت شو بالبحث عن خرائط وتصاميم لمتاجر منزلية قديمة في الأرشيف الوطني في سنغافورة، وبحثت عن حقائب الأطباء ومعدّاتهم في متحف كلية طب في جامعة الملك إدوارد السابع، وحتى أنها أخذت بعض الدروس في التمرّن على الخياطة. وتقول إنها ذهبت إلى بلدة بابان المهجورة برفقة والدها، وطاردتهما الكلاب السائبة، رغم أنها لم تعرف كيف وأين ستضع البلدة داخل الرواية، ثم أخيراً وجدَت لها مكاناً، «مشهد الجنازة»!

تقول: «لقد استغرقت في كتابة نمر الليل أربع سنوات، ولكن ليس فقط لأنني كاتبة بطيئة، وإنما لأنني حاولت أن أقاوم قدر الإمكان صفّارات الحبكات الداخلية التي تدوّي في رأسي. إن أعظم شيء في الكتابات الخيالية هو أنه يمكنك أن تضع فيها كل الأشياء التي أنت مهووس بها شخصياً تحت مسمّى «البحث». وهذا الأمر مفيد على نحو خاص عندما يتوجّب عليك أن تشرح لأطفالك سبب قيامك بأكل النودلز أو المعكرونة المقلية لليوم الخامس على التوالي (وذلك لكي تتقن الوصفة على أصولها، ناهيك عن أنك لن تضع المشهد الذي يقلي فيه بطل الرواية المعكرونة، لأن هناك بالفعل الكثير والكثير من الطعام والشراب في الرواية)».

بعد أن تركت شو وظيفتها كمستشارة إدارية بسبب إصابة في الرسغ، بقيت كربة بيت تكتب في ساعات متأخرة من الليل بعد أن ينام أطفالها. وتقول في مقابلة صحفية معها: «لقد نجح الأمر معي. ولكنّي كنت أشعر بالجوع دائماً، لذا تجد الكثير من الطعام في كتبي. لذا اضطررنا إلى حذف الكثير من مشاهد وجبات الطعام. حتى أنّ مدير أعمالي اشتكى قائلاً: لماذا يأكل هؤلاء الناس دائماً».

وتقول أيضاً: «عندما كنت صغيرة جداً، عشنا في منزل خشبي أو كوخ محاط بغابة، وهو واحد من آثار الحكم البريطاني. كان الكوخ من الدرجة الثالثة وملكاً للحكومة، يمكن لموظف في الحكومة مثل والدي أن يستأجره بأجرٍ بسيط مدعوم من الحكومة. كانت الأرضة تنتشر فيه لدرجة أن والديّ خافا من أن ينهار فيما نحن نعيش فيه. كانت القردة تركض على سقفه، وتسرق الطعام المتاح. وكان

هناك علجوم يعيش في المرحاض الخارجي. ودجاج بريّ يسرح في المرجة أمام البيت. ومرّة أتى شخص على دراجة وسرق قميص والدي من على حبل الغسيل. كانت الأعمال المنزلية مثل كابوس بالنسبة لأمي المسكينة. ولكننا كنا أطفالاً وأحببنا البيت. كنت أصغر عمراً من الذهاب إلى المدرسة في ذلك الوقت، لذا أمضيت معظم وقتي ألعب وحيدة وأنتظر عودة أخواتي من المدرسة. وبالنسبة لي، كان هذا عالماً غير متوقعاً. كانت الغابة تطوّقنا من كل جانب، وتنمو بين ليلة وضحاها إلى أدغال من البامبو والكروم الخضراء والتي يختفي داخلها كلبنا لأيام في صحبة أصدقائه البريّين. ولطالما راودني إحساس أنني صغيرة جداً في العالم الذي يعجّ بالحياة والممتلئ بالغموض».

عن ترجمة نمر الليل

سيجد القارئ كلمات وعبارات مكتوبة بالخط المائل، وسيجد تحتها هوامش تخصّها، إذ أبقَت الكاتبة يانغسي شو على هذه الكلمات بلغة المالايو ولم تكتبها بالإنجليزية، وإيماناً مني بأهمية الحفاظ على عناصر النص الأصلي والاقتراب منه بأكبر قدر ممكن؛ فقد أبقيتُ على الكلمات كما هي وتحتها شروحها وهوامشها. فهناك كلمات تُفسر داخل متن الرواية وهذه التفسيرات هي من أصل النص، لذلك لم يكن هناك من داعٍ إلى إيرادها في هامش للشرح، وفضّلتُ أن أضع الكلمة مجرّدة في هامش، مثال على ذلك وردت العبارة التالية: «وتظلّلها من الشمس ستارة *التشك* المتدلية المصنوعة من البامبو»، وهنا وضعتُ كلمة تشك chik في هامش دون شرح، لأن التفسير موجود أساساً داخل النص من قبل الكاتبة.

وثمة ملاحظة أخرى تخصّ شخصية شين الذي تُرجمت علاقته بجي لين إلى أخ غير شقيق، بحسب النص الإنجليزي. لكنه في الحقيقة لا يتصل بجي لين بقرابة الدم. الأخ غير الشقيق في العربية هو أخ من جهة الأم أو من جهة الأب، لكن شين هو ابن زوج أُمّ جي لين.

أخيراً

بكلمات كاتبة نمر الليل يانغسي شو: «خرجت رواية نمر الليل من الأسرار التي تخيّلتها مختبئة في تلك البيوت الكولونيالية إلى جانب الأشياء الكثيرة التي أنا مهووسة بها شخصياً، كراقصات الصالات، التوائم، النمور التي تتحول إلى بشر، والقطار الذي يمكن أن يحملك إلى عالم الأموات، وبالطبع اللغز غامض لجريمة القتل! أتمنى أن تستمتعوا بالمغامرة!».

رنيم العامري

الواقعية الجديدة في (نمر الليل) ليانغسي شو

ترى باتريشيا شولثيس، في مقالتها عن رواية (نمر الليل) للكاتبة الشابة يانغسي شو، أنها من الأعمال المركبة والهجينة، ولكن المشوّقة أيضاً. فهي تخلو من المباشرة والبروباغاندا، وتعمد لتطوير الحبكة بعدة اتجاهات: حكاية نمر مسحور وأصابع مقطوعة وعلاقات قرابة معقّدة وزوج أُمّ شرّير وأحلام واسعة النطاق وحبّ يذوب عنه الجليد وقاتل متسلسل وسرقة للمقابر. وتضيف: إن شو أتقنت ترتيب هذه المحاور وما تفرّع عنها من حكايات جانبية يخيم عليها ظل من التشاؤم والسحر والخرافات. وكانت تدور في الخلفية مناقشة بطيئة، لكن غنية بالمعلومات، عن الدين (كونفوشيوس)، وعن رغبة الإنسان بإشباع عاطفته، مع استطرادات عن دور ومعنى الانتماء والطاعة أو الولاء.

تجري أحداث الرواية عام 1931 وفي مالايو التي سيصبح اسمها ماليزيا، وذلك عندما كانت جزءاً من الإمبراطورية البريطانية. وتتطور لاحقاً إلى صورة متكاملة عن عالم تتجوّل فيه الوحوش المفترسة التي تختطف ضحاياها في الليل، حيث تلعب الميتافيزيقا والإلهيات دوراً أساسياً في صناعة القرار البشري، وحيث توجّه صالات الرقص والبغاء سلوك الرجال وتختار لهم نهاياتهم. ومثل هذه المقابلة بين الروحي والمادي، وحياة الليل ونشاط النهار، إنما يحاول دون كلل، أن يفصل الوعي عن الوعي الباطن، وأن يضعنا مباشرة أمام مشكلة الشرق، وهو في لحظة النهوض من ماضيه.

لكن أين هو المستقبل؟

كانت مشكلة الرواية، ومشكلة العالم الذي تتكلم عنه، في البحث عن ذاكرة جديدة لتاريخ حافل بالأمجاد والإنجازات. وللأسف، فلا يمكن لميت تقديم

خدماته لإنسان حيّ. ومن هنا بدأت الموازنة بين مختلف الانتماءات. ذاكرة تحتضر وتكشف عن مباذل (ترمز لها الرواية بالنشاط الليلي) مع ذاكرة تستيقظ أو أنها تبدأ من العدم (وترمز لها الرواية بحياة عدة ساحات اجتماعية).

تبدأ الحكاية مع رين، وهو صبي خدمة يتيم، يحدد له مخدومه، الدكتور مكفارلين، مهمّة، وهو على فراش الموت. وهي البحث عن إصبعه المبتور والمفقود. وذلك ليدفنه معه بعد الوفاة. وبهذه الطريقة فقط يمكن لروحه أن تستكمل وظيفتها في العالم ثم ترقد بسلام. وللعلم بالشيء فإن أساطير جنوب شرق آسيا تفترض أن الروح لا تغادر الأرض إن لم يتم دفن كامل الجسد الميت. ولكن لدى أي إنسان مهلة تسعة وأربعين يوماً ليرقد تحت التراب كله وفي حفرة واحدة.

وتتخلّل هذه الحبكة حكاية ويليام أكتون، وهو طبيب جراح، تنتقل خدمات رين له. ثم حكاية جي لين المرأة الشابة التي تسقط ضحية ظروفها الخانقة وتتحول لمساعدة خياطة. وتتناوب مشكلة الإصبع المفقودة على كل هذه الشخصيات، وتظهر على سطح حياتهم المرتبكة أساساً، وتقودهم نحو مجموعة من المصادفات الغريبة إلى أن يتمكنوا في النهاية من إيداعه تحت التراب. ويصارع رين وويليام وجي لين شياطينهم، التي إن كانوا لا يرونها رؤية العين، فهم يشعرون بقواها الخفية أو غير المفهومة. وبالصدفة كانت أسماء هذه الشخصيات تقابل بمعناها فضيلة من فضائل كونفوشيوس الخمس، وهي: الحكمة والإيثار والنظام. وكان عليهم في مرحلة لاحقة التطوع للبحث عن الفضيلتين الناقصتين، وهما: الاستقامة والحقيقة. ويقودهم هذا البحث، كما تقول شولتيس، إلى فهم أفضل وأوضح لأنفسهم، ولعلاقتهم مع غيرهم. وفي النهاية للمعنى الروحي للإيمان.

تتلخص مهارات شو في خلق عالم غير غربي وديناميكي ومسموع يمكن مقارنته بعالم الكاتبة النيجيرية الشابة شيماماندا نغوزي أديشي في روايتها (نصف شمس صفراء). فكلا الكاتبتين تبدآن في الحكاية من صبي خدمة لديه مهمة بحث واستقصاء، وبعد ذلك تتطور القصة وتتراكم التفاصيل والأحداث. وكلا الروايتين أيضاً تستعملان الأخوين التوأمين وانفصالهما بقوة القدر المشؤوم. وكلتاهما تختاران امرأة شابة وذكية لتلعب دور البطولة.

فالأول هو كسر دكتاتورية الرجل الأبيض في وضع أساس فني للمخيلة الواقعية. والثاني هو كشف عيوب وسقطات الواقع الذي يدين بوجوده للمستعمر، سواء في الوسائط أو في الأمنيات والرغبات، وهو ليس أسلوب شو. فالشخصيات لديها تدخّل في دائرة حياة طبيعية دون أي فرز أو غطرسة. وتتجاور في الحبكة كل العناصر، منذ الوصف وحتى السرد، مع تقارب بين الكولونيالي والوطني. وبهذه المساكنة تطوّر شخصياتها للتعبير عن مسألة الحدود السائلة بالمعنى الذي تكلم عنه زيغموند باومان. وأهم مثال على ذلك هو التضادّ بين تفكير الدكتور مكفارلين الذي يؤمن بالأساطير المحلية، والدكتور ويليام الوجودي والمادي الذي لا يفهم معنى العاطفة أو القلب. ويبدو لي أن شو كاتبة مستشرقة وليست شرقية. ويمكن أن نفهم هذه الفكرة نظراً لوجود شخصيات إنجلوساكسونية بيض تحتل حوالي نصف مساحة الأحداث. ونادراً ما تستعمل شو ضمير المتكلم. في (نمر الليل) لا تستعمل غير جي لين صوتها الخاص لرواية الأحداث، واسمها أساساً يعني بالكونفشيوسية الحكمة. ولكن إذا كانت هذه المرأة ذكية فهي ليست حكيمة لأنها تتخبط بتصرفاتها وتضع نفسها في مواقف خطيرة وتسيء فهم أهداف ومرامي الآخرين، وبالأخص زوج أمها. وبالتدريج تعترف بمساهمتها في زيادة مقدار الأخطاء في حياتها. وتضع في خاتمة المطاف مقياساً للمعرفة الذاتية.

تقول عن ذلك: «بصعوبة يمكن أن ترى في اختياراتي ـ العمل في صالة للرقص، والتورط بمشكلة إصبع رجل ميت، واختلاق الأكاذيب تلو الأكاذيب ـ تصرفات حكيمة، على الرغم من الذكاء الذي كنت أُبديه في المدرسة».

وللأسف، فإن هذه الرؤية تأتي بعد نهاية ثلثي الرواية، حينما أصبح قصور نظر جي لين يشير لحماقة متعمدة. لكن تبدو شخصية رين أكثر مدعاة للتعاطف. جزئياً لأنه مستعدّ للثقة بحدسه. فحينما يموت توأمه يي يفقد «موهبته» أو «حاسته السادسة». ولكن من خلال سلسلة من الأحلام المتتالية، والتي يلتقي بها مع يي، يستعيد ما يسميه «حاسّة القطة». ويبدأ باختبار العالم بوعي متيقظ ومتأهب.

وعن ذلك تقول الرواية: «الحلم يتراجع، مثل مياه مرتدة. والأروع هو استعادة حاسة القطّة، النبضة الكهربائية والخفية التي تخبره عن أحوال العالم. وها هي تهمس بهدوء في خلفية رأسه».

وقدّم إدراكُ الواقع النفوذَ عند رين (واستعمال شو الذكي لصيغة الحاضر البسيط)، بدوره ديناميكية تلفت الانتباه وتحدّد اتجاه الشخصيات. فرين لم يكن يعلم عما سيجري في الخطوة التالية، وكذلك القارئ. وبالعكس منه صورة جي لين، فهي تروي حكايتها بلسانها وبصيغة الماضي البسيط. ولكن لا هي ولا القارئ يتعاطفان مع الماضي الذي نتعرف عليه عن طريق التذكر والنظر إلى الخلف.. وربما هذه هي ميزة الرواية. إنها تبدو أكثر تعاطفاً مع المستقبل.

الترجمة بتصرف عن باتريشيا شولثيس.

نمر الليل

1

كامونتنغ، مالايو، أيار 1931

الرجل العجوز يحتضر. ويمكن لرين ملاحظة ذلك من الأنفاس المتقطعة، والوجه الغائر، والجلد الرقيق المشدود على عظام وجنتيه. وهو، مع ذلك، يرغب بفتح مصراعي النافذة. فيومئ بحدّة للصبي، فيفتح رين نافذة الطابق الثاني بحلقٍ محتقن كأنّه ابتلع حجراً.

في الخارج بحر أخضر متلألئ، ها هي قمم أشجار الغابة تتماوج، والسماء الزرقاء تُشبه حلماً محموماً. هذا الوهج الاستوائي يجعل رين يجفل، فيتحرّك ليحمي سيّده بظلّه الممدود، ولكن العجوز يوقفه بحركة من يده. وتتّضح رعشة يده تحت نور الشمس المبهر ويظهر العقِب القبيح للإصبع المبتورة. يتذكّر رين كيف أنّه منذ شهور قليلة مرّت، كانت تلك اليد قادرة على هدهدة الأطفال وتقطيب الجروح.

فتح العجوز عينيه الزرقاوين الدامعتين، تلكما العينان الأجنبيّتان الشاحبتان، اللتان أخافتا رين كثيراً في بداية الأمر. وهمس شيئاً. انحنى الصبيّ ليقرّب رأسه الحليق.

قال: «هل تتذكر؟».

هزّ الصبيّ رأسه.

أردف: «قلها إذن». وأخذ الصوت المبحوح بالخفوت.

ردّ رين بصوت ناعم وواضح: «بعد أن تموت، سأبحثُ لك عن إصبعك المفقودة».

«ثم بعد ذلك؟».

تردد وقال: «وادفنها في قبرك».

التقط العجوز أنفاسه الضعيفة وقال: «جيّد. عليك أن تستعيدها قبل انقضاء تسعة وأربعين يوماً، المهلة المحدّدة لروحي».

أدّى الصبيّ عدّة مهامّ من هذا النوع قبيل الآن، وبسرعة فائقة وبمهارة. وسيتدبر أمره حتّى وكتفاه النحيلان يختلجان.

«لا تبكِ يا رين».

في مثل هذه السويعات يبدو الصبيّ أصغر من عمره الحقيقيّ بسنوات. وانتاب الرجل العجوز الأسف، كان يتمنى لو بمقدوره أن يفعل الأمر بنفسه، غير أنّه منهك. ولم يكن أمامه غير أن يلتفت برأسه ليواجه الجدار.

2

إيبوه، مالايو

الأربعاء، 3 حزيران

أربعةٌ وأربعون رقمٌ مشؤوم عند الصينيّين. ويبدو مثل عبارة: «يموت، حتماً يموت». ولذلك يجب تجنب الرقم أربعة وكل صِيغه. في ذلك اليوم المشؤوم من حزيران، كنت أقوم بواجباتي في عملي الذي أتكتّم عليه. وهو وظيفة لعدة ساعات في صالة الرقص «ماي فلاور»[1] في إيبوه، العمل الذي كنتُ قد بدأته بالضبط منذ أربعة وأربعين يوماً.

وكان عملي يجري في السرّ، لأنه لا يجوز لأيّة فتاة محترمة أن ترقص مع أغراب. بالرغم من أن خدماتنا كانت تحت عنوان «مدربات». ولربّما كنّا كذلك بنظر معظم زبائننا من: الموظفين العصبيين والفتيان من طلاب المدارس الذين يشترون بطاقات كثيرة لتعلم رقصة الفوكس تروت والفالس أو *الرونغينغ*[2] تلك الرقصة الماليزية الأخاذة. أمّا بقية الزبائن فكانوا من *البوايا*[3] أو التماسيح، كما نسميهم. أصحاب الابتسامات التي تكشف عن الأسنان، الذين لا تمنع أيديهم من متابعة العبث إلا الضربات المؤلمة.

ولم أكن لأجني النقود الكافية لو أنّني تابعت صفع أيديهم بتلك الطريقة، وكنت آمل أن لا أضطر لفعل ذلك لفترة طويلة. إذ كان يتوجّب عليّ تسديد ديون تبلغ

(1) May flower

(2) Ronggeng

(3) Buaya

أربعين دولاراً ماليزياً ترتّبت على والدتي بسبب فوائد باهظة جداً. وكان عملي اليوميّ كمساعدة خياطة ثياب لا يكفي لتسديد المبلغ، ولم يكن بمقدور أمّي المسكينة الحمقاء أن تأتي بهذا المبلغ بنفسها، فحظها في القمار لم يكن جيداً.

ولو أنّها تركَت الحسابات لي، لأخذَت الأمور منعطفاً أفضل، فأنا بشكل عام ماهرة بالتعامل مع الأرقام. وإنني أقول ذلك دون أن ينتابني الشعور بالتفوّق، فهي مهارات لم تنفعني كثيراً. ولو كنت صبياً، لاختلف الأمر. إنّ تفوقي بحلّ المسائل الرياضية، والذي بدأ منذ كنت بسن السابعة، لم يكن ليفيد أمي، التي كانت قد ترمّلت للتوّ في تلك الفترة. وفي الفراغ الحزين الذي خلّفه غياب الوالد، أمضيتُ ساعات أسجّل الأرقام على قصاصاتٍ من الورق. وكانت مفهومة ومرتّبة، بعكس الفوضى التي شملت الحياة التي انحدرنا إليها. وبالرغم من ذلك، احتفظت والدتي بابتسامتها العذبة والخفيفة، الابتسامة التي تبدو بها مثل إلهة الرحمة، مع أنّها ربّما كانت قلقة على قوت يومنا. لقد أحببتها بكل جوارحي، وتضاعفت مشاعري هذه مع الزمن.

كان أوّل شيء طلبَته منّي المشرفة على صالة الرقص، وندعوها الماما، بعد أن بدأتُ العمل؛ هو أن أقصّ شعري. أمضيت سنوات وأنا أهتم به ليكون طويلاً، بسبب سخرية شين أخي غير الشقيق من أنّني أبدو مثل الصبيان. كانت الجديلتان الطويلتان المصفّفتان بالشرائط بعناية، واللتان لازمتاني طوال أيام الدراسة في مدرسة البنات الإنجلوصينيّات؛ هما العلامتان الناعمتان للأنوثة. وكانتا باعتقادي تتستّران على خطاياي، التي من ضمنها موهبة لا تليق بالسيدات، وهي حساب معدلات الفائدة بسرعة البرق.

قالت الماما: «كلا، لا يمكنك أن تعملي هنا بهذا الشكل».

قلت لها: «ولكن هناك فتيات بشعور طويلة».

«نعم، لكن هذا لا يناسبك».

وأرسلتني إلى امرأة فظيعة قصت الجديلتين. وسقطتا في حضني، وكانتا ثقيلتين وتقريباً تتنفّسان أنفاس الحياة. وإذا شاءت الظروف وشاهدني شين،

سيموت من الضحك. عموماً نكّسَت رأسي وهي تقبض على قَذال رقبتي المكشوفة والمستسلمة بدرجة تبعث على الخوف. قصّت الخصلات من الأمام على شكل غرّة، وحينما رفعت عيني، ابتسمَت وقالت: «تبدين جميلة. تشبهين لويز بروكس تماماً».

ولكن من هي لويز بروكس هذه في كلّ حال؟ يبدو أنّها نجمة أفلام صامتة كانت مشهورة على نحو واسع قبل سنوات قليلة. صعد الدم لوجهي. كان من العسير أن أعتاد على هيئتي الجديدة هذه، والتي ستصبح شائعة بين الفتيات المتصابيات ذوات الصدور المسطّحة، مثلي. وطبعاً، لأننا في المالايو وفي الضواحي البعيدة من الإمبراطورية، لم نكن متأنّقات بكل أسف. والسيدات البريطانيات اللواتي قدمن إلى الشرق تذمّرن من تخلف الأزياء هنا بحوالي ستة شهور أو سنة بالمقارنة مع لندن. وليس مدعاة للدهشة أن يجتاح إيبوه أخيراً جنون قاعات الرقص والشعر القصير. فقد انتشر ذلك على نحو واسع في كلّ الأرجاء ومن فترة. لمستُ مؤخرة رقبتي الحليقة، وأنا خائفة من أن أشبه الصبيان أكثر من أيّ وقت سابق.

قالت الماما، وهي تحرّك جذعها الثقيل: «أنت الآن بحاجة لاسم. ومن الأفضل أن يكون إنجليزياً. سنسمّيك لويز».

وهكذا بدأتُ في أمسية الثالث من حزيران أرقص التانغو باسم لويز. وعلى الرغم من تراجع سوق الأسهم، فقد كانت مدينتنا الصاخبة المعروفة باسم إيبوه حافلة بالبنايات الحديثة التي انتشرت بفضل تجارة القصدير والمطّاط. كانت تمطر على نحو غير معتاد بالنسبة لمنتصف اليوم، وتحولت السماء إلى لون الحديد، وتعيّن علينا إشعال نور الكهرباء، وكان هذا مدعاة لتذمّر الإدارة. وظلّ المطر يقرع بصخب على الأسطح المصنوعة من القصدير، وقد بذل قائد الفرقة، وهو جاويّ بشارب رقيق؛ جهده ليواري الضجة.

وأدّى جنون الرقص الغربي إلى انتشار قاعات الرقص العامة في مدن الضواحي. بعضها كانت معروفة على نطاق واسع، مثل فندق سيليستيال هوتيل المشيّد حديثاً، بينما غيرها كان لا يزيد على سقائف واسعة عرضة للنسمات الاستوائية. كانت الراقصات المحترفات، أمثالي، يجلسن في حظيرة كما لو أننا

دجاجات أو خراف. والحظيرة عبارة عن مساحة موزعة على مقاعد يفصل بينها شريط عازل. كانت الفتيات الجميلات يجلسن هناك، ومثبّت على صدر كلّ واحدة منهنّ وردة مصنوعة من الورق. وهناك حرّاس لضمان عدم اقتراب أحد منا ما لم تكن لديه تذكرة، ولكن هذا لم يمنع بعض الرجال من محاولة كسر القاعدة.

وأدهشني جدّاً أن يدعوني أحدهم لمرافقته للتانغو. فأنا لم أتعلمها على نحو جيد في مدرسة الآنسة ليم للرقص. بعد أن أجبرني زوج والدتي على التخلّي عن المدرسة، حصلت على تعويض معنوي، وتلقّيت تدريبات على الفالس. ثم تحلّيت بالجرأة وتعلمت الفوكس تروت. باختصار لم أتعلم التانغو. لقد كانت مخاطرة. مع أننا كنّا جميعاً نشاهد رودولف فالينتينو وهو يرقص تانغو في برامج الأبيض والأسود.

وحينما بدأتُ مع ماي فلاور، أخبرتني صديقتي هوي أنّه من الأفضل أن أتمرّن على التانغو.

قالت: «أنتِ تبدين كفتاة عصرية. ولا بدّ من أنّك ستتلقين طلبات لرقص التانغو».

هوي العزيزة هي من علّمتني. كنا، كلانا، نتمايل في أرجاء المكان مثل المخمورات. لكنّها بذلت قصارى جهدها.

ولكن بعد أن كدنا نسقط أرضاً خلال إحدى الوثبات المفاجئة، قالت وهي كلّها أمل: «حسناً، ربّما لن يطلبك أحد».

وبالطبع كانت مخطئة. فسرعان ما أدركتُ أن نوع الرجال الذين يطلبون التانغو هم بالعادة من *البوايا*، وذلك الرجل الذي ظهر في يوم النحس وهو الرابع والأربعين، لم يكن استثناء.

أخبرني أنّه رجل مبيعات. ومجاله مستلزمات المدرسة والمكاتب. وفي الحال عادت إلى ذهني رائحة الأوراق الرقيقة لدفاتر المدرسة. لقد أحببت المدرسة، ولكن ذلك الباب مغلق أمامي الآن. كلّ ما تبقى لدي هو الثرثرة التافهة والخطوات الثقيلة لرجل المبيعات هذا الذي أخبرني أن القرطاسية تجارة مربحة، وبمقدوره أن يطورها، وهو متأكد من ذلك.

ثم أضاف: «بشرتكِ رائعة». كانت لأنفاسه رائحة تشبه الرزّ بالدجاج الصينيّ المتبل بالثوم. ولأنني لم أعرف ماذا أقول، فقد ركّزتُ نظري على قدميّ المسحوقتين المسكينتين. كانت حالة تدعو لليأس، لأنّ رجل المبيعات كان يعتقد أن التانغو تتكوّن من قفزات فجائية ووقفات درامية.

اقترب كثيراً مرّة أخرى ثم أضاف: «وكنت أبيع أدوات التجميل. وأعرف الكثير عن بشرة النساء».

مِلتُ إلى الخلف لأباعد من المسافة بيننا. وحينما كنّا ندور، التفَّ بقوّة فانكفأت عليه. واشتبهت أنّه فعل ذلك متعمداً. ولكن يده امتدّت تلقائياً نحو جيبه، كما لو أنّ شعوراً انتابه أن شيئاً ما قد يسقط منه.

قال وهو يبتسم: «هل تعلمين أنّه توجد طرق لتحتفظ المرأة بشبابها وجمالها إلى الأبد؟ باستعمال الإبر».

سألته: «الإبر؟»، وغمرني الفضول رغم اعتقادي أنّ هذه الجملة كانت واحدة من أسوأ جمل المغازلة.

«في غرب جاوة هناك نساء يغرزن في وجوههن إبراً رقيقة جدّاً من الذهب. ويحرصن على أن يغرزنها عميقاً إلى الداخل حتّى لا يعود بالإمكان رؤيتها. هذه طريقة سحرية تمنع التقدم بالسن. كنتُ قد قابلتُ أرملة جميلة دفنت في حياتها خمسة أزواج، قالت إن في وجهها عشرين إبرة. ولكنها أخبرتني أنّه يجب سحبها بعد الموت».

«لماذا؟».

«لأن الجسد يجب أن يعود كاملاً مرّة أخرى عند الموت. لذا يجب تنقيته من كلّ الإضافات، كما يجب تعويض كلّ شيء فقده أيضاً، وإلا لن ترقد الروح بسلام».

استمتَع بالدهشة التي ارتسمت على محياي، وتابع وصف تفاصيل بقيّة رحلته. بعض الموجودين كانوا يتكلمون، وآخرون يرقصون بصمتٍ فيما راحاتهم تتعرّق. وعموماً، فقد فضلت المتكلّمين لأنهم كانوا مستغرقين بعالمهم الخاص دون أيّ تطفل على عالمي.

لو اكتشفَت عائلتي أنّني أعمل هنا، ستقع كارثة. ارتجفتُ رعباً من تصوّر غضب زوج أمي، ودموع والدتي وهي تقرّ له بديونها المتراكمة بسبب لعبة الماهجونغ[1]. ثم هناك شين، أخي غير الشقيق الذي وُلد في نفس يوم ولادتي، واعتاد الناس أن يسألوا إن كنّا توأمين. لقد كان حليفي على الدوام، على الأقل حتّى وقت قريب. ولكن شين قد رحل الآن، فقد تلقّى منحة لدراسة الطب في كلية إدوارد السابع الطبية في سنغافورة. هناك يتلقى الموهوبون المحلّيون التدريبات اللازمة لسد النقص في الأطباء الذي نعاني منه في ماليزيا. كان يجب أن أشعر بالفخر لأنه شين، ولأنه لطالما كان ذكياً، لكنني كنتُ أشعر بالحسد في أعماقي لأنني كنتُ سأحصل على علامات أعلى منه. ولكن ليس هناك فائدة من التفكير حول ماذا لو. وشين لا يهتم بالرد على رسائلي بعد الآن.

تابع البائع كلامه: «هل تؤمنين بالحظّ؟».

حاولت أن لا أتجهّم وهو يدوس بشدة على قدمي وقلت: «وماذا هناك لأؤمن به؟».

«عليك أن تفعلي. فالحظّ سيكون بجانبي».

ابتسم، وانعطف مرّة أخرى انعطافة شديدة. وبزاوية عيني، لاحظت نظرات الماما المصوّبة نحونا. كنّا نشكل مشهداً غريباً على حلبة الرقص، ونحن نترنح هكذا، وهذا ليس في صالح سمعة العمل أبداً.

ضغطت على أسناني، واحتفظت بتوازني حينما انحنى البائع انحناءة خطيرة. وترنحنا بطريقة غير وقورة. كانت أذرعنا تتأرجح في الهواء، ثم تتمسّك بالثياب. قبضَت يده على مؤخرتي وجرّ ثوبي للأسفل، فدفعته بمرفقي، وتعلّقت يدي الأخرى في جيبه، فتدحرج شيء صغير وخفيف في راحتي فانتزعته بسرعة. شعرتُ بأنه يشبه اسطوانة رقيقة وناعمة. تردّدت وأنا أتحسسه، كان يجدر بي إعادته، فلو أنّه انتبه إلى أنّني أخذت منه شيئاً، فلربّما اتهمني بأنني نشّالة. بعض الرجال يحبّون إثارة المشاكل على هذا النحو، فهذا يعطيهم سبباً لينالوا من سُمعة فتاة مسكينة.

(1): mahjong لعبة صينيّة يلعبها أربعة أشخاص وفيها 136 أو 144 قطعة مستطيلة. المترجمة

لكن البائع ابتسم بوقاحة وقال: «ما اسمك؟».

وبغباء ذكرتُ له اسمي الحقيقي، جي لين، عوضاً عن لويز. من سيّئ إلى أسوأ. في تلك اللحظة توقّفت الموسيقى، وفجأة أطلق البائع سراحي وصوب عينيه على شيء وراء كتفي، كأنّه تعرف على شخص ما. ثم وبحركة سريعة، كان قد اختفى من أمامي.

ولكي تعوّض الفرقة عن التانغو، بدأت تعزف أغنية: «يس سير، ذاتس ماي بيبي!»[1]. وهرع الأزواج إلى حلبة الرقص فيما كنتُ أنسحب عائدة إلى مقعدي. كان الشيء يلتهب في يدي كأنّه وسم من النار. لا بدّ أنّه سيعود؛ فقد كان يحمل لفافة من تذاكر الرقص. وإذا انتظرت، يمكنني إعادة ما أخذته متظاهرة بأنه سقط منه على الأرض.

هبّت نسمات محملة برائحة المطر من النوافذ المفتوحة. وبقلقٍ رفعتُ الشريط الذي يفصل مقاعد الراقصات عن حلبة الرقص وجلست وأنا أرتب هندام تنورتي.

فتحت يدي، وكما خمّنتُ من ملمسها، كانت اسطوانة زجاجية رقيقة الجدران. قارورة عينات بالكاد تبلغ بطولها بوصتين وبغطاء معدني لولبي، ترجرج في داخلها شيء خفيف. كتمتُ صرخة؛ كانت السلاميتان العلويتان لإصبع جافة ومبتورة.

(1) Yes Sir, That's My Baby..المترجمة.

3

باتو جاجاه

الأربعاء، 3 حزيران

حينما كان القطار يهتزّ وهو في طريقه على السكة إلى باتو جاجاه، وقف رين على قدميه، ووضع وجهه على النافذة. لهذه المدينة الصغيرة المزدهرة، مقرّ الإدارة البريطانية لولاية بيراك؛ اسم غريب هو باتو، ويعني الحجر، وجاجاه، الفيل. ومن الأقوال الشائعة أن المدينة سُمّيت على اسم فيلَين اثنين عبرا نهر كينتا. وحوّلهما الإله سانغ كيليمباي، انتقاماً من هذا التصرف الطائش؛ إلى صخرتين تبرزان من المياه. وتساءل رين عمّا فعله الفيلان المسكينان في النهر، ليستحقّا عقوبة التحويل إلى حجر.

لم يسافر رين قطّ بواسطة القطار من قبل، على الرغم من أنّه انتظر الطبيب العجوز في محطّة سكّة حديد تايبينغ عدّة مرات. كانت النوافذ في عربة الدرجة الثالثة مفتوحة على الرغم من تطاير غبار الفحم، بعضها كبير بحجم ظفر الإصبع، وتهبّ نحو الخلف كلّما دار المحرك البخاري حول أحد المنعطفات. أمكن لرين أن يشعر بطعم الرطوبة الثقيلة التي تخلّفها الرياح الموسمية في الهواء. مرّر يده على حقيبته المصنوعة من القماش. في داخلها توجد رسالته الثمينة. إذا هطل المطر بغزارة فقد يذوب الحبر. وفكرة تلف السطور التي عنى الطبيب العجوز على كتابتها بخط يدٍ مرتعش تسبّبت له بتيّار من الحنين الجارف للوطن.

مع كلّ ميل يتقدّم به القطار مُهتزّاً على القضبان، يبتعد أكثر فأكثر عن المنزل المتزعزع الفوضوي الذي كان يقطن فيه الدكتور مكفارلين منذ ثلاث سنوات. لقد رحل الآن، وأصبحت الغرفة الصغيرة، التي أقام فيها رين داخل جناح عمال

الخدمة، خالية. كانت بجانب غرفة العمة كوان. في هذا الصباح، نظف رين الأرض لآخر مرّة وحزم بعناية الصحف القديمة ليحملها رجل *الكرانغ غوني*[1]. وعندما أغلق الباب بطلائه المقشور شاهد العنكبوت العملاق الذي شاركه الغرفة بصمت وهو يرمّم خيوط شبكته في زاوية من السقف.

ملأت عينيه الدموع الحرّى. لكن كانت لدى رين مهمة عليه إكمالها، وهذا ليس وقت البكاء. بوفاة الدكتور مكفارلين، بدأ العدّ التنازلي لمهلة التسعة والأربعين يوماً المخصّصة لبقاء الروح. وهذه المدينة ذات الاسم الغريب ليست هي المكان الأول الذي يعيش فيه دون شقيقه يي. وأعاد رين التفكير بالفيلين الحجريّين. هل هما توأمان مثله هو ويي؟ في بعض الأحيان يشعر رين بقشعريرة، مثل اهتزاز شوارب قطة، كما لو أن يي لا يزال معه. كان يخالجه ذلك الشعور الذي يجمع بين أخوين توأمين، الشعور الذي يحذرّه من أحداثٍ ستقع. ولكنّه كلما نظر من فوق كتفه لم يكن ليجد أحداً.

محطّة باتو جاجاه عبارة عن مبنى طويل منخفض مع سقف مائل، وهي تقبع بجانب خطّ السكّة الحديديّة مثل ثعبان نائم. في جميع أنحاء المالايو، بنى البريطانيّون محطّات مماثلة تمتدّ على طول خطوط مألوفة ومرتبة. تكرّر المدن نفسها، المباني البيض الحكومية والسهول المعشوشبة والمجزوزة حتّى تبدو وكأنها مروج مدينة إنجليزية.

في مكتب بيع التذاكر، كان مدير المحطّة الماليزي لطيفاً بما يكفي ليرسم لرين خريطة. كان له شاربان أنيقان وسروال منشّى بثنيات كحد السكين. قال له: «محطّتك بعيدة جداً. هل أنت متأكد من أنّه ما من أحد ليقلّك؟».

هزّ رين رأسه نافياً وقال: «يمكنني المشي».

على مسافة إضافية، لاحت هناك مجموعة من المتاجر المنزلية الصينيّة التي تسند بعضها بعضاً، بطوابقها الثواني المتهالكة، وتحتها متاجر ضيقة ومخنوقة تغصّ بالبضائع. هذا هو الطريق الذي يؤدّي إلى المدينة. لكن رين انعطف نحو

---

(1) karang guni: بائع الأشياء المستعملة.

اليمين، ومرّ بالمدرسة الإنجليزية الرسمية. ونظر بشوق إلى المبنى الخشبي بخطوطه البيض الأنيقة، وتخيّل الأولاد الآخرين الذين يماثلونه بالعمر، يدرسون في الغرف ذوات السقوف العالية، أو يلهون في الحقل الأخضر.

بسكينة وصبر تابع المشي.

كانت التلّة تقود إلى شانغات، حيث يعيش الأوروبيّون. ولم يكن لديه وقت للاستمتاع بالعديد من الأكواخ الاستعمارية المبنية على الطراز البريطاني. فوجهته كانت على الجانب البعيد من مدينة شانغات، مقابل مزارع البنّ والمطاط.

قرع المطر الأرض الحمراء بشراسة. وبدأ رين يسرع من خطاه وهو يشهق ويتشبّث بحقيبته القماشية. كاد أن يصل إلى شجرة *أنغسانا*[1] كبيرة عندما سمع قعقعة شاحنة بضائع، كان محركها يُحدث صريراً وهو يتسلّق التلة. فصاح به السائق من النافذة: «هيا، اركب!».

تسلّق رين إلى المركبة مقطوع الأنفاس. كان مُنقذه رجلاً بديناً له ثؤلول على جانب وجهه.

قال رين: «شكرا يا عم». واستعمل الاصطلاح المهذب المناسب لمخاطبة الكبار، فابتسم الرجل. كان الماء يسيل من بنطال رين وينهمر على الأرض.

«أخبرني مدير المحطّة أنّك ذاهب بهذا الاتّجاه، هل أنت ذاهب إلى منزل الطبيب الشاب؟».

«هل هو شاب؟».

«ليس مثلك. كم عمرك؟».

وفكّر رين بالموضوع. هل يجب أن يخبره بالحقيقة. كانا يتحاوران بالكانتونية، وهذا الرجل يبدو لطيفاً. لكن يجب عليه أن يكون حريصاً ولا يتخلى عن حذره. أخيراً قال: «في حوالي الثالثة عشرة».

«أنت صغير، أليس كذلك؟».

---

(1) angsana

أومأ رين، فهو في الحقيقة في الحادية عشر. وحتى الدكتور مكفارلين لم يكن يعرف بذلك. كان رين قد أضاف سنة إلى عمره، جرياً على عادة معظم الصينيّين، عندما دخل إلى بيت الدكتور العجوز.

«هل حصلت على وظيفة هناك؟».

فتشبث رين بحقيبة القماش وقال: «عندي توصيل».

وفكّر: أو إنّها بالأصح *استعادة*.

قال السائق: «هذا الدكتور يعيش بعيداً عن بقية الأجانب ولا أنصحك بالمسير هنا ليلاً. إنّه تصرّفٌ غير آمن».

«لماذا؟».

«تم التهام الكثير من الكلاب مؤخراً. كانت تؤخذ مع أنها مقيدة بالسلاسل إلى المنزل. ولم يبق منها غير الرقبة والرأس فقط».

انقبض قلب رين. وارتفع طنينٌ في أذنيه. هل يعقل أنّه بدأ مرّة أخرى بهذه السرعة؟

«هل هو نمرٌ؟».

«فهدٌ على أكثر احتمال. يقول الأجانب إنهم سوف يبحثون عنه. على أيّة حال، يجب ألا تتجول عندما يحلّ الظلام».

توقّفت السيارة في أسفل ممشى طويل مقوس، ووراء مرج إنجليزي مجزوز يحيط ببيت أبيض واسع. أطلق السائق النفير مرتين، وبعد فترة طويلة، ظهر رجلٌ صينيّ نحيف على الشرفة المغطاة، وهو يمسح يديه بمريول أبيض. نزل رين من الشاحنة، وشكر سائقها، من خلف خرير المطر.

قال له الرجل: «اعتنِ بنفسك!».

غذّ رين المسير وشقّ طريقه إلى المأوى. كان المطر المنهمر قد بلّله، لذلك تلكّأ عند الباب خشية تجمع المياه على ألواح الخشب العريضة. في الغرفة الأمامية من المنزل، كان هناك رجل إنجليزي يكتب رسالة. كان يجلس على طاولة، لكن عندما

ظهر رين نهض مع نظرة مستفسرة. كان أنحف وأصغر من الدكتور مكفارلين. وكان من الصعب الإحاطة بانطباعاته من وراء انعكاسات نظارته.

نحّى رين عنه حقيبته القماشية المهترئة وبحث فيها عن الرسالة، ثم قدّمها بكلتا يديه بتهذيب. فتح الطبيب الجديد المظروف بعناية بفتاحة ورق فضية. اعتاد الدكتور مكفارلين على فتح الرسائل بإصبعه العريضة وإبهامه. خفض رين بصره. لم يكن من المناسب المقارنة بين الاثنين.

والآن بعد أن قام بتسليم الرسالة، شعر رين بالتعب الشديد في ساقيه. وبدت التعليمات التي كان يحفظها ضبابية؛ وأخذت الغرفة تدور من حوله.

فحص ويليام أكتون الورقة التي استلمها. إنّها من كامونتنغ، تلك القرية الصغيرة التي تلي تايبينغ. كانت الكتابة بخطّ اليد وكأنها طلاسم، فهي مكتوبة بيد رجل مريض.

عزيزي أكتون.

أنا أكتب بطريقة احتفائية على ما أخشى. فقد توقّفت عن الكتابة منذ فترة طويلة جدّاً وبالكاد أستطيع حمل القلم. لعدم وجود أقرباء يستحقون التوصية، أرسل لك هذا الطلب: إنّه أحد أكثر اكتشافاتي أهمية. وآمل أن تهتم به جيداً، إنني أوصيك من أعماق قلبي برين، الصبيّ الخادم الصينيّ الذي كان يرافقني. وعلى الرغم من صغر سنه، فهو مدرَّب وجدير بالثقة. إنّها بضع سنوات وحسب حتّى يبلغ رشده. وأعتقد أنّك ستجد نفسك مرتاحاً معه.

المخلص، إلى آخره، إلى آخره..

الدكتور جون مكفارلين

قرأ ويليام الرسالة مرّتين ونظر للأعلى. كان الصبيّ يقف أمامه، والماء يسيل من أعلى شعره المقصوص إلى رقبته النحيفة.

سأله: «هل اسمك رين؟».

فأومأ الصبيّ بنعم.

«هل كنت تعمل عند الدكتور مكفارلين؟».

مرة أخرى، نفس الإيماءة الصامتة.

تأمّله ويليام ثم قال: «حسنًا، أنت الآن تعمل عندي».

وحينما كان يتفحص وجه الصبيّ الصغير القلِق، تساءل عمّا كان يسيل على وجنتيه، هل كان مطراً أم دموعاً.

4

إيبوه

الجمعة، 5 حزيران

منذ أن التقطتُ ذلك التذكار الفظيع من جيب رجل المبيعات، لم أكن قادرة على التفكير بشيء آخر. كانت الإصبع المتغضّنة تسكن تفكيري، مع أنّني وضعتها في علبة كرتونية في غرفة تبديل الثياب في صالة الرقص. إذ لم أكن أرغب في أن تكون بالقرب مني، ناهيك عن إعادتها إلى دكان الخياطة الذي كنت أعمل فيه.

فالسيّدة تام، الخياطة ذات الوجه النحيل كالمنقار، والتي عملتُ عندها، كانت صديقة لإحدى صديقات والدتي، وهي علاقة بعيدة كنت ممتنّة لها. ودونها، لم يكن زوج أمّي ليسمح لي بالانتقال من المنزل. عموماً، اشترطت السيّدة تام أن يكون لها الحق بتفتيش أشيائي الخاصة في أيّ وقت. ومع أن هذا مصدرٌ للإزعاج، لكنه ثمنٌ تافهٌ لقاء الاستمتاع بالحرية. وهكذا لم أعترض، حتّى عندما طرأ تبدّل على الخدع الصغيرة التي جهّزتها، مثل خيط وضعته في درج الخزانة، أو كتاب مفتوح على صفحة معينة.

حصلتُ منها على مفتاح الغرفة، وباعتبار أنّ لديها نسخة منه، كان هذا بنظري عديم الفائدة. وأن تدع إصبعاً محنطة في تلك الغرفة سيكون أشبه بإلقاء سحلية أمام غراب.

لذا أودعتُها غرفة تبديل الملابس في ماي فلاور. وعشتُ في خوف دائم من أن يجدها أحدُ عمال النظافة. لذلك فكّرت بتسليمها إلى المكتب، والادعاء أنّني وجدتها على الأرض. ولكن ما جرى فعلاً هو أنّني، وفي مرّات عديدة، حملتُ

ذلك الشيء الرهيب وغادرت الغرفة إلى الممرّ، إلّا آنني كنتُ دائماً، ولسبب ما، أعود لأضعها في مكانها. وكلما زاد تردّدي، بدا الأمر برمّته مدعاة لمزيد من الشبهات. وتذكّرت نظرة الماما المستنكرة عندما كنّا نرقص؛ لربّما ستعتقد آنني نشّالةٌ تراجعت عن فعلتها. أو لعلّ للإصبع نفسها مفعول السحر الأسود ولا يمكن لأحد التخلّص منه بسهولة. كان هناك ظلٌّ أزرق رقيق يغلّف القارورة الزجاجية ويجعلها أبرد مما ينبغي أن تكون عليه.

كنتُ قد أخبرت هوي بالموضوع بالطبع. فتغضّن وجهها الممتلئ والجميل، وقالت: «آه! كيف تتحمّلين لمسها أصلاً؟».

عمليّاً كنت ألمس القارورة الزجاجية فقط، لكنها على حق، إنّها مصدر للوساوس. كان الجلد قد اسودّ وانكمش على نفسه وأصبحت الإصبع تُشبه غصناً ذابلاً. وفقط المفصل الغريب والظفر المصفرّ هما العلامتان الفاضحتان الوحيدتان عن أصله. وكانت هناك لصقة على الغطاء المعدني تحمل الرقم 168 وهو عدد مركّب محظوظ يمكن أن يعني بالكانتونية؛ «فألٌ طيّبٌ طوال الوقت».

سألتني هوي: «هل ستتخلصين منها؟».

قلت: «لا أعلم. ربّما عاد للبحث عنها».

حتى الآن لم يظهر أيّ أثرٍ لرجل المبيعات، لكنه كان يعرف اسمي الحقيقي. و«جي لين». هي الطريقة الكانتونية في نطقه؛ أما بالماندارينيّة فهو «شي ليان». حرف جي في اسمي لم يكن شائعاً للفتيات، وهو حرف يعني جي[1] أو الحكمة، إحدى خمس فضائل في الكونفشيوسية. والبقية هي الإيثار، والصلاح، والنظام، والاستقامة. الصينيّون مولعون على وجه الخصوص بالمجموعات المتجانسة. وكانت الفضائل الخمسة هي مجموع الصفات التي تشكّل الإنسان المثالي. ولذلك من المستغرب قليلاً أن تحمل فتاة مثلي اسماً يعني المعرفة أو الحكمة. لو أطلقوا علي اسماً أنثوياً ورقيقاً مثل: «العقيقة الثمينة». أو «الزنبقة الفواحة». فلربّما أخذ قدري اتّجاهاً آخر.

---

(1) zhi :زي. المترجمة.

«يا له من اسم غريب لبنت».

كنت في العاشرة، طفلة نحيلة بعينين واسعتين. وجاءت الخاطبة المحلّية، وهي امرأة مسنّة، لزيارة أمّي الأرملة.

«أبوها من اختار اسمها»، ردّت عليها أمّي مع ابتسامة مضطربة.

قالت الخاطبة: «أفترض أنّك كنت تتوقعين صبياً. حسناً، عندي لك أخبار مفرحة. لديك أمل بإنجاب صبي».

كانت قد مرّت ثلاث سنوات منذ وفاة والدي بالتهاب الرئة. ثلاث سنوات منذ نهاية حضوره الهادئ، وثلاث سنوات من ترمل والدتي المؤسف. وكانت بُنيتها الضعيفة ملائمة للاستلقاء على كرسيّ وليس لخدمة الآخرين بالخياطة والتنظيف. كان جلدها يتشقق عند يديها الجميلتين، وها هما الآن خشنتان ومحمرّتان. في السابق، أنذرَت والدتي هذه الخاطبة أن لا تفاتحها بشؤونها. ولكن اليوم بدت خاملة وبلا روح. كان الطقس يغلي ولكنه راكد. وفي الخارج أوراق الجهنميّة الحمراء ترتعش من الحرارة.

قالت الخاطبة: «إنّه سمسار خامات قصدير من فاليم، وأرمل بولد واحد. هو ليس دجاجة صغيرة وثّابة، ولستِ أنتِ كذلك أيضاً».

نتفت أمّي خيطاً غير مرئيّ، ثم هزت رأسها هزة خفيفة. وأسعد ذلك الخاطبة.

كان وادي كينتا، الذي نعيش فيه، من أغنى المناطق برواسب القصدير في العالم، وكانت هناك العشرات من المناجم، الكبيرة والصغيرة على حدّ سواء، في الجوار. عاش تاجر خام القصدير حياة رغيدة، وكان بإمكانه الحصول على زوجة من الصين، لكنه سمع بجمال أمّي. وطبعاً كانت هنالك مرشّحات غيرها وأفضل منها. نساء لم يسبق لهن الزواج. ولكنّها كانت تستحق عناء المحاولة. زحفتُ لمسافة أقرب لأسترق السمع. وكنت آمل من أعماقي أن يقع اختيار هذا الرجل على غيرها، ولكن كان لدي شعور سيّئ حيال ذلك.

التقيت أنا وشين، الذي سيصبح أخي غير الشقيق في المستقبل؛ حينما حضر والده للقاء أمي. كان لقاء مباشراً ومكشوفاً. ولم يكلف أحدٌ نفسه عناء مقدّمات

رومانسية. أحضروا الكعك الإسفنجي الصينيّ ملفوفاً بورقة من مخبز محلي. ولسنوات قادمة طويلة، لم أتمكّن من ابتلاع تلك الكعكات الطريّات المطبوخات على البخار دون أن أختنق.

كان والد شين رجلاً صارم الهيئة، لكن ملامحه أصبحت رقيقة عندما رأى والدتي. وشاع عنه أن زوجته الراحلة كانت جميلة أيضاً. وكان لديه اهتمام بالنساء الجذابات، إلا أنّه بالطبع لم يقم بزيارة العاهرات. وهذا ما أكدته الخاطبة لأمي. لقد كان رجلاً جدياً، ووضعه المالي مستقر، ولم يكن مقامراً ولا سكّيراً. وعندما تفحّصت وجهه خلسة، بدا لي قاسياً وبلا روح.

قالت والدتي وهي تدفعني إلى الأمام: «هذه هي جي لين». كنت أرتدي أفضل ثيابي، وكان قد قصُر عليّ حتّى بانت عظام ركبتيّ الناتئتين. أحنيتُ رأسي بخجل.

وردّ بالمثل، فقال: «أما اسم ابني فهو شين. ويكتب بالحرف شِن،[1] إنّهما كأخ وأخته بالفعل».

ظهرت علامات السرور على وجه الخاطبة، وقالت: «يا للصدفة! هذا يحقّق اثنتين من وصايا كونفشيوس الخمس. من المستحسن إنجاب ثلاثة أولاد آخرين لتكتمل المجموعة».

ضحك الجميع، وحتى والدتي فقد ابتسمت بتوتّر وظهرت أسنانها الجميلة. لكني لم أشاركهم هذا الفرح، مع أنّ ذلك حقيقيّ. فبوجود حرف زِي باسمي الذي يعني الحكمة، وحرف شِن باسم شين الذي يعني النزاهة، صنعنا جزءاً من مجموعة واحدة. ولكن أزعجتني حقيقة أنّ المجموعة ليست مكتملة.

اختلست نظرة من شين لمعرفة ما إذا كان قد وجد أيّة متعة في ذلك. كانت لديه عينان حادّتان ومشرقتان تحت حاجبين بمنتهى الكثافة، وعندما رآني أنظر إليه، تجهّم.

وفكّرت «*وأنا لا أحبكم أيضاً*». وقد غمرني شعور بالقلق على والدتي. فهي

---

(1) xin: يُلفظ شِن. المترجمة.

لم تكن قويّة أبداً، وإنجاب ثلاثة أولاد آخرين سيكون مِحنة بالنسبة لها. غير أنّ البتّ في هذه المسألة ليس في يدي. وفي غضون شهر، انتهت مشاورات الزواج وانتقلنا للإقامة إلى فاليم في المتجر المنزلي العائد لزوج أمي.

كانت قرية فاليم على مشارف مدينة إيبوه، وهي لا تزيد عن كونها بضعة أزقة من المتاجر المنزلية الصينيّة، وكانت مساحاتها الضيقة والطويلة محشورة بجوار بعضها بعضاً ضمن جدران مشتركة. وكان المتجر المنزلي لزوج أمّي في الشارع الرئيسي، شارع لاهات. وقد كان مظلماً وبارداً فيه ساحتان مفتوحتان تعترضان شكله الطويل الأفعوانيّ. أما غرفة النوم الواسعة في مقدمة الطابق الثاني فكانت للعروسين، أما أنا ولأوّل مرّة في حياتي فقد حصلتُ على غرفتي الخاصة في الخلف، بجوار غرفة شين. كان هناك ممرٌّ بلا نوافذ يمتدّ طولياً بمحاذاة الغرفتين الصغيرتين اللتين تكدستا الواحدة أمام الأخرى كأنهما عربتان في قطار، وكان النور يدخل إلى الصالة فقط إذا أبقينا على البابين مفتوحين.

بالكاد تحدث شين معي خلال الخطوبة والزواج اللذين تمّا بسرعة البرق، إلا أن سلوكه كان مهذباً. كنّا بالضبط بنفس المرحلة من العمر. في الواقع، اتضح أننا وُلدنا في نفس اليوم، رغم أنّني كنت أكبر سناً بخمس ساعات. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أنّ لقب زوج أمّي كان أيضاً «لي»، لذلك لم تكن هناك حاجة لتغيير الأسماء. وغمرت الخاطبة السعادة، على الرغم من أنّها كانت بمثابة لعبة فظيعة من القدر أن أُرغم على الانضمام لعائلة جديدة، فيها سيكون حتّى عيد ميلادي مناسبة تخصّ الآخرين. حيّا شين والدتي بأدب ولكن ببرود وتجنّبني. وكنت مقتنعة بأنه لا يرتاح لنا.

توسّلت إلى والدتي على انفراد أن تعيد النظر في الأمر ولكنها ردّت بالتربيت على شعري وقالت: «هكذا أفضل لنا». أضف لذلك، كانت تميل على نحو مستغرب لزوجها الجديد. وكانت حينما تنسكب نظراته المتولّهة عليها، تتورّد وجنتاها. كان يبذل لنا النقود برزم حمر[1] لشراء جهاز عروس بسيط للزفاف،

(1) red packets رزم حمر، هدية نقدية تقدّم في المناسبات المهمة في الصين. المترجمة.

وأثار ذلك أمّي على نحو لم أتوقعه. قالت: «هذا يعني ثياباً جديدة، لي ولكِ!». ثم فرشت الأوراق النقدية على الأغطية القطنية التالفة التي نغطي بها سريرنا.

شعرت بالخوف في الليلة الأولى في المنزل الجديد. لقد كان أكبر بكثير من المسكن الخشبي الصغير الذي عشت فيه مع أمي، حيث غرفة وحيدة ومطبخ ذو أرضية ترابية نهبط إليهما بسلمة واحدة. كان هذا المتجر المنزلي عبارة عن مكان عمل وإقامة. وفي الأسفل هناك مساحة واسعة وفارغة. وكان زوج أمّي الجديد وسيطاً يشتري القصدير الخام من عمال مناجم يتاجرون بالخامات الصغيرة، ومن غاسِلات دولانغ[1] وهن نساء يقمن بالغربلة بحثاً عن خام القصدير في المناجم القديمة والجداول، ثم يقوم ببيعها إلى المصافي الكبيرة مثل شركة سترايت للتجارة.

كان متجراً مظلماً يخيّم عليه الصمت. ومع أن أعمال زوج أمّي كانت مزدهرة، إلا أنّه أبقى على شفتيه وقبضتيه مطبقتين. ونادراً ما كان يزوره أحدٌ إن لم يكن من قطاع تجارة القصدير. كانت مقدمة ومؤخرة المتجر مغلقتين ببوابتين حديديّتين لمنع سرقة أكوام الخام المخزونة. وحينما دوّى البابان الثقيلان المزدوجان وهما يوصدان خلفنا في أوّل ليلة، غاص قلبي.

عندما حان وقت النوم، قبّلتني أمّي وطلبت منّي أن أذهب بسرعة. وبدت محرجة، وأدركتُ أنّه من الآن فصاعدًا، أنّها لن تنام معي في نفس الغرفة. ولم يعد بإمكاني أن أجرّ فراشي الهزيل إلى جانب فراشها أو الارتماء بين ذراعيها. فهي الآن ملكٌ لزوجها الجديد، الذي كان يراقبنا بصمت.

نظرتُ إلى الدرج الخشبي الذي يمتد أمامي في ظلام الطابق العلوي. لم يسبق لي النوم في مبنى من طابقين من قبل، شين مضى مباشرة. وأسرعتُ وراءه.

قلت: «ليلة سعيدة». كنت أعلم أنّه بمقدوره الكلام إذا أراد ذلك. وفي صباح ذلك اليوم، عندما كنّا ننقل أشياءنا القليلة القديمة، رأيته يضحك ويلهو مع أصدقائه في الخارج. نظر لي. وفكّرت إذا كان هذا منزلي وجاءت إليه امرأة غريبة وطفلتها،

---

(1) dulang washers

فربّما سينتابني الحنق أيضاً، لكن رأيتُ على وجهه تعبيراً مثيراً للفضول، وتقريباً تُغلّفه الشفقة. قال: «لقد فات الأوان بالنسبة لك، طابت ليلتك».

الآن، وأنا أتفحّص الزجاجة التي أخذتُها من جيب مندوب المبيعات، تساءلتُ عن رأي شين عنها. وتبادر لذهني لعلّ الإصبع ليست بشرية، فهناك حيوانات بأصابع أيضاً.

قلت لهوي التي كانت تصلّح تنورتها: «لنفترض أنّها ليست إصبعاً بشرية؟».

انكمش أنف هوي وقالت: «هل تقصدين أنّها إصبع قرد مثلاً». وبدا واضحاً أنّ هذه الفكرة كانت مشمئزة بالنسبة لها بنفس القدر.

«يجب أن تكون لشيء كبير، غيبون أو أورانغوتان[1] ربما».

قطعت هوي الخيط بفمها وقالت: «لعل طبيباً يستطيع أن يحدّد. رغم أنّني لا أعلم كيف ستجدين طبيباً ليفحصها».

كان هناك من يمكن أن أستعين به. شخصٌ كان يدرس التشريح، حتّى لو كان لا يزال طالباً في السنة الثانية من كلية الطب. شخص أثبت خلال سنوات أنّ بمقدوره أن يكتم سراً.

كان شين على وشك العودة من سنغافورة الأسبوع المقبل. وهو لم يحضر إلى المنزل منذ عام تقريباً، وحتى قبلها فقد جاء لفترة وجيزة. وفي آخر عطلة، عمل كممرّض في مستشفى في سنغافورة للحصول على دخل إضافي. ثم إنّ رسائله التي لم تكن متواترة إطلاقاً، قد تلاشت أخيراً، فتوقّفتُ عن انتظارها. وربّما كان من الأفضل عدم سماع أنباء أصدقائه الجدد أو المحاضرات التي يتلقاها. كنت غيورة جدّاً من شين لدرجة أن طعماً مرّاً كان يملأ فمي في بعض الأحيان.

ومع ذلك، يجب أن أكون سعيدة من أجله. فقد تمكّن من الهرب.

ومنذ أن توقّفتُ عن الدراسة، كانت حياتي هدراً للوقت فقط. وفشلت خطة لتلقي التدريبات التي تؤهلني لأكون معلّمة حينما اكتشف زوج أمّي أن المعلمات

---

(1) gibbon,orangutan: نوعان من القردة الضخمة. المترجمة.

الجديدات عرضة للتعيين في أيّة مدينة أو قرية في ماليزيا. وقال: «هذا الاحتمال غير وارد بالنسبة لفتاة غير متزوجة». أمّا تدريب الممرضات فقد كان مستهجناً أكثر. إذ سيتعيّن عليّ أن أعتني بحمام غرباء وأنظفهم بالإسفنجة وأتخلص من سوائل أبدانهم. في أيّ حال، لم يكن لدي نقود. وذكّرني زوج والدتي تذكيراً فظاً بأنه سمح لي بالبقاء في المدرسة على نفقته، بعد فترة طويلة من انسحاب معظم الفتيات. كان رأيه أنّني يجب أن أحافظ على احترامي بأن أبقى في المنزل، أعمل لديه إلى أن أتزوج؛ ثم وافق على مضض بالتدريب على الخياطة.

سمعتُ طرقات على باب غرفة تبديل الملابس. أخفيت القارورة الزجاجية في منديل.

وترنمت هوي بصوتها: «تفضل».

كان واحداً من البوابين، وهو الأصغر سناً. فتح الباب بارتباك. لأنّ غرفة تبديل الملابس كانت منطقة الراقصات، رغم أنّه وفي الوقت الحالي، كنت أنا وهوي فيها فقط.

قال: «هل تعرفين البائع الذي سألتِني عنه ذلك اليوم؟».

فانتبهت من فوري وقلت: «هل عاد مرّة أخرى؟».

أشاح بعينيه بخجل عن منظر الثياب المتدلية على مساند الكراسي، وآثار مساحيق التجميل على طاولة الزينة.

فتح صحيفة مطوية بعناية، وتوقّف عند قسم النعي وقال: «هل هذا هو؟».

قرأتُ: «الزوج الحبيب. تشان يو شونغ، ثمانية وعشرون عاماً. توفي فجأة في الرابع من حزيران»، وكانت هناك صورة نقطية، ومن الواضح أنّها بورتريه رسمي. كان شعره فيها ممشطاً للخلف وعلى وجهه تعابير جادة، لكن بدون البسمة المتكلّفة الواثقة، إلا أنّه كان الرجل ذاته.

وضعت يدي على فمي. فطوال الوقت الذي كانت الإصبع المسروقة تثقل فيه على أفكاري، كان الرجل يرقد بارداً ومخشّباً في مشرحة في مكان ما.

سألني البواب: «هل كنتِ تعرفينه جيداً؟».

هززت رأسي، لا.

كان النعي إشعاراً صغيراً، ولكن كلمة «فجأة». كان لها وقع مشؤوم. لقد كان تفاؤل رجل المبيعات بحظه ليس في محله. فوفقاً لحساباتي كان قد توفي في اليوم اللاحق للقائنا.

بشيء من القشعريرة، وضعت الزجاجة الملفوفة بالمنديل على الطاولة. كانت تبدو أثقل من الحقيقة.

وقالت هوي: «إنها ليست سحراً، أليس كذلك؟».

قلت: «طبعا كلا». لكنّي لم أمنع نفسي من تذكّر تمثال لبوذا شاهدته في طفولتي. كان منحوتة صغيرة من العاج، ليس أكبر من هذه الإصبع. والراهب الذي عرضه علينا أخبرنا أنّ لصاً سرقه مرّة، ولكن مهما حاول بيعه أو التخلص منه كان يعود إليه حتّى أعاده إلى مكانه في هذا المعبد. وهناك حكايات محلّية أخرى، ومنها حكاية *التويول*[1] عن روح طفل مصنوعة من عظام رضيع قتيل. وكان يستعملها مشعوذ، في السرقة وبعض المهام، أو ارتكاب القتل. وما أن تُستحضر قد يكون من المستحيل التخلّص منها، ما لم تدفن بشكل لائق.

قرأتُ الصحيفة بعناية. كان موعد الجنازة في نهاية هذا الأسبوع في بلدة بابان القريبة، أبعد قليلاً من منزل عائلتي في فاليم. وكنت أخطّط لزيارة قريبة. وربّما أنجح في إعادة الإصبع. أما أن أعطيها لعائلته، أو أن ألقيها في تابوته لكي تُدفن معه، على الرغم من أنّني لم أكن أعرف كيف سأتدبّر ذلك. إلا أنّني على يقين من شيء واحد فقط، وهو أنّني لا أريد الاحتفاظ بها.

---

(1) toyol

5

باتو جاجاه

الأربعاء، 3 حزيران

الشخص الذي يدير بيت الطبيب الجديد هو طبّاخ صينيّ صموت يدعى آه لونغ. وهو الشخص الذي تولى شؤون رين حينما كان مبلولاً ومنقوعاً بالماء، وقاده إلى جناح المنزل في الخلف حيث يقبع الخدم. كانت المباني الخارجية مفصولة بممرٍّ مغطى، لكن لأنّ السماء تمطر بشدة كان الرذاذ قد بلّلهما إلى الركب.

يصعب على رين الحُكم على أعمار البالغين، إنما آه لونغ بدا له كبيراً. رجل نحيل بذراعين معقودتين، وقد قدّم لرين منشفة قطنية وقال له بلغة كانتونية: «جفّف نفسك»، ثم أضاف: «يمكنك أخذ هذه الغرفة».

كانت الغرفة صغيرة الحجم، بالكاد يبلغ عرضها ثمانية أقدام، بنافذة ضيقة من الألواح الزجاجية. أمكن لرين أن يتبيّن في هذه العتمة الزرقاء سريراً وحيداً قابلاً للطي. كان البيت صامتاً بشكل مخيف وتساءل أين هم بقية الخدم.

وسأله آه لونغ عما إذا كان جائعاً. وقال له: «يجب عليّ تحضير عشاء السيد. تعال إلى المطبخ عندما تنتهي».

في تلك اللحظة، أعمى النظر وميضُ صاعقة من البرق ودوّى الرعد. وارتعشت الكهرباء في المنزل الرئيسي وانقطعت. تمطّقَ آه لونغ دلالة على انزعاجه ثم انصرف مسرعاً.

حطّ رين الرحال وحده في الظلام المتراكم مع متعلّقاته المتواضعة، وجلس

بحذر على الفراش. غاص الفراش الرقيق تحته. وفكّر: إصبع، مفردة ووحيدة، وصغيرة بحيث يمكن إخفاؤها في هذا المنزل الواسع في أيّة زاوية. تقلّصت معدته بسبب الاضطراب النفسي وهو يحصي الأرقام في رأسه. كانت الأيام تمرّ، لقد مضى على وفاة الدكتور مكفارلين ثلاثة أسابيع، بقي أمامه خمسة وعشرون يوماً وحسب ليجد الإصبع. ولكن رين متعب، وعظامه متهالكة من الرحلة الطويلة ومن وزن حقيبة القماش الثقيلة التي يحملها. ولذلك أغلق عينيه وغطّ في نوم لا تتخلله الأحلام.

في صباح اليوم التالي، جهز آه لونغ إفطار ويليام وهو بيضة مسلوقة وقطعتان من الخبز المحمّص المجفف مدهونتان بالكاد بالزبدة، على رغم من وجود على الأقل ثلاث صفائح زبدة من نوع غولدن جيرن مصفوفة في خزانة المؤن. كانت الزبدة تأتي مجمدة من أستراليا. وتكون طرية في درجة حرارة الغرفة، ولها لون أصفر رائع. آه لونغ لا يأكل الزبدة، غير أنّه يحصِّصها لأجل سيده.

قال لرين في المطبخ: «عندما تقطعّها بهذا الشكل لن تحتاج لشراء الكثير منها».

كان يشبه الخبز المحمص الذي يحضره، صلبٌ وقاسٍ. إلا أنّ آه لونغ كان صادقاً أيضاً، وإذا كان مقتصدًا بطعام ويليام، فهو بنفس القدر مقتّر جدّاً بحصته. في منزل الطبيب العجوز كانوا يتناولون شرائح سميكة من الخبز الأبيض القادم من هاينان، ويكون بالعادة محمصاً فوق الفحم وعليه الزبدة *والكايا*[1] وهي كاستر بالكراميل المصنوع من البيض والسكر وحليب جوز الهند. فلم يسع رين إلا أن يفكر في أن هذا الطبيب الجديد، ويليام أكتون، يتناول وجبة إفطار حزينة إلى حدّ ما.

عندما اقتنع آه لونغ أن الوقت ملائم، مدّ وجهه الممتعض عبر باب غرفة الطعام. وأعلن: «الصبيّ هنا يا *توان*»[2]. ثم عاد للاختفاء في عرينه.

دخل رين بامتثال إلى الغرفة. كانت ملابسه بسيطة إنما نظيفة، قميص أبيض وبنطال كاكيّ قصير يبلغ مستوى الركبة. في بيت الطبيب العجوز، لم يكن يرتدي

---

(1) kaya

(2) Tuan :بلغة الملايو وتعني سيدي. المترجمة.

الزي الرسمي الخاص بالخدم. ولكنه الآن يتمنى لو كان فعل ذلك. فهو يبدو به أكبر عُمراً.

«هل اسمك هو رين؟».

«نعم يا *توان*».

«فقط رين؟». يبدو أن ويليام وجد هذا غريباً بعض الشيء.

وبالطبع هو محقّ، فمعظم الصينيّين يسارعون في ذكر اسم العائلة. لكن رين لم يكن متأكداً مما يجب قوله. إذ لم يكن له اسم عائلي ولا ذكريات عن والديه. فهو وشقيقه يي أنقذتهما الصدفة، حينما كانا رضيعين، من حريق مسكن تأوي إليه عائلات عمّال جوّالين. ولم يكن أحد على يقين لمن يعود نسب الطفلين، لكنهما كانا توأمين بكل وضوح.

وأطلقت عليهما مديرة الملجأ اسمين اقتبسَتهما من الفضائل الكونفوشيوسية: رين وتعني الإنسانية، ويي ويعني الاستقامة. ولطالما اعتقد رين أنّه من الغريب أنّها توقّفت عند اثنتين من الفضائل الخمس. ماذا عن بقية الفضائل: *لي*، التي تعني طقوس، وجي المعرفة، وشين النزاهة؟ ومع ذلك، فإن الأسماء الثلاثة الأخرى لم تُمنح أبداً لأطفال آخرين في دار الأيتام.

سأله ويليام: «ما نوع العمل الذي قمت به للدكتور مكفارلين؟».

كان رين يتوقّع هذا السؤال، لكن الخجل غلبه فجأة. وربّما كانت عينا الطبيب قد حبستا الكلمات في فمه فلم يمكنه النطق. حدّق رين في الأرضية، ثم أجبر نفسه للنظر إلى الأعلى، لأنّ الدكتور مكفارلين علّمه أن الأجانب يرغبون أن يُنظر في عيونهم، ورين كان بحاجة إلى هذا العمل.

«أيّاً تكن رغبة الدكتور مكفارلين».

كان يتحدّث بوضوح واحترام، على النحو الذي كان يحب الطبيب العجوز أن يُخاطَب به، ثم أنّه عدّد الأعمال التي اعتاد أن يقوم بها: التنظيف، الطبخ، الكي، ورعاية الحيوانات التي كان الدكتور مكفارلين يحتفظ بها. لم يكن رين واثقاً مما إذا كان يجب عليه الاعتراف بأنّه يعرف القراءة والكتابة جيداً. ظلّ رين يحدّق بوجه ويليام محاولاً أن يستبطن مزاجه. لكن الطبيب الجديد بدا غير مكترث.

«هل علّمك الدكتور مكفارلين الإنجليزية».

«نعم يا *توان*».

«أنت تتحدث بشكل متقن. أنّك في الحقيقة تتحدث مثله»، ثم رقّت ملامح ويليام وقال: «كم لبثتَ معه؟».

«ثلاث سنوات يا توان».

«وكم عمرك».

«ثلاثة عشر عاماً يا توان».

تنقبض أنفاس رين وهو يقول هذه الكذبة. إنّ معظم الأجانب يواجهون صعوبة في تحديد عمر السكان المحليين. وقد اعتاد الدكتور مكفارلين أن يمزح بهذا الخصوص طوال الوقت، لكن ويليام قطّب جبينه كما لو أنّه يجري عملية حسابية سريعة. ثم قال أخيراً: «لو كان بمقدورك الكي، فإن لدي قمصاناً يجب أن تكويها».

بعد أن سمح له بالانصراف توجّه رين نحو الباب في ارتياح.

«شيءٌ آخر. هل سبق لكَ وساعدت الدكتور مكفارلين في شؤونه الطبية؟».

تسمّر رين في مكانه، ثم أومأ بنعم.

عاد ويليام إلى جريدته، غير مدرك أن الصبيّ يحدّق به الآن بملامح خائفة.

* * *

وجد رين طريقه إلى المطبخ، وقد تفاجأ أن آه لونغ لا يقبع أمام الباب منتظراً. لقد تعلّم من تجاربه أن الخدم يشعرون بالريبة من القادمين الجدد. خلال أيامه الأُول في بيت الدكتور مكفارلين، كانت مدبرة المنزل تلاحقه من غرفة إلى أخرى حتّى اقتنعت أنه لا يسرق.

وقالت بعد فترة طويلة من تحوّل رين إلى جزء لا غنى عنه في الأسرة: «لا يمكنك أن تتنبّأ سلفاً. فليس الجميع صالحين مثلك».

كانت كوان يي، أو العمة كوان كما يسميها رين، امرأة قوية في منتصف العمر

وذات مزاج عصبي. وهي التي أدارت بيت الدكتور مكفارلين غير المنظم بيد من حديد، ودرّبت رين على طهي الرزّ بموقد الفحم دون أن يحرق أسفل الإناء. وعلّمته كيف يصطاد ويذبح وينزع ريش دجاجة في نصف ساعة. ولو استمر وجودها لكان كلّ شيء سيغدو مختلفاً. لكن العمة كوان رحلت قبل ستة أشهر من وفاة الطبيب العجوز. كانت ابنتها ستنجب طفلاً لذا توجّب عليها أن تسافر إلى الجنوب حتّى كوالا لامبور لمساعدتها.

وقال الدكتور مكفارلين إنّه سيجد بديلاً، لكن شهوراً مرّت وأصبح الرجل المسنّ منشغلاً بأمور أخرى. لقد أظهر بالفعل علامات على ذلك حتّى قبل أن تُغادر العمة كوان، وذلك ما جعلها تشعر بعدم الارتياح لمغادرتها. وعانقها رين بحنان وبشكل غير متوقع، في محاولة منه لعدم البكاء. ودسّت في يده ورقة صغيرة عليها عنوان. وقالت بشيء من القلق: «يجب أن تعتني بنفسك».

لطالما كان عرضة للحوادث. ففي مرّة تحطّم غصن شجرة على مبعدة بضع بوصات منه. وفي مرّة أخرى، كادت عربة تجرّها ثيران أن تدهسه وترميه على الجدار. كان هناك العديد من الحوادث وشيكة الوقوع، ممّا دفع الآخرين للقول إن رين يجتذب المصائب.

قالت له وهي تعانقه بقوّة: «تعال لرؤيتي». والآن، أخذ يتساءل، لماذا لم يذهب إليها. لكنه كان مديناً للطبيب العجوز بالكثير، وهناك وعود يجب على رين الوفاء بها.

في المطبخ الذي تداعبه النسمات كان آه لونغ يقطّع دجاجة بعصبيّة. ووقف رين على مسافة محترمة منه وتجرأ على القول: «طلب منّي السيّد أن أكوي له قمصانه».

قال آه لونغ: «لم يعد الغسيل بعد من *الدوبي*[1]، نظّف الصحون أولّا».

نظّف رين الأطباق بسرعة تدعو للإعجاب، واستعمل فرشاة من جوز الهند وصابوناً سائلاً بُني اللون محليّ الصنع في ذلك الحوض العميق بالخارج. عندما انتهى من الأطباق تفحّص آه لونغ عمله وقال: «لقد خرج السيد، لكنه سيعود إلى

(1) dhobi: بالماليزية وتعني خادمة الغسيل. المترجمة.

مأدبة الغداء». وأراد رين أن يسأل ما إذا كان هناك خدم آخرون، لكن ردعته النظرة المرتسمة على وجه آه لونغ.

كان المنزل عارياً بشكل مفاجِئ. كانت ألواح خشب الساج العريضة ملساء من شدة الوطء عليها، والنوافذ التي بلا زجاج بقضبانها الخشبية المتهالكة كانت تطلّ على الخضرة الكثيفة للغابة المحيطة. وهناك أثاث قليل بخلاف الكراسي المصنوعة من خشب الراتان وطقم مائدة الطعام الذي بدا كما لو أنّه جاء مع المنزل. ولم تكن هناك صورٌ على الجدران، ولا حتّى اللوحات المائية المحببة للغاية من قبل السيدات الإنجليزيات.

كان الدكتور مكفارلين رجلاً غير مرتّب وكانت اهتماماته تتبعثر في كلّ جزء من منزله. وتساءل رين كيف يمكن أن يكون الرجلان صديقين. وتذكّر وهو يعدّ الأيام مرّة أخرى، طلب الطبيب العجوز المحتضر. وأقلقه تحذير سائق الشاحنة من الكلاب التي يتمّ افتراسها. كان يأمل بالعثور على الإصبع بسرعة، ربّما في خزانة العيّنات المحفوظة. سيكون هذا هو الاحتمال الأفضل. لكن الدكتور مكفارلين لم يكن متأكداً مما إذا كانت هناك.

وقال بصوت مبحوح: «ربّما فقدها. وربّما تخلى عنها. أو أتلفها».

قال رين: «لماذا لا تسأله عنها؟ إنّها إصبعك».

«لا! من الأفضل أن لا يعرف شيئاً». وقبض الرجل العجوز على معصم رين وتابع: «لابدّ من أنّها أُخِذت أو سُرِقت».

كان رين يكنس الأرض بقَشّات حريصة، عندما جاء آه لونغ ليخبره أن يقوم بتنظيف مكتب السيّد كذلك. واربَ رين الباب، ولم يتابع الدخول. في ضوء خافت تسلل من مصاريع نافذة نصف مغلقة، شاهد عينان زجاجيتان وفماً مفتوحاً، وكأنه ثابتٌ في حالة زمجرة أبدية. وأخبر رين نفسه أنّه مجرد جلد نمر. تذكار مؤسف لمطاردة طي النسيان.

«هل السيّد يصطاد؟».

همهم آه لونغ قائلاً: «هو؟ كلا، إنّه يهوى جمعها فقط. أمّا عن نفسي، فأنا لن ألمسه».

«لماذا لا؟».

كان رين مفتوناً بجلد النمر، وبالرغم من إذلال فرشه على الأرض، ومن فرائه المتخرّق، إلا أنّ عينيّه الزجاجيّتين الغاضبتين كانتا مدعاة للخوف. إنّ عين النمر تُثَمّن بسبب أنّ الجزء الصلب في مركزها يرصّع بالذهب كحلقة ويُعتقد أنّه تعويذة نفيسة. وكذلك الأسنان وشعيرات الشاربين والمخالب. أما الكبد المجفف والمسحوق فيحصد ضعف وزنه من الذهب، ويستعمل للتداوي. وحتى العظام، فإنها تُغلى إلى أن تستحيل هلاماً.

«*آياه!* كان هذا النمر يفترس البشر. لقد قتل رجلين وامرأة في سيريمبان قبل إطلاق النار عليه. انظر لثقوب الرصاص في خاصرته؟».

«كيف حصل على الجلد؟».

«إنه يحتفظ به لصديق أخبره أنّه *كرامات*[1]. *ياه*!. كما لو أنّه من الممكن إطلاق النار على نمر *كرامات*».

وفهم رين جيداً معنى هذه الكلمات. فحيوان *الكرامات* هو وحش مقدس، مخلوق له القدرة على المجيء والرواح مثل الطيف، يتلف قصب السكر ويداهم الماشية ويتمتع بالقدرة على الإفلات من العقاب، كما لو أنّه محصّن. وتكون له دائماً علامة فارقة، مثل ناب مفقود أو لون أمهق نادر. لكن العلامة الأكثر شيوعاً هي القدم الكسيحة أو الضعيفة.

عندما كان رين لا يزال في دار الأيتام، رأى مرّة آثار فيل مسحور أو جاجاه كرامات. كان وحشاً مشهوراً، وهو ذكر أحمر يتجول بين تيلوك أنتان حتّى الحدود التايلاندية. كان الرصاص ينحرف بطريقة سحرية عن جلده المبرقش، وكانت لديه قدرة مدهشة للتنبؤ بالكمين. وفي صباح ذلك اليوم، لوّنت أشعة الشمس اللاهبة التراب بلون الدم الأحمر، وكشفت الرجال الذين يتابعون طريدتهم من مجرى مائي، على طول طريق يُفضي إلى غابة صغيرة. كان رين قد توقّف عن المسير ليعرف سبب الضجّة.

---

(1) keramat

ثم تابع: «تينتولاه[1]، إنّه الجاجاه كرامات». وجاءت همهمات مؤيدة.

وشاهد رين، بعد أن شقّ طريقه إلى مقدّمة الحشد، كيف طبعت القدم اليسرى الأمامية المنكمشة للفيل علامة غريبة على الأرض الحمراء الرطبة.

في وقت لاحق، عندما دخل رين بيت الدكتور مكفارلين، سرد الحادث للطبيب العجوز. لقد ذُهِل الدكتور مكفارلين حتّى أنّه كتب عنه في أحد دفاتر ملاحظاته، والكلمات المكتوبة على الصفحة منقوشة بمهارة مطبعة. لم يكن رين يعلم آنذاك مقدار اهتمام الطبيب بحيوانات *الكرامات*.

والآن تسري قشعريرة في عموده الفقري وهو ينظر إلى جلد النمر الملقى على الأرض. هل هذا إذن هو الرابط بين الطبيب السابق والطبيب الجديد؟ وهل سيأتي الموت الآن على أقدام ناعمة، أم أنّه يخيّم الآن، مثل ظل تحرر من مالكه؟ إنّه يأمل من كل قلبه أن يكون الأمر مجرد صدفة.

(1) Tentulah بالمالايو تعني طبعاً.

6

فاليم

السبت، 6 حزيران

أحد شروط والدتي للالتحاق بدكّان الخياطة عند السيّدة تام أن لا أتأخر عن زيارة البيت في فاليم. وكلّما فعلتُ، كنتُ أحمل معي هدية لأخفي حقيقة مشاعري، وهي أنّني لست مشتاقة للبيت أبداً. اليوم أحضرتُ معي رامبوتان، الفاكهة المغطاة بألياف حمر، والتي عندما تفتح يظهر داخلها لبٌّ أبيض حلو المذاق. كانوا يبيعونها عند موقف الحافلات، واشتريت حزمة منها ملفوفة بجريدة قديمة. وأنا أجلس في الحافلة ندمت على ذلك، لأنّ الرامبوتان كان يعجّ بالنمل.

قديما كانت فاليم غنيّة بحدائق الخضار، ولكن ضواحي إيبوه كانت تتغلغل سنوياً. والآن، شركة القصدير العملاقة (فو نيت تسي) شيدت حياً سكنياً جديداً وكذلك نزلاً ضخماً في لاهات رود أصبح أعجوبة في المنطقة. كان مخزن زوج أمّي يقف في صفّ من متاجر منزلية لها واجهات ضيقة، بطوابق علوية بارزة تشكّل ممراً ظليلاً من خمسة أقدام أو *كاكي ليما*[1]. ومع أنّها بعرض ثمانية عشر قدماً فقط إلا أنّها كانت عميقة على نحو مفاجئ. ومرة قدّرت أنا وشين طولها بخطواتنا ووجدنا أنّه يبلغ مائة قدم.

وعندما وصلت، كانت آه كيوم، الفتاة الجديدة التي استخدمها زوج أمّي لتحل محلي، تكتب ملاحظات في السجل. سألتني: «هل عدت اليوم؟». كانت آه كيوم أكبر منّي بعام واحد، وهي إنسانة ثرثارة ومرحة لها شامة تحت عينها اليمنى، كأنها

---

(1) kaki lima:بالماليزية. وتعني دكانة أو كشك للبيع في الشارع. المترجمة.

دمعة. ويعتقد بعض الناس أن مثل هذه العلامة تعني أنّها سيّئة الحظ بالزواج، ولكن لم يكن يبدو على آه كيوم أنّها مهتمة. وفي كلّ حال، كنت ممتنّة لها جداً، فلو أنّها لم تعمل هنا، لما تمكّنت من المغادرة أبداً.

ألقيتُ حزمتيّ من الرامبوتان على الطاولة وقلت: «هل ترغبين ببعضها؟».

فتحت آه كيوم ثمرة وقالت: «لقد عاد أخوك».

وكان هذا خبراً مفاجئاً، فالمفروض أن يعود شين في الأسبوع المقبل. لذلك سألتُ: «ومتى عاد؟».

«أمس، والآن هو خارج البيت. لماذا لم تخبريني أنّه وسيم؟».

وأدرتُ عيني باستخفاف. يا لشين ومعجَباته! من الواضح أنهن لم ينتبهن لشخصيته الحقيقية، التي انتقدتُها أمامه. لم تبدأ آه كيوم بالعمل هنا إلا بعد رحيل شين إلى سنغافورة، فكيف إذن للفتاة المسكينة أن تعرفه؟

قلت لها: «إن كنت تعتقدين أنّه رائع جداً، فهو لك». وكنتُ أتفادى ضربة وجّهتها نحوي على سبيل المزاح. وانقطع ضحكنا بوقع أقدام أتت من الطابق الثاني. تجمّدنا فجأة، ونحن نتبادل النظرات.

«هل عاد؟». وكنتُ أعني زوج والدتي.

هزّت رأسها نفياً وقالت: «تلك هي أمك».

تقدمتُ في داخل المتجر، واستنشقت الرائحة الداكنة المألوفة للغبار والمعدن والتي تأتي من أكوام القصدير الخام.

في الأعلى، كانت أغطية النوافذ مفتوحة على الباحة، لتُدخل النور والهواء لمسكن العائلة. واستُعملت الغرفة العلوية الواسعة على سبيل غرفة جلوس خاصة، بعيداً عن أوجاع العمل في المتجر بالأسفل. وكانت مؤثثة قليلاً بكراسٍ من خشب الراتان ذات مساند، مع طاولة مربعة في الوسط للعبة الماهجونغ، وعدة صور فوتوغرافية كبيرة لوالديّ زوج أمي، التي بالكاد تغيّرت منذ قدومنا أنا وأمي منذ عشرة سنوات. ويوجد رف من خشب الورد تغطيه هدايا المدرسة والشرائط، القديمة منها مقسومة بالتساوي بيننا أنا

وشين، ولكن الجديدة أصبحت كلها من نصيب شين بعد أن قرر زوج أمّي أنّني تلقيت ما يكفي من التعليم.

كانت أمّي تجلس بالقرب من الدرابزين، وتراقب الحمامات وهي تتهادى وتهدل على الحافة.

قلت بنعومة: «أماه!».

على امتداد السنوات، أصبحَت نحيلة جداً. ولكن بقيت بُنيتها جميلة، إنما صدمتني الخطوط الرقيقة لعظام جمجمتها الواضحة تحت بشرتها.

قالت: «ظننت أنّك لن تأتين حتّى الأسبوع التالي». وبدت سعيدة لرؤيتي، وبمقدوري دائماً أن أعوّل على ذلك من قبل أمي. وأحياناً أتصور أنّني مستعدة لفعل أيّ شيء لتبقى مبتسمة على الدوام.

قلت لها: «آه، فقط رغبتُ برؤيتك. أحضرت لكِ الرامبوتان». ولم أذكر لها أنّني أتيتُ إلى البيت ومعي إصبع محنطة، أو أنّني أخطط لمداهمة جنازة ميت في الغد.

ربتت على يدي وقالت: «جيد، جيد جداً».

جِلت ببصري في أرجاء المكان، ثم قدّمتُ لها مظروفاً. ارتعشت شفتا أمّي وهي تعد النقود وقالت: «هذا كثير! كيف تدبرت هذا المبلغ الكبير من النقود؟».

لم أكن أتقن الكذب، ولذلك اختصرتُ إجابتي بالقول: «صنعت ثوباً لإحدى السيدات في الأسبوع الماضي».

«لا يمكنني قبوله».

«بل يجب أن تأخذيه!».

مضى شهران منذ أن اكتشفتُ ديون أمي، ولكن كنت أشكّ بأحوالها منذ وقت طويل، وأنا ألاحظ أعصابها المضطربة والرفاهية القليلة التي تخلّت عنها. حتّى أنّها اختصرت من كمية الطعام في وقت الوجبات. كما أنّها لم تعد تحضر حفلات الماهجونغ التي تشارك بها صديقاتها. لأنّ تلك الحفلات كانت هي السبب.

وعندما استفسرتُ منها انهارت أمامي. وكان مصدراً للحزن أن أشاهد أمّي

تبكي كالأطفال، وهي تضغط بيديها على فمها والدموع تسيل بصمت على وجهها. كانت إحدى صديقاتها قد أوصتها بسيّدة يمكنها إقراض النقود بالسرّ. وكانت كتومة، والأهم من ذلك، أنّها لن تفضحها أمام زوجها.

قلتُ بغضب: «لماذا لم تبلغيني من قبل؟ وأيّة فائدة هذه التي تبلّغ خمساً وثلاثين بالمائة؟».

كان بمقدور زوجها أن يسدّد الديون. فهو مرتاح مالياً من تجارة القصدير الخام، ولكنّنا كنّا نعلم ماذا سيجري إن اكتشف الموضوع. وهكذا، قسطاً بعد آخر، جمعنا النقود. وكانت أبطأ مني. كان زوج أمّي يتابع حساب البيت بدقة كلّ أسبوع، فتوجّب عليها أن تقتصد دون أن تلفت انتباهه. ولكن ومنذ بدأتُ العمل في ماي فلاور، كنت قادرة على دفع جزء كبير من الدين. ودائماً تحاول أمّي أن ترفض المال، ولكن في النهاية أعرف أنّها ستقبله كما أنّه يجب عليها فعلاً أن تقبله.

خبأت أمّي النقود في خفّ منزلي يعود ليوم زفافها. لن يفتّش زوج أمّي هناك، مع أنّه يريدها حسنة الهندام دائماً. وفكّرت أن تبيع مجوهراتها، ولكنه كان يطلب منها باستمرار أن ترتدي قطعاً معينة منها وسوف يصعب عليها أن تشرح له أين ذهبت. وامتدّ اهتمامه لهندامي، وخلال نشأتي، كنت حسنة المظهر دائماً. أخبرتني الصديقات أنّني محظوظة بزوج الأم هذا، ولكنّني كنت أعلم أن سبب ذلك يعود لغروره. إذ كان رجلاً استحواذياً ويعدّنا من ضمن أملاكه.

ولم أخبر شين أبداً بشعوري حيال والده. ولم يكن يجب عليّ ذلك.

حينما دخلنا أنا ووالدتي هذا البيت لأول مرّة، أدهشتني صرامة زوج أمّي تجاه شين. كان يبدو أنّه يتوقع الطاعة المطلقة. وفي المنزل، بالكاد كان شين يتكلم إن لم يخاطبه أحد؛ كان خيالاً للصبي الذي سأتعرف عليه خارج عتبات المنزل. وفي الحقيقة، كنت متفاجئة من شعبية شين. كانت حلقة من الأولاد يظهرون يومياً ليشاركوه اللعب واللهو. وباعتبار أنهم جميعاً من الذكور، لم يفكر بتقديمي إليهم، وكان ببساطة يبتعد عنّي لينضم لهم. وتلك النظرة الشقية والنشيطة لم تُشاهَد في المنزل قطّ. وسرعان ما عرفتُ السبب.

غادر شين في إحدى الأمسيات ولم أرافقه، وأمضيت الوقت في تنظيف كومة هائلة من براعم الفاصولياء، مع أنني لم أكن أحبها، إلا أن زوج أمّي كان يحبها، فكانت أمّي تقليها مع السمك المملّح.

وبينما كنت أتابع مهمتي بكآبة، عاد زوج أمّي إلى البيت. ومر بالمطبخ صامتاً، ثم تفحّص الباحة، وابيضّ منخراه من الغضب. فقد نسي شين تعبئة وتقدير أوزان كومة الخامات. وحينما قفل في النهاية عائداً، دفعه والده إلى الخلف وجلده بالعصا لقاء كلّ كومة نسي تدبّر أمرها.

كانت العصا بطول أربعة أقدام وسميكة بعرض إبهام الإنسان. وهي ليست مثل قصبة الراتان التي كانت أمّي تعاقبني بها أحياناً. قبض على شين من ياقته، ولوى ذراعيه للخلف قدر إمكانه. وتبع ذلك أزيزٌ، ثم ضربة مدوّية تكرّر صداها في أرجاء الباحة. ورُبِطَت ركبتا شين. وانطلقت صرخة مخنوقة من بلعومه. حاولت أن أقول لنفسي إنّه يستحقّ العقاب، ولكن مع الضربة الثانية، شرعتُ بالبكاء.

وصرخت: «توقّف. هو آسف على ما بدر منه! ولن يكررها».

رمقني زوج أمّي بنظرة من لا يصدق نفسه. مرّت لحظة خشيتُ فيها أن يجلدني مثله، غير أنّه رمق زوجته الجديدة التي ظهرت خلفي، بوجه شاحب، وخفض العصا ببطء. ولم ينطق بكلمة. إنما عاد أدراجه إلى المتجر.

في تلك الليلة بكى شين ولم أتحمّل ذلك، فضغطت بفمي على الجدار الخشبيّ الذي يفصل بيننا.

سألتُه: «هل تتألم؟».

لم يردّ. وتعالت شهقاته.

قلت: «أنا آسفة».

أخيراً قال: «ليست غلطتك».

«هل ترغب ببعض المراهم». كان لديّ في الغرفة مرهم تايغر بالم، وهو دهن صينيّ ينفع لكل الأغراض، ويُعتقد أنّه محضّر من غلي عظام النمور. قيل إنّه يشفي كلّ الأمراض ابتداء من لدغات البعوض وحتى التهاب المفاصل.

ران الصمت قليلاً. ثم رد: «حسناً».

تسللتُ إلى الممرّ المعتم. ومع أني كنت مدركة أن زوج أمّي وأمي بعيدين في غرفة نومهما في مقدّمة البيت، لكنّني اختلست خطواتي قبيل فتح باب غرفة شين الصغيرة. كانت نسخةً من غرفتي. السريران يرتكزان على الجدار. وكان جالساً على سريره. وتحت ضوء القمر، بدا لي صغيراً في السن والحجم، مع أننا كنّا بنفس الحجم. فتحتُ عبوة مرهم تايغر بالم، وبصمت مطبق، ساعدته لدهنها على رضوض ساقيه. وبعد أن انتهيت، قبض على كمي وقال: «لا تذهبي».

أجبت: «سأبقى لفترة قصيرة إذن». سنواجه المشاكل إذا اكتشفوني مستلقية بجانبه هنا. وتكوم مثل حيوان صغير، وبلا تفكير، ربّتُ على شعره. واعتقدت أنّه سيعترض، ولكنّه قال: «لقد اعتادت أمّي أن تجالسني لبعض الوقت».

«وماذا جرى لها؟».

«توفيت في العام الماضي».

وفكّرت: عام فحسب، بينما مضى على موت والدي ثلاث سنوات. وقلت لنفسي: لو كان لدى والدتي متجر منزلي كهذا، لما توجب عليها أن تتزوج ثانية. وتخيلت كلانا ونحن نرعى أصص زهور الأوركيد في الباحة، ونحضر *النيان جاو*[1] كعكة الرزّ المحلّى طيبة المذاق لتحية العام الجديد كما فعلنا في السابق. وكنا سنكون على ما يرام وحدنا.

قلت له: «حينما أكبر، لن أتزوج أبداً».

واعتقدت أنه سيسخر مني. لأنّ الزواج هو ما يفترض بالفتيات فعله في نهاية الأمر. ولكن شين أخذ كلامي على محمل الجدّ وأجاب: «إذن أنا أيضاً لن أتزوج».

أردفت: «أفترضُ أنّك ستكون على ما يرام. لأنّ لديك تجارة». كان زوج أمّي حريصاً على أن يستلم ابنه شين أعماله. ومع أنّه أحد صغار تجّار خام القصدير، وآخرون في مجاله ازدهروا لحدود خيالية، كانت لا تزال هناك أموال ليجنيها من الاستثمار.

---

(1) nian gao

قال: «يمكنك أن تحليّ مكاني. أنا سأغادر حالما يمكنني».

شهقتُ وقلت له: «لا أريده. أنا التي سترحل من هنا».

انخرط بالضحك، ودفن رأسه تحت الوسادة ليكتم الصوت. وحينما فعل ذلك، سقطت قطعة ورق مكرمشة. وكانت تحمل حرفاً صينيّاً واحداً مكتوباً عليها وهو 貘.

سألته: «ما هذا؟». يصعب عليك أن ترى بوضوح في نور القمر المرتعش. تابعتُ السؤال: «هل هذا حيوان؟».

التقطها شين وقال بخشونة: «أمّي كتبتها لي. هذا الحرف يعني مو أو التابير».

شاهدت صوراً لحيوان التابير. له أنف مثل خرطوم فيل لكنه قصير، ملوّن بالأبيض والأسود كما لو أن مقدمة الحيوان مغموسة بالحبر، ومؤخرته مغموسة بالطحين، كزلابية الرزّ. ومن المفترض أن يكون ضخماً، تقريباً بطول ستة أقدام، ومع ذلك من الصعب أن تراه في الغابة.

قلت له: «خط أمك جميل». أمّي كانت أميّة، ولهذا السبب حرصَت على إرسالي إلى المدرسة وإلى صفوف تعلّم الكتابة الصينيّة باستعمال الفرشاة في عطلة نهاية الأسبوع.

«أصلها من شمال الصين. وتلك الورقة لي. تنفع ضد الكوابيس. مو يأكل الأحلام، هل سمعت بذلك؟».

«هل تقصد التابير الحقيقي، الذي يعيش في الغابة؟».

وتساءلتُ ما نوع القصص التي روتها أم شين له. عاشت عائلتي في المالايو على امتداد ثلاثة أجيال؛ ومع أننا لا زلنا نتكلم بالصينيّة، لكنّنا تأقلمنا مع حياة الحكم البريطاني هنا.

«لا. آكلُ الأحلام حيوان شبح. إذا انتابتك الكوابيس، يمكنك مناداته ثلاث مرات ليأتي ويأكل الأحلام المخيفة. ولكن يجب عليكِ التحلي بالحذر. إذا استعنت به مراراً سوف يلتهم أيضاً آمالك وطموحاتك».

ران الصمت وأنا أهضم هذه المعلومات. ورغبت أن أسأل شين فيما إذا كان هذا السحر الذي يختص به مفترس الأحلام فعالاً في الحقيقة، وإذا شاهد شيئاً من ذلك بأمّ عينه، ولكنه استغرق بالنوم، فزحفت بهدوء عائدة إلى سريري.

* * *

حينما اكتشف الناس الذين لا يعرفون ظرف عائلتنا أن شين وأنا نشترك بتاريخ ميلاد واحد، افترضوا أننا توأمان، مع أننا كنّا غير متشابهين. كانت الوالدة ليّنة العريكة معه، وتربّتُ على رأسينا بعطف معاً.

قالت لي: «أمرٌ طيب أن يكون لكِ أخٌ يا جي لين».

أجبت بحزن: «ولكنه لا يقبل أن يناديني *آه جي*». كان من حقي أن أحمل لقب «آه جي: الأخت الكبيرة». حتّى لو أن هذه الميزة تأتّت لي من سبق في الولادة بمقدار خمس ساعات. كان شين يتجاهل ذلك عامداً، ويناديني باسمي العادي وهو يمد لسانه من فمه.

في بعض النواحي كان من الأفضل لو أنّه استمر على هذا السلوك، ولكن في آخر سنتين، نحا شين نحو العزلة بشكل مستغرب. وكان ذلك محتوماً كما أفترض حتّى لو أنّها نتيجة مؤلمة. أما أنا فكنتُ مترفّعة عن التسكّع مثل الفتيات الأُخريات وممتلئة بالبؤس لأنني مضطرّة لمغادرة المدرسة قبل الصف السادس، ولهذه الأسباب لم يكن لديّ وقت لأهتم بتبدّل شين. عموماً إذا فكّرت بجدية يمكن القول إن شين إنسانٌ يُعتمد عليه. يمكنه أن يكون حليفي، وأن يكتم أسراري. وأن يتعرّف على إصبع مبتورة. على الأقل أمِلتُ أنّه بمقدوري الركون له.

كان العشاء في ذلك اليوم صامتاً. بالرغم من ترف الوجبة التي تكونت من دجاجة مبخرة مدهونة بزيت السمسم، موضوعة في طبق كبير ومقطّعة إلى قطع بحجم لقمة واحدة. ولم يلمس الطبق أيّ منا، ولاح لنا كشيء يؤنب بصمت مثل مقعد شين الفارغ. وأخيراً عنيت أمّي بالسؤال عنه.

دفع زوج أمّي الطعام في فمه وقال: «أخبرني أنّه سيتغيب الليلة». ومضغ بطريقة منهجية.

قالت أمي: «كان عليّ إخباره أنّني سأذبح دجاجة الليلة». وألقت نظرة قلقة على الطائر، كما لو أن شين سيظهر خلف الطبق. كتمتُ تذمّري. وسألتُ: «كم ستطول إجازته؟».

قالت: «يشغل الآن عملاً صغيراً في مستشفى باتو جاجاه، ولذلك سيكون معنا طوال الصيف». ولاحت السعادة على وجه أمّي. في الحقيقة لا يوجد عندنا «صيف». في ماليزيا. أجواؤنا استوائية، ولكنّنا تبنّينا كلمة عطلة صيفية نتيجة كوننا مستعمرة. ولم أفصح عمّا يدور في خلدي. إذ من الأفضل دائماً أن تختصر كلامك وقت الطعام.

سألتُ: «وهل سيقيم شين هنا؟». كانت باتو جاجاه بعيدة بمسافة عشرة أميال. ولم أتمكّن من تصور أنّ شين يختار أن يمضي وقتاً طويلاً تحت نفس السقف مع والده.

قالت: «هناك مهاجع للموظفين في المستشفى. قال إنّ ذلك أنسب بالنسبة إليه». ألقت أمّي نظرة سريعة على زوجها الذي تابع المضغ بصمت. كان مزاجه طيباً، كما أرى، فمنذ أن كسب شين منحة لدراسة الطب، كان فخوراً به على نحو متحفّظ. فتهنئته بابن ذكيّ كهذا جعلته مزهواً بنفسه.

كان غريباً أن يأتي شين إلى مستشفى محلي مثل باتو جاجاه مع أنّه يمكن أن يعمل بسهولة كممرض في مستشفى سنغافورة العام، كما فعل في فترة أعياد الميلاد. لم أشاهد سنغافورة، مع أنّه لدي بطاقات معايدة تصور كاتدرائية القديس أندرو وفندق رافل المشهور بحانته الطويلة التي لا يجوز للسيدات زيارتها.

رمقت أمّي الدجاجة التي لم يلمسها أحد بنظرة قلقة أخرى.

قلتُ: «مع من ذهب شين الليلة؟».

قالت أمي: «مع مينغ وصديق آخر. قال إن اسمه روبرت». ثم تناول زوج أمّي قطعة من الدجاجة. ومع تنهيدة، فعلت أمّي مثله، ولكن وضعتها في طبقي.

نكست نظرتي بخجل. كان مينغ ابن الساعاتي، أعز أصدقاء شين. وكان يكبرنا بعام، وهو جاد وناضج، ويضع نظارة رقيقة ذات إطار من الأسلاك. وكنت أحبُّه منذ

بلغت الثانية عشرة، غرامٌ غريب وميؤوس منه أمّلت أن لا يلاحظه أحد. إلا أن نظرة أمّي المتعاطِفة جعلتني أظنّ أن لديها فكرة عن الأمر. نجح مينغ في المدرسة وتوقّعنا جميعاً أن يتابع تحصيله العلمي، ولكنه على عكس التوقّعات اختار أن يأخذ مكان أبيه في المهنة. ومنذ شهور قليلة مضت سمعت أنّه خطب فتاة ما من تاباه.

قلت لنفسي: «لقد أحسن صنعاً»، وطعنت الدجاجة بعيدان الطعام. كان مينغ شخصاً مخلصاً، وكنتُ قد قابلت خطيبته ورأيت أنّها فتاة لطيفة، هادئة وغير مبهرجة. أضف لذلك، وبالرغم من دماثة مينغ تجاهي في صغرنا، أنّني لم ألحظ منه اهتماماً. وكنت أعلم ذلك جيداً ويئست منه. بقي أن أقول إن سماع اسمه ملأني بكآبة مظلمة.

ديون والدتي، وزواج مينغ، وغموض مستقبلي كانت أثقالاً باردة تتوالى مثل سلسلة من سوء الحظ. ناهيك عن الإصبع المحنطة في قارورة والمدفونة في أسفل حقيبة سفري.

* * *

كان زوج أمّي يأوي للسرير باكراً. وتبعت والدتي هذه العادة، ولذلك سرعان ما انصرف كلاهما إلى غرفتهما في الأعلى. غسلتُ الأطباق ووضعتُ بقايا الطعام في خزانة ذات أبواب بمشابك كي تمنع تطفّل الصراصير والسحالي. كانت كلّ قدم من أقدام الخزانة مغموسة في صحن صغير به ماء كي لا يتسلق النمل إلى الخزانة. وأخيراً، جمعت فضلات الطعام وحملتها إلى الزقاق الخلفي ورميتها للقطط الضالّة.

أخذ الطقس يبرد رغم أنّ جوانب البناية لا تزال تشع بحرارة النهار. وانتثرت النجوم على سماء الليل وحملت ريح المساء أنغام موسيقى رقيقة، في مكان ما، أحدهم كان يصغي للراديو. إنّها موسيقى فوكس تروت، رقصة يمكنني الآن تأديتها بعينين مغمضتين، فصرتُ أدندن بهدوء.

ولّما انتهت الموسيقى فوجئت بتصفيق. جاء صوت من خلفي يقول: «منذ متى وأنت تستطيعين الرقص؟».

التفتُّ مفزوعة. كان ظلاً في ظلام الزقاق، يستند إلى الجدار، ولكنّي كنت أميزّه في أيّ مكان.

قلت بخجل: «منذ متى وأنت هنا؟».

«بما فيه الكفاية». تركَ الجدار، وبدت لي حدود جسده المعتمة أطول وكتفاه أعرض من السابق. ولم يمكنني رؤية التعبيرات على وجهه وغلبني الخجل فجأة. لم ألتق شين منذ عام تقريباً.

سألته: «لماذا لم تبقَ في سنغافورة؟».

«آه، أنت لا تريدين منّي أن أعود؟». وكان يضحك، وشعرت بدفقة من الارتياح. هذا هو شين الذي أعرفه، صديق طفولتي.

«ومن يريدك؟ حسناً، ربّما كانت آه كيوم تريدك».

هزّ رأسه: «هل تقصدين الفتاة الجديدة في المتجر؟ إنّ قلبي ملك لمهنة الطب».

وعندها صُفِقَت نافذة الجيران وهي تُغلَق. إذ كنّا نثير ضجّة عالية في الزقاق. وتوجّهت نحو النور المنتشر بشكل مروحة والقادم من باب المطبخ.

قال بدهشة: «لقد قصصتِ شعركِ!».

وامتدّت يدي إلى قذالي المجزوز. فكّرت بانزعاج: «فلنترك المجال للنكات الساخرة كي تبدأ». ولكن لدواعي استغرابي، لم ينطق شين بأي شيء آخر. جلس عند الطاولة ونظر لي وأنا أجهد لتنظيف منضدة المطبخ النظيفة بالفعل. كان نور المصباح النفطي منخفضاً فكان المطبخ يغص بالظلال. تلاحقَت أسئلتي واحداً تلو الآخر بلا انقطاع حول سنغافورة.

قال: «وأنتِ ماذا كنتِ تفعلين؟ على الأرجح هناك امرأة مسكينة ترتدي ثوباً قمتِ بخياطته بالمقلوب جاعلة البطانة فوق القماش».

رميته بممسحة الأطباق وقلت: «أنا أخيط بمهارة. وموهوبة جداً، حسب تزكية السيّدة بيكي تام».

«هل اسمها بيكي حقاً؟».

«كلا، لكن يجب أن يكون كذلك. فهي تشبه غراباً صغيراً. وتحب أن تتطفل على غرفتي وتفتش الأدراج كلما خرجتُ».

قال شين ضاحكاً: «أنا آسف». وفعلاً كان يبدو عليه الأسف.

قلت له: «آسف على أيّ شيء؟».

«لأنه كان أنتِ من يجب أن ينتسب لكلية الطبّ».

«لن يمكنني ذلك أبداً». واستدرتُ بعيداً، فقد كان ذلك لا يزال جرحاً لم يشفَ بعد. إذ كنتُ أوّل من فكر بالطبّ، أو أيّ شيء له علاقة بالإسعافات الطبّية. أيّة وسيلة لعلاج الجروح التي تغطي ساعدي أمّي، والرضوض الغامضة. قلت: «سمعتُ أنّك قابلت مينغ الليلة».

«وروبرت».

كان روبرت شو صديق مينغ. وكان والده محامياً عامّاً تدرّب في إنجلترا. وكان لأبنائه أسماء إنجليزية، روبرت وإيميلي وماري ويونيس، وكان لديهم بيانو وغراموفون في بيتهم الكبير الذي يعجّ بالخدم. ولم يكن روبرت وشين ينسجمان فعلياً. وتساءلت لماذا اجتمع شمل هؤلاء الثلاثة.

قال شين: «مينغ سأل عنك، هل ستنضمين إلينا في غداء الغد؟». هل ما أشاهده الآن في عينيه الشفقة؟ أنا لا أطلب التعاطف.

«يجب أن أشارك بجنازة».

«جنازة من؟».

انزعجتُ من نفسي لأنني لم أختلق عذراً آخر وقلت: «لا تعرفه. أحد المعارف فحسب».

وعبس شين، ولكنه لم يستفسر منّي عن المزيد. وفي ضوء المصباح النفطيّ، بدت زاويتا فكّيه وعظام وجنتيه على حالهما، غير أنّها صارت محدّدة بوضوح، وأنضج.

قلت له: «أنا بحاجة لمعونتك». وكان الوقت الآن مناسباً لأُريه الإصبع، دون

تطفل من أمّي أو زوجها. قلت له: «لدي سؤال عن التشريح. هل يمكنك إلقاء نظرة؟». ارتفع حاجباه وقال: «ألا تعتقدين أنّه يجب أن تستشيري غيري؟».

قلت: «إنه سر. لا يمكنني سؤال أحدٍ آخر».

احمر وجه شين، أو لعله بسبب النور المنخفض وقال: «ربّما يجب عليكِ سؤال ممرضة. أنا غير مؤهّل حقّاً، ومن الأفضل أن تفحصك امرأة».

قلتُ باستنكار: «ليس أنا يا سخيف».

مسح شين وجهه، وبدا أكثر حمرة وقال: «حسناً، كيف لي أن أخمّن؟».

قلت: «انتظر هنا. إنّه في غرفتي».

هرعتُ إلى الطابق العلوي، وأنا أخطو خطوات خفيفة لتجنب صرير ألواح الأرضية الخشبية، وتسلّلت عبر الممرّ إلى غرفتي في خلف البيت. كان ضوء القمر يفيض من النوافذ مثل مياه شاحبة. لم يتغيّر شيء في تلك الغرفة، ولا حتّى موضع السرير، ولا يزال ملتصقاً بالجدار الذي يفصل غرفة شين عن غرفتي.

حينما بلغت الرابعة عشرة، خطّط زوج أمّي لنقل شين إلى الطابق الأسفل، واستبدال مكتبه بغرفة شين، ولكن ثبت له عدم جدوى الموضوع. كان يخشى أن يتسلل شين أو أنا لغرفة الآخر، وهذا افتراض سخيف. لم يدخل شين إلى غرفتي أبداً. وإذا أردنا أن نتهامس كنّا نزحف إلى الممرّ أو نجلس على أرضيته، غرفتي كانت ملكي وحدي. وكان هذا بحد ذاته اعترافاً بجوهر الحقيقة وهي أنّني بنت.

مددتُ يدي داخل سلّة الراتان التي أستعملها كحقيبة سفر، والتقطتُ القارورة الزجاجية، والملفوفة بمنديل لأنني لم أرغب بالنظر إليها.

عدتُ إلى الأسفل ووضعتها قرب المصباح النفطي وقلتُ له: «أخبرني ماذا تعتقد».

فك شين المنديل، وحرر بأنامله الذكية العقدة المربوطة. وحينما شاهد الإصبع توقّف عن الحركة.

سأل: «من أين حصلتِ على هذا؟».

نظرت إلى حاجبيه السوداوين المعقودين، وأدركت أنّه لا يسعني أن أسمح له بمعرفة ما حصل. وأنني انتشلتها من جيب إنسان غريب أثناء العمل كمضيفة في صالة للرقص. فمهما حاولت تبرير الرقيّ الباهت لماي فلاور أو الفتيات الكادحات، سيظل الأمر بائساً. والأسوأ، أن هذا سيكشف سر ديون القمار الذي تورّطت به والدتي.

قلت أخيراً: «عثرتُ عليه. سقط من جيب عابر سبيل».

قلّب شين الزجاجة من جانب لآخر، وهو يقلص عينيه.

وعصرتُ يديّ تحت الطاولة وقلتُ: «حسناً، ما رأيكَ؟».

«أعتقد أنّها سلامية طرفية ووسطى من إصبع. ربّما الخنصر، أخمّن ذلك من الحجم».

«هل هي لأورانغوتان؟».

«تبدو لي بشرية من خلال النِسَب. ثم انظري للإظفر. ألا يبدو مقلّماً؟».

لاحظت ذلك بنفسي. سألته: «ولماذا تبدو محنطة؟».

«إنها جافة. وربّما حصل ذلك طبيعياً. مثل اللحم المقدّد».

«لا تتكلم عن القديد». قلت له بنحو مكفهرّ.

«نعود للمشكلة. كيف حصلتِ عليها؟».

«أخبرتك. عثرتُ عليها». ودفعت الكرسي إلى الخلف، وقلت بتردد: «لا تقلق، سأعيدها إلى مكانها. شكراً لإلقاء نظرة عليها. وطابت ليلتك».

حينما كنت أنسحب على السلالم نحو الأعلى، شعرت بنظرته المبهمة تلاحقي.

7

باتو جاجاه

الجمعة، 5 حزيران

منذ وصوله، عرف رين شيئين هامّين عن سيّده الجديد. الأول: أخبره آه لونغ أنّ ويليام جراح، ولذلك يجب مناداته بلقب «سيد». أو *توان* أكتون عوضاً عن «دكتور». سأله رين: «لماذا؟».

كان آه لونغ يقشّر جمبريّاً نهريّاً عملاقاً. قال له: «ليست عندي فكرة. هي عادة بريطانية. وهكذا يجب أن تخاطبه».

والشيء الثاني الذي عرفه: أن سيده الجديد يفضل محيطاً مرتباً، وعالمه بعيد عن فوضى وحياة البيت الذي تركه رين وراءه في كامونتنغ. كان دكتور مكفارلين معتاداً على ترك الشطائر التي أكل نصفها وقشور الموز بين كومة من الأوراق الملقاة على طاولته. أما هذا الطبيب الجديد، ويليام أكتون، فيضع أدوات الطعام بترتيب على طرفي الطبق. ولا يكسر بريق سطح طاولته إلا أرخبيلٌ مكوّن من محبرة، وورق نشّاف وقلم.

كان رين يتذكر بالضبط المكان الدقيق لكل غرض ويعيده إلى موضعه الصحيح كلّما نظّف من الغبار. وربّما كان يهدر وقته لأنّه كان لا يعلم كم ستطول إقامته هنا. حتّى ينتهي من مهمّته، مع أنّه لم يكن لدى رين أيّة فكرة عمّا سيحصل بعد أن يعثر على الإصبع ويعيدها إلى قبره. فالدكتور مكفارلين لم يعطه تعليمات إضافية. وتدفّقت فيه موجةٌ أخرى من الحنين لمسقط رأسه. قويّة للغاية لدرجة أن نبعت معها دموعه من عينيه بطريقة مخجلة. قال رين لنفسه إنّه أكبر من أن يبكي.

لقد مضت ستة وعشرون يوماً منذ وفاة سيده السابق وها هو يشعر بتنامي الذعر في قلبه. ولكن لم يمت شخص آخر. إن تجاهلت الكلاب.

وبالأمس، ذكر آه لونغ أن جيراناً على بعد بيتين منّا قد فقدوا كلبهم من نوع تيرير نقي السلالة. وهو مخلوق كثير النباح كثير الشجار، ويساوي أكثر من مرتب شهر. وكل ما تبقى منه هو خصلة من الفرو الناعم الملتصق بذيل قصير أبيض.

زمجر آه لونغ: «فهد». وأمل رين أن يكون كذلك وليس نمراً.

ثم أمعن النظر من النافذة باتّجاه سهول العشب المجزوزة وممشى الحصى. كان البيت الأبيض يقف على مرتفع بسيط، ويحيط به مرج مثل بركة أعشاب. والغابة تضغط عليه من كلّ الجوانب، ولكن وقف لها بالمرصاد حدائقيّان هنديان. مرّ جيشٌ من القردة، دجاج بريّ، وطيور حبش تنبش بين الأجمات. وافتتن رين، وهو يراقب المشهد من المطبخ المفتوح حيث كان يقشر الخضار ويغسل الرز.

تمتم بينه وبين نفسه: «*سوف تُغرم بهذا المكان يا يي*». وتعلّقت أنظاره بانعكاس صورته على الصينيّة المعدنية التي يلمّعها، وهزّ رأسه. كان من الصعب عليه أن يستمرّ دون أخيه حتّى بعد انقضاء ثلاث سنوات.

إنّ أصعب شيء في الموت هو أن تنسى صورة من تحب. هذه هي السرقة النهائية، والخيانة الأعظم. ولكن كان يستحيل عليه أن ينسى وجه يي، لأنه وجهه. وهذه هي سلوى رين الوحيدة بعد فقدان توأمه.

في أوّل يوم من وصولهما إلى الملجأ، لم يكن أحد يعلم أيّهما أكبر سناً. وكانت الأم المربية هي التي قررت أن الأكبر هو رين، وبناء على ذلك اختارت اسمه. رين أهم فضيلة من الخصال الخمس. وهي العطف البشري: النزعة إلى الإيثار الذي يُميّز الإنسان عن الوحش. على الإنسان المثالي، كما يقول كونفشيوس، أن يرغب بالموت في سبيل ذلك. وفكر رين لو قيّض له أن يختار فسوف يفضل أن يموت ليُنقذ يي.

ينتاب رين حلمٌ متكرّر يشاهد فيه نفسه واقفاً على رصيف محطّة قطار، مثل التي في تايبنغ حيث اعتاد أن يودّع دكتور مكفارلين قبل رحلاته، ولكن في أحلامه

كان بي على متن القطار، يطلّ من النافذة، وذراعاه النحيلتان تلوّحان بجنون في الهواء. وحينما يبتسم يظهر فراغٌ نتيجة سنٍّ أماميّ لم ينمُ بعد. في الأحلام يبدو بالضبط كما كان يبدو عندما مات.

يريد رين أن يطارد وجه بي المبتسم، ولكن قدميه كانتا عالقتين بالرصيف بشكل غير مفهوم، ولم يتمكّن من انتزاعهما. فيُجبر على مراقبة القطار وهو يضاعف سرعته، وعجلاته تدور أسرع، وبي يصغر ويصغر حتّى يختفي، وهنا يستيقظ رين سابحاً بالعرق والدموع.

إنّه مع ذلك حلم مفرح. إذ يسرّه أن يرى أخاه مجدّداً، ومثله بي، لقد رأى فرحة بي بحركاته، وبنظرة عينيه البرّاقتين. أحياناً يتكلّم، ويرى فمه يتحرّك وهو يومئ، على أنّه لم يكن هناك أيّ صوت أبداً.

وفكّر رين أنّه من دواعي الغرابة أن يكون بي هو المسافر دائماً، بينما كان رين هو من يتقدم بالعمر تاركاً أخاه وراءه.

كان رين يمسح الأرض. بذل جهده في ذلك، فكان يغسل الممسحة دائماً ويبدّل ماء الدلو، كما درّبته العمّة كوان. صار الجزء النظيف الناصع من الأرضية يزداد فيما تأخذ حركات المسح شكل أوراق الشجر، كأنها شجرة لامعة تمتدّ فوق ألواح الأرضيّة المصنوعة من خشب الساج.

ويقطع الصمت صوت آه لونغ وهو يقول: «هذا جيد».

رفع رين عينيه مشدوهاً. كان آه لونغ يمتلك قدرات غريبة للظهور في كلّ زوايا البيت، وهذا جعل مهمّة رين للبحث عن الإصبع أصعب. فهو مثل هرّة عجوز يملؤها الشك، تحدّق في ضوء الشمس.

قال آه لونغ: «هناك صِبية خدمة أكبر منك لكنّهم ليسوا جيدين في عملهم مثلك. كان عندنا واحد منهم قبل شهور. عمره ثلاثة وعشرون عاماً وليس بمقدوره كيّ قميص. وكان جلّ ما يريده هو ارتداء زيّ الخدم وتقديم المشروب في الحفلات».

نادراً ما كان الدكتور مكفارلين يستضيف الناس في حفلات. للدكتور العجوز

شهرة بتجميع التذكارات، وكان شائعاً أن تجد صفّاً من الصيّادين المحلّيّين ينتظرون عودته بصبر، وتكون هداياهم في انتظارهم إمّا ناتئة من أكياس أو تزمجر مربوطة في إحدى نهايتي حبل.

سأل رين: «هل السيّد متزوج؟». كان يعلم أنّ العديد من الأجانب يتركون زوجاتهم وأطفالهم في إنجلترا أو اسكوتلندا أو في المكان الذي أتوا منه. لأنّ المناخ الاستوائي هنا غير صحيّ لأبناء الأوروبّيين.

أطلق آه لونغ زفرة تذمّر وهو يقول: «لا. من الأفضل لو أنّه كان متزوجاً».

وتحمّس رين للاستفادة من مزاج آه لونغ الطيّب فسأله: «ولماذا؟». بالحالة الطبيعية لا يمكنك أن تحظى منه بأكثر من بضعة كلمات.

«عندها سيتوقّف عن اللهو. *آياه!* كما لو أننا لا نعلم ماذا يفعل طوال الوقت».

فهم رين بشكل مبهم أن هذه مسألة تتعلّق بحياة الأشخاص البالغين. أشياء مثل الزواج والعزوبيّة، والعلاقة بين الرجال والنساء، ألغاز يصعب عليه فهمها. ولكن إن كان ويليام دون زوجة أو عائلة متطفّلة، فهذا يزيد من فرصته لاستعادة الإصبع. ولكن حقيقة مرور يومين من البحث الهادئ دون أن يجدها، تقلقُه.

* * *

وقبيل الظهيرة بالضبط أتوا بامرأة جريحة. وسمع رين الصياح، والنواح المتأزم، ثم رفض آه لونغ القاطع قائلاً: «*تاك بوليه! توان تاك أدا دي سيني!*»[1] أو «لا يمكنك! سيدي ليس هنا».

هرع رين إلى الخارج. كانت هناك عربة دفع يدوية في الممشى وفيها تستلقي امرأة سنهالية[2] شابّة. وشاهد جرحاً عميقاً في الجهة الخلفية لساقها اليسرى. وهناك بقع دم داكنة تنقّع الساري الذي ترتديه.

حاول آه لونغ أن يقنع أقاربها بأن يحملوها إلى المستشفى في باتو جاجاه، لأنّ

(1) «Tak boleh! Tuan tak ada di sini».. بلغة الملايو.

(2) Sinhalese

توان أكتون ليس في البيت، ولكنّهم أصروا أن المستشفى بعيد جداً. وعلم رين أن آه لونغ الشديد التشاؤم والتطيّر يخاف من أن تموت المرأة في هذا البيت. فشقّ طريقه إلى الأمام وقال: «أدخلوها».

صاح آه لونغ: «هل جُنِنتَ؟».

تجاهله رين وطلب من الرجال أن يأتوا بها إلى الشرفة وأسرع بخطواته إلى المكتب. كان الطبيب يحتفظ بحقيبة الطوارئ وراء طاولته وكان لديه درجٌ مليء بأدوات الإسعاف الأولي.

قال لآه لونغ: «أحتاج لإناء فيه ماء مغلي؟».

«ماذا لو ماتت هنا؟».

تجاهله رين وهو يغسل يديه بعناية بالصابون، وضبط أعصابه وهو يعدّ من واحد حتّى خمسة عشر. ثم أخذ يفحص المرقأة المستعملة لإيقاف النزيف وهي عبارة عن قطعة رفيعة من القماش ملفوفة بشدة حول الساق. وأغمي على المرأة، وكان ممتناً لحصول ذلك. فغسل الساق بأفضل ما يستطيع بالماء المغليّ، ثم ربط مرقأة إضافية فوق السابقة. شعر بالدوار في رأسه، وبالغثيان في حلقه. واستذكر بعين البصيرة اليد المربّعة للدكتور مكفارلين، فكرّر الخطوات. عصا في وسط العقدة، تكون مثل قفل لمزيد من الربط المحكم إن اقتضت الضرورة. ثم قطع العصابة الأصلية الغليظة. «ماذا تفعل؟ إن أزلت تلك ستنزف حتّى الموت؟».

«إنّها شديدة الإحكام وقريبة جدّاً من الجرح. ستفقد ساقها بهذا الشكل».

وأطبق رين أسنانه، وأمل أن تنفع المرقأة الثانية. كان الناس من حوله يهمهمون، ولكن لم يبادر أحد غيره للتصرف. وتفحص رين النبض في كاحلها. لا يزال هناك بعض النزيف. شدّ على عصا العقدة، وببطء رفع الضغط حتّى توقّف النزيف.

وبدأت المرأة تتحرّك وتئنّ وهم يحاولون أن يبقوها ممدّدة. ثم حقن الجرحّ ببيروكسيد الهيدروجين. وهو كلّ ما توفر لديه، وما أن ظهرت الفقاعات والرغوة على الجرح المفتوح، حتّى شعر بالمتفرجين حوله وهم يتحاشون النظر إليه. لقد جعله الدم يشعر بالدوار. قال لنفسه: «*هيا تنفس، إن لم تتنفس فسيُغمى عليك*».

أخيراً، انتهى كلّ شيء. وسرعان ما نُقِع الجرح بالسائل الذي وضعه، ولكن هذا أفضل من مرأى العظام العارية.

ثم قال بنبرة أعلى من همهمة التعليقات التي تدلّ على الارتياح: «عليكم حملها إلى المستشفى الآن، فجرحها بحاجة إلى التقطيب».

وضعوها في العربة اليدويّة مرّة أخرى، وانتابه القلق حول قدرتها على احتمال عناء الرحلة. لو كان لديه بعض المورفين، لأعطاها ربع حبة[1]. هو لا يجدر به أن يفعل ذلك. كان الدكتور العجوز يحذّره منه، ويغلق خزانة العقاقير، غير أنّه راقبه وهو يستعمله عدداً من المرات.

وبدأ رين بتنظيف فوضى الضمادات. كانت ساقاه ضعيفتين، ويداه ترتجفان ولا يمكنه السيطرة عليهما. حتّى أنّه لم يسأل عن اسم المرأة أو سبب الجرح. مع أنّه كان يذكر على نحو غير مؤكّد أنّ أحداً ما قدّم تفسيراً. كان كلّ همه منصبّاً على إيقاف النزيف.

وأزمع على جلب الماء لينظّف الشرفة حينما قال آه لونغ: «دعك من هذا. اذهب وبدّل ثيابك». وحينئذ انتبه إلى أن زيّ الخدمة الأبيض الجديد مبقّع بالدم.

وأضاف آه لونغ: «انقع الثيابَ بالماء البارد. إن لم يختفِ الدم، يجب أن تشتري ثياباً أخرى من أجرك». وعلا وجهه تعبيرٌ غريب، ينمّ عن المرارة والاعجاب الذي يشبه الحقد.

غسل رين نفسه في الحمام المنزلي الصغير خلف غرف الخدم، وسكب الماء من جرن فخاري كبير بالطاس ووزعه على كلّ جسمه. وعندما أغلق عينيه رأى منظر الدم وهو يسيل على الألواح الخشبية. وفكر: مثل دم يي حينما كان ينزّ من بين أصابعه، عندما وضع يديه على صدر أخيه، ليخفّف من النزيف. ولكن ذلك كان بلا طائل. وحلّت البرودة على جسم يي، وغارت عيناه في رأسه. وخفقت آخر أنفاسه في صدره.

---

(1) Grain وحدة قياس وزن تساوي 0.065 غرام. المترجمة.

وعندما عاد رين إلى المنزل الرئيسي، كان آه لونغ يحضّر الغداء للخدم. وانتبه رين لوجود آخرين: امرأة كانت تساعد في غسيل الملابس، وهارون السائق الماليزي، وحدائقيّان من التاميل. مع أنّه هو وآه لونغ فقط من كانا يعيشان في غرف الخدم خلف البيت الواسع.

وبما أن ويليام في المستشفى، حضّر آه لونغ بعض المعكرونة البسيطة في الحساء. وأضاف دجاجة مقطّعة وخضاراً مسلوقة فوقها، مع قَلية من الكرّاث بالزيت. ولاحظ رين أن آه لونغ قدم له حصّة أكبر من المعتاد، مع المزيد من اللحمة. وأكلا بصمت. وبعد أن أتمّا طعامهما، قال آه لونغ: «لم يكن عليك أن تفعل ذلك. إذا ماتت بعد أن عالجتها، سيكون هذا من سوء حظك».

قال: «هل سيغضب سيدي؟». وتذكّر رين الضماد الذي استعمله، نصف قارورة من بيروكسيد الهيدروجين. سيغلي الحقنة الزجاجية؛ ومن حسن الحظّ أنّه لم يستعمل إبرة. ولم يكن عليه أن يطلب الإذن من الدكتور مكفارلين في السابق.

قال له: «إنّه لا يحب أن يلمس أحدٌ أشياءه».

لزم رين الصمت. بماذا كان يفكّر؟ حتّى أنّه لم يكمل المهمة التي كلّفه بها الدكتور العجوز. وبإحساس من الذعر، حسب الوقت منذ وفاة الدكتور مكفارلين. بقي أمامه ثلاثة وعشرون يوماً فقط.

سأل رين آه لونغ: «ماذا يجري خلال التسعة والأربعين يوماً الأولى بعد وفاة الإنسان؟».

واعتقد آه لونغ أن رين لا يزال خائفاً على مصير المرأة السنهالية الشابة، فقال: «لن تموت. على الأقل آمل ذلك».

«ماذا يحصل عموماً؟».

«*آياه!* تظل الروح تطوف في الأرجاء. تذهب وتراقب الناس والأمكنة التي تعرفها. وإذا اطمأنّت لكلّ شيء، ترحل إلى الأبد».

«وإن لم تطمئنّ؟».

«عندئذ تبقى. وهكذا تصبح تلك الأماكن مسكونة بالأرواح».

اتسعت عينا رين حينما تابع آه لونغ يقول: «لا تقلق، هذه خرافة فقط».

«هل يمكن للروح أن تتحوّل إلى حيوان؟».

«*ها!* ماذا؟ كلا، هناك حكايات عن ذلك، ولكنها ليست حقيقية».

كان آه لونغ رافضاً للفكرة ولذلك اطمأنّ رين إلى حدّ ما.

وفي نور الشمس الساطع، لا يوجد شيء ليخافه. واليوم، أنقذ حياة إنسانة. لكن ما هو مقدار أهمية ذلك؟

8

فاليم

الأحد، 7 حزيران

استغرقتُ في نوم عميق بالرغم من الصداع بمجرّد أن دفنت نفسي في سريري الضيّق. كان نوماً عميقاً كأنني تناولت مخدّراً لطيفاً، وشعرت أنّني أطفو على وجه مياه باردة في نهر من الأحلام.

أبرقَت بخمولٍ ضفافُ النهر المشرقة وهي تمرّ، كانت الصور صغيرة وواضحة كأنك تراها من الطرف المعكوس في تليسكوب، أدغال من البامبو وخمائل وأعشاب الفيل تنيرها الشمس. كانت نوعاً من المشاهد الطبيعية بأشكال صغيرة التي تراها تمرّ بجانبك وأنت تركب قطاراً، وما أن تبادرت لذهني هذه الفكرة، حتّى وقع بصري على قاطرة كانت واقفة تنفث البخار، في محطّة قطار صغيرة.

من دواعي الدهشة أن سكّة القطار تبدأ تحت الماء، ومفاصل سكّة القطار المغمورة زحفت من القاع الرملي الأبيض وتسلّقت الضفّة. لم يكن هناك من أحد على القطار باستثناء ولد صغير، بعمر يقارب الثماني سنوات. ابتسم ولوّح بيده من النافذة، وبرزت فجوة من سنّ أماميّ مفقود. لوّحتُ له بالمثل. ثم سبحتُ مجدّداً، وقادني التيار حتّى استيقظت في الفجر الرمادي.

كان الضوء الخافت ينساب من مصراع النافذة الخشبي، واختفى الصداع الذي أزعجني في الليلة الماضية. لم يكن هناك أيّ صوت في غرفة شين، ولكن من الضجّة الضعيفة في الأسفل، عرفتُ أن أمّي نهضت من سريرها. فارتديت ملابسي بسرعة.

سألتني حينما هرعت على السلالم للأسفل: «هل صنعت ذلك الثوب بنفسك؟».

فكّرت طويلاً ماذا أرتدي لجنازة رجل المبيعات اليوم، شيء رسمي ولكن ليس مريباً بما يكفي لتتساءل عائلتي إلى أين أنا ذاهبة. كان الثوب المناسب الوحيد هو ثوب ماندرين *شونغسام*[1] رماديّ اللون بسيط وبياقة، وقد صنعتُه خلال تدريباتي. *الشونغسام* هو طراز فساتين صينيّ رسمي. وأخطأتُ بخياطة الياقة العالية، والتي لم تكن مستوية، غير أنّها كانت لائقة بما فيه الكفاية. وكنتُ أعلم مُسبقاً ماذا ستقول والدتي: «هذا القماش جديّ للغاية. يجب على فتاة مثلك أن تختار ألواناً زاهية».

تحبّ والدتي الثياب ولها ذوق رفيع. وفي المناسبات الخاصّة تهتم بما ترتديه بعناية فائقة، وتلبس حذاءها الجيّد الذي تحتفظ به في علبة تضعُها فوق خزانة. في الحقيقة إن فكرة أن أكون مساعدة خياطة هي فكرتها، ولكن لاقت الاستحسان عند زوجها. إنما لم أجد جدوى في ارتداء شيء يُرضي زوج أمي، والذي يريد منا أن نبدو بأفضل هيئة ليسرّ نفسه. وفكّرت: نحن عائلة تشبه صندوق شوكولا، مغلّفة بألوان زاهية من الخارج وتنزّ ظلاماً لزجاً من الداخل.

قالت أمّي: «أنا في طريقي إلى السوق، ولكنّك ترتدين ثياباً جميلة تمنعني من أدعوك لمرافقتي».

قلت لها: «بل سأرافقك». كان الذهاب إلى السوق الرطِب[2] هو إحدى عاداتي المفضلة دائماً. هناك يمكنك شراء أيّ شيء، من أكوام من الفليفلة الخضر والحمر، دجاج وسمّان حي، وجراب بذور زهرة اللوتس الخضر التي تشبه مرشّات الدوش. وهناك أضلاع خنزير طازجة، وبيض بطّ مملح، وسلال من السمك النهري الفضي اللامع. يمكنك أيضاً تناول الإفطار في أكشاك صغيرة تبيع أطباقاً ساخنة من المعكرونة والفطائر المقرمشة.

---

(1) cheongsam: ثوب ضيق عليه نقوش صينيّة مميزة. اشتهرت به نساء الطبقات العليا الصينيّات من شانغهاي، أو يدعى تشيباو.

(2) سوق تباع فيه اللحوم والمواد الغذائية الطازجة، وسوف يرد في مكان آخر المتجر الجاف. وفيه هامش توضيحي.

بينما كانت الوالدة مشغولة بالتسوق، شققتُ طريقي بين الأكشاك المزدحمة للبحث عن زهور. زهور بيض، اللون المفضل عند الصينيّين في الجنازات والموت. وابتعتها ملفوفة في ورق الصحف لأخفيها. من الصعب أن تحتفظ بأسرار في مكان مثل فاليم، وكل من سيشاهدني أتجول مع باقة من الأقحوان الأبيض سيخمّن فوراً أنّها مناسبة تعزية.

وفيما كنتُ أعود أدراجي، ومحمّلة بمشتريات أمّي المتنوعة، سمعت الرنين الفضيّ لجرس درّاجة هوائية. كان ذلك مينغ. لم أره منذ فترة ولكنّه لم يتغير، نفس الشخص بنظّارة ذات إطار رقيق، وكان يدفعُ درّاجة هوائية سوداء ثقيلة الوزن.

بدا عليه السرور وقال: «جي لين. رأيت أخاك الليلة الماضية».

كنتُ مكتئبة جدّاً من خطوبة مينغ، وكنتُ أتجنّبه، ولكن ها هو ذا أمامي، ينظّف زجاج نظارتيه بمنديله وذهنه شارد كالمعتاد. وارتعش قلبي رغماً عنّي رعشة صغيرة.

قلت له: «سمعت بذلك. خرجتم لتناول الطعام مع أنّ والدتي ذبحت له دجاجة».

ابتسم مينغ وقال: «لم نكن نعلم لا بعودتك، ولا حتّى بالدجاجة، وإلا لأتيت معه للمساعدة في التهامها». أخذ منّي سلّة المشتريات، وعلّقها بمقبض الدرّاجة بأسلوبه الهادئ. وبعكس زوج أمي، لم أره قطّ يفقد أعصابه. ولو أن مينغ يعلم بغرامي السابق به، لتجنب الإشارة له حفاظاً على مشاعري. وفكرت: يسعدني أننا لا نزال أصدقاء. وفي النهاية ساعدني مينغ على حمل السلة إلى داخل المتجر المنزلي.

واستند على الطاولة، ووجه كلامه إلى آه كيوم التي أتت مع أنّه يوم عطلتها. وأخبرتنا وهي تقهقه بخجل أنّها أحضرت بعض المخللات المنزلية، وكان من الواضح من نظراتها أنّها جاءت من أجل شين. وكان علي إبداء إعجابي بالسرعة التي قررت بها أن تقدم على خطوة.

لكن آه كيوم كانت محقّة: كان شين وسيماً للغاية. في صغرنا اعتدنا على ملامحه وغالباً ما كنتُ أنسى كم كانت مدهشة. كان قد ورث عن والدته عظام

وجناته المرتفعة وأنفه، وهي امرأة من أقاصي شمال الصين. أو أنّ هذا ما كان يقوله الجميع. مع أنّني لم أشاهد لها أيّة صورة. وفكّرت بحسد كما كنت أفعل دائماً في طفولتي: *يا لك من محظوظ يا شين*. أنت صبيّ وكسبت منحة لدراسة الطبّ. ثم علاوة على ذلك أنت وسيم. ولكنه لم يكن يبدو سعيداً. والحقيقة، غلبه التوتر بوضوح حالما دخلت مع مينغ، وكان وجهانا محمرّين ونضحك.

قال لمينغ: «أتيتَ مُبكراً. اعتقدت أنّنا سنلتقي على الغداء».

«قابلت جي لين في السوق، وقرّرت أن أرافقها إلى البيت».

قال معترضاً: «ولكنّها لا تحتاج لمرافقة».

نظرتُ له شزراً، ولكنّه تجاهلني. كان مينغ يرسم ابتسامته اللطيفة وهو يحمل البطيخة من السلة. وكان أعلى زر في قميصه مفقوداً، ولكن لم ينتبه لذلك بسبب ثقته المرتبكة بنفسه. لو وقع مينغ في غرامي، عوضاً عن فتاة أخرى من تاباه، لكنت أصلحتُ له قميصه بسرور.

صعدتُ إلى الأعلى لترتيب الحاجيات. كان الأفضل لي أن أغادر قبل عودة أمّي إلى البيت وإجباري على انتظار الغداء.

قال مينغ: «ألن تشاركينا الطعام؟». وبدا مستغرباً وأنا أمرّ من مقدمة المتجر. كانت باقة الأقحوان الملفوفة بالصحف في السلة. وقد تدلّى منها برعم أبيض واحد وانتبه له شين. لكنّه لم يعلق وأنا ألقي تحية الوداع. تحت الزهور، كانت الإصبع في السلة مثل خطيئة تثقل علي. وشعرتُ أنّني مضطرة لإعادته، وهل هناك مكان أفضل من جنازة للتخلص منها؟

حسب النعي المنشور في الصحيفة، كانت جنازة البائع في بابان، وهي مدينة بالجوار. كانت الشمس تلتهب في سماء زرقاء دون غيوم، وعزائي الوحيد كان بشجرة المطر العملاقة التي تغطّي موقف الحافلة. وضعت على وجهي قليلاً من دقيق الرزّ وأضفت طلاء الشفاه الأحمر، وخشيت أن يذوب سريعاً.

وصلت الحافلة وهي تزمجر وتهدر. كان لها هيكل شاحنة، وجوانبها محاطة بألواح خشبية، وكان من الصعب دائماً الصعود فيها في حال ارتداء فستان،

وبالأخص إذا كان ضيقاً جدّاً كفستان *شونغسام*. انتظرت في آخر الرتل للصعود لأتجنب كشف ساقيّ إذا ما كان هناك أحدٌ خلفي. ومع ذلك صعدتُ بمشقّة وكنت ألعن في داخلي الفتحات الجانبية للفستان التي منعتني من اتخاذ خطوات واسعة. ومما أثار رعبي أن شخصاً قد مدّ يده من خلفي ليساعدني. دلّ ملمسها على أنّها يد رجل، انزلَقت اليد على طول ظهري بنحو حميمي أكثر من اللازم، ودفعتني إلى أعلى لأصبح في الحافلة. فاستدرت وصفعته.

كان شين.

نظر لي بانزعاج وقال: «لماذا فعلتِ ذلك؟».

«لم أطلب معونتك. أساساً ماذا تفعل هنا؟».

أطلق السائق نفيره، فجلست بتردّد على المقعد الخشبي. قفز شين إلى الأعلى وحشر نفسه بجواري. وزمجرت الحافلة مندفعة.

حملقتُ فيه وقلت: «وماذا عن الغداء مع مينغ؟».

تجاهل السؤال، ونظر مباشرة إلى سلّة القصب التي حضنتها وقال: «هل هي فيها؟».

وعلمت أنّه يشير إلى الإصبع، ولكن لم أردّ. كانت هذه وقاحة منه، خاصة بعد أن كان غير ودود معي في وقت سابق!

فقال: «كانت صفعة قوية».

«كيف لي أن أعلم أنّه أنت؟».

كانت ردّة فعل تلقائيّة، وهو درس تعلمته من الرقص مع الأغراب. شعرتُ بالأسف، وتفحّصت وجهه لأتأكد من أنّني لم أخلّف عليه أيّة علامة.

قال: «والآن هل لديك أيّ شيء تقولينه عن هذه الإصبع؟».

ولم يكن هناك أيّ داعٍ للكتمان، لأنه من الواضح أن شين قد خطط ليتبعني، لذا قدّمت له نسخة معدّلة عمّا حدث، كيف زار رجل المبيعات مكان عملي (ولم أذكر اسم المكان) وكيف أسقط قارورة الإصبع، وكيف مات في اليوم اللاحق.

وقلت: «هذا كلّ شيء. والآن من فضلك ارجع إلى البيت. من الفظاظة أن تهمل مينغ».

«لم أدعه وحده. أم أنّك تشتبهين بنوايا آه كيوم حياله؟».

قلت بحدّة: «هو مخطوب. أضف لذلك، آه كيوم مهتمّة بك فقط، وليس بمينغ».

استدار برأسه لينظر من النافذة. وشعرتُ بالذنب. كان شين بطريقته الخاصة يرعاني.

قلت وأنا أمدّ يدي بعد فترة: «هل ما زلنا أصدقاء؟».

يمكن لشين أن يلتزم الصمت لأيام، لكنّني لا أستطيع أبداً أن أحمل ضدّه الضغينة. بالإضافة إلى أننا لو لم نتصالح فأنّه لا يوجد في ذلك المنزل أيّ شخص يمكن الحديث معه. لم ينظر لي، وإنما مدّ يمناه، وتبادلنا التحية، بدفء من القلب، للتأكيد على أن كلّ شيء بيننا لا يزال على ما يرام.

وأقلّتنا الحافلة إلى الطريق الرئيسي في بابان وزمجرت مبتعدة تلفّها غمامة من الغبار. سعلتُ بقوّة. دعْكَ من المسحوق الذي زيّنتُ به وجهي، إذ غطّاني الآن غبار أبيض. وارتعشت شفتا شين، ولكنّه لم يضحك رأفةً بي. واضطررنا للسؤال عن العنوان، ففي بابان عدد محدود من الشوارع فيها عدد من البيوت الصغيرة.

قالت سيّدة عجوز: «ذلك هو بيت شان». وتأمّلت ثوبي الرمادي وباقة الورد الأبيض وأضافت: «هل أردتِ حضور الجنازة؟».

قلت: «نعم».

قالت: «لقد تأخرتِ. كانت الجنازة بالأمس».

ثم أردفت وهي تنظر إلى وجهي المكتئب: «لقد أخطأت الصحف بطباعة الموعد. لكنهم أخبروا كلّ أفراد العائلة بالوقت الصحيح. ألم تسمعي بذلك؟».

ابتسم شين للمرأة العجوز وقال: «لا نزال نودّ القيام بواجب التعزية». واستسلمَت له، وأخبرتنا بتفاصيل العنوان. ولم نتوقّف عند أسئلتها، وأسرعنا مبتعدين.

كان البيت صغيراً بطابق واحد مبنيّ من الخشب، وهناك شجرة جوّافة في الباحة الأمامية مربوط إليها كلب هزيل أصفر. وكانت هناك علامات متبقية من

الجنازة التي جرت، لكن الفانوسين الورقيين الأبيضين الكبيرين والمكتوب عليهما اسم الميت، لم يكونا معلّقين على جانبي الباب. وكان هناك رماد وأوراق ملونة محترقة جزئياً تطير مع الريح حول المكان، وهي بقايا من جنازة الورق التي تحرق من أجل المتوفي.[1] وتساءلتُ هل أحرقوا الكثير من الفتيات الراقصات ورزّ الدجاج المدهون بالثوم من أجل رجل المبيعات في العالم الآخر، ثم شعرتُ بالندم من هذه الأفكار المُسيئة.

ولدى اقترابنا، اندفع الكلب باتّجاهنا، وهو ينبح بجنون. واهتزت شجرة الجوّافة، ونظرتُ بتوتّر إلى الحبل الذي منع الكلب من الانقضاض علينا.

ناديت: «عفواً، هل من أحد هنا».

وخرجت امرأة مسنة، وأخرسَت الكلب. ونظرت إلينا متسائلة. وقالت: «يا إلهي، لقد أخبرتُ آه يوك أنّ الموعد في الصحيفة خطأ! هل أنتما هنا لتعزيتها؟».

ولم تكن عندي فكرة عمّن تكون آه يوك، ولكنّي هززتُ رأسي موافقة. نزعنا أحذيتنا حينما قادتنا المرأة إلى غرفة في مقدمة البيت الصغير، وكان يحتلّها مذبح العائلة الذي كلّلته عيدان البخور والهِبات. وضعتُ باقة الأقحوان على المذبح. وانحنينا تكريماً للميت وكانت الصورة الموضوعة على المذبح هي نفس الصورة التي استعملتها الصحيفة في النعي. كان رجل المبيعات يحدق من الصورة. جامداً ورسمياً. كان شان يو شونغ يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، ويضاف لها، وهذه عادة معروفة، ثلاث سنوات أخرى لزيادة فترة حياته: سنة من الأرض، وسنة من السماء، وسنة من الإنسان. وتجلّدت بالصبر وفكّرت أنّه حتّى مع السنوات المقترضة، لم تكن حياته هنا طويلة.

وضعت أمامنا المرأة كوبي شاي وقالت: «أنا خالته، هل أنتما من أصدقاء يو شونغ؟ يا لها من صدمة. كان قوياً دائماً، لم أعتقد أن عمري سيكون أطول من عمره». وتجعّدت غضون وجهها، وخشيتُ أن تشرع بالبكاء. وتزايد شعوري بالضيق.

---

(1) عند الصينيّين عادة حرق أغراض مصنوعة من الورق من أجل القريب المتوفي. وقد تكون نقوداً ورقية. المترجمة.

سأل شين: «ماذا جرى له؟».

«ذهب للقاء صديقه في باتو جاجاه، وتأخر الوقت دون أن يعود للبيت. وقلقت آه يوك. ويمكنك أن تتخيّل كيف كان حالها. وفي الصباح التالي وجده عابر سبيل. لا بدّ أنّه انزلق وسقط في مصرف العواصف. وأخبرونا أنّه كسر رقبته».

قلت: «أنا آسفة». وكنت كذلك. صحيح أنّني لم أحب رجل المبيعات، ولكن الجلوس في البيت الذي عاش فيه، على كرسي راتان لا بدّ وأنه جلس عليه، جعلني أشعر بظلّ بارد يحطّ عليّ.

قلت: «في الحقيقة أنا لا أعرف السيّد شان جيداً. كان زبوناً لمتجرنا وحدث أنّه نسي شيئاً وراءه. ثم قرأتُ أنّه توفّي وفكّرت أنّه يجب إعادة ما فقده».

«في تلك الحالة، من الأفضل أن تكلمي زوجته». ونهضت وباعدت ستائر الخرز الخشبية في خلفية البيت. وصاحت: «آه يوك. هذه السيّدة الشابة لديها شيء يعود ليو شونغ».

وتبع ذلك فترة صمت طويلة. وتململنا أنا وشين بحرج في مقعدينا. وبرّرت الخالة بالقول: «إنها حزينة للغاية، كما تتوقعا». وقاطعها الدخول المباغت لامرأة إلى الغرفة، كان شعرها غير مرتب ووجهُها منتفخاً من البكاء. انقضّت علي وصرخت قائلة: «أيتها العاهرة! كيف تجرأتِ على القدوم إلى هنا؟».

باغتني ذلك، وبالكاد تمكّنت من تفاديها بذراعي، لكنها كانت تحاول أن تصفعني وتخدشني بأظافرها بطريقة هستيرية. وقفز شين على قدميه وجرّها إلى الخلف ليبعدها عنّي. وتداعت مثل كومة على الأرض وبدأت بالعويل. أصدرَت ضجّة فظيعة، مثل خنزير يُذبح.

قالت الخالة: «ما خطبك يا آه يوك؟ أنا آسفة جداً!. إنّها على هذه الحال منذ الأمس. هل تأذّيتِ؟».

وضعتُ يدي على حنجرتي وأنا أرتجف. فيما بقيَت آه يوك على الأرض. واختنق عويلها وتحوّل لنحيب. ثم قالت: «هاتيها، أعيديها لي».

سألتُ مرعوبة: «ما الذي تريدينه مني؟».

قالت الخالة: «آه يوك. أنتِ على خطأ. هذه السيّدة الشابة تعمل في متجر. وهي ليست واحدة من بنات يو شونغ». ورمتني بنظرة سريعة وهي تقول: «أنتِ لست منهن، أليس كذلك؟».

هززتُ برأسي بالنفي وقلت: «لم أقابله غير مرّة».

«هل رأيت؟»، قالت الخالة وهي تربت على رأس آه يوك. وتابعت: «إنها لا تعرفه. ثم انظري. لقد جاءت وبرفقتها زوجها الشاب».

وتابعت آه يوك بكاءها وهي تتقلّب ألماً على الأرض، ويداها تنقبضان وتنبسطان. كان جسدها يتلوّى بطريقة غير طبيعية، وحركاتها كالأفعى. ولم تكن تبدو على هيئة البشر أبداً. وانتابني الدوار، ولو لم يسندني شين، لتهاويت على ركبتي.

وقالت الخالة بهدوء: «من الأفضل أن ترحلا. صحيح أنّ يو شونغ ابن اختي، لكنه لم يكن قديساً. كان يلهو ويعبث هنا وهناك. وبالأمس، حضرَت إلى هنا بعض الفتيات. فتيات حانات وعاهرات. أردن تقديم تعازيهن، ولم يكن يجدر بهن القدوم إلى هنا. وأعتقد أنّها ظنّت خطأ أنّك واحدة منهن».

امتقع وجهي خجلاً. لأنّ مضيّفة الرقص كذلك، ليست شيئاً يمكن أن يشعر المرء بالفخر. لقد جلبتُ على نفسي المتاعب عندما أخذتُ الإصبع، والآن علي أن أخلّص نفسي. أخرجت القارورة الزجاجية، ووضعتها على الأرض.

وسألت آه يوك: «هل تعرفين شيئاً عنها؟». نهضَت ببطء، وشعرها الأسود الطويل تفرّق على وجهها مثل خيوطٍ مبلولة من أعشاب البحر وقالت بفتور: «إنها له».

قلت: «هل هذا ما كنتِ تبحثين عنه؟».

هزّت رأسها نافية وعادت للبكاء، دون أن تسعى لمسح الدموع التي سالت على وجهها الأبيض المتورم. بدا أنّه من غير اللائق النظر إليها، فوجهها كان جاهلاً وعارياً. فنهضت، ولكنها قبضت على أطراف تنورتي وقالت: «هل أعطاك شيئاً آخر؟ قلادة ذهبية؟».

«كلا».

بدا أنّها متأثرة بهذا الأمر، وعلى نحو غريب تمالكت نفسها وقالت: «في الأسبوع الماضي اشترى قلادة لامرأة أخرى. ذلك ما أردت أن أعرفه. وليس هذا». وأشارت برأسها نحو الإصبع. ولم تلمس القارورة أبداً. كانت عيناها منفوختين، والجفنان ورديين من الألم. وأضافت: «كانت هذه تعويذته للحظّ الطيب. ومنذ أن حملها، تحسّنت تجارته كثيراً».

سألها شين: «ومتى حصل عليها؟».

نظرَت إليه كأنها تلاحظ وجوده لأول مرّة وقالت: «قبل ثلاثة أو ربّما أربعة شهور. حصل عليها من صديق. في الواقع، أعتقد أنّه سرقها». وانقبض وجه آه يوك كأنها تشعر بطعم مرّ في حلقها.

قلت لها: «أرغب بإعادتها إليك». في ذلك البيت الخشبي النظيف، ووسط المفروشات العادية جدّاً والأشياء اليومية؛ كمفرش الطاولة المطرز، وغطاء من سعف النخيل ليحمي الطعام من الذباب؛ بدت الإصبع الذابلة أكثر سوداوية ولا انتماءً إلى المكان. نظرتُ إلى الخالة وأدركت أنّها ليست مستغربة. وفكّرت لا بُدّ من *أنها رأت الإصبع من قبل*. هزت آه يوك رأسها بعنف وقالت: «لا تتركيها عندي!». وخشيتُ أن تعود لنوبة العويل.

وأسرعت بنا الخالة إلى الباب وقالت: «من الأفضل أن ترحلا الآن».

«ولكن ماذا عن الإصبع؟».

ألقتها بحدّة في سلتي وقالت: «اصنعي بها ما تشائين، أو أعيديها لمن أخذها منه، أيّاً كان ذلك الشخص».

سأل شين: «ومن هو برأيك؟».

قالت الخالة بنبرة خافتة: «أخبرَني أنّها ممرضة في مستشفى باتو جاجاه». وانتصبت أذنا شين لسماع ذلك، وأضافت: «هذا كلّ ما أعرفه. والآن غادرا من فضلكما».

وعدنا أدراجنا إلى موقف الحافلات صامتَين. كان الوقت قد جاوز الظهيرة، وكان وهج حرارة الطريق ساطعاً بشدة لدرجة أنّني رغبت أن أغطي عيني. وكان

وجهي متحسساً بسبب هجوم آه يوك عليّ. توقّف شين تحت شجرة كبيرة وقال: «انتظريني هنا». وعبر الطريق إلى محل صغير، وعاد بكوب من الماء وزجاجة يود. وحرك وجهي ليفحصه فأغلقتُ عينيّ. وكانت يداه باردتين وماهرتين.

قال: «ستظهر كدمة على عينك وسيكون هنالك آثار خدوش واضحة».

جفلتُ فزعاً. لا بُدّ وأن ضربة من أحد مرفقي آه يوك قد أصابتني في عيني. وقلت له: «أفترض أن هذا جزاءٌ عادلٌ على صفعتي لكَ في الحافلة».

ولم يضحك شين وإنما تابع تفحّص وجهي. فتراجعتُ عنه وقلت: «لا تنظر إليّ. هل مظهري سيّئ جداً؟».

قال: «يجب تطهير هذه الخدوش».

أطعته ووقفت بثبات وهو يغسل المنديل وينظّف به وجهي. كيف سأفسّر هذا للسيّدة تام، ناهيكَ عن مظهري في ماي فلاور أثناء العمل؟ وإذا تغيّبتُ عن العمل، لن أتمكّن من تسديد الدفعة التالية من ديون أمي، وسيقوم زوج أمّي بسلخنا أحياء إذا ظهر المرابي على عتبة البيت. وأجريت حساباتي بجنون. هل بخمسة سنتات للرقصة يمكن أن أغطّي العجز؟

قال شين: «لا تجهدي نفسك بالتفكير. وإلا أتلفتِ دماغك الصغير».

وفتحت عيني بسخط وقلت: «يا للفظاظة!. هذا وأنا أغلبكَ في كلّ امتحان في المدرسة».

ورداً على ذلك تعمّد مسح وجهي بقوّة. اشتكيت بقولي: «أنت تمحو كلّ المسحوق الذي على وجهي».

«المكياج لا يحسّن شخصاً مثلك، إذا كان هذا سبب قلقك».

أضاف اليود إلى الخدوش وآلمني ذلك، أو في الحقيقة، ربّما ما آلمني هو كبريائي.

قلت له: «شكراً لكَ على هذا، لكنّني محبوبة جدّاً على فكرة»، وفكّرت ببعض زبائني المواظبين في ماي فلاور، أشخاص كانوا على الأقل يبذلون جهداً كبيراً في الرقص. على سبيل المثال، السيّد ونغ طبيب العيون من تايغر لاين والذي لا

يحب غير الفالس؛ والسيّد العجوز كو، الذي أخبرني أن طبيبه المعالج نصحه بالقيام بالتمارين البدنية؛ ونيرمان سينغ الرجل السيخيّ الطويل النحيل والذي كنت متيقّنة من أنّه لا يزال طالباً في المدرسة بالرغم من إنكاره الشديد لذلك. من المحتمل أنّهم كلّهم سيجدون فتيات غيري للرقص هذا الأسبوع. وربّما سيفضّلوهن عليّ.

غسل شين منديله بما تبقى من الماء وقال: «والآن، أخبريني ماذا يقلقك؟».

هززت رأسي لأنني لم أرغب في أن أشركه في الأمر أكثر، وقلت: «يجب عليّ العودة إلى العمل».

«ألن تعودي الى البيت؟».

«أمي ستقلق إذا رأتني على هذه الحال». وسوف يثير ذلك أسئلة مزعجة في فاليم، عبر شبكة الشائعات. والجميع يعرف المزاج الحاد لزوج أمي.

أعاد شين الكوب إلى المحل، وعدنا بالحافلة وكانت رحلة بدون كلام. وعلى أيّة حال، كان حولنا الكثير من الناس فلا يمكن مناقشة أحداث هذا الصباح الغريبة. وبسبب خجلي من الخدوش التي في وجهي، أبقيتُ على عينيّ في حضني. وغادرني شين في فاليم، ولكن ليس قبل أن يضع في جيبه القارورة الزجاجية التي بداخلها الإصبع الجافّة. قال: «سأهتمّ بأمرها». وقبل أن أُبدي أيّ اعتراض قفز من الحافلة.

خيّم عليّ إحساس من القلق. وانتفضتُ حينما حشرت نفسها إلى جانبي امرأة بدينة تحمل ديكاً حيّاً أبيض بعينين صفراوين، والحدقتان عبارة عن نقطتين غاضبتين. في الجنائز الصينيّة، يطلق سراح ديك أبيض في المقبرة في نهاية الطقوس. ويمكن بالطبع أن هذه السيّدة قد حملته معها إلى بيتها لوجبة العشاء فحسب، ولكن مرأى الطائر الأبيض وهو يحتلّ مقعد شين الذي تركه للتوّ؛ ملأني بالرعب. كما لو أنّ ذلك الظلّ السائل والبارد الذي كان يطاردني قد انتقل إلى شين.

9

باتو جاجاه

الجمعة، 5 حزيران

في الأيام الماطرة يكتب الدكتور الجديد ويليام أكتون الرسائل. وكلها موجّهة لخطيبته آيريس، مع أنّه متأكد أنّها لن تقرأ أيّة واحدة منها.

«عزيزتي آيريس، أنا افكّر بك كلّ يوم..»، يتلاشى المطر وتشرق الشمس ضعيفة. فيترك ويليام قلمه.

في الأيام غير الماطرة، يذهب بنزهات طويلة في الصباح الباكر، ويأخذ معه منظاراً في الظاهر يبدو أنّه لمراقبة الطيور. ويتردّد ويليام في عبور الانعطافة المألوفة خلال مزرعة المطاط المجاورة. كان يلتقي في السرّ بامرأة محلّية، وهي زوجة عامل مزرعة. اسمها أمبيكا، وهي امرأة تاميلية[1]، ذات بشرة ناعمة سمراء وشعر طويل أجعد له رائحة زيت جوز الهند. وهناك ندبة ملموسة، جدرة، على ثديها الأيسر على شكل فراشة، كم مرّة قبّلها؟ كان يجدها جميلة، مع أن أمبيكا كانت تخفيها.

كان ويليام يدفع لها النقود دائماً. ولكنه يعتقد أنّها تحبه. على الأقل، ابتسامتها دافئة، غير أنّها لم ترفض نقوده يوماً. وكان يعتقد أن لقاءهما يتم بالسر. وربّما كان هذا صحيحاً بالنسبة للأوروبيين وحتى بالنسبة لزوجها، الذي يُغرق نفسه بالشراب.

على أيّة حال هناك شخص آخر على الأقل علِم بهذه العلاقة. مريض سابق

(1) التاميليون قومية في جنوب وجنوب شرق آسيا. في الهند وسيريلانكا وماليزيا. المترجمة.

أجرى له ويليام عملية استئصال الزائدة الدودية، وهو بائعٌ صينيّ. ومن سوء الحظ أنّه قبض على أمبيكا وويليام معاً منذ عدّة أسابيع عندما أصاب سيارته عطل قرب مزرعة المطاط، وأجبره ذلك على اختصار الطريق لطلب مساعدة. وتفرّقا بسرعة ما أن شعرا بوجود دخيل، البائع لزم الصمت، إلا أنّه عرف ويليام. وكان هذا أسوأ ما في الأمر، أن يرى في عينيه نظرة تدلّ على أنّه عرف هويته. فبعكس السكان المحليين الآخرين، كان هذا البائع يعرف اسم ويليام وأين يعمل بالضبط. الثرثرة تسيء لويليام، لا سيما بعد ما جرى في إنجلترا. ولزيادة الطين بلة، طلبت أمبيكا المزيد من النقود. وعندما تردد ويليام، نظرت له نظرة مريبة، وهو تعبير لم يره عليها من قبل.

فيما كان يمشي خلال مزرعة المطاط، أعجبته الصفوف المرتّبة للأشجار النحيلة والباسقة، والمستوردة من جنوب أمريكا. وعلى جذع كلّ شجرة جرحٌ رقيق وكوبٌ صغير تقطر فيه العصارة الحليبيّة. يقوم العمال بجولاتهم قبل الفجر، ويفرغون كلّ الأكواب في دلو. وأمبيكا واحدة منهم، وكان زوجها هو الذي يحمل الدلو إلى المعمل لاحقاً، فيصبح وقت غيابه فرصة مناسبة للقائها. نظر ويليام إلى ساعته، وغذّ خطواته.

ولكن مكان اللقاء المعروف، بسقفه المعدني المتعرج، كان فارغاً. وكذلك كان الحال حينما مرّ بالمكان قبل بضعة أيام. أين ذهبت؟ ولمّا لم يكن هناك من أحد ليسأله، لم يكن أمامه سوى متابعة عمله في مستشفى مقاطعة باتو جاجاه، حيث يعتقد الطاقم أن النزهات الطويلة التي كان يقوم بها أحياناً هي لغرض التريّض.

في مكتبه، كان ويليام بمزاج سيّئ. وعاد إلى الرسالة التي بدأ بها في ذلك الصباح.

«عزيزتي آيريس،

ورثت صبيّ خدمة صينيّ جديد. اسمه رين وقدّرت عمره بعشر سنوات وليس ثلاث عشرة حسب زعمه. أرسله لي مكفارلين المسكين. من الصعب أن أصدق أنّه رحل، ما زلت أتذكر رحلتنا إلى كورينشي للبحث

عن الرجال النمور، هاريمو جاديان[1]، كما يسميهم المحليون. مالايو بمزيجها من الماليين والصينيّين والهنود، حافلة بالأرواح: عالم من المرايا الزجاجية تحكمه قوانين مضطربة. المستذئب بحسب الاوروبيين هو إنسان حينما يكتمل القمر يقلب جلده ويتحول إلى وحش، ثم يغادر القرية ويتوجه إلى الغابة ليقتل. ولكن بالنسبة للسكان المحليين، فإن المستنمر[2] ليس إنساناً إنّما وحش يرتدي جلد إنسان متى ما يشاء ويأتي من الغابة إلى القرية ليفترس البشر. إنّه العكس بالضبط، وبالتالي أكثر إقلاقاً على نحو ما.

وهناك إشاعة أنّه حينما يأتي المستعمرون إلى هذا الموضع من العالم، ينظر إلينا المحليون كأننا بشر ـ وحوش، وإن لم يواجهني أحدٌ برأيه علناً.

حك ويليام عظمة أنفه. ثم أكمل:

من بين كلّ الأشياء التي قدّمها لي مكفارلين على مرّ السنوات، يبدو لي هذا الصبيّ أغربها. في النهاية، هذا ولد وليس حيواناً أليفاً أو وحشاً. وهو يبدو ممتناً للعمل وهو يوضّب مكتبي بتفانٍ، ويفتح كلّ خزانة....

طُرِق الباب. حان الوقت للقيام بجولات في الأجنحة والعنابر وبعد ذلك إجراء عملية فتق.

في وقت لاحق من تلك الأمسية، عاد ويليام ليتفاجأ بوجود زائرة كانت بانتظاره في مكتبه. جلسَت على حافة طاولته وهي تؤرجح قدماً ترتدي الصندل. كان ويليام على معرفة قليلة بليديا تومبسون، وهي ابنة مزارع مطاط، وكان لديه إحساس أنّها تود تغيير هذا.

كانت الأوراق على طاولته غير مرتبة، إما بسبب طريقتها بالجلوس، أو لأنها قلّبت فيها. كان ويليام متعباً بعد ساعات من الوقوف للقيام بعملية جراحية، ووجد صعوبة بالسيطرة على تعابيره وتبديلها من الضيق إلى انشراح محايد.

---

(1) harimau jadian: على غرار المستذئبين. من الأساطير الاندونيسية والماليزية. المترجمة.

(2) weretiger مستنمر على غرار werewolf مستذئب. وارتأيتُ أن تكون المفردة على هذا النحو تفريقاً عن مفردة متنمّر التي تعني الشخص المسيء أو المؤذي. المترجمة.

قال وهو يقدم لها كرسياً: «ماذا بمقدوري أن أفعله لك يا ليديا؟».

كان أحدهما ينادي الآخر باسمه الأول، دون تكلّف، مثل كلّ الأجانب تقريباً في هذه البلدة. باتو جاجاه، بل كلّ مستعمرة مالايو، كانت مليئة بالأوروبيين الذين اجتازوا نصف العالم فراراً لسبب شخصي أو آخر. العديد منهم وحيدون، ومن الواضح أنّ ليديا كانت واحدة من هؤلاء. وتُردّد الشائعات أنّها هنا لتجد لنفسها زوجاً. وهي ليست كبيرة في العمر، ولعلها في الخامسة أو السادسة والعشرين، وهي تدرك أنّها دخلت فترة السنوات الحاسمة. مع ذلك، هي واحدة من الحسناوات، وتتطوع غالباً للخدمة في المستشفى.

قالت له: «لقد نسيتَ ملاحظاتك من اجتماع اللجنة».

كان كلاهما في لجنة محلّية لمكافحة البري بري، ذلك المرض الغدار الذي يصيب العمال الصينيّين في مناجم القصدير، تتورّم من جرائه أطرافهم ويسبّب احتقان القلب، ولكنه أقل انتشاراً، كما أشارت ليديا، بين العمال الماليزيين والتاميليين. كانت متحمسة لتعليمهم، وتحاول أن تقنعهم بأكل مقادير أقل من الرزّ الأبيض. وشرحت لهم بجديّة في آخر اجتماع: «السبب هو نقص فيتامين ب». نظر ويليام إلى الوجوه الخالية من التعابير[1] للسكّان المحليين وتساءل إذا كانت ليديا تستوعب كم يحظى الرزّ الأبيض بمكانة رمزية هنا. فيما بعد، أومأ له صينيّ مسن وقال: «زوجتك مهتمة كثيراً».

قال ويليام مبتسماً: «هي ليست زوجتي».

«إذن عليك أن تقترن بها. هي امرأة جيدة قلّت مثيلاتها».

كان هنالك سوءُ فهم شائع، بسبب أنّهما كانا يختلطان ببعضهما مؤخراً. فقد رافق ليديا إلى مزادٍ خيري. وكان يوصلها إلى بيتها بعد عدّة مواعيد على العشاء، على أنّه يجدر به أن يكون حريصاً فلا يُمعن باللعب معها. تلك نقطة ضعفه، والعادات القديمة تصعب على الموت. والآن، وهو ينظر لها في مكتبه، تساءل كيف ستفسر آيريس كلّ هذا.

---

(1) stoic: شخص لا يظهر عواطفه. المترجِمة.

قال: «لا أحتاج لتلك الملاحظات».

وانتبه بعد فوات الأوان إلى آنّه كان يعاملها بدون كلفة أكثر من اللازم.

قالت: «آه، لم أتكلّف العناء أبداً! إذ كنتُ قد أتيتُ أساساً لأحصل على دواء والدي».

«وكيف حاله؟».

«أفضل كثيراً والفضل يعود لكَ في ذلك».

كان ويليام صادقاً لدرجة أنّه شرح لليديا أنّ الجراحة الروتينية للمثانة التي أجراها لوالدها يمكن أن تنجح تحت أيّ ظرف، ولكنّها مع ذلك ظلّت تستمع وهي مبتسمة لكل ما يقوله. دخلت عاملة التنظيف وهي تحمل كوبي شاي على صينيّة، وبسكويت من نوع دايجستيف في كلّ طبق. كتم ويليام تنهيدة وهو يقدم إلى ليديا كوبها.

قالت بمرح: «هل كنت مشغولاً جدّاً اليوم؟».

«ليس تماماً. ولكن واجهتُ لغزاً».

«وما هو؟».

«يبدو أن مريضة جاءت إلى بيتي هذا الصباح وتلقّت علاجاً طبياً على يد ممرض. ولكن ليس لدي ممرض في البيت». قطّبت ليديا جبينها وقالت: «آه».

وأدهش ويليام أن يشاهد المرأة الشابة، وهي فتاة سنهالية جذّابة، خلال جولاته المسائية في المستشفى. وشرحت له بمزيج من اللغة الماليّة والإنجليزية العرجاء آنّها حُمِلت إلى بيته للعلاج في ذلك الصباح. ولكنها لا تتذكر من فعل ذلك، فقد أغمي عليها. شخص بالزي الأبيض. عمها الذي رافقها ربّما يعلم. ولكنه كان قد انصرف إلى بيته. فحص ويليام الجرح الذي نجم عن معول حديدي ثقيل، أفلت وجرح ربلة ساقها. وكان الجرح عميقاً ولا بدّ أنّها نزفت بغزارة. وكان من الممكن أن تموت لو لم تُسعَف.

وعاد به صوت ليديا إلى الوقت الحاضر. قالت: «وهل وجدت حلاً للّغز؟».

«لا. لم أكن في البيت ساعتها».

لم يكن لديه شيء ضدها. وفي الحقيقة، فقد أثبتت أنّها مُجدّة ومفيدة أثناء حملة توعية بأهمية الحليب الجاف للأطفال المحليين. ولكن لسبب ما، كانت تجعله يشعر بالذنب. ربّما بسبب لونها. فهي تمتلك نفس الشعر فاتح اللون، ونفس البشرة الرقيقة مثل آيريس. لكن عيني آيريس كانتا رماديتين، في حين كانت عينا ليديا برّاقتين وبزرقة ساطعة.

قالت: «في الحقيقة لقد رأيتُك هذا الصباح تمشي في مزرعة المطاط. ويبدو أنّك كنت تبحث عن شخص ما».

وارتفع ضغط دم ويليام وشعر بالذنب يسِمُه كما لو كان وسمة حارّة على رقبته. ولكن لا يمكن أن تكون قد لاحظت شيئاً، ليس هذا اليوم بالأخص. وتمنى أن تنتهي ليديا من الشاي وتنصرف، ولكنها قالت: «سمعتُ أن لديك صبيّ خدمة جديد، جاءك من بيت الدكتور مكفارلين». ولما لاحظت أنّها أثارت اهتمامه تابعت قائلة: «قيل أن الطبيب العجوز آواه لأنّ المحليين كانوا يعتقدون أنّه ملعون».

«ملعون؟».

«خرافة ما. ثم هناك حوادث موت كثيرة في كامونتنغ».

«ما نوع هذه الوفيات؟».

«لقي ثلاثة على الأقل حتفهم بسبب النمور في السنوات الماضية. وبعض الناس يقولون إنّه نفس الحيوان».

قال ويليام: «آكِل بشر». ثم تراجع في مقعده. ولم يكن متأكداً ما إذا كانت ليديا مهتمة به، أو أنّها ترى فيه نوعاً من التحدّي. إذ أحياناً يبدو أن غزلها خبيث تقريباً.

قالت: «يقولون إنّه نمر شبح، ولا يمكن قتله بالرصاص ويختفي كالأرواح. وكل ضحاياه من النساء. نساء شابات، بشعور مسترسلة وطويلة».

وعندما انتبهَت لنظرة ويليام المدقّقة، ظهر على خديها بقعتان حمراوان من خجل بنّاتي غير متوقع. وقالت: «لا بدّ أنّك تعتقد أنّني سخيفة، إنّها خرافة على أيّة حال».

ردّ قائلاً: «لا وجود للأشباح يا ليديا».

وقال لنفسه سراً، أنا أعرف الناس بذلك.

* * *

صباح اليوم التالي الموافق يوم السبت، دعا ويليام رين إلى مكتبه. وحمل رين المضطرب صينيّة منتصف الصباح وعليها كوب شاي من الخزف العظمي وطبقٌ من بسكويت ماري.

قال ويليام: «هل يمكنك أن ترتّب هذه الأغراض من أجلي يا رين؟».

ورأى رين برعب العدّة الطبية التي استعملها بالأمس مبعثرة على الطاولة. لفافات من الضماد، وزجاجات من اليود، والكلوريدين، والمحاليل الطبية، وفوضى من الأدوات الطبية المعدنية. والزجاجة نصف الفارغة من بيروكسيد الهيدروجين تقف منذرة على طرف الطاولة. وبسرعة، لفّ الضمادات ورتّب الزجاجات حسب الاستخدام، كما علّمه الدكتور مكفارلين. السموم والمُقيّئات في الجيب الداخلي، لتفادي الحوادث. المباضع والمقصات التي تحتاج لتعقيم دوري في جيب آخر. والإبر السميكة المجوفة في عبوة كحول. وارتعشت يده وهو يحمل الحقنة الزجاجية التي غلاها في اليوم السابق.

وعندما أوشك على الانتهاء، قال ويليام: «أرى أنّك تعرف ماذا تفعل».

رفع رين عينيه، ولكن كالعادة، كان وجه الدكتور عصياً على الفهم. ولكن عموماً، لا يبدو عليه الغضب.

«هل أنت من عالج تلك السيّدة أمس؟».

«نعم، *توان*».

«لقد أحسنت عملاً. أعتقد أنّها ستحتفظ بساقها».

و تململ رين متوتراً.

«هل كانت هناك عصابة لوقف النزيف حول الجرح؟».

«نعم، ولكنها كانت مربوطة بشدة وقريبة من الجرح».

«وماذا فعلت إذن؟».

وصف رين له ما فعله، وتناسى توتّره فيما ويليام يستمع باهتمام. كان شعور رين استثنائياً ولم يمرّ به منذ موت الدكتور العجوز.

قال ويليام: «في المرة القادمة يجب أن تخبرني إذا عالجت أحداً. وأعتقد أنّه من الأفضل أن أشرف عليك. هل تستطيع القراءة؟».

هزّ رين رأسه، بنعم.

رفع ويليام أحد حاجبيه متعجباً وقال: «هكذا إذن؟ غداً يوم أحد. إذا كنت تريد تمضية نصف يوم عطلتك في إتقان الأساسيات الطبية، سأكون متفرغاً بعد الظهيرة لتعليمك».

* * *

بعد انصراف الصبيّ، غادر ويليام الغرفة واتكأ على قضبان سور الشرفة الخشبية. ارتعشت الأغصان حينما مرّ جيش من القرود، وكان صياحها يخترق هدوء بالصباح. ولمعت ومضات سود وبيض عندما حلّق طائر البوقير ساخطاً. وضع ويليام منظاره حول رقبته وهبط على السلالم، وسار على مرج الأعشاب المشذّبة؛ مصدر افتخار الحدائقيّ، وتابع إلى الأشجار القصيرة. وتذكر رسالة مكفارلين، الكتابة المرتعشة التي وعدني فيها بأنّ الصبيّ سيثير اهتمامي، وتساءل ماذا هناك أيضاً ليكتشفه عن رين.

مع أنّ بمقدور ويليام أن يجد بيتاً أقرب إلى مساكن الأوروبيين في شانغات، لكنّه لم يستأ من المكان المنعزل للمنزل. شاهد آثاراً قديمة لفيل لا تبعد كثيراً عن المنزل ولكنه لم يشاهد أيّة فيلة. وتذكر أنّها أمطرت في الليلة السابقة ومن جراء ذلك أصبح الطين الأحمر طرياً تحت قدميه.

توقّف ويليام فجأة. إذ شاهد في الطين أثر أقدام نمر. لم يكن قد شاهد هذا الأثر بهذا القرب من المنزل من قبل. وكان الأثر حديثاً جدّاً حتّى أن ورقة عشب تحت أثر القدم لا تزال مخضرة. يندر وجود النمور قرب البلدة، على الرغم من وجود العديد منها في أعماق الغابة. ومقتفي أثرٍ جيّدٌ يمكنه تقدير عمر الحيوان وحالته الصحية، ولكن من الحجم والزوايا خمّن ويليام أنّه ذكر.

وأخبره في إحدى المرات مسّاح أراضٍ يعمل في سكّة حديد دولة مالايو الاتحادية كيف أن نمراً أخذ أفضل عامل لديه. كان العمال ينامون كلّ اثني عشر عاملاً في مخيم، ويضعون أفرشتهم على الأرض. وكان هذا الرجل بالذات مقارنة مع السكان المحليين، قوياً وضخم الجثة. كان ينام في وسط الصف. وكان الباب مفتوحاً ليسمح للنسمات بالدخول. كان قد اختفى في الصباح. واكتُشفت آثار أقدام نمر، وعند تتبّعها لحوالي ربع ميل وُجِد رأسه وذراعه اليسرى وساقاه. أما الجذع والأحشاء فقد التُهِمت. كان النمر قد تسلّل بهدوء في الليل، واختلس خطواته بين النائمين، وانتقى لنفسه أفضل عينة من بينهم.

لم يكن عند ويليام كلب حراسة لينبّهه من اقتراب أيّ شيء، وهو نادم الآن على ذلك. ولكنه احتفظ في البيت ببندقية من نوع بوردي، لكنّها لم تكن ملقمة.

وكان عليه أن يحذر آه لونغ والصبيّ كي لا يتجولا خارج البيت في المساء. وحينما استدار عائداً، رأى آه لونغ على الشرفة.

صاح: «*توان*! المستشفى يطلبك».

كان ويليام هو الطبيب المناوب في هذه العطلة. فأسرع على السلالم. وهو يقول: «ما الأمر؟».

كانت لغة آهِ لونغ الماليزية سيّئة وإنجليزيته أسوأ. وكان عليه أن يسمح للصبي بتلقي الرسائل في المستقبل. ولكن في الوقت الحالي كان آه لونغ يحمل خبراً بإمكان أيّ أحد شرحه بوضوح، حتّى هو.

قال له: «أحدهم مات».

وشاهد ويليام بزاوية عينه رين، وهو يحملق بوجه شاحب. وبدا مفزوعاً.

كان هارون بعطلة، ولذلك قاد ويليام السيارة بنفسه. فالحادث وقع في نفس المزرعة التي مشى فيها صبيحة الجمعة. وكانت الرسالة مقتضبة وذُكر فيها أنّه تم العثور على جثّة، فحسب. معظم الوفيات المحلّية سببها الملاريا أو السل، وتشيع أيضاً لدغات الأفاعي والحوادث.

كان مدير المزرعة هو هنري تومبسون، والد ليديا. فيما كان ويليام يتوقّف

بسيارته، شاهد حلقة صغيرة من الناس. كانت هيئة تومبسون النحيلة تحوم قرب ضابط شرطة سيخي طويل وممتلئ، مع شرطيه الماليزي. وقدّم الضابط نفسه باسم الملازم جاجيت سينغ، مفتش في شرطة دولة مالايو الاتحادية. كانت إنجليزيته ممتازة. وخمّن ويليام أنه، مثل العديد من ضباط الشرطة في مالايو، منقول من الجيش الهندي، ليرفد الصفّ القليل من الضباط المدربين.

قال: «وجدنا الجثّة بعد الظهيرة. ويبدو أنّه هجوم حيوان مفترس. ولكن لا نستطيع استبعاد حدوث جريمة. ولم نجد الدكتور رولينغز، وأودّ أن أحدّد سبب الوفاة قبل نقل الجثّة».

وتابعوا التقدّم نحو أعماق مزرعة المطاط. تشتّت ذهن ويليام بتشابه الأشجار، وتساءل عمّا إذا كان قد مرّ بهذه المنطقة من المزرعة.

سأل: «من وجد الجثّة؟».

«أحد عمال المطاط».

كان تومبسون صامتاً، ووجهه النحيل والمضطرب ينظر للأسفل إلى الأوراق اليابسة التي كانا يمشيان فوقها، ثم قال: «لست متأكداً من أن الضحية من عمالي. علينا أن نجري تعداد طابور».

سأل ويليام: «ماذا يجعلك تعتقد أنّها قد تكون جريمة؟».

تردد الملازم سينغ وقال: «من الصعب البتّ في الأمر. لم يبق الكثير من الجثّة».

عندما وصلوا إلى مسرح الجريمة، وكان منحدراً من الأرض تغطيه الأشجار القصيرة، شاهدوا الشرطي الماليزي القابع هناك للحراسة. نهض ببطء وعلى وجهه نظرة ارتياح. واعتذر تومبسون قائلاً: «لا أرغب برؤية الجثّة مجدداً».

وتقدم ويليام. شاهد ذراعاً بارزة من تحت شجيرة. كان عليها شحوبٌ رماديٌّ، وصفٌّ من النمل يزحف عليها. شق ويليام طريقه بين الأشجار، ونحى الأغصان المنخفضة الشبيهة بالأسواط.

وصاح من فوق كتفه: «هل حرّكها أحد؟».

«كلا».

ونظر ويليام للأسفل لبقايا جسد امرأة. ذراعان ممدودتان ما زالتا متّصلتين بالجذع. وجزء من بلوزة خضراء تغطّي أحد الكتفين. وتحت القطن الرقيق، القفص الصدري المثقوب يُظهِر النهايات البيض للعظام المهشّمة والظلام الدامي المجوف. وبدأ الجلد الطريّ بالانسلاخ عن أطراف الجرح. ومن الحوض حتّى الأسفل لا يوجد شيء.

قال ويليام: «أين الرأس؟»، وهو يصارع شعوره بالغثيان. فاحت من الجثّة ومن اليرقات المتحركة البرّاقة؛ رائحة الجيفة التي تثير الغثيان. حُدّد وقت الوفاة ما بين ليلة الخميس وصباح الجمعة، بناء على حجم اليرقات، وحقيقة أنّها تحتاج من ثمانٍ إلى عشرين ساعة كي تفقّس في هذا الجوّ الاستوائي.

وقف الملازم سينغ بحذر عكس اتّجاه الريح التي تحمل الرائحة وقال: «لم نجده. ما زلنا نبحث في دائرة نصف قطرها ربع ميل». وأجبر ويليام نفسه على النظر إلى الجثّة، ولكنّه سبق وأن قرّر سبب الوفاة. «إنه حيوان. تلك الثقوب العميقة على جذعها تبدو علامات أنياب. تمّ كسر العمود الفقري. وكتفاها عليها علامات. وربّما قبض عليها من الرقبة وخنقها أولاً».

«ما قولك إذن، فهد أم نمر؟».

الفهود أكثر شيوعاً من النمور في ماليزيا، وتزيد عليها بالعدد بحوالي عشرة مرات. ويعرف ويليام عدّة سكان التهمت الفهود كلابهم.

لكنه قال: «على الأرجح نمر. فالمسافة بين علامات العضات تبدو أكبر من أن تكون لفهد. وأيضاً، تحتاج لقدر معين من قوّة الفكّين لكسر العمود الفقري. يجب أن تسأل رولينغز، أفترض أنّه هو من سيجري التشريح؟».

كان رولينغز أخصائي الأمراض في المستشفى، وهو يعمل كطبيب شرعي كذلك، وهو الذي تقع على عاتقه مهمة تقدير وتحديد الأسرار الحزينة خلف هذه الجثّة. التقط ويليام منديلاً من جيبه ووضعه على فمه. كان الضغط يزيد من غثيانه.

قال الملازم سينغ: «لا توجد آثار أقدام».

نظر ويليام إلى الأرض التي فرشتها كثرة الأوراق الجافة. وبغياب الأرض العارية، من الصعب أن تجد طبعات أقدام حيوان.

قال: «أعتقد أنّها قُتلت في مكان آخر. ليست هنا دماء كثيرة على الأرض. ولعلّه أخذ هذا الجزء من الجثّة كوجبة طعام ثانية».

كان يعلم أن النمور تعود إلى فريستها مراراً وتكراراً. ومن الصعب أن تجد الأجزاء المتبقية، فنطاق النمور قد يغطي عدّة أميال. وقفزت أفكاره إلى آثار الأقدام الحديثة قرب منزله.

قال الملازم سينغ: «سأحضر مقتفي أثر مع كلاب. ولكن ثمة شيء لا يبدو لي معقولاً. ألا يصدمك أنّه لم يأكل منها الكثير؟ النمور تلتهم البطن أولاً، وليس الأطراف. وهنا الجذع سليم تقريباً». ومثل العديد من السيخ كان طويلاً ونحيلاً، وتجعله عمامته البيضاء أكثر مهابة وتأثيراً. وعيناه المحمرتان النفّاذتان كانتا مسمّرتين على الجثّة.

أخذ ويليام نظرة أخيرة وتيبّس. على الثدي الايسر، حيث الجلد الرمادي لا يزال سليماً، هناك ندبة بشكل فراشة لا يمكن أن يخطأها. كان يعرف هذه العلامة على نحو حميمي، وقد دفع النقود ليمرّر عليها أصابعه. والآن، حتّى المنديل الذي ضغط به على وجهه لا يمكنه حمايته.

اندفع ويليام مبتعداً عن الشجيرات وتقيّأ قرب شجرة.

10

إيبوه

الأحد، 7 حزيران

عدتُ إلى دكان الخياطة بوجه مخدوش وعين متورّمة. ورغبت في أن أشقّ طريقي للداخل بهدوء، لكن فتحت لي السيّدة تام الباب بمجرد أن سمعت قرقعة مفاتيحي.

«انظري لوجهك! ماذا جرى لك يا جي لين؟ هل تورّطت بمشاجرة؟ هل راجعتِ طبيباً!؟».

أخبرتها أنّني انزلقت وسقطت. ولم تكن قصة محكمة، فانتظرتُ، حابسة أنفاسي، ليبدأ الاستجواب من جديد، ولكنها، ويا للمفاجأة، لم تفعل. إنما تأمّلتني ثم قالت: «هل ذهبتِ إلى منزلك في فاليم، أخبريني؟».

«نعم».

«وهل قابلتِ زوج أمك؟».

غطّت وجهها نظرةُ شفقة، وأدركتُ أنها أيضاً سمعت الشائعات حول المزاج الحاد لزوج أمي. وشعرتُ بالرغبة للضحك بهستيرية. من بين كلّ الأشياء التي جرت لي نهاية هذا الأسبوع، كان هو آخر من يُلام. والحقيقة أنّه لم يمدّ يده علي أبداً، إذ لم يكن بحاجة لذلك.

منذ البداية، اكتشفتُ أن زوج أمّي يرى أنّ تربية فتاة أمرٌ فيه تقليل من شأنه. كانت تلك مسؤولية تقع على عاتق أمي، ولدى أقل إشارة تدل على الانزعاج، كان يرمق الوالدة فحسب فتعضّ على شفتيها وتوبخني بهدوء. في البداية، لم

أكن أعرف تكلفة ذلك. كان الغناء المرتفع أو التصفير جريمة. وكذلك الردّ على كلامه. ونتيجة أيّ نقاش معه تظهر الوالدة بوجه أبيض، وهي تمسك معصمها متألمة. ودلّت الرضوض على الجزء العلوي من ذراعها على أثر أصابع قاسية أُنشبت فيها. لم تكن أمّي تتحدّث عنها، كما أنّها لم تكن أبداً مثل العقوبات المذهلة التي تُطبّق على شين. ولكن كلانا كان يرتعب من ذلك الخطّ العمودي الذي يظهر على جبينه، بين حاجبيه بالضبط، كما ارتعبنا من ابيضاض منخريه.

وأفترض أنّه يمكن القول أنّه اعتقد أن ما يفعله صحيح وعادل، والأولاد بحاجة للجَلْد ليستقيموا، وعلى الزوجات أن يلزمن حدودهن. وبصراحة، لم أعرف زوج أمّي، وبصراحة لم يكن يعنيني أن أفهمه، كلّ ما أعلمه هو أنّني كرهته.

وأنا أمعن النظر بمرآتي الصغيرة، شعرتُ بالضيق. كانت عظام وجنتي اليُسرى متوّرمة، وهناك خدوش طويلة على وجهي. وكما كان متوقعاً، ظهرت كدمة سوداء على عيني. بدأتُ ثانية بعدّ الأرقام في رأسي بكآبة. تذكرة رقص بخمسة سنتات، حصتي منها ثلاثة سنتات، ما زلت بحاجة لخمسة وسبعين سنتاً في هذا الشهر لسداد دين أمي. وليس أمامي فرصة للعمل وأنا على هذه الحال، وأضف لذلك القلق المفرط الذي أشعر به في معدتي. وعوضاً عن الذهاب ومواجهة النظرات المحدقة، كان الأفضل أن أطلب من هوي أن تخبر ماما أنّني لن أستطيع القدوم يوم الأربعاء. لذا وفي اليوم التالي بعد العمل، ذهبت إلى زيارتها.

كانت هوي تعمل أحياناً في أماكن أخرى في المساء. ولكن كنت شبه متأكدة من أنّني سأجدها في البيت. لم تكن تعيش على مبعدة، ولذلك أصبحنا صديقتين. أحضرت هوي ثوباً إلى متجر السيّدة تام، وأنيطت بي مهمة تعديله. كان ثوباً جميلاً، ذا لون فيروزي رقيق خفيف يشبه زبد البحر. وسألتُها لأية مناسبة سترتديه.

قالت: «لحفلة شاي. هل حضرتِ يوماً حفلة شاي[1]؟».

لم يحصل ذلك. رغم أنّني تلقيت دروساً في الرقص من قبل.

---

(1) حفلات رقص تقام في الصيف أو الخريف من 4م إلى 7م. وسمّيت كذلك لأنها أوّل ما نشأت كانت تُسبق بحفلة شاي في الحديقة ويعقبها الرقص. المترجمة.

قالت: «تبدين كمن يمكن أن يبرع في ذلك». وبين هذا الكلام ومحادثاتنا المضجرة، ارتكبتُ غلطة ورفعت طرف الثوب أعلى مما تقبل به تعليمات السيّدة تام المحافظة. ضحكت هوي وقالت لا بأس في هذا، وكلّما كان أقصر كان أفضل. في وقت لاحق عرفت السبب. وصرنا بحلول ذلك الوقت صديقتين مقرّبتين.

كانت هوي تعيش في بانغليما لين، وهو أضيق شارع في إيبوه. كانت البيوت المزدحمة محشورة بعضها بالبعض، وحبال الغسيل معلّقة في الأعلى مثل رايات ترفرف في الهواء بسرور. قبل ثلاثين عاماً، كان الشارع معروفاً بوجود بيوت الدعارة، والقمار، وأوكار الأفيون، والآن تحتلّ أغلبه المنازل الخاصة. باللغة الكانتونية، كان يسمى سيكوند كونكوباين لين[1]. ولطالما اعتقدتُ أنّه مكان فظيع للقاءات، لأنّ البيوت كانت متقاربة من بعضها بعضاً. حتّى أنّه يمكنك أن ترى كلّ شيء من الطوابق العليا.

بمجرد أن وصلت ناديت: «هوي».

«في الطابق العلوي». أشار مالك المنزل نحو غرفة في المقدمة، وهو رجل عجوز يمضغ بندق التنبول ولذلك يبدو مثل مصاص دم بفمه المصبوغ بالأحمر. وشاهدت هوي مستلقية على بطنها في السرير، وهي تقلب في جريدة. وكانت ترتدي ثوباً قطنياً رقيقاً، ووجهها المكشوف يلمع من مستحضر دهني.

فتحَت عينيها على وسعهما حينما شاهدت وجهي. وسألت: «مع من تشاجرت؟».

«وكيف علمت؟». ووضعت على الطاولة قطعتين من *ناسي ليماك*[2] رزّ مطبوخ بجوز الهند وملفوف بورق شجرة الموز مع دجاج بالكاري *والسامبال* اللاذع[3]. كانت غرفة هوي أكبر من غرفتي عند السيّدة تام، وكانت هناك أقلام طلاء الشفاه ومسحوق وجه ومجلّات مبعثرة في الأرجاء.

---

(1): Second Concubine Lane زقاق المحظية الثانية. المترجمة.

(2) nasi lemak

(3): sambal صلصلة لاذعة.

«من تلك الخدوش أنا أعرف شجارات الفتيات. ماذا حصل؟».

وشرحت لها حادثة الأمس ونحن نأكل.

قالت وهي تفتح رزمة *ناسي ليماك* بامتنان: «إذن الأرملة من فعلت بكِ ذلك».

تنهّدتُ وقلت: «حسناً، لا يمكنني لومها، كانت غاضبة جداً».

«أخبرتك أن لا تذهبي! آمل أنّك لم تكوني وحدكِ».

«أخي رافقني».

«لم أعلم أن لك أخاً. هل يشبهك؟ إن كان يشبهك أود أن أقابله». كان شعري القصير يبهج هوي، وكانت تساعدني في تسريحه بإضافة دهن الشعر الجديد الذي يحافظ على مظهره الناعم.

«نحن لسنا متشابهَين. هو أخي غير الشقيق. ولا تربطنا قرابة دم».

قالت: «آه، هل هو فظيع». وجعّدت أنفها. كانت هوي تعرف القليل عن زوج أمي، فأنا أحاول أن لا أتكلم عن شؤوني المنزلية.

أشحتُ بنظري وقلت: «أبداً. فقد اتضح أنّه صيّد ثمين. على الأقل بنظر نساء فاليم».

انفجرت بعاصفة من الضحك. ثم قالت: «اسمعي. أردتُ إخباركِ أنّه من الأفضل أن لا تأتي إلى العمل لبعض الوقت. جاء رجل يوم الأحد وسأل عنك بالتحديد. ولم يذكر اسمك المستعار، لويز، بل اسمك الحقيقي».

غاصت روحي. فالزبون الوحيد الذي كشفت له اسمي بلا قصد هو رجل المبيعات. سألتها: «وما شكل ذلك الرجل؟».

«صينيّ. عادي. وأخبرته أنّه لا يوجد أحدٌ هنا بهذا الاسم».

وأردت أن أعانقها. وقلت: «ثم؟».

«رحل. ربّما كان يبحث عن الإصبع. هل تركتها عند الأرملة؟».

«لم تقبل أن تأخذها». وتذكّرت ذلك المشهد في البيت الخشبي الصغير. وآه يوك تتلوى وتنوح على الأرض مثل أفعى لها وجه امرأة، وشعرت باضطراب عميق.

«ومن أخذها إذن؟».

«أخي». وسألتُ نفسي، ماذا ينوي شين أن يفعل بها؟

تنهّدت هوي. وهبّ نسيم المساء الدافئ من النافذة المفتوحة، وأمكننا سماع رنين أجراس الدراجات، وخبطات الأقدام العابرة.

«أين تجدين هؤلاء الرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم؟ لقد سئمت حتّى الموت من الرجال الذين أقابلهم».

ولم أفكر بالموضوع بهذا الاتّجاه من قبل، ولكن أفترض أنّها محقة. «كنا قريبين من بعضنا البعض حينما كنّا صغاراً، ولكنّنا لسنا كذلك الآن. لقد أصبح زير نساء».

ضحكت هوي بصوت عالٍ وقالت: «أنا على يقين من أنّه ليس سيئاً إلى هذه الدرجة».

اضطررت للابتسام وقلت: «هو يعمل في باتو جاجاه للشهور قادمة».

«باتو جاجاه؟».

ولوّحت هوي بالجريدة أمامي وقالت: «هل سمعت عن هذا؟ لقد وجدوا جثّة يوم الأحد. هناك حيوان طليق يفترس البشر».

كانت مقالة قصيرة، من فقرة أو اثنتين لا بُدّ أنّها كُتبت لتُطبع على عجالة.

«*عُثر على جثّة في مزرعة المطاط في باتو جاجاه. جذع امرأة بلا رأس اكتشفه عمال المزرعة*».

كان نمراً. بين الحين والآخر تتابع الصحيفة تقارير مرعبة عن أناس تخنقهم أفاعي البايثون، أو تلتهمهم التماسيح، أو تسحقهم الفيلة. ولكن النمور شيء آخر. تدعى *بالداتوك*[1]، وهو لقب يدل على التبجيل، إذا غامر شخص في الدخول إلى الأدغال فعليه أن يقول كلمات سحرية لاسترضاء نمر. وقيل أنّ النمر الذي افترس العديد من البشر يمكنه اتخاذ شكل إنسان والتجول بيننا.

ولم تكن لهذا أيّة علاقة بي أو بشين، ولكنّني شعرتُ بتلك اللمسة الباردة

---

(1) Datuk

لذلك الظلّ مجدداً، الشبح الذي يعوم في الأعماق المائية لمخاوفي، كما لو أنّه يبحث عن شيء ما.

* * *

وبحلول يوم الجمعة، لم يبقَ سوى الكدمة السوداء حول عيني، وتحوّلت إلى لون أصفر مخضر. ولحسن الحظ، فقد اختفى الورم، وقرّرتُ أنّه بإضافة المكياج بطريقة ماهرة، سأكون قادرة على متابعة العمل في صالة الرقص في نوبة المساء. ثم كنت بحاجة شديدة للنقود. فالأرقام تابعت المرور في رأسي صعوداً ونزولاً بالحبر الأحمر، يا له من عجز مالي مخيف. التقصير عن قسط حان أجله قد ينجم عنه إرسال تذكير قذر من قبل المرابي إلى بيت زوج أمي. وأقنعت نفسي أن مخاطر الرجل الذي يبحث عنّي من أجل الإصبع كانت ضئيلة، وربّما شطب ماي فلاور من قائمته.

كانت أمسية بطيئة. والشمس تلتهب في الخارج، وفي البرودة المعتمة لصالة الرقص، كانت المشروبات المثلجة تجارة نشيطة. ولم أشارك خلال بعض الرقصات، وتبادلتُ الحديث مع بعض الفتيات الأخريات. إذ لم تكن هوي تعمل في أيام الجمع، ولكنّني كنت قد صادقت امرأتين هما روز وبيرل. كانت روز أرملة، أمّا بيرل فلم تخبرني عن وضعها، ولكني أظنّ أنّها هاربة من زوجها. وبالطبع، هذان ليسا اسميهما الحقيقيين، أيضاً. ولو كان لي حق الاختيار لفضّلتُ أن يكون اسمي ماي أو ليلي، شيء جميل وخفيف ليس مثل اسمي الصينيّ الجاد. ولكن سبق السيف العذل، ولصق بي اسم لويز. وفي الحقيقة، كان الزبائن يشيرون لي بتصفيفة شعري. فيقولون عادة: «أريد الفتاة التي تشبه لويز بروكس». ويوجهون إصبعهم نحوي، فأقف وأضطر للابتسام بسعادة كما لو أنّه عيد ميلادي.

كان هذا يومي الثالث والخمسين تحت اسم لويز. وبالكانتونية ثلاثة وخمسون لفظة متجانسة تشبه بلفظها عبارة «لا يمكن أن يعيش». إنّه يوم آخر برفقة رقم مشؤوم، وهو تاسع يوم بعد أن راقصت شان يو شونغ رجل المبيعات سيّئ الحظ. كانت روز قد انتهت للتو من إخبارنا كيف أنّها بقيت مستيقظة طوال الليل لأنّ ابنتها الصغيرة كانت مصابة بسعال شديد، وقالت فجأة: «آه، لقد عاد!».

رأيت زبوناً يدقق النظر فينا. كان وجهه رفيعاً وذقنه معوّجة، كما لو أن رأسه علق في ملزمة. وخمّنت أنّه الرجل الذي نبّهتني هوي عنه. فنهضت مذعورة. ولكنه كان أسرع مني.

قال لي: «هل يمكن أن تشاركيني بهذه الرقصة؟».

تردّدت، ولكن عين ماما حطت علي كعين النسر. ولم يكن عندي سبب للرفض، ومن الفزع اشتدّ في معدتي الألم. وأدهشني أنّه راقص ماهر. تمايلنا حول المسرح عدداً من المرات، وبدأت أفكر أن شبهاتي لا أساس لها حينما قال: «لا بدّ أنّك أنت جي لين».

أرغمت نفسي على الابتسام وقلت: «يمكنني أن أكون كذلك إذا أردت. ولكن أخشى أن اسمي هو لويز».

«أنا أبحث عن فتاة أخذت شيئاً الأسبوع الماضي. هو ملكاً متوارثاً في عائلتي».

وللحظة انجذبتُ لفكرة الاعتراف بكل شيء. فقد أدّيت واجبي تجاه عائلة البائع. ولكن الإصبع ليست معي، ولو أن شين أتلفها، فقد يغضب هذا الرجل. وتملّصتُ قائلة: «كيف يبدو هذا الشيء؟».

«إنها إصبع تعود لأحد أسلافنا من الصين، ملك للعائلة تتناقلها منذ أجيال. واقترضها مين صديقي الأسبوع الماضي. وقال إنّه فقدها هنا».

وحاولت أن أتصنع الدهشة وحتى الرعب. قلت له: «إصبع؟».

راقبني بإمعان. وتساءلت هل كان يكذب. فحسب أقوال زوجة البائع، كانت الإصبع بحوزة زوجها طوال آخر ثلاثة شهور.

«سأبحث لك عنها».

قال وهو يحدّق بجدية: «أخبريني بالنتيجة. يمكنك أن تتركي لي رسالة في هذا المكان».

وسجّل عنوان مقهى في ليش ستريت ومعه الاسم التالي: السيّد ي.ك. ونغ. وعلت وجهه ابتسامة كشفت عن أسنانه الحادة وقال: «إن وجدتها سأهبك جائزة. لأسباب عاطفية».

وبعد ذلك، رقص مع عدّة فتيات أخريات، وأكّدن لاحقاً أنّه سألهن نفس الأسئلة، إن كن يحملن اسم جي لين، وإن وقعت أياديهن على شيء ما، ولكنّه لم يخبرهن أنّها إصبع مفقودة. وتذكرت الطريقة التي تقدّم بها مباشرة نحوي بمجرد دخوله والرعشة التي تسللت إلى مؤخرة عنقي.

قالت روز: «لقد تفاجأتُ أنّك حضرتِ اليوم». وكانت تهوّي نفسها بمروحة خلال فترة استراحة، فيما شرب أفراد الفرقة الصودا والماء ومسحوا حواجبهم. وبالرغم من مسحوق الوجه، إلا أنّ جبينها كان يلمع مثل الأرضية الخشبية للصالة، وكنت متأكدة أنّني لست أبدو أفضل منها.

«أنا بحاجة للنقود».

قالت روز: «إذا كان الأمر كذلك، هل تريدين الحصول على مزيد من النقود؟».

هززت برأسي وقلت: «لكن بلا دعوات للخارج».

وهذه الدعوات تتمثّل بطلب رجل من فتاة أن ترافقه خارج صالة الرقص، وظاهرياً لكي يأخذها للتسوق أو لتناول وجبة طعام. وتكون في العادة مكسباً مربحاً، ولكن، طبعاً، ما من شيء بلا ثمن. وكنت نوّهت للماما منذ أوّل يوم أنّني لا أفعل ذلك. وحادثة اليوم مع السيّد ي.ك. ونغ، وأنا لا أضمن أن هذا هو اسمه الحقيقي، ذكّرتني كيف كنتُ عرضة للخطر مع شخص غريب. هذا مع أننا لم نكن وحيدَين، كنّا نرقص علانية أمام عشرات من الحاضرين.

«إنها ليست دعوة للخارج. لديّ زبون يسألني عن فتيات يرقصن في حفلات خاصة. ووعَد بعدم حدوث حماقات».

«لا توجد حفلة خاصة تخلو من الحماقات».

ابتسمت روز وقالت: «تفكيرك مثل الجدّات! عموماً أنا أيضاً لم أكن متحمسة، وأخبرته أنّ علينا أن نحصل على إذن الماما في صالة الرقص أولاً، لكي أصرفه فحسب. ولكنه فعلاً ذهب وطلب منها الإذن ووافقت!».

«هل وافقت؟». واجهتُ صعوبة في تصديق ذلك.

«حسناً، سوف تحصل على عمولة جيدة، وقالت إنّها سترسل معنا حارساً

وستستأجر لنا سيارة، هم يريدون أربع أو خمس فتيات لأنّ بينهم الكثير من العازبين الذين يرغبون بالرقص. وستكون الحفلة في باتو جاجاه».

سكتُّ للحظة ثم قلت: «هل الحفلة في المستشفى؟». إذا كانت كذلك فلا يمكنني الاشتراك. ليس لدي أيّة نيّة للكشف عن عملي السريّ سيّئ السمعة أمام شين.

«كلا، في بيت خاص في شانغات». سمعت بشانغات. وهي منطقة سكنية رئيسية تقع في أعلى باتو جاجاه.

«وهل هذا يعني أنهم أجانب؟».

«وهل لديك مانع؟».

معظم الزبائن في ماي فلاور من المحليين ولكن أحياناً يتواجد بعض الأوروبيين بين الحشود. ليس بأعداد كبيرة كما في فندق سيليستيال هوتيل الفخم. ولكن بعدد قليل منهم في بعض الأمسيات. ومعظمهم مزارعون أو موظفون مدنيون أو رجال خدمة أو شرطة. وراقصتُ عدداً قليلاً منهم، ولأكون صادقة، فقد جعلوني أشعر بالتوتر.

وهذا يفسّر قبول الماما السريع بالأمر، وكما ويفسر حرصها الشديد على توفير حارس وسيارة أجرة.

«وستأتي هوي أيضاً، وسيكون المبلغ مضاعفاً».

هذا يكفي لتغطية ما فاتني. وإذا رغبت هوي أن تذهب، وهي دائماً حريصة على نفسها، إذن سأذهب أنا.

في الوقت الذي أنهيت فيه العمل، كانت الشمس البرتقالية منخفضة في الأفق. قامت روز وبيرل بنوبة المساء، لذا كنت وحدي حينما توجّهت إلى باب ماي فلاور الخلفي للخروج. ولم أفهم كيف تتدبران البقاء واقفتين كلّ هذه الساعات الطويلة، ولكن يمكنهما الرقص حتّى ما بعد منتصف الليل.

كان لدى بيرل ابن، ولدى روز ابنتان صغيرتان. هل كان الأطفال ينتظرون عودة الوالدة إلى البيت، وهم يراقبون المصباح النفطي يلتهب في الظلام؟ لو لم

تتزوج أمي، كان هذا سيكون مصيري أيضاً. غير أني لا يمكنني تخيلها تعمل في صالة للرقص. كانت خجولة جداً، وساذجة جداً. وحتى الآن وهي في هذا العمر، وجدت نفسها وقد تراكمت عليها ديون من مجرد لعبة بسيطة كالماهجونغ. وتساءلت، للمرة المائة، هل فعلاً هي خسرت في اللعب أم كانت ضحية للغشّ.

بعد تسديد كلّ الدين، سأدّخر وأتدرب لأكون معلمة. ولا يهم ماذا سيعتقد زوج أمي. كنت مقتنعة أنّه سيرغب في النهاية بالتخلص منّي عوضاً عن أن يتعامل مع عانس في المنزل. بالإضافة، قلتُ إنّني لن أتزوج، مع أن أمّي بدأت تدفعني نحو الخاطبات. ولا زلتُ عند وعدي الذي قطعته مع شين منذ أمدٍ بعيد حينما كنّا طفلين نتهامس في غرفته. لم أرَ أيّ فائدة من الزواج، خاصة وأنّ الشاب الذي أريده سيقترن بغيري.

أعرف أنّ لا جدوى من انتظار مينغ بعد الآن، على الرغم من أنّني في أكثر أوقاتي شرّاً كنت أتصوّر أن خطيبته ستهجره. أو لعله فجأة ينتبه إلى أنّه ارتكب خطأً فادحاً وعاد ليعرض عليّ الزواج. تخيّلته وهو يتقدم في الطريق الترابيّ على دراجته السوداء الثقيلة، وشعره العنيد منتصب. ويقول لي: «لي جين. يجب أن أكلّمك»! وهو يبدو محرجاً وجاداً بنفس الوقت، بهيئته كقارئ كتب. ثم أركض نحوه، كلا، بل أنزل برزانة على السلالم، وأستمع له بقلب خافق. ولكنّني عندما أصل لهذه النقطة أفقد اندفاعي، على الرغم من أنّني قادرة على أن أتخيل الكثير من الأشياء الجيدة التي سيقولها مينغ. ولكن ببساطة لن يحصل ذلك. فهو لا ينظر لي قطّ بالطريقة التي ينظر بها إلى خطيبته.

كانت صالة ماي فلاور تقع في ضواحي إيبوه، وهو مكان بعيد جدّاً عن السيّدة تام. ولأنني فوّتُّ الحافلة، فقد قررت رغم الظلام الذي بدأ يخيم، أن أمشي جزءاً من الطريق. كان وقت العشاء، وأمكنني شم رائحة قلي السمك، وسماع الصوت المخشخش للراديو وهو يبث أوبرا صينيّة. عبرتُ الشارع، وبالكاد تجنّبت درّاجة هفّت مسرعة بالقرب مني. ومن زاوية عيني، شاهدت رجلاً يتبعني، ولكن النور كان ضعيفاً فلم أتمكّن من تمييز وجهه.

حذرتني هوي والفتيات الأخريات من زبونٍ غير دائم، كان ينتظر في الخارج.

وقالت بيرل إنها في مرّة لاحقها رجل طوال الطريق إلى البيت، وهدّدته أمّها بسكّينة المطبخ.

سألت: «وهل رحل؟».

«طاردَته وهي تصيح أن زوجي كان جزار خنازير!».

وضحكنا من ذلك وقتها، ولكن الآن رغبت من قلبي أن يكون لي قريب يعمل جزار خنازير. وأياً كانت هوية الذي لاحقني لكنّه كان بعيداً عنّي بمسافة حذرة. وكلما أسرعت، أسرع أيضاً. وإذا توقّفت، انسلّ خلف عمود. تواريت تحت *التشك*[1] أو الستارة المتدلية المصنوعة من البامبو، في متجر السلع الجافّة[2]، كانت الرفوف مكتظة بجِرار الحلويات الزجاجية، ومَقالٍ مصنوعة من الحديد، وقباقيب خشبية. كان وقت الإغلاق قد حان تقريباً، كما قال صاحب المحل، وهو رجل مسنّ يرتدي قميصاً داخلياً أبيض.

قلت له: «من فضلك، هل لديك باب خلفي؟ هناك رجل يلاحقني».

ولا بدّ أنّني بدوت مرعوبة لأنه هزّ رأسه موافقاً وقال: «اذهبي عبر المطبخ».

أسرعت في المتجر المنزلي الطويل، وأنا أعتذر من العائلة التي داهمتُها وهي تتناول حساء السمك والتوفو المقلي. قادني الباب الخلفي إلى زقاق ضيّق بين المتاجر المنزلية. وطبعاً كان من الحكمة أن أبتعد بأسرع ما يمكن، ولكنها كانت فرصة لا يمكن تفويتها، لذا وبهدوء، تلصّصتُ حول الزاوية.

وقف الرجل الذي يلاحقني محدّقاً بمتجر السلع الجافة. كانت المصاريع قد أُغلقت، ومن الواضح أنّه كان متحيراً لأنني لم أخرج بعد. وعرفته مباشرة. وكما كنت أخشى كان هو نفس الشاب ذي الوجه الطويل الذي سألني عن الإصبع، ي.ك. ونغ. وتشنّج كتِفاي. من الأفضل بطريقة أو أخرى، أن لا أعود إلى ماي فلاور لبعض الوقت.

---

(1) Chik

(2) هناك نوعان من الأسواق الآسيويّة يُصنّفان وفقاً للسلع التي تباع فيهما؛ الجافّة وهي الحاجيات واللوازم، والرطبة وهي اللحوم والخُضر، كما ورد في موضع آخر تحت مسمّى السوق الرطب.

اختصرت طريقي عبر الشارع المترب الخلفي، وناديت على عربة ترايشو[1]، وتركت مُطاردي ينتظرني بلا جدوى أمام المتجر. وأمِلت أن يلبث هناك لوقت طويل. وبينما استمعت لصرير الدوّاسات ودحرجة العجلات في الغسق المخملي المنسدل، أغلقتُ عينيّ وتمنّيتُ بشدّة لو أنّني أستطيع مغادرة هذا المكان. أن أترك كلّ شيء خلفي وأبدأ من جديد في مكان آخر.

وأدهشني عندما عدتُ إلى البيت، أنني وجدتُ السيّدة تام تقف بانتظاري في الغرفة الأمامية. وبدت متحمّسة وفي نفس الوقت معكّرة المزاج قليلاً، وهو تعبيرٌ لاحظته بانقباض صدر.

سألَتني: «أين كنتِ؟».

«انتهيتُ للتو». ولم أتأخر أكثر من وقت عودتي المعتاد في أيام الجمعة.

قالت ووجهها الشبيه بالطير يشتعلُ سخطاً: «أحد القوانين في هذا البيت، ممنوع استقبال الرجال. لا يمكن أن أتخيل يا جي لين ما الذي كنتِ تفكرين فيه حينما تجرأت على دعوة رجل ليأتي وينتظرك هنا».

جفلتُ فزعاً. فقد تركتُ الرجل الغامض السيّد ي.ك. ونغ واقفاً في الشارع في الطرف الآخر من البلدة. فكيف تمكّن من العثور على دكان الخيّاطة؟ هذا يشبه السحر، هذا الرجل شيطان. أو ربّما كان له قرين، نسخة تنذر بالموت.

قالت: «وقف في الشارع لوقت طويل. واعتقدت من تحديقه بالمتجر أنّه كان ينتظر زبونة، ثم أخيراً أتى وسأل عنك. وعندما أخبرته أنّك غير موجودة، غادر فوراً. ولكن علي أن أعترف، أنّه كان وسيماً».

قلت: «آه». فقد انبلج نور الحقيقة وتابعتُ: «هل كان أخي؟».

«أخوك؟ ولكنّكِ لا تشبهينه».

ولم أرغب أن أشرّح أكثر من ذلك. لأنّ السيّدة تام سمعت بالتأكيد نبذة عن

---

(1) trishaw عربة خفيفة تشبه الدرّاجة، ولكن بثلاث عجلات ومقعد خلفي لركوب الزبائن. المترجمة.

تاريخ عائلتي، وكانت متحمّسة للتحري أكثر، فقلت ببساطة: «هذا ما يقوله الناس في كثير من الأحيان».

قالت بغضب: «لو أنّه أخوك لماذا لم يخبرني؟ لقد أقلقني جداً».

ولم تكن عندي أدنى فكرة بصراحة. هل أعطت أمّي هذا العنوان لشين؟ ولماذا حضر في هذا الوقت المتأخر من المساء؟ لقد كان هذا اليوم حافلاً بالألغاز.

11

باتو جاجاه

السبت، 6 حزيران

كان رين ينتظر متشوّقاً عند الباب عندما عاد ويليام. قال: «*سلامات داتانغ*». أو مرحباً بك في البيت. هذه هي الطريقة الصواب لتحية سيّده، يجب على الخدم الوقوف في صف عند الباب ساعة وصوله ومغادرته. ولطالما فعل رين ذلك عند الدكتور مكفارلين. واعتاد الدكتور العجوز أن يمزح بهذا الشأن فيقول إنّه لا يشعر بشعور طيب لو أنّه غادر البيت دون تحيّة ووداعٍ لطيفة من رين. واليوم، انضم له آه لونغ، وتحرّك وجهه المتحفّظ عادة، وهو يستلم الحقيبة الطبية من ويليام.

«هل هو نمر يا *توان*؟».

قال ويليام: «على الأغلب. أريد منك إغلاق الأبواب في الليل. ولا تغادر البيت بمفردك في المساء أو في بواكير الصباح. وهذا ينطبق عليك يا رين».

هزّ رين رأسه علامة على الطاعة. وفكّر أن الطبيب الجديد يبدو مريضاً. كان وجهه شاحباً مثل بطن سمكة. ووقد بدت عيناه من خلف النظارة الرقيقة المؤطّرة؛ محتقنتان بالدم. وأراد رين أن يسأله العديد من الأسئلة، ولكنه تردّد. وتساءل كيف يمكنه أن يفتح الموضوع.

لكن آه لونغ قال: «من الذي مات؟».

مسح ويليام عينيه بيده وقال: «عاملة في مزرعة». وأضاف: «أنا بحاجة إلى

حمّام وشراب. ويسكي *ستينغاه*[1] رجاء».

توجّه ويليام إلى الحمام القرميدي، حيث سيغسل نفسه بدلو يغمره في إناء فخاري مليء بالماء. عاد آه لونغ إلى رين وقال: «هل تعرف كيف تحضّر الشراب؟».

نظر إليه رين محتاراً. كان الدكتور مكفارلين يشرب من تلك الزجاجات، لكنه لم يطلب منه أن يمزجها.

قال آه لونغ: «الآن وقت مناسب لكي تتعلم. راقبني».

كلمة *ستنغاه* تأتي من كلمة ماليزية *سيتينغاه*، وتعني نصفاً. أحضر آه لونغ كتلة من الثلج من صندوق التبريد الذي في المطبخ، وكان مدفوناً في نشارة الخشب. وكسّر الكتلة إلى قطع بمعول الثلج، وملأ بها كأس شراب طويلة. وحذّره بالقول: «لا تجعل قطع الثلج أصغر من اللازم. وإلا ذابت بسرعة».

وفي الخطوة التالية، ملأ ثلث الكوب بسائل كأنّه طبيّ وله لون الشاي، وسكبه من زجاجة مربعة كانت عليها صورة رجل بقبّعة سوداء طويلة وبنطالٍ أبيض. وفوقه العبارة التالية: جوني ووكر *بليندِيد* سكوتش *ويسكي*. كان الاسم مكتوباً على رقعة ملصقة بإهمال على الزجاجة.

سأل رين: «لماذا الرقعة مائلة؟».

«ليست مائلة. أنّها هكذا فحسب. والآن راقبني جيداً!».

بواسطة سيفون الصودا، وهو قنينة زجاجية مغلّفة بأسلاك معدنية، لم يجرؤ رين على لمسها، سكب آه لونغ شيئاً من الصودا الفوّارة في الكأس المثلجة. والنفحة الحادّة المكربنة[2] جعلت رين يشنّف أنفه.

ثم قال: «يجب أن يكون الماء والويسكي بنفس المقدار تقريباً». ورفع رأسه بانتباه وأضاف: «ربّما انتهى الآن. احمل الكأس إلى الشرفة».

---

(1) whisky *stengah*

(2) carbonation: الكربنة، وهي عملية كيميائية تتضمّن إحلال ثاني أوكسيد الكربون في السائل. كما في المشروبات الغازية. المترجمة.

كانت الشرفة الواسعة المصنوعة من ألواح خشب الساج الخشب تمتد على طول المنزل، وتظلّلها من الشمس ستارة *التشك* المتدلية المصنوعة من البامبو. وفي الأيام القائظة، يبلل رين الستارة بالماء ليبرد الشرفة بالتبخير. جلس ويليام على كرسيّ مريح من خشب الراتان. وكان يرتدي قميصاً تحتانياً قطنياً وإزار السارونغ، وهو قطعة فضفاضة من القماش منقوشة بالمربّعات مخاطة بشكل أسطواني وتُرتدى ملفوفة حول الخصر، وهو زيّ ماليزي شائع بين الأوروبيين في البيت، ولكنّهم لم يكونوا يظهرون به، ولا حتّى في خيالهم، على الملأ.

ومثل آه لونغ، لا يلبس رين أحذية في البيت، وقدماه الناعمتان تقتربان بهدوء حتّى أن ويليام لا يسمع وقع خطواته. كان غارقاً في أفكاره. وتعبيرٌ من البؤس على وجهه. ولم يشاهد رين قطّ سيده الجديد وهو يبدي مثل هذه المشاعر من قبل، وتساءل عمّا إذا كانت هذه علامة على كونه طبيباً عطوفاً بحق. فاشتعلت شرارة أمل في قلب رين. فربّما يمكنه أن يسأله عن الإصبع، وإن أوصاه الدكتور مكفارلين أن لا يخبر أحداً.

قال: «الويسكي يا *توان*».

تناول ويليام الكأس، وعلا وجهه وهو يشرب نصفها تعبيرٌ خاصّ.

قال رين: «هل لي بسؤال، لماذا تعتقد أن القاتل نمرٌ؟».

كان رين مهذباً وهادئاً، فلم يُزعج ويليام.

ردّ الدكتور: «الفهد احتمال. ولكنّه على الأغلب نمر. ولن نتأكد حتّى ينتهي التشريح».

«وهل سيعود النمر؟».

بذل ويليام جهداً لكي يركّز نظراته على الصبيّ وقال: «لا تقلق. فالنمور التي تفترس البشر نادرة الوجود. ومعظم النمور تهرب من الناس. وبالعادة فإنّ الحيوان العجوز أو المريض هو الذي يفترس البشر». وفرقعت قطع الجليد في مشروبه فيما كان يحرّك كأسه.

وتابع: «النمور التي تقتل البشر مقسّمة لنوعين: قتلة البشر؛ وتقتل مرّة أو اثنتين

لأنها منزعجة أو مهددة، ومفترسات البشر التي تصطاد الناس بشكل روتيني كفريسة. ومن المبكّر تحديد ما هو نوع الحيوان الذي نحن بصدده هنا، لذا لا داعي للذعر».

كان يتكلم بتأنٍّ، كأنّه يقدّم قضية أمام جمهور غير مرئي.

سأل رين: «وهل ستطاردون النمر؟».

«دائماً ما يوجد من يرغب بصيد النمور. مثل رينولدز وبرايس في النادي. إنهم أغبياء لا يعرفون كيف يطلقون النار لإنقاذ أنفسهم. آخر مكافأة دُفعت مقابل صيد نمر هنا كانت ثمانية وسبعين دولاراً».

ثمانية وسبعون دولاراً مبلغ ضخم بالنسبة لرين، أكثر ممّا يحلم يوماً بادّخاره. وتساءل من أين لويليام هذه الدراية فسأله بخجل.

قال له: «آه، كنت مجنوناً بالنمور لدى وصولي إلى هنا». وغاص عميقاً في كرسيّه الراتان المريح. كان ويليام ميّالاً للحديث اليوم على غير عادته.

وتابع: «هكذا تعرفت على مكفارلين، كانت لديه معتقدات غريبة».

وجمع رين فلول شجاعته وقال: «كان يؤمن بأشياء كثيرة. عن الأرواح والبشر الذين يمكنهم أن يتحولوا إلى نمور».

«آه، نعم. أولئك المستنمرون المشهورون في كورينشي». وحدّق ويليام من خلال الأشجار إلى وجهة غير مرئية وتابع: «في الواقع رافقته بحثاً عنهم. هل تعلم أن الماليزيين يشكّون بكل إنسان من كورينشي لأنهم يؤمنون أنهم يتحولون إلى نمور؟ قبل سنوات عديدة كان هناك نمر يهاجم الجاموس في بينتونغ. وقد نُصِبت الفخاخ للإيقاع به وفيها كلاب ضالة كطعوم. ولكنّهم لم يصيدوا شيئاً».

بدّل رين من وضع وقوفه، وهو يستمع باهتمام. واستطالت ظلال المساء، ولم يقاطع الصمت الأخضر سوى أزيز الحشرات.

«وفي إحدى الأُمسيات، كان هناك بائع متجول عجوز من كورينشي يسافر عابراً الأدغال حين سمع وراءه زمجرة نمر. ولشدّة رعبه ركض حتّى وصل إلى فخّ نمور. وزحف إليه وأقفل الباب الثقيل خلفه. ودار حوله النمر، ولمّا لم يتمكّن من فتح القفص انصرف عنه. وفي الصباح التالي، سمع الناس الرجل يصيح مستغيثاً.

وطلب منهم إطلاق سراحه، فقالوا له إن نمراً كان هنا بالأمس والآن أنت واقع في فخ لاصطياد النمور. ولما كانت قد انمحت آثار المخالب التي تقود إلى القفص بخطوات الناس المتجمعين. لذا كان من المستحيل التأكد ما إذا كان الوحش قد انصرف أو أنّه دخل الفخ وتحوّل إلى إنسان. توسّل لهم العجوز يائساً، طالباً منهم أن يتأكّدوا من شخصيته. فهو نفسه البائع الذي يعرفونه منذ سنوات طويلة. ولم يتمكّن القرويون من اتخاذ قرار هل كان إنساناً، أو وحشاً سيهاجمهم إذا حرروه؟».

سأله رين: «وماذا جرى بعد ذلك؟».

قال ويليام: «ألقوا رمحاً من بين قضبان القفص وقتلوه». ثم صمت.

وكان رين لا يزال يحمل الصينيّة، والأسئلة تموج في داخله. فسأله: «هل تعتقد أن الإنسان يمكن أن يتحوّل إلى نمر؟».

أغلق ويليام عينيه وشبك أصابع يديه وقال: «يبدو أنّ حالات تحول الإنسان إلى نمر تناقض بعضها البعض. فهو إما أنّ يكون قدّيساً أو شرّيراً. وفي حالة أن يكون قدّيساً سيُعتبر النمر من *الكرامات* وسيكون روحاً حارسة، والشرّير هو أيضاً حالة تناسخ بشكل نمر وهي عقوبة. ولا تنس هناك أيضاً الـ(*هاريمو جاديان*) الذين هم ليسوا بشراً حتّى، وإنما وحوشٌ ترتدي جلوداً بشرية. هذه كلّها معتقدات متناقضة، ولذلك يمكنني أن أصنّفها على أنّها جزء من المأثور الشعبي».

فتح عينيه. كانتا ثاقبتين على نحو مقلق، كما لو أنّه استيقظ فجأة من المكان الذي غاص فيه. وقال: «لا تقلق حول حادثة اليوم. آخر شيء نريده هنا هو حالة ذعر بسبب الخرافات. انس الموضوع». وأضاف بصوت خافت: «وحده الله يعلّم كم أتمنى لو يمكنني النسيان».

اقتلع ويليام نفسه من كرسي الراتان ووقف على قدميه، وتعثّر قليلاً. وشعر رين بالراحة العميقة. وانحلّ حزام القلق الذي كان يضيّق على صدره، وحاول أن لا يفكر في أنّه بقي اثنان وعشرون يوماً فقط أمام الروح. وهذا الطبيب الجديد حصيف جداً، وعاقل جداً. كلّ ما يقوله له معنى مفهوم. وبطاعة عمياء، تبعه رين إلى داخل البيت.

12

إيبوه

الجمعة، 12 حزيران

لم يأتني النوم في تلك الليلة. وعندما فكّرت بـ ي.ك. ونغ الغامض ذي الفكّين النحيلين والعينين الرفيعتين، ضاق رأسي. من هو، ولماذا حاول أن يتبعني إلى البيت؟ لم أصدّق حكايته عن ميراث عائلي. وتلك الإصبع المنفردة جعلتني مضطربة، مثل قطعة ناقصة من مجموعة مكوّنة من خمسة أعداد. تذكير بعمل غير مكتمل. وظلّ رأسي يدور مرّة بعد مرّة، مثل فأرة في دولاب، ولكن الدولاب تحوّل إلى ثعبان ضخم يحاول ابتلاعي. ثم بدأتُ ألهث، وأصارع بأنفاس مقطوعة وأنا أسقط وأنزلق وأهبط النفق إلى عالم الأحلام.

وبعكس الحلم الأول، لم أطفُ مع تيّار النهر البارد، ففي هذه المرة وجدتُ نفسي على الضفة، وأخذتُ أشقّ طريقي عبر الشجيرات ونبات *اللالانغ* بأوراقه الحادة، لأجد النهر يجري إلى جانبي. كانت المياه المضاءة بالشمس صافية وضحلة عند الحافة، وتصبح ذات لون طينيّ نحو الوسط.

ثم شاهدتها؛ نفس محطّة القطار الصغيرة بمقاعدها المهجورة، ونفس القاطرة، إلا أنّ القطار هذه المرة وقف على مسافة أبعد قليلاً. كما لو أنّه على وشك أن يغادر المحطّة. كانت العربات خالية، لا أحد في داخلها، ولا حتّى الولد الصغير الذي لوّح لي بسعادة متناهية في المرة السابقة. ولكنّني عندما وصلت إلى المحطّة، وجدته يجلس هناك على المصطبة الطويلة. وابتسم لي بلمحة سريعة أبرزت سنّه الأمامي المفقود.

ناداني بتهذيب: «*آه جي*»، أو أختي الكبيرة. «لم أظنّ أنّني سأراكِ مجدّداً بهذه السرعة».

سألتُه: «ماذا تفعل؟». وجلستُ إلى جانبه.

قال: «أنتظر».

كان المكان بارداً وهادئاً تحت سقف المحطّة المصنوع من القش. سألته: «ماذا تنتظر؟».

أخذ يؤرجح ساقيه القصيرتين وقال: «شخصاً أحبّه. هل تحبين أحداً ياآه جي؟».

بالطبع كنتُ أحبّ أمّي ومينغ وشين. وحتى هوي وصديقاتي في المدرسة، مع أنّني كنتُ أتحاشاهن مؤخّراً حفظاً لكرامتي، فعدّة فتيات من المدرسة التحقن بتدريب المعلمّات، وأخريات تزوّجن، وأنا خاب أملي بنصيبي فشعرتُ بالمرارة ولم أعد أحتمل مواجهة أحد.

قال بجدية: «لأنّه إذا كان هناك شخص تحبّينه حقاً، فلا بأس من انتظاره».

تلاشى اضطرابي حينما جلستُ بقربه. وكانت نسمات النهر وديعة، وانعكست أضواء الشمس على المياه كأنها حراشف أسماك.

قال لي: «إذا رأيت أخي، رجاء لا تخبريه بهذا اللقاء».

«وهل أعرف أخاك؟». وشعرت بثقل في رأسي. وبالكاد أمكنني إبقاء عينيّ مفتوحتين.

قال: «سوف تتعرفين عليه حالما ترينه». واستدار الصبيّ الصغير نحوي واتسعت عيناه بانتباه. وقال: «لا تستسلمي للنوم أرجوكِ! إذا فعلتِ سوف تسقطين».

كنت أواجه صعوبة في فهمه، فسألته: «أين أسقط؟».

«إلى المستوى الأدنى. هذه هي المحطّة الأولى كما ترين. أرجوكِ لا تنامي! استيقظي!».

وصنع ضجة عالية، وظلّت الضربات تعلو أكثر وأكثر، حتّى أُجبرت على فتح عيني الغائمتين. «استيقظي يا جي لين! استيقظي». وكان ذلك صوت السيّدة تام وهي تقرع على باب الغرفة بعنف.

كان الضوء ينساب من خلال ستائر النافذة. وجدتُ نفسي في السرير، مشوّشة.

اقتحمت السيّدة تام الغرفة، وريشها منفوش[1]. لا بدّ من أنّ شيئاً ما قد حصل! لأنها كانت، وعلى نحو أكيد، تغلي من الحماسة.

قالت: «إنه في الأسفل، أخوك، هذا كلّ شيء. وأعتقد أنّه حضر ليأخذك إلى البيت في فاليم».

«حقاً؟».

«أخبرته أنّني أعلم أنّه أخوك وسألته لماذا لم يخبرني بالأمس عن ذلك؟ وهو بانتظارك في الغرفة الأمامية».

وقعت فريسة الخوف وسألتُها: «هل أمّي بخير؟». إذ لا بدّ أن شيئاً ما قد حصل، وإلا لماذا يأتي شين ليأخذني معه؟ وكنتُ دائماً خائفة من تلقّي رسالة من هذا النوع، ولا بدّ أن الرعب بدا على عينيّ، لأنّ السيّدة تام قالت بلطف شديد: «لا، ليست هناك من مشكلة. فقد سألته منذ البداية. إنّه مجرّد اجتماع عائلي بغاية الاحتفال».

لم تجتمع عائلتنا قطّ، تقريباً، فما بالك بالاحتفالات. وإذا اجتمعنا، فذلك سيكون حدثاً رسمياً، مثل أن يُدعى أصدقاء زوج أمّي لتبادل الحديث لساعات، فيما نقوم أنا وأمي بتقديم عدد لا يحصى من أكواب الشاي. وكان شين يعلم تماماً حقيقة شعوري نحوهم؛ ولم يمكنني تخيّل أنّه جاء ليأخذني إلى المَطهَر.

قالت السيّدة تام: «إذا كانت مناسبة خاصة، لماذا لا ترتدين ثياباً لطيفة؟ ولترى أمّك ماذا كنتِ تتعلمين».

وبالرغم من حرصها، أو ربّما بسببه، كانت السيّدة تام خيّاطة موهوبة وسيّدة أعمال ماهرة. أن ترسلني بثياب أنيقة هو إعلان عن متجرها. وانكبّت تفحص الثياب التي خيطتُها، تنتشلها من المشاجب وهي تهمهم: «كلا. ليس هذا. ربّما هذا. خذيه. أَرِي فتيات فاليم كيف تبدو ثياب فتيات إيبوه».

كان ثوباً على الطراز الغربي، بسيطاً ظاهرياً، ولكنه بتصميم أنيق. وكانت

---

(1) تعبير مجازي عن كونها منزعجة أو قلقة أو مضطربة. المترجمة.

السيّدة تام قد نسخت قالب التصميم من صورة في مجلة. كان لها ذوق جيد، ويجب أن أقرّ لها بذلك.

قالت: «وإذا سألك أحدٌ عن ثوبك، تأكدي من أن تذكري له اسم متجرنا».

ثم أردفت وهي تبتعد: «آه، أصلحي وجهك!»، مشيرة بوضوح إلى عيني.

اغتسلتُ وجهّزت حقيبة بسيطة تكفي لليلة واحدة. ماذا يمكن أن يجري في البيت؟ رفعتُ غرّتي، وأنا أحدق بكآبة بمرآة مستديرة فوق المغسلة. كانت كدمة عيني لا تزال تقريباً بنفسجية ومصفرة. ولم يكن من الممكن أن أسمح لأمي برؤيتها وهي على هذا الشكل، ولذلك بذلت ما بوسعي لأخفيها بقليل من الماكياج والكحل.

وأمكنني سماع صوت شين الخافت في الغرفة الأمامية من المتجر. حملتُ سلّة الراتان ووقفتُ متردّدة أمام الباب. كان من المحرج التأنّق بهذا الشكل في هذا الوقت من الصباح الباكر. ولكن السيّدة تام نهضت، وأزاحت عن حضنها كلبها الصغير، دوللي، وحيّتني بصيحة إعجاب وسرور.

وقالت: «أليس هذا مبهراً؟». وهي تُديرني من جانب إلى آخر.

وأضافت: «إنّ قالب التصميم ذاك انتهى إلى فستان جيّد الصنع. وأختك مثل عارضة أزياء محترفة. أنا أحب أن ترتدي وتعرض الثياب التي أخيطها».

أومأتُ إلى شين بطرف عينيّ. ما معناه: حان الوقت لنغادر! ولكنه كان يمتّع نفسه على حسابي.

قال: «لا يمكنني البتّ في ذلك، ولكي نتأكد، دعيها تدور حول نفسها قليلاً بعد».

ويا لحرجي! إذ أنّ السيّدة تام بالفعل بدأت تدفعني للدوران حول نفسي. وبدأ دوللي ينبح بهيسترية.

قلت: «لا، لا. إنّه يمزح. وعلينا أن نغادر فوراً».

قالت: «ولكن السيّد تام ذهب للتوّ إلى المقهى ليحضر فطائر *تشار سو باو*[1]!».

---

(1): char siew bao فطائر لحم الخنزير المشوي.

وأجبرتني على الجلوس. وحملقتُ بسخط إلى شين فيما كان يقاوم تعبيرات المتعة كي لا تبدو على وجهه.

وقالت السيّدة تام وهي تثبّتنا بنظرات عينيها الخرزيتَين: «والآن! من هو الأكبر منكما بالعمر؟».

قلت بسرعة: «أنا».

وكره شين أن يكون أخي الأصغر، وكان ينكر ذلك في كلّ مناسبة، فقال: «لقد ولدنا في نفس اليوم».

قالت السيّدة تام مسرورة: «أنتما توأمان إذن. يا لحسن حظّ أمّكما».

وأوشكتُ أن أخبرها أن شين ليس أخي بالدم، ولكنها ظلّت تثرثر بلا هوادة: «أعتقد أن التوائم شيء خاص. ولا سيما الصبيّ والبنت. مثل تنّين وعنقاء. هل تعلمان أن الصينيّين يؤمنون أن الصبيّ والفتاة التوأمان هما زوج وزوجة من حياة سابقة؟ ولأنهما لا يستطيعان الانفصال عن بعضهما البعض، لذلك يولدان ثانية، معاً؟».

كان ذلك بنظري سخيفاً ومأساوياً في نفس الوقت. فأنا إذا ما أحببت أحداً، فلن أودّ أن أُنتسخَ كشقيقة له، ولكن الجدل مع السيّدة تام عقيم. فلديها موهبة خاصة في جرّك إلى مدارها. ويبدو أن شين أيضاً حصل على كفايته. فقد ابتسم وقال إنّه حان الأوان للانطلاق وإلّا سبقتنا الحافلة بالمغادرة.

وسألتُه بمجرّد أن ابتعدنا عن الدكان: «لماذا أنت هنا؟ هل حصل شيء في البيت؟».

«لا».

و توجّب علي أن أركض قليلاً لألحق بخطوات شين الطويلة، عندما أسرع فجأة وذهب في الاتّجاه الخاطئ لموقف الحافلة.

قال: «لن نركب الحافلة، سنستقلّ القطار. لا تقلقي، ليس للأمر علاقة بالمنزل. في الحقيقة هم يعتقدون أنّني في باتو جاجاه».

كان أمامنا نصف ميل من بيت السيّدة تام إلى محطّة القطارات. ولم يبدُ أنّ شين كان في نيته الإبطاء من مسيره ونحن ننعطف إلى بيلفيلد ونذهب يساراً إلى شارع هيو لو ستريت.

«ولماذا العجلة؟». سألتُ ونحن نمرّ من أمام عربة تجرها الثيران، وبالكاد تفادينا الاصطدام بدرّاجة ظلّ سائقها يرنّ بالجرس في غضب.

حمل شين سلّتي المعدة للسفر وقال: «لقد تأخرنا أكثر مما كنت أعتقد». ولم يكن أمامي غير الإسراع وراءه.

مع أنّني لم أستقلّ القطار إلا مرّات قليلة في حياتي، لكن الجميع كان يعرف محطّة القطارات، وهي مشهورة باسم تاج محل إيبوه وقد صمّمها مهندس بريطاني حكومي جاء إلى المالايو عن طريق كلكتّا، وهي مبنى ضخم مترامي الأطراف أبيض، ويبدو مثل كعكة زفاف أو مثل قصر مغولي. قباب ومآذن تعلو قوساً منحنياً يقود إلى ممرّات مرصوفة بالرخام، وفندق للمسافرين مع حانة ومقهى، وأنفاق وسلالم تعلو وتهبط وتنتهي إلى أرصفة القطار.

توجّه شين مباشرة إلى المحطّة. ووصلتُ إليه مقطوعة الأنفاس عند نافذة التذاكر.

قال: «تذكرتان إلى باتو جاجاه»، ومرّر النقود عبر الطاولة.

وملأتني مشاعر غير معقولة من الحماسة والبهجة. لماذا نحن ذاهبان؟ ولأنني لم أرغب بطرح أسئلة كثيرة أمام الأغراب، فقد ضغطتُ على ذراع شين، بوجه مشرق.

قال بائع التذاكر وهو ينظر لثوبي الأنيق: «أنتما في شهر عسل؟».

أفلتُّ ذراع شين كما لو أنّها أحرقتني. وطغت حمرةٌ قرمزية على مؤخرة رقبته، وصولاً إلى أذنيه، لكنّه لم يقل أيّة كلمة.

قال بائع التذاكر: «الرصيف الثاني. سيغادر القطار بغضون عشر دقائق».

وركضنا على السلالم الرخامية أسفل السكك إلى الجانب الآخر ومن ثم إلى القطار الذي بدأ ينفث البخار.

قال شين: «أخشى أن هذه عربة الدرجة الثالثة».

لم أهتم. وكنت متحمّسة جدّاً وبالكاد تمكّنت من منع نفسي من أن أقفز لأرى كلّ شيء، من المقاعد الخشبية القاسية إلى النوافذ التي كانت تنزلق من الأعلى إلى الأسفل. وبشيء من الاستمتاع وضع شين سلّتي على الرف فوق المقعد، ولاحظت لأول مرّة أنّه بلا أمتعة.

سألته: «هل كنت في البلدة ليلة أمس؟ أخبرتني السيّدة تام أنّها رأتك».

«بقيتُ عند صديق».

وتساءلت من هو، ربّما امرأة، وشعرت أني يجب أن لا أتطفل.

ثم سألته: «والآن أخبرني لم نحن ذاهبان إلى باتو جاجاه؟». لم أذهب إلى هناك إلا لمرة واحدة من قبل لزيارة أقرباء أمي. وهي مدينة صغيرة، وقانعة تماماً بوضعها كمركز للإدارة الاستعمارية في مقاطعة كينتا.

قلت بامتعاض: «ليس من أجل الإصبع، أليس كذلك؟».

وأطلق القطار صفّارة نهائية تثقب الأذن، ثم قال شين: «بالطبع من أجل الإصبع، ألا تريدين أن تعرفي من أين جاءت؟».

وفكّرت أن أخبره عن السيّد ي.ك. ونغ، الرجل ذي الوجه النحيل، ولكن لم يكن بمقدوري أن أشرح شيئاً دون أن أذكر له صالة الرقص، ولذلك اكتفيت بحركة من رأسي.

قال شين: «عموماً. ذهبتُ إلى باتو جاجاه يوم الإثنين باكراً. عندهم عجزٌ قليل في الموظفين وكانوا سعداء بوجودي». وكان ينظر من النافذة، غير أنّني فهمت كلّ شيء. حتّى دون أن يقول شيئاً. كان شين عاجزاً عن البقاء في نفس البيت الذي يسكن فيه والده. ولا شكّ أن هذا هو السبب الذي دفعه للبقاء في سنغافورة خلال العطلة السابقة.

سألته: «وكيف الحال هناك؟».

«تقاسمت غرفة المبيت مع ممرّض آخر، وهو ودود بما فيه الكفاية. وأوّل

شيء قمت به هو البحث عن رجل المبيعات، شان يو شيونغ. فقد قالت خالته إنّه كان يرافق ممرضة من المستشفى، وحاولت أن أعرف ما إذا كان مريضاً. ولسوء الحظّ، كانت سجلات المرضى محفوظة في قسم الأرشيف. ولكن حالفني الحظّ في شيء آخر».

«ماذا؟ هل قابلت الممرضة التي حصل على الإصبع منها؟». بحسب معرفتي بشين، يمكن القول إن هذه كانت مهمّة سهلة بالنسبة إليه.

«كلا، قسم الأمراض. يديره دكتور اسمه رولينغز. كانوا يرمّمون ذلك الجزء من المستشفى، وكانت لديهم صناديق من السجلات والعيّنات يتوجّب نقلها. وطلب منّي العمل بدوام إضافي أنتهي منه خلال عطلة الأسبوع. إنّه عمل عضليٌّ مجهد، ولكنّي قبلت بلا تردد. قال أيضاً إنّني يجب أن أحصل على المساعدة. وأخبرته أنّني أعرف من يؤدي هذا العمل بأجر قليل».

سألته بامتعاض: «وهل وقع اختيارك علي؟».

«ألستِ بحاجة إلى عمل مؤقت؟».

وغاص قلبي بين ضلوعي للحظة، إذ اعتقدت أنّه اكتشف كلّ شيء، ديون والدتي، وعملي في الصالة، ولكنه كان يمزح فقط.

لم يكن الكتمان لعدم ثقتي به، كما وأعلم أنّه يكنّ لأمي شعوراً طيباً. ولكنّي كنت متأكدة من أعماقي، أن توريط شين سيسبّب المشاكل. ويوماً ما، سيقوم هو أو زوج أمي؛ أحدهما بقتل الآخر. وأوشك هذا أن يحصل فعلاً قبل سنوات.

في تلك الأمسية، ذهبت إلى بيت صديقة للعشاء. ودهشتُ في طريق عودتي أن أجد الجيران واقفين في الشارع أمام المتجر المنزلي. وقد صبغ الضوء الآفل كلّ شيء بظلّ بارد أزرق. فانتبهت بذعر إلى أنّ هذا ليس هو وقت خروجهم المعتاد للثرثرة وتبادل الأحاديث. وكان أحدهم يقول إنّه كان يجب عليهم طلب الشرطة، لكن أمّي توسّلت لهم أن لا يفعلوا. فهو خلافٌ عائلي فقط. ولن يتكرّر.

هرعتُ إلى الداخل، وتفحّصتها بقلق بحثاً عن أثر لإصابة أو ما شابه. وكان يبدو أنّها سليمة ولم يمسسها أحد. وفي الواقع عندما تسللت إلى المتجر، كان

زوج أمّي هو الذي يحمل منشفة ملوثة بالدم ويضعها على وجهه. ولم يسبق لي أن شاهدته جريحاً، وللحظة غادرة، سرّني أن أجد علامة عليه، حتّى لو كان مجرد أنف مدمّى.

كان داخل المتجر المنزلي هادئاً تماماً. وهذا ما أرعبني أكثر من أيّ شيء آخر. قلت: «أين شين؟». وتطلّب ذلك أن أستجمع كلّ شجاعتي لأسأل زوج أمي. ولكنه لم يقل شيئاً. وحملق بصمت.

ألقيتُ حقيبة المدرسة، وركضتُ على طول البيت. وتخطّيت الموازين البندولية المعلّقة. ثم تجاوزت الأكوام الخامدة من خام القصدير المجموع. وكانت أنفاسي تتوالى بشهقات قصيرة؛ وجوانبي تؤلمني. ورغبت بمناداة شين، ولكنّ فمي كان مغلقاً من الرعب. إن لم يردّ فسيكون إذن مصاباً إصابة بالغة. أو ميتاً. كانت عقوبات الضرب قد قلّت على مرّ السنوات، فقد تعلم شين أن يحرص من مزاج أبيه، وأن يحذر مما يقول ويفعل. ومنذ أسابيع قليلة قالت أمّي إنّها سعيدة لأنّ شين نضج، وكانت هذه طريقتها لتقول إنّه لم يعد يتورط بمشاكل مع والده، ولكن كانت لدي شكوكي. لم أثق بذلك الرجل أبداً.

وتابعت الركض في البيت الطويل، الطويل جداً. كان معتماً، ولم يشعل أحد أيّ مصباح. وبالكاد كان يمكنني أن أرى شيئاً من الزوايا، كانت الظلال كثيفة لدرجة أن تجمعت مثل السخام، ناعمة وضبابية. أو ربّما كان السبب هو دموعي. ولم أجد أثراً لشين. شهقتُ، وبدأتُ أصعد السلالم، كلّ سلمتين بقفزة واحدة. ورفست باب غرفة النوم، وإن كنت لا أتصور أنّه كان هناك. بالأخص إن كان قد تأذى. أو لعلّه مات حقاً. وكان زوج أمّي لا يزال جالساً وحيداً مثل غارغويل[1] في الغرفة الأمامية من المنزل.

وركضتُ خلف البيت مجدّداً، طوال الطريق وصولاً إلى المطبخ بحثاً عنه. كانت لدينا مخابئ مفضّلة مخصصة لأوقات اللهو، كالخزانة تحت السلالم، والمساحة الضيقة بين جرّات المياه، ولكن شين الآن أكبر من أن تتّسع له هذه

(1) gargoyle: ميزاب منحوت بشكل وجه وحشي. المترجمة.

الأماكن. وفي النهاية دخلتُ إلى المطبخ مجدّداً، ومنه تابعت إلى آخر باحة، تلك التي لها جدار مرتفع ينتهي عند الزقاق الخلفي. وهناك وجدته، متكوّماً خلف قنّ الدجاج.

وبالكاد تمكّنت من التعرف على هيئته في الظلام الباهت الأزرق، وهو متكئ على الجدار الخلفي. ساقاه أطول بكثير منذ أن كنّا طفلين، وقد مدّهما أمامه وكأنه منهك.

«شين!». قلتُ، ولم أنتبه للدموع التي كانت تسيل على وجهي حتّى سقطت من أسفل ذقني.

قال بصوت مبحوح: «انصرفي».

وحاولت أن أساعده وقلتُ: «هل تأذّيت؟». لكنه دفعني بعيداً عنه.

وقال: «لا تلمسي ذراعي. أعتقد أنّها مكسورة».

«سأطلب الطبيب».

وقفزت على قدمي غير أنّه قبض على كاحلي بيده السليمة وقال: «لا تفعلي».

كان هناك انكسار في صوته، شيءٌ في غاية الحزن واليأس، جعلني أتوقّف. وضعت ذراعيّ حوله، كما لو أنّه عاد طفلاً مرّة أخرى. وفيما احتضنتُه، راح كتفاه يرتجفان مع شهقات قاسية. ودفن وجهه في رقبتي. ارتعش. وكان شعره متلبداً ودبِقاً، من العرق كما أمّلت وليس الدم. *قلت في سري: أرجوك يا إلهي، لا تجعله دماً.*

لم أشاهد شين يبكي منذ سنوات. تشبّثنا بعضنا بالبعض خلف قنّ الدجاج لفترة طويلة. وكانت الرائحة نفاذة، وهناك قشّ وأشياء أخرى مجهولة وليّنة وغير سارة على الأرض، ولكنّي لم أكن أراها، وربّما لم يكن هذا مهمّاً في الظلام. وسمعتُ صوت أمّي مرّتين وهي تبحث عنا. وفي المرّة الثانية ناديتُها بصوت خافت وأخبرتُها أن شين على ما يرام، ويريد أن تدعه وحده قليلاً. وبعد أن انصرفت، تماسك وعدّل من جلوسه. ثم قال بهدوء: «سأقتله».

«لا تفعل! وإلا أودعوك السجن».

«ومن يهتم؟».

«حسناً، أنا يهمّني ذلك». وجزءٌ منّي كان مقتنعاً أن شين قادرٌ على قتل والده في شجار. كان أطول منه؛ وبدا من الغريب أنّه تمكّن منه هذا اليوم. ولكنّني كنت ممتنّة لمهما كان السبب الذي جعل شين يتراجع عن ذلك. ولكن يوماً ما، مثل هذا اليوم، سأعود إلى البيت وأجد أن أحدهما ميت. وفكّرت: *ولكن يا الله، أرجوك جنّب شين هذا المصير*. ومع ذلك كان البديل على نفس القدر من السوء. لأنّ شين سيدخل السجن إلى الأبد. أو أنّه سيُشنق.

قال أخيراً: «توقّفي عن البكاء. لن أفعل ذلك، اطمئنّي».

«وعد؟».

تنهد وقال: «أعِدُك. ولا تتكئي على ذراعي. إنّها تؤلمني».

نهضتُ. وأخرج شين نفسه ببطء من خلف قنّ الدجاج وزحف إلى الخارج. كانت عيناي قد اعتادتا على الظلام ولكن لا تزال الرؤية صعبة. وكان كلّ شيء يبدو غريباً وخاطئاً، كما لو أن باحة المطبخ بلدٌ جديد تماماً. كانت ذراع شين اليسرى تتدلى من جذعه بزاوية غريبة.

«أخبرتكِ. إنّها مكسورة». كان كأنّه يخبرني بحقيقة، فانتابتني رغبةٌ بالبكاء مجدّداً.

«ماذا حصل؟».

«ضربني بالعصا. عمود حمل الأشياء».

كان هذا العمود مخصصاً للأحمال الثقيلة. كان قويّاً وثقيلاً، ومسطّحاً ليتوازن على أحد الكتفين، وكان يستعمل كسلاح قاتل في معارك القبائل الصينيّة خلال حرب العصابات. وإذا كان زوج أمّي قد ضرب شين بالعمود فعلاً، فلا بدّ أنّه فقد عقله. فلربّما تسبّب له بعجز دائم. وانتابني غضب شديد لدرجة أنّني أردتُ الصراخ وإبلاغ الشرطة عنه. وتمنّيت لو تنفجر كلّ الأبواب والنوافذ ويطير السقف، ليرى الجيران بالضبط ماذا جرى في بيتنا.

قال شين وقد تبيّن ملامحي: «قلتِ أنّه لا يجب قتله!».

قلت دون أن أكون متأكدة من حقيقة ما أقول: «إنهم لا يشنقون البنات». ربّما كانوا يشنقونهن أو يغرقونهن، مثل الساحرات. لم أكن أهتمّ. كنت غاضبة جدّاً حتّى أن يداي ارتعشتا. ومع ذلك كنتُ مرعوبة. ولم أجرؤ على رفع صوتي على زوج أمي. حتّى عندما كنت أبحث بيأس في أرجاء البيت.

سألته: «ماذا جرى؟ ولماذا فعل ذلك؟».

ولكن شين هز رأسه فقط.

لم أعرف قطّ ماذا حصل في تلك الليلة. وكلما ازدادت أسئلتي، ازداد انعزال شين في الصمت. وكذلك لم تسعفني أمي. إذ قالت إنّها وجدتهما يتشاجران عندما دخلت البيت، ومن الأفضل نسيان الأمر برمّته.

وغاب شين عن الدراسة وبقي في البيت لأسبوع ليخفي الكدمات، وأخبر الطبيب الذي عالج ذراعه المكسورة أنّه سقط من على السلالم. وكان زوج أمّي جريحاً أيضاً. فبالإضافة لأنفه المدمّى، قد التوى مرفقه، وشكّت أمّي أنه قد كسر أحد أضلعه، لكنّه هو الآخر لم يقّل شيئاً. وأعتقدُ أنّه شعر بالأسف بطريقته الخاصة. وربّما أدرك أنّه تمادى هذه المرة، ولكنّي لم أكن لأسامحه. لن أسامحه أبداً.

وفي الحقيقة، خطرت في رأسي فكرةُ تسميمِه، فعلاً. وقد مضيتُ في الأمر لدرجة أنّني راجعتُ الروايات البوليسية المتوفرة في مكتبة المدرسة. ولكن هذا لم يكن بالأمر المفيد. فقد كانوا يسمحون لنا باستعارة كتابين في المرة الواحدة. أضف لذلك أين بحق السماء يمكنني أن أجد ثُعباناً مدرباً، كما في رواية «لغز العصابة الرقطاء»[1]؟ وعموماً، إذا تسمّم زوج أمي، فستكون المشبوهة الاولى هي أمي.

ومن الغريب أنّه بعد هذا الحادث وصل شين وزوج أمّي إلى تفاهم ما لم أطّلع عليه. لقد ترك كلّ منهما الآخر وشأنه. واعتقدتُ في البداية أن زوج أمّي كان يشعر

(1) The Adventure of the Speckled Band: هي واحدة من مغامرات شارلوك هولمز التي ألّفها آرثر كونان دويل.

بالذنب تجاه القضية كلها، وربّما كان كذلك فعلاً، ولكنّني لاحظت أنّه أعطى شين حريّة أكبر. أمّا شين فقد بدأ يبذل جهداً ملحوظاً في المدرسة. ولطالما كانت علاماته جيدة، لكنّه صار الآن يدرس كأنّه مهووس، وتفوّق عليّ. ونادراً ما وجد وقتاً من أجلي. وفي تلك المرحلة انفصل أحدنا عن الآخر.

13

باتو جاجاه

الإثنين، 8 حزيران

لقد وجدوا الرأس. وكان هذا أهم خبر في صبيحة يوم الإثنين في مستشفى مقاطعة باتو جاجاه، حينما جاء ليسلي، وهو الطبيب ذو الوجه اليافع، وأخبر ويليام باعتبار أنّه الأقرب له.

كان رعب ويليام الذي غمره بادئ ذي بدء بسبب موت أمبيكا، قد حل محله الشعور بالذنب والخوف. فالمرأة التي عانقها عدّة مرات لم تعد أكثر من قطعة من اللحم، ألقاها حيوان مفترس تحت شجرة. وتساءل مراراً وتكراراً: هل اقترف خطأً حينما لم يعيّن هويّتها؟ وهمس له ضميره أنّه جبان، وهذا تقدير هو مضطرٌّ للموافقة عليه.

وتساءل هل هناك أحد ينتظر عودتها إلى البيت بفارغ الصبر. فزوجها مدمن كحول، لن ينتبه لغيابها، ولكن ربّما كان عندها أولاد، مع أنّها لم تذكر ذلك. ثم هناك ذلك الموضوع الملحّ وهو البائع الصينيّ الذي ضبطه بالصدفة مع أمبيكا في مزرعة المطاط. يا لسوء الحظ، أن يكتشفهما أحد مرضاه. استنشق الهواء بقوّة. ما دام ويليام لن يعيّن هوية الجثّة، فلن يكتشف أحدٌ العلاقة التي بينهما.

قال ليسلي: «أعتقد أن اسمها أمبير.. شيء ما». كان له شعر أحمر، وأصبح بسبب الشمس الحارقة الاستوائية أبيض مصفرّاً كالقش، وعلى وجهه الكثير من النمش حتّى غدا فوضى من النقاط. وحدّق به ويليام بهدوء شديد، كما لو أن ليسلي كان أجمل إنسان يشاهده طوال اليوم. قال في سره: *شكراً لله. شكراً لك يا الله. شكراً.*

لم يعد هناك من حاجة إلى ويليام لتأكيد الهوية. من حسن الحظ أن يجدوا رأسها. وإلا من يعلم كم سيبقى الجذع في المشرحة دون أن يطالب به أحد؟

«يبدو أنّ هناك شيء غريب حيال هذه الجثّة».

ذُعر ويليام وقال: «هل أجرى رولينغز التشريح؟».

«فعل ذلك. وحينما وجدوا الرأس يوم الأحد اضطر لإعادة التشريح مرّة أخرى».

«وماذا يعتقد؟».

نظر ليسلي إلى الأعلى. وقال: «لم لا تسأله بنفسك؟».

استدار ويليام وانتبه لرولينغز طبيب الأمراض بقامته المحدودبة المألوفة. كان رولينغز طويل القامة جدّاً ويشبه اللقلق. وفوق ذلك، يخفض رأسه بالعادة على رقبته النحيلة إذا تكلم.

وهرع ويليام ليلحقه، بالرغم من دعوة ليسلي المحتجّة: «علينا أن نتناقش حول الحفلة المزمعة في بيتك!».

قال ويليام: «فيما بعد». كان قد نسيَ تماماً أمر الحفلة الشهرية، وهي مناسبة اجتماعية مُنتظَرة حيث يتعشّى الضيوف الأطعمة المعلبة المستوردة من أوروبا، كالبازلاء، والقريدس، واللسان، ويشربون كثيراً، ويتبادلون التهنئة على أوقاتهم الرائعة التي أمضوها في المستعمرات. وحان دوره ليكون المضيف، وعليه أن يذكّر آه لونغ أن يوفر النبيذ والكحول بكمّيات كافية، وأن يناقش معه لائحة الأطعمة. كان ويليام يفضّل الأطعمة المحلّية الطازجة أكثر من الأشياء الميتة والمحفوظة في علب مغلقة، وكأنها تابوت معدني. وارتجف لهذه الفكرة، وهو يسرع من خطواته، ليلحق برولينغز.

كانت كافتيريا المستشفى مكاناً مفتوحاً ومهوّى مع سقف من القش وأرضية خرسانية مصبوبة. وتتضمن اللائحة اليومية أطعمة محلّية وغربية. وقف رولينغز في الطابور أمام الطاولة وطلب بصوته العميق كُوبي ـ *أو*[1] وهي قهوة قوية بلا حليب وبسُكَّر، وشريحة بابايا. ووقف خلفه ويليام وطلب نفس الشيء.

(1) kopi ـ o

قال ويليام فيما كانا يجلسان: «سمعت أنّك حددت هوية الجثّة». ولم تكن هناك من ضرورة لقول أيّة جثّة، إذ لم تكن هناك جثث كثيرة مجهولة في باتو جاجاه.

قال رولينغز: «أنت أوّل من وصل لمسرح الجريمة، أليس كذلك؟». وأخرج مُديّة قشّر بها شريحة البابايا ببراعة. كان رولينغز نباتياً، ولا يلومه ويليام على ذلك. كان سيحذو حذوه لو كان يقضّي كلّ وقته بفحص الجثث.

قال ويليام: «لقد سبقتني الشرطة. يبدو أنّ نمراً أو فهداً تمكّن منها. ماذا تظن؟».

عصر رولينغز نصف ليمونة على البابايا، وفعل ويليام مثله، أيضاً. إذ كان قد قرأ في مكان ما، أنّه إذا قُمتَ بمحاكاة الآخرين وتقليدهم، فسيسهل انفتاحهم عليك ومصارحتك.

مسح رولينغز فمه وقال: «قرأتُ ملاحظاتك. ومبدئياً، كنت ميالاً للموافقة. فمن العلامات التي على الجثّة أقول إنّه نمر. فالثقوب متباعدة جدّاً بالنسبة لفك الفهد».

«لماذا قلت مبدئياً؟».

«أخبرني، هل كان هناك دمٌ كثير في مكان الجريمة؟».

عاد ويليام بذهنه إلى الفسحة الفارغة بين أشجار المطاط. طبقة الأوراق الجافة السميكة التي كانت تخشخش على الأرض، ورائحة القرنفل التي تنبعث مع سيجارة الشرطي الماليزي. وقطعة اللحم التي كانت يوماً ما امرأة جذّابة.

«كلا. أفترض أنّها قتلت في مكان آخر».

«لا يحمل الجلد حول أطراف الجروح علامة نزيف أو احمرار محيطي. ولا يوجد نزيف شرياني أيضاً، ولا حتّى في المكان حيث قُطِع العمود الفقري وفُصِل الجسم».

قال ويليام ببطء: «لا علامات نزيف. إذن كانت ميتة قبل أن يصل لها الحيوان».

«نعم. النمور حيوانات قمّامة أيضاً. وحينما وجدنا الرأس، واجهتنا المزيد من التساؤلات».

«ماذا تعني؟».

«لقد قاموا بالبحث عن الأجزاء الأخرى من الجثّة بنصف قطر مقداره نصف ميل. واستعان المفتش بالكلاب التي وجدت الرأس وساقاً واحدة فقط. وبالمناسبة، هذا ليس غريباً في فرائس الحيوانات الكبيرة».

وجاهد ويليام ليحافظ على هدوء أعصابه، وثبّت عينيه على بقعة وراء أذن رولينغز اليسرى.

قال رولينغز: «الرأس مثيرٌ للاهتمام. هل تريد أن تراه؟». ونهض، ولكن ويليام رفع يده وقال: «شكراً، ليس قبل تناول الغداء».

«إنّه سليم تقريباً. في الحقيقة، ترك كلّ الجسم عندي نفس الانطباع، وهو أنّ الحيوان بدأ روتينه المعتاد، فصَل الأطراف، ثم نزَع الأحشاء من الجذع، ثم توقّف فجأة».

غطى ويليام فمه. لأنّ ثمرة البابايا البرتقالية الناضجة التي غاصت فيها ملعقته كانت طريّة وشهوانيّة، حتّى أنّه أوشك أن يتقيأ. كان يفكر بأمبيكا وابتسامتها السخية، وكتفيها الناعمين وهما ينزلقان تحت يديه، ثم ذاب كلّ ذلك في قناع من الدم والسوائل الصفراء. كان يريد الصراخ.

حدّق فيه رولينغز وكانت عيناه نصف المغمضتين تضيقان باهتمام، وسأله: «هل أنت على ما يرام؟».

كذب ويليام وقال: «مشاكل في المعدة».

وتابع رولينغز يقول: «لولا الكلاب لما وجدنا الرأس أبداً. والمثير في الموضوع أنّه توجد بقايا قيءٍ في الفم».

«ما معنى ذلك؟».

شبك رولينغز أصابعه وقال: «الاحتمال الأول هو أن المرأة المسكينة قتلها نمر، ربّما بهصر البلعوم أو بالخنق. ومن الصعب تحديد ذلك إذ لم يعد هناك وجود للرقبة. ثم ترك النمر فريسته وعاد بعد فترة طويلة، ربّما بعد يوم أو ما يوازي ذلك، والدليل هو الجروح التي تسبّب بها بعد الموت. أيّ حيوان يفعل هذا؟».

قال ويليام: «ربّما قاطعه شيء ما». وشعر بالغثيان يشتد في بطنه، كان شعوراً سيئاً وكأن صوتاً يُخبره أنّه سيسمع ما سيندم عليه.

«هناك أشياء قليلة جدّاً قد تؤثّر بعادات غذاء النمور باستثناء وجود بشر أو نمر آخر، والذي كان سيلتهم الفريسة بدوره. ثم ليست هناك من تقارير عن أشخاص طاردوا نمراً. كان بإمكاننا أن ننتظر لنعرف إن كان سيعود».

«إنها *إنسانة*. شخص. ولا يسعُنا أن نتركها بمكانها كطعم!». ورفع ويليام صوته دون أن ينتبه، واستدارت نحوه عدّة رؤوس.

نظر رولينغز إليه بدهشة وقال: «كما لو أن أحداً لم يفعل هذا من قبل. هناك عدّة حالات في الهند لإيقاع النمور من مفترسات البشر بكمين أثناء عودتها للجثّة».

لطالما كان ويليام متّهماً بالبرود وعدم التعاطف، ولكنه يرى نفسه الآن كفوضى من العواطف بالمقارنة مع رولينغز. وإن لم يتوخَّ الحذر، فسيثير شكوك الآخرين. حدّق للأسفل بكوب قهوته وابتلع بصعوبة.

قال رولينغز: «على أيّة حال، أنا غير متحمّس لتلك النظرية. ومن الأرجح أنّها ماتت في مزرعة المطاط ثم عثر عليها نمر. ويمكن أنّها ماتت بأسباب طبيعية. وهناك احتمال آخر أن شخصاً ما قد قتلها».

قال ويليام بفزع: «احتمال الجريمة بعيد. يمكن أن أفعى لدغتها. أو أيّ سبب آخر من هذا القبيل».

ولوّح رولينغز بيده نافياً، ومال إلى الامام وقال: «هل تعلم ما أظن؟».

«ماذا؟».

ولكن بدّل رولينغر رأيه، وعدّل من جلسته وأضاف: «لا يمكنني أن أؤكد ذلك بعد. ولكن سأذكر في ملاحظاتي أنّه موتٌ مشبوه. وسيُعرض على محكمة الطبّ الشرعي».

ولم يكن هذا خبراً ممّا يرغب ويليام في سماعه، فمن الأفضل له لو أن أمبيكا راحت ضحيّة مسكينة لنمر. ويتذكر الآن كيف طلبت المزيد من النقود وتساءل هل كان لأمبيكا عشاق آخرون. وانقبض صدره. إذا كانت هذه هي الحالة، فسيبدؤون البحث عن كلّ من ارتبط بها.

قال رولينغز: «بطريقة أو أخرى، كان سلوك النمر شديد الغرابة في هذه القضية. وستكثر الإشاعات بين المحليين عن نمر شبح أو شيء أحمق من هذا النوع».

قال ويليام تلقائياً: «*كرامات*. وحش مقدس».

وشخر رولينغز ساخراً وقال: «وحش مقدس! بالضبط».

حدق ويليام عبر الغرفة، وأخذت الأفكار تتشابك في رأسه مثل خيوط سائبة. بالإضافة إلى رجل المبيعات، من عسى أن يكون قد رآه مع أمبيكا؟

عليه أن يتوخى الحذر.

كان رين يحضر عجّة البيض. وهذه مهمّة صعبة وحساسة، تتطلّب الصبر وتحمّل نار الفحم. منذ العثور على الجثمان في عطلة الأسبوع، كان ويليام بحالة غثيان وبلا مزاج. ولا يطيق الأطعمة الدسمة مثل الدجاج بمرق جوز الهند، أو شرائح لحم الخنزير المقلية. وبعد عودته الباكرة اليوم، طلب عجّة تطوّع رين لتحضيرها.

كانت العجّة طبقاً مفضلاً عند الدكتور مكفارلين، وقد علّمته العمّة كوان كيف يعدّها لتكون هشّة وطريّة حدّ الذوبان. قلَب رين العجّة على طبق بحذر، السرّ في طريقة صنعها هو أن يرفع البيض عن الحرارة قبل أن تنضج تماماً. ونظر إلى الأعلى مبتسماً ولدهشته كان آه لونغ يبتسم مثله.

قال: «يمكن أن تقدّمها له بنفسك!».

ورشّ عليها آه لونغ البصل الأخضر المفروم فرماً ناعماً ونشر على أطرافها شرائح الطماطم. وضع رين الطبق على صينيّة مع فوطة بيضاء مُنشّاة، وانطلق مهرولاً عبر الصالة الخشبية الملمعة، وصعد السلالم ودقّ باب حجرة نوم سيده.

مثل كلّ الحجرات الأخرى في البيت، كانت الغرفة المهواة عالية السقف ومطليّة بالأبيض، وهي عارية تماماً باستثناء السرير ذي الأربع أعمدة في الوسط، الذي تخيّمه غلالة ناموسية. وأحسّ رين عندما رأى شمس المساء المائلة خلف

قمم الأشجار الخضر والمذهبة؛ بشعور مفاجئ وكأنه ديجا فو[1]. كأنها بالضبط غرفة الدكتور العجوز في كامونتنغ. باستثناء أن الجالس على طاولة قرب النافذة ليس الدكتور مكفارلين، إنما ويليام، وكان يكتب رسالة.

قال وهو يجفل بامتنان حينما وضع رين الصينيّة: «شكراً».

سأله رين: «هل وجدوا النمر بعد؟».

قال: «ليس بعد. وربّما هو على بعد أميال». وتناول لقمة وسأل: «من أعدّ هذا؟».

وعادت النظرة القلقة لوجه رين وقال: «أنا يا *توان*».

«إنها جيدة جداً. أريدك أن تحضّر أطباق العجّة من الآن وصاعداً».

«نعم يا *توان*».

ومنحه ذلك الثقة بالنفس، فسأل: «هل يمكنني أن أحصل على إجازة في وقت قريب؟».

«وأين تريد أن تذهب؟».

«أن أعود إلى كامونتنغ. لبضعة أيام فقط».

فكّر ويليام بذلك. مضت على عمل رين هنا فترة قصيرة. وإن أردت الحقّ، فهو لم يكن قد جمع بعد أيام إجازات للذهاب لأي مكان، ولكنّه كان يبدو آملاً بالحصول على إجازة.

سأله: «لترى اصدقاءك القدامى؟».

تردّد رين وقال: «نعم. ولزيارة قبر الدكتور مكفارلين. أريد أن أغادر قبل نهاية فترة الحداد خلال عشرين يوماً».

ورقّت تعابير ويليام وهو يقول: «بالطبع. يمكنك أن تحصل على إجازة لثلاثة أيام إن أحببت. تحرَّ مواعيدك مع آه لونغ، سيكون لدينا حفلة عشاء هنا. ويستحسن أن تغادر بعدها. هل تحتاج لأجرة القطار؟»

---

(1) déjà vu: كلمة فرنسية تعني أنّ الشخص يمرّ بوضع أو يختبر أمراً، كما لو أنّه للمرة الثانية، أو كأنّه عاشه من قبل. المترجمة.

وبدا رين مشوّشاً أمام هذا العرض. تنهد ويليام وقال: «أعني، سأدفع تكاليف رحلتكَ. وضعْ باقة من الزهور على قبر مكفارلين باسمي».

انصرف رين وعاد إلى المطبخ. منذ الاكتشاف البشع للجثّة، سرّع رين بشكل محموم من بحثه عن الإصبع. كان قد فتش كلّ غرفة وفتح كلّ درج خزانة في البيت. وأحياناً يعتقد أن آه لونغ يشك به، لأنه في أكثر من مناسبة، فاجأه الطاهي بخطواته الصامتة. كان مثل قطّة عجوز رمادية، والتشبيه يصبح أكثر وضوحاً حينما يجلس آه لونغ على سلالم المطبخ، ويُغمض عينيه أمام الشمس. مع ذلك لم يقل آه لونغ شيئاً.

انتاب رين شعورٌ غير مريح عن عدم وجود الإصبع في البيت. وربّما لم تكن هنا أبداً. ولا توجد طريقة لتفسير الأمر، إنّها مجرّد مشاعر عابرة مثل ارتجاف شوارب القطّة. حينما كان يي حياً، كانت لديه هذه الحاسة السادسة. قال الناس إنّه سحر، ولكن رين يعلم أن هذا بسبب أنهما كانا زوجاً متطابقاً. ويعتقد الصينيّون أن الأشياء المحظوظة تأتي في أزواج، مثل حرفي رمز السعادة المزدوجة[1]، الذي يُصنع من ورقة حمراء ويوضع على باب العروسين. كذلك الأسدان الحجريان اللذان يحرسان المعابد. وفي مرحلة الطفولة، كان رين ويي زوجاً مثالياً أحدهما صورة متطابقة من الآخر. وكل من رآهما يرسم ابتسامة سرور وانشراح. توأمان وكلاهما ذكر، يا لهذا الحظ الطيّب! ولكن انتهى كلّ ذلك بموت يي. إذا انكسر أحد عودَي الطعام، يُصبح العود الآخر بلا قيمة. في النهاية، إنّ نصف زوج هو واحد، وهو الرقم سيّئ الحظ الذي يدل على الوحدة.

وفي إحدى المناسبات شرح له الدكتور مكفارلين إشارات الإذاعة، قائلاً إنّها تحتاج إلى مرسل ومستقبل كي تعمل. وفهم رين فوراً ماذا كان يعني. لطالما علِم، هو ويي، بمكان الآخر إذا غاب، حتّى أن المشرفة على الميتم كانت تُرسل أحدهما بمهمة وتُبقي على الآخر معها. وإذا تأخر الذي أرسلته، تسأل التؤام الآخر كم المسافة التي بقيت أمام أخيه حتّى يصل. كانت هذه مهارة مفيدة. ولكنها ليست

(1) double happiness

أكثر إدهاشاً من موهبة باك إدريس، الصيّاد الماليزي الأعمى الذي يصيد في نهر بيراك ويستدل على السمك من صوت حركته تحت الماء.

سأله رين مرّة: «كيف ذلك؟».

قال له: «مثل سقوط الحصى في الماء. مثل مرآة، تنعكس عليها صور الأسماك».

مرآة مليئة بالأسماك. لطالما فكر رين، طوال سنوات، بهذه الجملة. كيف كانت تبدو الأسماك لباك إدريس، وهو الذي لا يمكنه رؤيتها؟ هل تشبه النجوم، وتتحرّك في سماء مظلمة، أو حقل من الزهور التي تتمايل مع الرياح؟ بموت يي، فقدَ رين منارته بهذا العالم. ولم يعد لديه حسّ صحيح بالمسافات، ولم يعد يعرف ماذا يجري في مكان آخر. وعوضاً عن ذلك، تراجعت قدرته ولم يعد يشعر إلا بالأحداث وشيكة الحدوث، مثل صوت انقصاف غصن سقط لحظة ابتعاد رين عنه. وقد مرّ بحوادث وشيكة كثيرة. ربما، أكثر ممّا يجب.

يعتقد رين أحياناً أنّه لم يفقد قدراته طويلة الأمد على الإطلاق. لكن الإشارة ضعفت لأنّ يي في مكان بعيد وناء جداً. وأين ذلك المكان؟ لا يمكنه أن يعرف. لقد عبر إلى بلد آخر، إلى أرض الأموات. وخلال بحث رين عن الإصبع المفقودة، ارتجف شارب القطّة الخفية في هذا البيت لمرة واحدة فقط، بالقرب من بساط جلد النمر في المكتب. ولكن هذا ليس مستغرباً، إذا وضعتَ بالذهن هوس الدكتور العجوز بالنمور، والذي، كما يخشى رين، يشاركه به ويليام إلى حدّ ما. وحينما كان يمرّ مسرعاً عبر الصالة، تبادر لذهن رين أنّه بقي مكان واحد ليبحث فيه: مستشفى مقاطعة باتو جاجاه. المكان الذي يمتلك فيه ويليام مكتباً.

لكن الزمن يتداركه؛ فقد تبقّى عشرون يوماً قبل نهاية الفترة المسموحة لروح الدكتور مكفارلين. وإن لم يجد الإصبع قبلها، فسيكون قد فشل. كيف سترقد روح سيّده السابق؟ ويتذكّر رين الأيام الأخيرة للدكتور مكفارلين، الحمّى التي جعلته يرتعش. ثم هناك تلك الأحلام، كوابيس اليقظة وفيها يصيح الرجلُ العجوز طلباً للرحمة، أو أنّه يزحف على أطرافه الأربع ولعابه يسيل. ولو أن العمة كوان كانت معهما، فهي ستتولى المشكلة، ولكن في النهاية لم يكن هناك غير رين فقط.

عاصفة من الرياح هبّت عبر البيت، وجعلت كلّ الأبواب تُقرع في وقت واحد. بالنسبة لرين، المحدِّق من النافذة الموجودة في أعلى السلالم، كانت الأشجار محيطاً أخضر متماوجاً يحيط بالكوخ. والكوخ سفينة في عين عاصفة هوجاء، ورين صبيّ خدمة على السفينة يختلس النظر من الكوّة. تشبّث رين بحافة النافذة كأنّه طوف نجاة، وتساءل أيّة أسرار تتربّص في الغابة المحيطة بهم، وعمّا إذا كُتب على سيده السابق أن يطوف في هذه المساحة الخضراء الشاسعة، محبوساً في هيئة نمر، إلى الأبد.

14

إيبوه/ باتو جاجاه

السبت، 13 حزيران

دوّت صفّارة حادّة. وبدأت الأبواب تنغلق على طول القضبان، فيما تصاعد البخار فوق الرصيف. كان الأمرُ مثيراً للحماسة جداً، حتّى أنّني حملقتُ في شين ضاحكة. رفع هو حاجبيه وبادلني الابتسامة. كانت هناك رجّة أعقبها هزّة أقوى حينما اندفع القطار ببطء خارج محطّة إيبوه. انزلق الرصيف مبتعداً. ولوّح الناس للمسافرين الراحلين ولم أتمكّن من مقاومة الردّ بتلويحة مماثلة.

وجال شين بعينيه ساخراً ثم قال: «أنتِ لا تعرفينهم حتّى».

قلتُ مدافعة عن نفسي: «ولم لا؟ الأطفال يحبّون ذلك».

وتذكّرتُ حلمي عن الولد الصغير في محطّة القطار، والتي بدت حقيقيّة جداً، رغم أنّها في حلمي لم تقترب ولا بأيّ مقدار من ضخامة محطّة قطار إيبوه العظيمة البيضاء، التي أخذت تبتعد الآن خلفنا.

كانت الرحلة إلى باتو جاجاه تبعد بمقدار خمسة عشر ميلاً أو ما يعادل خمساً وعشرين دقيقة، كما أخبرني شين. وأحياناً تظهر فيلة برّية على السكة، أو *سيلادانغ*[1]، ثور الغابة الضخم والذي يبلغ عرض كتفيه كما يُقال ستة أقدام. اندفع هواء باردٌ من النافذة المفتوحة، فأغمضتُ عينيّ بسعادة.

«هذا يعني نعم، أليس كذلك؟».

شعرت بنظرة شين المدقّقة تحرق حتّى أهدابي، فجعلني ذلك أشعر بالخجل.

---

(1) seladang

هل انتبه للمكياج الذي وضعته لإخفاء كدمة عيني؟ حسناً، لا يهم إن كان شعري يبدو مثل عش العصفور. إنّه شين وحسب.

«نعم لأي شيء؟».

«لتنظيف مخزن قسم الأمراض في عطلة هذا الأسبوع».

فتحت عينيّ وقلت: «ما دمت أحصل على أجري. ولكن ما الذي يدفعك للاعتقاد أننا سنعثر على شيء؟».

قال شين: «تلك الإصبع جاءت من المستشفى بلا شك. وإذا فتحتِ غطاء العلبة، ستجدين نفس العلامة التي تحملها بقية العيّنات في مختبر الأمراض في المستشفى. علينا أن نفحص السجّلات لنتأكّد ما إذا كان هناك شيءٌ يخصّ أصابع مبتورة».

«أين الإصبع؟».

على سبيل الردّ، ربّت على جيبه. وذكرتني حركته برجل المبيعات، وغاصت روحي في بدني. عاد الظلّ مجدداً يلوّث هذا اليوم المشرق. لماذا تحمّس شين لأمر تتبّع صاحب الإصبع على أيّة حال؟ ربّما يمكننا إعادة الإصبع بهدوء إلى المستشفى. وخطر لي أن أقوم ببعض البحث بنفسي، وأن أتجول في المستشفى، وأتكلّم مع الموظفين. ولم أودّ الاعتراف لشين، بأنني ما دمت لم أوفق بالانتساب لكلية الطبّ، فلربّما أمكنني أن أصبح ممرضة أو موظفة. أيّ شيء سيكون أفضل من آفاق مستقبلي الحالية المحبطة.

شخر شين قائلاً: «أنتِ تخطّطين لشيء ما، أليس كذلك؟ هذا واضح، أنت إنسانة مكشوفة».

قلت باعتراض: «لم يُخبرني أحدٌ بذلك قبلك». وفكّرت بالعيون الحالمة لطلّاب المدارس والرجال المسنّين الذين وقفوا في طابور ليرقصوا معي. قال نيرمان سينغ إنّني «يكتنفني غموضٌ مصيريّ»، على الرغم من أنّني متأكدة إلى حدّ ما من أنّه كان يعني لويز بروكس الحقيقية وليس أنا، كما وأنه كان يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً ويجب أن لا ينفق مصروف جيبه في صالة الرقص.

«هل كنتِ ترافقين أحداً؟».

ونسيتُ حدّة ذكاء شين، وكان هذا هو الجانب الآخر من كوني على علاقة جيدة معه مجدداً.

فقلت: «لا أحد».

كان شين يراقبني بتعابير متفكّرة. ثم قال: «هل تحبّين الإقامة عند السيّدة تام؟».

قلت: «لقد شاهدتَ كيف هي بعينيك. لكن الأمر ليس بذلك السوء».

«كم تدفع لك؟».

«لا تدفع لي شيئاً، أنا التي أدفع لها لتعلّمني الخياطة كما تعلم».

وانقبضت عضلةٌ في وجنته وقال: «هذا سخيف. أنتِ تعملين هناك مجاناً».

«في الحقيقة يُفترض أن تدفع لي القليل مقابل مساعدتي لها، ولكن هناك أيضاً أجرة الغرفة والطعام وأجور التدريب، لذا فالأمر منصف».

«وهل أنت سعيدة بذلك؟».

وفكّرتُ: هل أخبره أنّني بالطبع لست سعيدة. قبل سنتين كنت سأخبره دون أيّة تحفظات، ولكن الفكرة تدحرجت الآن حول طرف لساني، مثل كريّة لعب زجاجية ستسقط وتتكسر على الأرض. فلماذا إذن أخرّب أوّل يوم لطيف أُقضيه معه منذ فترة طويلة؟ ولذلك لم أقل شيئاً.

كانت محطّة القطار في باتو جاجاه متواضعة: مستطيل بسيط بسقف *آتاب*[1] وعدد قليل من المصاطب الخشبية بمقابلة القضبان على الطرفين. حدقت بها بضيق كأنها *ديجا فو* مُقلق. بالطبع، فقد كنت أجلس على أحدها في حلمي في الأمس. ولم أشاهد نهراً في مرمى البصر. ولكن حسب أقوال السيّد الماليزي العجوز الموجود في الجهة الثانية من الممشى، كان خطّ القطار بالحقيقة يعبر فوق نهر كينتا.

وشرح لنا: «لن تشاهداه حتّى تعبرا هذه المحطّة». وكان هو نفسه يقصد الجنوب إلى لوموت.

---

(1) attap: يعني مصنوع من سعف النخيل. المترجمة.

قلت بأسف: «سنحط رحالنا هنا».

قال العجوز: «إذن وداعاً». ثم وجّه كلامه لشين: «زوجتك جميلة. مواكبة للموضة العصرية وأنيقة».

قلت بتردد: «نحن أخوان».

لزم شين الهدوء ونحن نغادر القطار. هذه ثاني مرّة يخطئ شخص بتقدير علاقتنا، وخشيت أن يجد ذلك مدعاة للانزعاج.

ثم قال: «طبعا أنا منزعج. من هذا الذي يريد أن يرتبط معك بعلاقة؟».

شعرت بالراحة وانفجرت بالضحك. وجال شين بعينيه ساخراً وقال: «يفترض أن تغضبي مثل بقية الفتيات. لا أن تشخري من الضحك هكذا».

ولذتُ بالصمت. واحد من أسباب شعبيتي في ماي فلاور أنني لم أكن أخاف من المزاح مع الزبائن، ولكن هل هو سلوكٌ يليق بالشابات المحترمات؟ كانت خطيبة مينغ خافتة النبرة، ومهذّبة، ذلك النوع من الفتيات اللواتي لن تراهنّ يطلقن النكات السخيفة في قارعة الطريق.

كان الطريق إلى مستشفى منطقة باتو جاجاه يمرّ صعوداً عبر القطاع الأوروبي من شانغات. كانت شجيرات الدفلى ببراعمها البيض والوردية القطنية وأوراقها البيضاوية المدبّبة في كلّ مكان، وكذلك شذى الياسمين الهندي، زهرة المقابر في ماليزيا. الإنجليز يحبّون الحدائق حدّ الجنون، كلنا عرفنا ذلك من كتب التاريخ، وقد حملوا ولعهم معهم إلى كلّ زاوية من الإمبراطورية.

عندما وصلنا إلى المستشفى، كان الوقت تقريباً الحادية عشرة صباحاً والطقس حارّاً. وكانت المستشفى عبارة عن سلسلة من الأبنية الخشبية السود والبيض من طراز تيودور، وتتصل بعضها بعضاً بواسطة شرفات ظليلة ومروج عشبية مشذّبة.

أخذت نظرة إلى الأعلى، ولاحظت أن بلاط التيراكوتا فوق المماشي المسقوفة مصدرها فرنسا وتحمل في أسفلها اسم صانعها: *ساكومان فريري، ساينت هنري، مارسيل*.

قادني شين مجتازاً مكاتب الإدارة إلى مكان خلف أحد المباني الخارجية. وأخرج مفتاحاً ثمّ فتح أحد الأبواب.

قال: «هيا بنا. علينا أن نرتّب هذا».

كانت غرفة واسعة، مهوّاة وعالية السقف. والنوافذ العالية تسمح للضوء بالدخول من خلف أكوام الصناديق وخزائن الملفات. وكانت قوارير العيّنات مزدحمة إلى جانب العلب الكرتونية التي تفيض بالورق، وهناك خمس حاويات زجاجية بسعة خمسة غالونات تنتصبُ على الأرض بين مجلّات طبية مهملة. ولم أتفاجأ عندما رأيتُ هذا الجبل، من أن الدكتور رولينغز، كائنا من يكون، اقترح على شين أن يأتي بمساعدة إضافية.

سألته: «هل علينا أن نرتب كلّ هذه الفوضى، اليوم؟».

قال شين: «حسناً، إنّها فرصةٌ جيّدة للبحث عمّا إذا كان هناك أيّ شيء يدلّ على أصابع مفقودة. لقد أمروا بنقلها، وقمت بمعظم المهمة. والآن نحتاج لترتيب العيّنات فحسب. هل ترغبين بتناول الغداء أولاً؟».

رمقت القوارير ذوات العيّنات البشعة بنظرة. كانت أجزاءً من أحشاء تطفو في سوائل داكنة، وزجاجات تحتوي فقرات عظمية مقرقعة.

قلت: «كلّا. دعنا نبدأ الآن».

ما الغاية من هذه المجموعة في كلّ الأحوال؟ قال شين إنّه لا يمتلك أدنى فكرة. ومع أنّه قام بكل العمل العضلي المجهد، فقد كان بمزاج جيد. ويمكنني أن أحزر ذلك من الطريقة التي كان يصفّر بها في الممرّ وهو يجهد في نقل الصناديق. نحن نكون على وفاق حينما يكون هناك عملٌ يجب أن نؤدّيه، مثلما كنّا ننجز الأعمال المنزلية بسرعة وكفاءة حينما كنّا صغاراً. وفكّرت لو أنّهم عيّنونا كِلينا في وظيفة بوّابَين، لما اختلفنا أبداً.

كانت أمّي مثالاً لربّات المنازل؛ وبخصوص هذا الشأن لم يجد زوجُها أيّ مأخذ عليها. كانت مهووسة بالنظافة، تحمل إطارات السرير الخشبية إلى الخارج لتسكب الماء المغلي على كلّ شقّ فيها، كي لا يدخلها بقّ الفراش.

وحينما انتقلنا إلى المتجر منذ البداية، كانت تكره أن تطلب من شين أن يؤدّي العمل المنزلي. فقد كان صبياً في النهاية، رغم أنّه أبدى استعداده لذلك. ولم

تبخل علينا بعاطفتها، وكانت رقيقة القلب لدرجة الحماقة. كانت الكلاب الشاردة والمتسولون يتهافتون عليها، وفي أكثر من مرّة وهبت طعامنا للآخرين وتوسّلت إلينا أن لا نخبر زوجها. وكنت أستغلّ الفرصة وأساوم على شيء أفضل، ولكن شين كان يستسلم بسرعة. وبمقدوري أن أعرف خبايا تفكيره بسهولة من الإيماءة السريعة والتعبير المليء بالأمل. كان جائعاً للحب.

وأعتقد أن أمّي كانت تريد المزيد من الأولاد. وبالتأكيد، خاب أمل زوج أمّي بهذا الشأن. إذ استُدعيت القابلة المحلّية عدّة مرات بسبب تعرّض أمّي للإجهاض. ولكن أحداً لم يخبرني بالضبط ماذا جرى أو لماذا.

أثارت الخاطبة ضجّة كبيرة حول كيف أنّنا، شين وأنا، مقدّر لنا أن نكون شقيقين. وكيف أننا عملياً توأمين بسبب أن ولادتنا في نفس اليوم وبسبب أننا قد سُمّينا على اثنتين من الفضائل الكونفوشيوسية الخمس، وتركتني مقتنعة أن الأولاد الثلاثة الآخرين، رين ويي ولي، ينتظرون ولا بدّ بفارغ صبر، لكي يولدوا. وتخيّلتهم يتدافعون في العتمة، في انتظار السماح لهم بالخروج إلى عالمنا. ولكنّهم لم يأتوا قطّ. وكلّ حادثة دموية زادت من مخاوفي من كونهم قد يسرقون أمّي ويأخذونها معهم.

وأخبرت شين عن هذا عندما كنّا نتجاذب أطراف الحديث بهدوء في إحدى الليالي. كان مستلقياً على الأرض في غرفته وكنتُ جالسة في الممرّ الضيّق، وكان الباب المفتوح هو كلّ ما يفصل بيننا. كان هذا فقط من باب الاحتياط، فلربّما ظهر زوج أمّي من غرفته دون إنذار. ولا بدّ من أننا كنّا في حوالي الثالثة عشرة من العمر في ذلك الوقت، وكان هو ينحو بشكل متزايد للشدّة. ولم يعد بمقدوري أن أطأ أرض غرفة شين، وطبعاً هو غير مسموح له بدخول غرفتي. كان القمر ساطعاً جدّاً ليلتذاك، قُلّامة حادّة من البياض. وكان الجوّ حاراً ولا يمكن الركون للسرير ومصدر الاسترخاء الوحيد كان في ألواح خشب الأرضية الباردة.

سألته: «هل تعتقد أنهما سينجبان المزيد من الأبناء؟».

«كلّا.. يصعب ذلك مع التقدم بالعمر». من حين لآخر، كان شين يُظهر نوعاً من العقلانية الهادئة التي أحسده عليها.

«لكنّني خائفة».

استدار شين وارتكز على مرفقيه وسأل: «من ماذا؟».

كشفت له عن مخاوفي من فقدان أمّي وكيف أنّني لا يسعني التفكير سوى بأنّه يجب أن يكون هناك ثلاثة آخرون مثلنا، مثلما تنبّأت الخاطبة.

ركن للصمت قليلاً وقال: «هذا هراء».

قلتُ بانزعاج: «لماذا؟ هل هو أسخف مما ذكرتَه لي عن *المو* وآكل الأحلام؟».

وندمتُ من فوري لما بدر منّي من كلام، فأنا أعلم كيف كان شين معتزّاً بتلك القصاصة الورقية التي تركتها له أمه. ولكنه قال فقط: «لم أشاهد أحلاماً مخيفة من فترة طويلة. وفي الحقيقة، لا أعتقد أنّني أحلم أصلاً. أضيفي لذلك، كلّ هذا الكلام عن ثلاثة أشقاء آخرين غباء. لماذا يجب أن يكون لدينا المزيد؟».

«لأنه يوجد اثنان منا حالياً».

وعدّل شين من جلسته فجأة وقال: «لا تضعيني في حساباتك. أنا لست أخاك فعلاً، وتعرفين ذلك».

وتسلّق على سريره، واستدار بظهره نحوي. وشعرتُ بالرفض، وانسحبت إلى حجرتي. كان يقلقني أحياناً أنّه ربّما كان يضطرّ لتحمّلي، وأنه يريد أختاً من نوع آخر، وليس أختاً تجادله في كلّ الأوقات وتتفوّق عليه في الاختبارات. كنت كلما شعرت بالإحباط، فكّرت بالأرقام، بالكانتونية، اثنان رقم جيّد لأنه يصنع زوجاً. وثلاثة رقم جيّد أيضاً لأنه لفظة متجانسة لكلمة: *سانغ*[1]، أو حياة. والرقم أربعة، كان سيئاً لأنه يشبه باللفظ كلمة موت. وخمسة رقم جيد كذلك لأنه يصنع مجموعة متكاملة، ليس في الفضائل الكونفوشيوسية فحسب، بل لأنه يدلّ على العناصر الخمسة: الخشب والنار والماء والمعدن والتراب. وفي كلّ حال، لا يهمّ كم كان شين هجوميّاً. سواء أحبّ ذلك أم لم يحبب، لقد كان هو الأخ الوحيد الذي لدي.

---

(1) sang

فُتح باب مخزن الأمراض بُغتة. واعتقدت أنّه شين وقد عاد مع حمل آخر، فقلت دون أن أستدير: «لا تضعه هنا. ضعه في الجانب الآخر».

كان هناك صمت. وثمّة إحساس غريب أنذرني أنّ هناك خطأ ما. واستدرت لأشاهد غريباً يقف بالباب. شخص أجنبي، طويل وبعظام هزيلة. كان يرتدي نظّارات. وبقيّة ملامحه من وجه شاحب، شعر شاحب، ذراعان شاحبتان محترقتان بالشمس بشكل غير متساو؛ جعلَته بنظري يشبه كلّ الأوروبيين الآخرين.

قال: «أنا أبحث عن الدكتور رولينغز».

كان شين قد أخبرني أن رولينغز هو طبيب الأمراض المقيم، ولكن لم تكن لديّ أيّة فكرة إن كان هنا في يوم السبت الهادئ هذا، أم لم يكن. وألقى الرجل عليّ نظرة حادة. عيناه عديمتا اللون وقد نفذتا مثل الإبر من خلف عدسة النظارة. وخشيت أن عينيه ستريان أنّني لست من طاقم المستشفى إطلاقاً.

لكنه قال: «إن عاد أخبريه من فضلك أنّني مررتُ به. اسمي ويليام أكتون».

15

باتو جاجاه

السبت، 13حزيران

اغتنم رين فرصته ليبحث عن الإصبع خلال وقت الغداء من يوم السبت، حينما أعلن ويليام أنّه سيذهب إلى البلدة وسيزور المستشفى. سأل آه لونغ مباشرة إن كان سيأتي بمؤونة: أطعمة معلبة، مسحوق غسيل، وطلاء أحذية بنيّ.

نظر ويليام إلى رين، الذي فتح باب السيارة وانتظر بجانبه، وقال: «اقفز إلى الداخل. يمكنك أن تحمل القائمة إلى المتجر، أليس كذلك؟».

اتّسعت عينا رين لهذه الفرصة غير المتوقّعة. وصاح ويليام من فوق كتفه على آه لونغ قائلاً: «سآخذ الصبيّ. هل تحتاج لشيء آخر؟».

وأعقب ذلك خربشة سريعة لإنهاء كتابة لائحة الطلبات. ووضع آه لونغ سنتاً في يد رين وقال له بصوت خشن: «اشتر لنفسك شيئاً. أحياناً هو يشرب في النادي، وإذا تأخر، لا تغادر السيارة. فهو سيعود إلى البيت بحلول الصباح بطريقة أو أخرى». ووقف بامتعاض بقامته الرفيعة على الممشى المفروش بالحصى.

ثم قال لويليام: «*سلامات جالان*»، أو رحلة طيبة.

السائق الماليزي هارون رجلٌ بدينٌ ومريح للنظر، ولديه ثلاثة أطفال، ابتسم عندما صعد رين بحماس إلى المقعد الأمامي، وبيده سلّة تسوّق من الراتان مبطنة بصحف قديمة لحماية المحتويات. وجلس ويليام في الخلف. ولزم رين جانب الهدوء مع أنّه كان يود لو يسأل هارون عن السيارة. فقد كان على لوح عدّادات سيارة الأوستن مجموعة مخيفة من الأزرار والأقراص التي لفتت انتباهه. وراقب رين باهتمام كيف يبدل هارون السرعة في ناقل الحركة الأوتوماتيكي.

قال ويليام: «سنذهب إلى المستشفى أولاً. يجب أن أوصل بعض الأوراق».

إلى المستشفى. فكّر رين، وضغط على عروة السلّة.

ومع اقتراب السيارة من البلدة، ظهر مشهد المروج المشذّبة والمماشي المفروشة بالحصى الخاصة بالمنازل الخشبية. وكان رين يعرف بعض هذه البيوت، ولكنها متباعدة عن بعضها البعض جداً، ومعزولة بالغابة الواسعة، حتّى أنّه لم يسبق له أن سمع صوت أيّ أحدٍ من الجيران. ويمكن لرين أن يحدّد البيوت التي تعيش فيها الزوجات الأوروبيات، إذ كانت فيها صفوفٌ أنيقة من زهور القنا والزنجبيل، وتُحيط بها أزهار الخُبّاز وشجيرات الدفلى. وكانت تُوجد شجيرات دفلى خلف بيت ويليام أيضاً، ولكن آه لونغ كان يطلب من الحدائقيّ دائماً أن يقطعها. كانت الأغصان الطريّة تفرز نسغاً أبيض يسبّب لك العمى، كما يقول بسوداوية، ومغليّ أوراق النبتة يسمّم الكلاب الضالّة.

حول منعطف، هبّت نسمة من النوافذ المفتوحة فطيّرت صفحة من الجريدة المجعدة التي بطّنت سلّة رين، إلى المقعد الخلفي، فالتقطها ويليام بيد واحدة بمهارة.

نظر رين إلى الخلف وقال: «آسف يا *توان*». ولكن سيّده حدّق بالجريدة، وأطلق صيحة تعجب.

«هل هذا عدد الأسبوع الماضي؟».

أومأ رين بالإيجاب والذنب يجلّله. وهل من غير المسموح لهم استعمالها؟ رأى تعبيراً غريباً على وجه ويليام. كانت صفحة الجريدة التي جمّدته في مكانه من صفحة الوفيات، وفيها صفوف من الصور بالأبيض والأسود.

وقال رين: «هل مات شخص تعرفه؟».

عضّ ويليام على شفته وقال: «مريض من مرضاي».

«هل كان عجوزاً؟».

«كلا، شابّ يافع. يا للمسكين».

وبعد لحظة طويلة، أعاد ويليام الصفحة المجعّدة إلى رين فحشرها في السلّة،

ولكن ليس قبل إلقاء نظرة فضولية على الصفحة. كان فيها اسم واحد لشابٍّ ميت هو السيّد شان يو شونغ. رجل مبيعات يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً.

أغلق ويليام عينيه، وأصابعه معقودة بتراخٍ في حضنه. أصابع بيض طويلة قادرة على خياطة جرح أو بتر أحد الأطراف. وترنّم بصوت خفيض. وتساءل رين لماذا يبدو سيّده مرتاحاً، ويمكن القول أنّه يبدو سعيداً حتّى؟

وما أن دخلت السيارة إلى المستشفى، حتّى شعر رين بدغدغة كهربائية كأنّ إشارة إذاعة بعيدة جدّاً وضعيفة، تتّصل به. وارتعشت وهي تمرّ في جسده بنفس الطريقة التي اعتاد هو ويي التواصل بها. الإصبع هنا. وفجأة، أصبح متيقناً من هذه الفكرة. حمل ويليام حقيبة يده الجلدية وغادر. وقفز رين بسرعة وراءه.

«هل لي أن أحمل حقيبتك يا *توان*؟».

وتوقّف ويليام لينظر إليه وقال: «هل تريد أن تشاهد المستشفى؟».

هناك قسمان، بدأ ويليام يشرح. هذا الجزء هو مستشفى المواطنين المحليين. بينما الجناح الأوروبي المخصص للأجانب موجود على الطرف المقابل من الشارع. وحيّا ويليام موظف الاستقبال بإيماءة من رأسه. وانفتحت الأبواب، وابتسم الناس. وسار رين خلف ويليام وهو يتساءل إن كان كلّ الأوروبيين يتلقّون نفس المعاملة أو ربّما بسبب أنّه أوروبي وجرّاح أيضاً.

كان هناك تسلسل هرمي طبي صارم، واعتاد الدكتور مكفارلين أن يسخر منه، فالطبيب العام مثله هو في أسفل الهرم. ولكن الدكتور مكفارلين كان ماهراً جداً، فكّر رين. كان يعالج مرضى يئس منهم الآخرون، مثل ذلك الصيّاد *الأورانج أصلي*(1) الذي جاء بذراع مصابة، وابن البائع الصينيّ المصاب بالتشنجات. لقد عالج الجميع، وكانت النتائج غالباً مدهشة.

قال ويليام: «سأذهب لتفقد العنابر، ما دمت هنا». كانت الممرات طويلة المرصوفة ببلاط بنيّ وكريميّ كلوحة الشطرنج، لها رائحة مطهرات.

---

(1) orang asli: مصطلح يعني الشعوب الأصلية في ماليزيا. المترجمة.

سأل ويليام: «هل تود أن ترى مريضتك؟».

كان رين مشوشاً. أيّة مريضة يعني؟

قال ويليام: «المرأة التي عالجتَ ساقها. فقد عادت».

طبعاً رين يود أن يراها. مع أنّه شعر فجأة بالخجل. كان العنبر فارغاً باستثناء رجل عجوز نائم وفمه مفتوح، وامرأة شابة تجلس في السرير التالي. وتفاجأ رين من مظهرها. لم تكن تشبه تلك التي كانت تستلقي في العربة وساقها تقطر بالدم على كلّ الممشى. تبدو بشرتها العسلية الآن منتعشة وشعرها مسرّح ومجدول بعناية. كان وجهها بغمّازة وله شكل قلب بالضبط، وعندما طلب منها ويليام أن يفحص ساقها، تبدّل لونها.

قال: «هذا رين. الذي عالجك في بيتي».

و لاحظ رين أنّه لا يسميه «صبي الخدمة»، أو «خادمي»، وشعر بفخرٍ ملتبس.

قالت: «إنه يافع جداً!». وحسب لوحة المرضى كان اسمها نانداني ويجداسا. وهي تبلغ ثماني عشرة عاماً وغير متزوجة. كان أبوها موظفاً في مزرعة للمطاط قرب بيتهما. وأُعيدت إلى المستشفى صبيحة هذا اليوم بسبب الحمى وألم الساق. جرّ ويليام بلطف بيجاما المستشفى مع ابتسامة تطمين. كان الجرح أصغر مما يتذكر رين، ولكن لا يزال هناك جرح بليغ خلف ساقها الناعمة. ومخاطٌ بخيط أسود، ويبدو حساساً ومنتفخاً.

قال لها: «علينا أن نفتحه مجدداً لنغسله، وربّما نزيل الأنسجة التالفة ثم نغلقه مجدداً. وحينما تعودين إلى البيت أبقيه في ضمادة من الشاش منقوعة بحامض الكربوليك لمنع التلوث وحدوث التهاب. وعليك أن تنظّفي الجرح دائماً، وإلا تسمّم دمك. هل تفهمينني؟».

ونظر إليها مباشرة وقفزت بينهما شرارة. إحساس القطّة عند رين لم يكن قوياً بهذا الشكل منذ وفاة يي. ما معنى ذلك؟ ولكنه يعلم دون أن يرفع رأسه، أن شيئاً ما يحصل بين ويليام والمرأة الشابة، نانداني. نوع من الانجذاب جعل الدكتور يتريث بينما نانداني ترمش بأهدابها الطويلة المعقوفة.

ولم يكن رين هو الشخص الوحيد الذي يظن ذلك. دخلت امرأة أجنبية، وهي تدفع عربة تحمل روايات وأعداداً سابقة من مجلة *بانش* ومجلة ذي *ليدي*، وهي للمرضى للقراءة. وثبّتت عينيها، وهما بلون أزرق كهربائي مدهش، على ظهر ويليام.

قالت: «ويليام! ماذا أتى بك اليوم؟».

التفت وقال: «مرحباً يا ليديا».

كان ضوء الشمس الذي يضيء العنبر يبرز اللون الذهبي في خصلات شعرها الجميلة، وتساءل رين إن كان شعرها مموّجاً كلّ الوقت أو أنّ عليها أن تبخّره وتضغطه. مثل الكعك الاسفنجي.

قالت ليديا: «هل هذه مريضتك؟». وألقت نظرة سريعة على الفتاة السنهالية المستلقية على السرير.

نظر إلى رين وقال: «ليست مريضتي». وحدّق رين بخجل على الشقّ في ألواح الأرض قرب سرير نانداني.

أخذت ليديا ويليام جانباً ووضعت ذراعها بذراعه وقالت: «يقول ليسلي أنّك ستستضيف سهرة الأطباء الشباب القادمة».

قال: «إنه مجرد حفل عزّاب بسيط. ليس شيئاً مثيراً للاهتمام، كما أخشى».

وكانت نظرة ليديا آمِلة ومحتجّة. وسألته: «هل بمقدوري الحضور؟».

«فقط إن كان لا يضرّك الاستماع لكلام عن الأمراض الاستوائية».

«أبداً! أود أن أساعد قدر الإمكان، أحياناً لا يعلم الناس ما هو الأفضل لهم».

أثناء كلامهما لمست نانداني كُمّ رين وقالت: «شكرا». كانت ابتسامتها دافئة وقد سُرّ رين أنّها حية وليست ميتة مُسجّاة في عربة يغطيها الدم.

أضافت: «هل تدرس الطب؟».

«أودّ ذلك».

«ستكون طبيباً ناجحاً». وانجرفت عيناها نحو ويليام وتابعت: «هل سيدك طيّب معك؟».

أدرك رين، والدهشة تغمره، أنّ الجواب نعم، إن ويليام كان طيباً معه.

قالت: «إنه لطيف». وعادت مجدّداً تلك الشرارة الخفية بينها وبين ويليام. وطارت مع أزيز خفيف، وتوقع رين إلى حدّ ما أن يرى الشرارة تتوهّج في الهواء.

والتفت ويليام إلى ناندانى مرّة أخرى. وسأل: «أين تعيشين؟». فذكرت له عنوانها بخجل.

سجّله في دفتر ملاحظاته الصغير الذي يحمله في جيب صدارته.

قال: «أنت قريبة جدّاً من مسكني. إن قمت بزيارتي سأفحص لك ساقك الأسبوع القادم مجدداً. ولا حاجة لزيارة المستشفى».

وخلف ويليام، انشغلت ليديا بترتيب الكتب في العربة بجدية.

ولم يشعر رين بأيّ شيء حيالها. ربّما لأنها كيان مجهول بالنسبة إليه، فهي أجنبية وسيّدة، ولا يمتلك أيّة خبرة تقريباً حول هذه التركيبة. ولكن هي وويليام يشكّلان زوجاً متناسباً. كلاهما طويل جداً، بعينين فاتحتين وجلد رقّشته الشمس الحارقة، وليس ناعماً ومتّسق اللون مثل ناندانى. وأسف رين للسيّدة الأجنبية، أنّها تبذل ما باستطاعتها، ولكن لماذا لا تعجب ويليام؟

بعد الانتهاء من العنابر تابع رين خطواته بجانب ويليام. كان فرحاً باستعادة حاسّة القطّة، ذلك الحسّ باللامرئي الذي فقده منذ زمن، كأنّه استعاد طرفاً أو زوجاً إضافياً من العيون والآذان. ما هو الشيء الخاص جدّاً بخصوص المستشفى؟ قال ويليام أنّه سيزور قسم الأمراض لرؤية زميله الدكتور رولينغز. كان لديه استفسار عن تقرير تشريح جثّة. رين يعلم أن الأمراض تعني فحص أعضاء وأجزاء من إنسان أو حيوان ميت. وهذه إشارة جيدة إلى حيث يمكن أن يكون مكان الإصبع. وضجّ بالحماس، إنّه على يقين من أنّه حتّى إذا أغلق عينيه، سيكون قادراً على العثور عليها.

وهما يتابعان في الممرات المسقوفة التي تسطّرت على أحد جانبيها صفوفٌ من أصص زنابق النهار، اكتشف رين أنّه يستطيع أن يقرأ ملامح ويليام الآن بطريقة لم يسبق له أن شعر بها من قبل. اهتمامات ويليام مثل خيط مشدود. كان ينقطع هنا

وهناك، ولكنه غالباً ما ينشدّ حول النساء، ممرضات يمشين، وسيّدة زائرة تنحني على سرير. وبالتأكيد، لا يلاحظ ويليام الأشياء التي انتبه لها رين، مثل العنكبوت وراء الباب، أو الحصى تامة الاستدارة تحت الزنابق، والتي رغب رين في أن يحملها في جيبه ولم يجرؤ لأنها تعتبر من ممتلكات المستشفى.

وهما يقتربان من قسم الأمراض، ازدادت رعشة الشارب الخفيّ، وأصبحت أقوى لدرجة أن رين تشنّج من الحَماس. لم تكن الرعشة بهذه القوّة من قبل، ولا حتّى مع بي. استدارا حول زاوية. وتحسس ويليام جيب صدارته، ثم نقّب في جيوب بنطاله بانزعاج. قال: «عُد أدراجك يا رين وائتِني بقلمي الحبر. هو مع ممرضة العنبر».

وبأسى، تابع رين ويليام وهو يعبر إلى بناء آخر ويفتح الباب ثم يلج منه. شيء ما في تلك الغرفة كان ينادي رين ويجذبه نحوه، حتّى من مسافة خمسين قدماً، وكأنه مغناطيس. عليه أن يدخل إلى تلك الغرفة.

ولكن استعادة قلم ويليام كان أمراً لا يمكنه أن لا يطيعه. كان للقلم اسم، كما قال ويليام، وهو اسم أعلى جبل في أوروبا، مونت بلانك. والنجمة المستديرة البيضاء على القلم تمثّل القمة المكللة بالثلوج، وريشة القلم مصنوعة من الذهب الخالص. وهو القلم الذي يستعمله في كتابة الرسائل يومياً. وإن لم يجده، سيكون ويليام تعيساً جداً.

وأسرع رين عائداً، والتبس عليه الأمر فأخذ منعطفاً خاطئاً. كان من الصعب عليه تمييز طوفان الإشارات التي راحت تهاجمه. كانت «*مثل مرآة مليئة بالأسماك*»، وتذكّر مقولة الصيّاد الأعمى باك إدريس. «*يجب أن تعرف أغنيتها*». ولكن ما يشعر به الآن يشبه يراعات ترشق كالسهام في الظلام. فهي تتحرك بأنماط غريبة وعشوائية من اهتمامات الإنسان ومشاعره. وفكّر رين لو أنّه يجد مكاناً هادئاً ومستقراً، سيكون بمقدوره أن يميّزها ويفرزها عن بعضها البعض. ولكن عليه أولاً أن يعيد القلم. وأخبرته الممرضة العاملة في العنبر أنّها وضعته بعهدة رئيسة الممرضات.

ورئيسة الممرضات هذه، مثلها مثل كلّ كبار الموظفين، أجنبية. امرأة استرالية بوجه حاد، وهي كلها مفاصل ونشيطة[1]، وقد نظرت له بشكّ عندما دخل إلى مكتبها. قالت: «هذا قلم ثمين. عليك أن تحرص على أن لا توقِعه». كان غطاء رأسها الأبيض المنشّى يقف مثل جناحين متيبّسين لطائر. أطبق رين يده على القلم، هرع بقلق عائداً إلى مخزن قسم الأمراض. انطلق راكضاً أولاً، ولاحقته نظرات الكبار الغاضبة. ولم يكن بحاجة للسؤال عن الاتّجاهات. كانت الأسلاك تهمس في رأسه، وتغني. وعندما ركض عند آخر زاوية، ارتطم بويليام.

سأله: «هل وجدته؟».

كان رين يشعر بقليل من الدوار. حدّق بويليام وناوله القلم بزهو المنتصر. فقال: «رائع!».

وبدا على ويليام السرور. لكن رين لم يستطع أن يحدّد هل هذا بسبب استعادة قلمه أم لشيء آخر مفرح حصل له في تلك الغرفة. في الحقيقة، كان ويليام بمزاج أفضل مما كان عليه طوال أسبوع. واختلس رين النظر من خلف ويليام. كان الباب الآن موارباً، ولكن الشمس الساطعة جعلت من الصعب أن يرى الداخل المعتم. وكان هناك خيال مائل على الباب. ربّما لرجل، إذ يبدو أطول من أن يكون لامرأة. فهل هذا هو الدكتور رولينغز الذي تكلم عنه ويليام؟

وتخلّلت الكهرباء جسده. وأصبحت أفكار رين مضطربة وغير متماسكة. واهتز شاربا القطّة. عليه العودة إلى الغرفة التي خرج منها ويليام للتوّ، لكنه ترنّح على قدميه.

قال ويليام: «تماسك». وأوصل رين إلى مقعد وسأله: «ألم تتناول غداءك؟».

هزّ رين رأسه نافياً. فلا هو ولا آه لونغ خطّطا لأن يذهبا بهذه الرحلة إلى البلدة.

قال له: «دعنا نذهب لنأكل شيئاً. هناك مقهى في البلدة تقدّم قهوة جيدة».

وخزت دموع الإحباط عيني رين وهو يسلمّ قياده عائداً إلى مقدمة المستشفى

---

(1) يعني أنها نحيفة ونشيطة. المترجمة.

حيث ينتظرهما هارون، جالساً القرفصاء في الظلّ بجانب السيارة المركونة. وعندما انطلقت السيارة، نظر نحو الخلف إلى المستشفى. ولم تكن بعيدة عن نادي كينتا كلوب وهو المكان الذي يخطّط ويليام لزيارته لاحقاً. ربّما كان رين قادراً على العودة وحده بهدوء. في الحقيقة عليه أن يفعل ذلك.

16

مستشفى مقاطعة باتو جاجاه

السبت، 13 حزيران

وقف ويليام أكتون، الأجنبي، في الباب المفتوح لمخزن قسم الأمراض، وقال: «لم أشاهدْكِ من قبل. أنت لست بممرضة أليس كذلك؟».

«كلا، أنا أقدّم يد المساعدة فقط». وانتبهتُ إلى التساؤلات تبرق في عينيه. وجعلني هذا متوترة. أين ذهب شين؟

قال: «فهمت». ولكنّه لم يتحرّك من الباب.

وقفتُ في مكاني بحرج، وأنا أحمل قنّينة تضمّ أجزاء من أمعاء.

نزع نظارته ومسح وجهه، وهذه حركة جعلته يبدو عارياً ومتوعكاً على نحو غريب. كان لون بشرته رمادياً تحت سُمرة الشمس وهناك هالات تحت عينيه. ويمكن أن يكون في أيّ عمر بين الخامسة والعشرين حتّى الخامسة والثلاثين، كانت حركته سريعة بما فيه الكفاية.

«إذن هل تعملين لدى رولينغز؟».

أومأتُ برأسي موافقة. فابتسم. وكانت ابتسامة غير متوقعة منحت وجهه مُسحة فتنة مُنهَكة.

«أفترضُ أنّك لن تخبريني باسمك؟».

«لويز». وعرفتُ على الأقل كيف أجيب على هذا السؤال.

«حسناً يا لويز. يبدو أن هذه العيّنات لا تثير غثيانك».

قلت ببرود: «كلا».

«في الحقيقة، لقد ساهمتُ ببعض منها».

أصابني الفضول رغماً عنّي، أجبت: «هل تبرعت بأعضائك لأغراض علمية؟». كنت أعتقد أن الناس لا يفعلون ذلك إلا بعد أن يموتوا.

ابتسم الطبيب الأجنبي مجدداً وقال: «كنت أعني المرضى الذين عالجتهم. دعينا ننظر، أعتقد أنّني قدّمت حصاة مرارة كبيرة وبعض الأصابع».

و تنبهت فوراً وقلت: «أصابع؟».

«إحداها كانت إصبعاً سادسة إضافية أزلتها من كف مريض هندي. وآخر كان في الحقيقة، من أحد أصدقائي. لدينا مجموعة كبيرة من الأصابع هنا، كما أذكر، دزينة على الأقل».

وعبر الغرفة، وأشار لقارورة كبيرة فيها سائل عكر. وقال: «يجب رمي هذا في النفايات. الكثير من العيّنات القديمة مثبتة بالكحول، والذي يجب تبديله مرّة في السنة. نحن نحتفظ بها ني حالة كونها مثيرة للاهتمام من الناحية الطبية. وبعض الناس بالطبع، يستعيدون أعضاءهم لتدفن معهم».

ثم انحنى وتنحى خطوة إلى الجانب. كنت أخشى الوقوف قريباً من الرجال. علّمني العمل في ماي فلاور أنهم يتمادون وأيديهم طويلة، وقوتهم مفاجئة. كان من الصعب الإفلات منهم لو أنّهم قبضوا عليك من الخصر. ولا يوجد هنا الآن حرّاس صارمون، ولا الماما بعينيها كعيني النسر. كنّا اثنين فقط في هذه الغرفة. وإن صرختُ، فهل سيسمعني أحد؟

ولكن ربّما كنت شكّاكة أكثر من اللزوم، فقد تابع الكلام حول العيّنات المختلفة. ويبدو أنّه يعرف الكثير عنها.

«كم يطول الاحتفاظ بالعيّنات هنا؟».

«لا فكرة عندي. إنّها في الأغلب غرائبيّات، والمساعدون يحبّون أن يأتوا بالممرضات المتدربات إلى هنا بعد هبوط الظلام ليفزعوهنّ».

ولم أتمكّن من منع نفسي من أن أسأل: «هل يصعب الحصول على عمل كممرضة في هذا المستشفى؟».

«هل ذهبتِ إلى المدرسة؟ تبدين متعلّمة».

وبإيجاز، أخبرته أنّني أنهيت دراستي وحصلت على وثيقة وأنني أفكّر بعمل ما.

حكّ ذقنه وقال: «مفهوم»، وقيّمني مجدداً. ثم قال: «إنه ليس نظاماً موحداً تماماً، لا شيء يشبه ما لدينا في بريطانيا. هنا يتوقّف الأمر على المستشفى. مستشفى منطقة باتو جاجاه يدرّب الفتيات المحلّيات لملء الشواغر. دروس التمريض تُلقيها الممرضات الأقدم وبعض الأطباء، ثم يعقبها امتحان حكومي».

«هل يوجد شواغر للمتدرّبات؟». وأحرجتني النبرة المتأمّلة في صوتي، ولكنّه بدا سعيداً باهتمامي.

فقال: «يمكنك أن تسألي في المستشفى. وإن لم يكن في هذه السنة، فهناك مجالٌ في السنة القادمة حتماً».

«وماذا عن أجور التدريب؟». لم يكن لدي نقود بعد تسديد ديون أمي، وطالما أن زوج أمّي يرفض أن يموّلني، الباب مغلق.

قال: «أعتقد أن هناك منحاً. وأنتِ بحاجة لتزكية شخصية طبعاً».

كان هناك شيء في عينيه، نوع من الوحدة النهمة التي ميّزتها في عيون كلّ الراقصين الغرباء في فترات المساء الطويلة.

«تفضّلي بطاقتي». وقدّم لي قطعة ورق مربعة بأطراف حادة. وأضاف: «قدّميها للمدير الطبي وأخبريه أنّك مهتمة بالتمريض. أو يمكنك ملء استمارة وأنا سأعطيها إلى رئيسة الممرضات».

قرأتُ على البطاقة: *ويليام أكتون، جرّاح عام*. ثم يأتي صف من الحروف التي لم أفهم منها شيئاً، ولكن من الواضح أنّها كانت ذات أهمية بين المسؤولين في المستشفى.

لربّما أسأت الحكم عليه. لا يجدر بي أن أكون سيّئة الظن إلى هذا الحد، إنّ هذا

يغلق الأبواب ويبعد الناس عنّي. في آخر عام لي في المدرسة حزنت المرشدة، لأنني لن أتابع دراستي للحصول على وثيقة الدراسة الثانوية المتقدمة، وعرضت أن تزورني في البيت لإقناع أولياء أمري. قلّة من البنات كنّ يتحضّرن لذلك الامتحان، ربّما أربع أو خمس بنات من كلّ البلاد، وكانت متأكدة أنّه يمكنني أن أكون واحدة منهن. لكنّي رفضت عرضها. لم أحتمل أن آتي بها إلى بيت زوج أمّي لتشهد على رفضه وتعاستي. ولكن ربّما كان علي أن أقاتل بعزم أكبر.

ولذلك هذه المرة قلت: «شكراً»، وكنت أعني ذلك حقاً. وضعت البطاقة فيّ جيبي، وتحسّست الاسم المطبوع وهو ينزلق تحت أطراف أناملي.

ربّما تبدّل حظي. إذ سمعت الناس يقولون إن الحظّ الجيّد والسيّئ يأتي على فترات، مثل حكاية يوسف في الإنجيل. أرسلتني أمّي إلى مدرسة تأسّست على يد إرسالية ميثودية، وكان في الترانيم الهادئة، والوقوف والجلوس، وكتاب التراتيل عزاء لي، حتّى في الأوقات التي راودتني فيها أفكار فظيعة وشريرة، مثل تسميم زوج أمي.

لكن رجل المبيعات، شان يو شونغ، تكلم عن الحظّ أيضاً. وفي الحقيقة قال إنّه عن قريب سيكون محظوظاً جداً، ولكن انتهى به الأمر ميتاً في حفرة.

كانت هناك جلبة في الممرّ، واندفع شين وهو يحمل صندوقاً آخر من الملفات. وتوقّف من الدهشة.

فقال الجرّاح، وبنبرة نشيطة مفاجئة: «حسناً، يجب أن أنصرف».

ودخل شين بحذر إلى الغرفة. ونظر إلى ويليام أكتون، ثم إلى وجهي المتورّد خجلاً والمتحمّس.

وسأل: «هل هناك ما أنت بحاجته يا سيدي؟».

قال له: «أنت واحد من الممرّضين المؤقتين في موسم الصيف. طالب طبّ، هل هذا صحيح؟».

«نعم، سيدي».

كانا مثل كلبين يختبران بعضهما بعضاً، ولكنّي لم أهتمّ كثيراً. وفكّرت أن الباب إلى فرصة عمل والذي كان مغلقاً انفتح قليلاً، وربّما سأمرّ منه.

«أخبِر رولينغز أنّني أتيت». وبإيماءة وجيزة، كان الدكتور قد اختفى. وقف شين في الباب يراقبه لدقيقة. وسأل: «هل أنتِ على ما يرام؟».

بالطبع، كنت بخير. منذ عام مضى كنت سأكون أكثر خجلاً، ولكن العمل في ماي فلاور جعلني أعتاد الأغراب. ثم أنّه لم يفعل شيئاً فعلاً، فهو ليس مثل الزبائن *البوايا* الذين كنت أدفع عنّي أياديهم المتطفلة بالصفعات. ولو كان لدي طفل جائع ينتظر في البيت، مثل روز وبيرل، لن يكون بمقدوري الرفض، فهو رفاهية. أحياناً، أتساءل إن كان قرار أمّي بالزواج ثانية هو ذنبي. هل رأت أن ذلك الزواج هو أفضل خيار لها، بعد أن شاهدت ثيابي التي قصُرت علي، وكيس الرزّ الفارغ في الزاوية؟ ولكن كلا. إنّها تحبّ زوجها أيضاً. كان فيه شيءٌ يجذبها إليه. ولا يمكن إنكار ذلك.

قال شين: «دعينا نحصل على استراحة للغداء. المقصف لا يزال مفتوحاً».

أغلق الباب، وعبرنا فوق العشب إلى بناية أخرى. كانت التربة الحمراء تتفكّك تحت أقدامنا إلى فُتات خشن ودافئ. وانتشر نملٌ كبير أسود، كلّ نملة بطول آخر عقلة من إصبعي، وكان يدبّ بذعر تحت الأقدام. وكان شين هادئاً جداً، وقد تبخّر على ما يبدو مزاجه الطيب السابق.

قلت وأنا سعيدة لأنّ لدي شيئاً أخبره به: «قال إن لديهم على الأقل دزينة من الأصابع في مخزن الأمراض. علينا أن نتأكد من السجّلات لنرى إن ضاع أيّ شيء منها».

وارتاحت نفسي عندما بلغنا الممشى المظلّل بعيداً عن وهج الشمس الحارق. وحيّا ممرض بثياب بيض يدفع رجلاً مُسنّاً في كرسيّ متحرّك؛ شين برفعه إبهامه للأعلى ومضى.

بادله شين التحية بإيماءة كئيبة من رأسه، وقال: «هل هذا كلّ ما تكلمتما عنه؟».

«لماذا؟».

«هناك إشاعات تدور حول ذلك الدكتور».

«ما مشكلته؟».

«إنّه جراح ممتاز، وكفوء. ولكن يقال إنّه يعاكس الفتيات المحليات».

«هذا غير مستغرب، كلهم هكذا».

رماني بنظرة سريعة وقال: «أرى أنّك تغيّرت».

بالطبع تغيرتُ. فلم تعد تصدمني أشياء مثل العلاقات الغرامية والدعوات الخارجية والعشيقات، فقد عرفت الكثير عن ذلك في خلال أسبوع من فتيات أخريات في ماي فلاور، أكثر بكثير مما سمعت به في أيام المدرسة. حتّى لو قالت هوي أنّني لا أزال ساذجة وعلى الفطرة إلى حدّ ميؤوس منه.

سألته: «وكيف علمتَ بأمره في كلّ الأحوال؟».

«شريكي بالسكن أخبرني».

كانت البطاقة التي قدمها لي ويليام أكتون تستقر في جيبي، مثل تذكرة قطار إلى محطّة انتظرتها طويلاً. ورغبت أن أخبر شين عن إمكانية تعلم التمريض ولكنّه لم يكن يبدو مستعداً لسماع ذلك على وجه الخصوص. نحن لسنا سواسية. هكذا فكّرت بامتعاض. فليس عندي منحة لدراسة الطب، ولا رفاهية انتقاء أعمال موسمية لفترة الصيف.

في المقصف، أردت تجريب الطعام الغربيّ العجيب المدون على السبورة، شطائر السردين، وقطع الدجاج، وحساء موليغتاني.[1]

وقال شين بلهجة متعالية: «عليك أن تشاهدي صالة الطعام في الجامعة. توجد اختيارات أطعمة أفضل بكثير من هذه التي هنا». ثم توقّف، وتذكر، كما أفترض، كم كنت أودّ للانتساب للجامعة. صنعتُ ابتسامة جافة على وجهي لأغطّي بها على انزعاجي.

كانت الساعة الآن الثانية بعد الظهر، وأغلب الطاولات مهجورة. وبعد أن انتهينا تقريباً، انضم إلينا الممرض الذي كان يدفع كرسي العجوز. كان له وجه ممتلئ الفكّين والخدين، مثل خنزير صغير مرح. وقطرات من العرق ترتعش على شفته العليا.

---

(1) mulligatawny soup: أحد الأطباق الهندية الحارة من الدجاج أو اللحم. المترجمة.

وسأل شين: «لماذا أنت هنا في يوم إجازتك؟». ووضع أمامه طبقاً من المعكرونة بكريّات السمك الذي يعلوه البخار. وأضاف: «*واه!*. حتّى أنّك أحضرت معك صديقتك. ما هذا الموعد الغرامي الرخيص؟».

ولم أمنع نفسي من الابتسام؛ كانت عيناه الصغيرتان مضحكتين. وقلت له: «أنا أخت شين. وهو يستعين بي في عمله اليوم».

«لم أعلم أن لديك أختاً جميلة هكذا. لماذا لم تقدّمني لها قبل قليل؟ أنا كوه بنغ، وأنا عازب». وتبادلنا المصافحة من فوق الطاولة. وكما خشيتُ كانت راحة يده متعرّقة.

سألته: «ما نوع هذا العمل؟».

قال شين: «تنظيف مستودع الأمراض».

«لا أحد يرغب بذلك العمل. ألا تجدين الأعضاء المخلّلة مرعبة؟».

قلت: «ترتيب الملفات قد يكون أسوأ».

«هل رأيت الرأس المحفوظ؟ يقال أنّك لو رفعتيه عالياً في منتصف الليل، سينطق».

ألقيتُ عليه نظرة مشككة، فغمز لي وقال: «هناك أشياء أخرى غريبة محجوزة في تلك الغرفة. روح ساحر، *بيليسيت*[1]، تظهر بهيئة جندب وهو في قارورة زجاجية ويجب تغذيته بالدم كلّ شهر، وإصبع من مستنمر، أحد *الهاريمو جاديان* الذي يمكنه أن يرتدي جلد البشر ويتجول بين الناس في وضح النهار». ثم التفت إلى شين وقال: «ما رأيك أن أساعد أختك بالتنظيف؟».

بدا شين غاضباً. فقلت بسرعة: «لقد انتهينا تقريباً». ولم يكن هذا صحيحاً بالمرة.

وسألت: «ما موعد آخر قطار إلى إيبوه؟».

قال كوه بنغ الذي يبدو أنّه من المتعذر كبح جماحه. وقال: «سأرافقك. فأنا ذاهب إلى هناك في هذه الأمسية. بالمناسبة أنا أعزب».

(1) pelesit: شكل من الأرواح المألوفة في الفولكلور الماليزي على هيئة جندب. المترجمة.

«ذكرت ذلك من قبل».

قال: «للتأكيد فقط». وإذا كان يبدو مثل خنزير صغير هذا لا يمنع أن أرى أنّه مسلٍّ. أضف إلى ذلك، أنّه من الواضح كان يعرف ذلك عن نفسه.

«سأرافقها بنفسي». قال شين ببرود، وأضاف: «أو ابقَي إن أردتِ فصديقتي تقول يمكنك أن تبيتي معها هذه الليلة».

سأله كوه بنغ: «ومن هي صديقتك؟». وقد سبقني بالسؤال.

قال شين: «ممرضة».

«مضى على وجود أخيك هنا أسبوع وها هو يسبّب الكثير من الدراما بين الممرضات».

«لستُ متفاجئة». وتابعت الابتسام لكنّني شعرت بضيق مبهم. غير أن هذا صحيح. لن أتفاجأ لو عرفت أن شين كسب بعد، صديقة أخرى.

كانت أوّل صديقة لشين أكبر منا بسنتين، وهي قريبة واحدة من زميلاتي في المدرسة. ولأكون صادقة، لم أتوقع أن يختارها، مع أنّها كانت لطيفة بما فيه الكفاية. وما أعجبني فيها، على العموم، أنّها بدت ناضجة جدّاً ومتوازنة، ولم أعلم أنّه كان يلتقي بها إلّا بعد مرور شهر.

وقلت آنذاك لأمي في إحدى الأمسيات: «شين يمضي وقتاً طويلاً خارج البيت أليس كذلك؟». كنّا نجلس في المطبخ وجليسنا الصمت. ومصباح النفط يشعّ عليها وهي تخيط وعلى مكتبتي. كنت قد تخلّيت عن فكرة التسميم وأقرأ لشارلوك هولمز للتسلية فقط. وكلّ شيء كان هادئاً وعادياً. وبالكاد يمكنك أن تعتقد أن شين وزوج أمّي تبادلا اللكمات هنا، وحطما الطاولة القديمة، ثم حطما كلّ شيء في طريقهما حتّى الباحة الخلفية، أو حتّى أيّ شيء حصل في تلك الأمسية الفظيعة. ولكن كما أظنّ هذا هو حال البشر. نحن ننسى الأشياء السيّئة لنحتفظ بالذكريات العادية، وكل ما نشعر أنّه آمن.

قطعت أمّي بأسنانها الخيط وقالت: «ربّما هو يزور فونغ لان في بيتها». وفونغ لان هي ابنة النجار الذي صنع لأمّي طاولة مطبخ جديدة، كانت هذه الطريقة التي اعتذر بها زوج أمّي بعد عراكه مع شين.

قلت: «أنا سعيدة له».

ألقت عليّ أمّي نظرة غريبة وقالت: «إنه يريد الاستقرار معها، كما ترين».

لقد تفاجأتُ، وربّما لم يجب علي ذلك. على شين في خاتمة المطاف أن يجد فتاة تُعجبه.

كان لفونغ لان وجه مستدير وحاجبان مائلان قليلاً، وكانت مغرمة بشين. وأدهش الناس اختياره لها من بين كلّ الفتيات اللواتي تهالكن عليه. كانت هناك تعليقات ذامّة مثل: «ساقاها تبدوان مثل *اللوباك*»[1]، أو الفجل الأبيض الكبير، ولكن حتّى لو سمعت فونغ لان ذلك، فيبدو أنّها لا تهتم. هذا جزءٌ من جاذبيتها، ذلك الصدق الناضج الذي تتميّز به شخصيّتها. وأحياناً تكون طيبة جدّاً لدرجة أنّها تدفعني للصراخ. ولكن أنا أيضاً انجذبت إليها. فعندما تكلمني بنبرتها الناعمة الجادّة، تجعلني أشعر بأنني أرغب بأخت كبيرة مثلها لتواسيني، وتعزّني وتحبّني.

وذات مرّة وصلت باكراً على نحو غير متوقع إلى البيت، وضبطتها مع شين. كانت أمسية هادئة وخاوية، ولكن كنت أعتقد أنّه لا أحد في البيت. وكان بمقدوري أن أصفّر بصوت مرتفع، وأعبث بالأشياء التي لا يريد منّا زوج أمّي الاقتراب منها. كانت قيوداً سخيفة مثل تمزيق الورقة التالية من التقويم اليومي، أو تبديل مؤشر الإذاعة إلى محطّة أخرى. كان بإمكاني أن أفعل كلّ ذلك، لكنّني، ذهبت برزانة إلى الطابق الأعلى.

في أعلى السلالم، ألقيت حقيبة المدرسة جانباً وتابعت بهدوء في الممرّ بالجوارب. ثم أوقفني صوت غير مألوف، شهقة وأنينٌ ناعم. صوت فتاة قادم من غرفة شين. تسمّرت في مكاني. إحساس واخز، كما لو أنّ جلدي كان ينشدّ ويتقلص كثيراً، ولم يعد يتّسع لي. ومن خلال الباب المفتوح، رأيتهما.

كانا على الأرض في غرفة شين، المكان الذي مُنعت من دخوله. وكانت فونغ لان تستند على سريره. وكانت بلوزتها مفتوحة من الأمام وتكشف عن صدرها العاري الممتلئ والمنتفخ والشاحب فيما كانت منحنية فوقه، وشعرها مفروق

---

(1) lo bak

مثل ستارة لامعة. وكان رأس شين مستقراً في حضنها. وإحدى يديها ممدودة فوق صدره باستحواذ. كان قد أدار وجهه إلى الجانب الآخر، لكن أمكنني رؤية وجهها. وكانت تبدو مسلوبة اللبّ، كأنها لم تشاهد في حياتها شيئاً جميلاً مثل شين. وكان جميلاً حقاً. وكان ذلك واضحاً حتّى لي في تلك اللحظة، طول جسمه اللامبالي والممدود، وحركة ذقنه الحادة.

في تلك اللحظة، أدركت كلّ شيء. ما يخصّ شين ويخصّني. وكيف أنّ هناك أشياء لا يمكن أن تحصل عليها. طوال السنوات التي عشتها في ذلك البيت، لم أشاهد شين مرتاحاً جداً، متحرراً من التوتر اليقظ الذي كان يلف جسمه مثل نابض. وعندما احتضنتُه في الظلام خلف قنّ الدجاج، شعرتُ بذلك التصلب والغضب الذي لا يزول. ولكن هنا، تحت هذا الضوء المسائي الناعم والمترقرق، رأيت شين مختلفاً، شخصاً لم أرهُ من قبل. وشعرت أنّني غير كافية على نحو فظيع ومقيت. فمهما كنّا متقاربين أو مهما كانت الأسرار التي نشترك بها، لم يكن باستطاعتي أن أمنحه مثل هذا السلام.

اختنقتُ بتنهيدة خرجَت رغماً عنّي من حلقي. ورفعَت فونغ لان رأسها ولكنّني كنت قد اختفيت، وأسرعتُ في الممرّ الطويل. وكلما عادت ذكرياتي إلى ذلك المتجر المنزلي، دائماً ما يكون نفقاً معتماً ولا نهاية له، من الأعلى والأسفل. ولأنني لم أعرف كيف أتصرف، انتهى بي الأمر للتجوال في حالة من الذهول، ولم أرجع إلا عندما تأكدت أن أمّي وزوجها عادا للبيت. وتصرّف شين وكأن شيئاً لم يحصل. ولم يُبدِ أيّة ردّة فعل عندما عدتُ في وقت متأخر حتّى أن المصابيح أُشعِلت، وأمي عنّفتني وهي بين شعورين، الارتياح لعودتي وقلقها عليّ. ولكن بعد عدّة أيام كلمتني فونغ لان.

قالت: «أعلمُ أنّك رأيتِنا في ذلك اليوم. لا بدّ أنّك شعرتِ بالإحراج».

كانت نعومتها ووداعتها مثل طعنة في القلب.

وحاولتُ أن اتّجاهل إحساسي وقلت: «لا تهتمي لذلك».

و لكنها أضافت بجدية: «أنا أحبّه فعلاً، كما ترين. ولكنّنا لم نفعلها بعد. ولا أريد أن أحمل منه وأقيّده معي، ولكن سأفعل إن هو أراد».

وأردتُ أن أهزّها معنفة: ما هذا التفكير؟ لقد حذّرتني أمي، وطبعت التحذير في رأسي. العفة هي واحدة من المساومات القليلة التي بيد النساء. ومهما كان شين وسيماً، ففونغ لان كانت حمقاء. ومع ذلك، جزء منّي لا يسعه إلا الإعجاب بها. وفكّرت أنّها تحبه حقاً.

على كرهٍ، وقفت بمحاولةٍ لأقدّم لها نصيحة مع أنّها أكبر منّي بعامين. واستمعَت هي بصبر، ثم نفضت رأسها وقالت: «أنا أعرف جوّ أسرتكم». ففكّرت بامتعاض ودهشة: *إذن لقد أخبرها بكل شيء*، قالت: «ولكنّي أحبّ أن أجعل شين سعيداً. وإذا كان هذا يعني أن أسلّم نفسي له، فلا بأس بذلك عندي».

هل كان ذلك حبّ أم غباء؟ ولكن ربّما كان هذا هو الجزء العنيد مني، والذي يحسب فرص البقاء. لم أكن مستعدة لأسلّم نفسي لأي رجل، وأصبح واحدة من ممتلكاته. ليس من دون الضمان الاقتصادي الذي يوفره خاتم الزواج. وحتى بعد ذلك، مما رأيته من اختيار أمي، يبدو لي الثمن غالياً.

ولم أعرف أبداً ماذا جرى مع فونغ لان، لأنّ شين انفصل عنها وليس بعد فترة طويلة. وما يدعو للغرابة، أنّه بعد نهاية هذا الأمر وجدتُ نفسي أدافع عنها.

قلت قبل ستة شهور من رحيل شين إلى سنغافورة: «عليك أن تكون مخلصاً ووفياً». كنّا نجلس حول طاولة رخامية مستديرة وندرس. أو على الأقل شين كان يدرس. فلم يكن عندي ما أستعد له، ما من جامعة لأذهب لها. وأضفت: «أنت لا تشبه معنى اسمك إطلاقاً».

وبالكاد رفع عينيه عن كتابه ونظر لي. ثم قال: «ما الذي تتحدّثين عنه؟».

«لماذا انفصلت عن فونغ لان؟ لقد بكت حتّى ملأت الدلاء بالدموع. أنا أعرف ذلك».

وبدا منزعجاً وقال: «هل تطلبين منّي أن أواعدها مجدداً؟».

قلت للدفاع عنها: «كانت تبدو جادة أكثر من الإنسانة التي أنت معها الآن، أيّاً كانت».

«وماذا عنكِ؟ هل تعتقدين أنّك بكونكِ جادّة ستغيرين من تفكير مينغ؟».

كانت تلك ضربة تحت الحزام. وضيّق شين عينيه وقلب صفحة وقال: «هل طلبَت منك فونغ لان أن تكلميني؟».

«كلا».

«إذن لا تتوسطي فيما لا تفهمينه». والتهب وجهه، كأن أحداً كوى عظام خديه بوسمة نار، وتابع: «ولا تتكلمي عن معاني الأسماء! أنا مخلص بمقدار ما يمكنني».

وبغضب، أغلق صفحات كتابه وغادر.

بعد الغداء في المقصف، عدنا إلى المخزن وبدأنا بالملفات. ولم يكن الأمر سيّئاً كما توقعت؛ معظمها كان واضحاً. ولكن تصنيف العيّنات المحفوظة كان صداعاً لأنها لم تكن مرتبة بأيّ شكل من الأشكال.

كانت المجموعة غريبة جداً؛ وافترضت أنّه في هذه الزاوية البعيدة من الإمبراطورية، كائناً من يكون المسؤول عن قسم الأمراض، لا بُدّ وأنه يشعر كأنّه إله. لم نجد الرأس المحنّط أو الجندب الذي يشرب الدم الذي ذكره كوه بنغ، ولكن كان هناك جرذ برأسين، وذيله العاري مثل دودة تسبح في سائل كهرماني. ويبدو أنّ الدكتور ميرتون وهو الذي سبق الدكتور رولينغز في المنصب، وعد عدداً من المرضى باستعادة الأجزاء المفقودة من أجسامهم بعد أن يفحصها. وأشار لهؤلاء المرضى بإشارة (x) حمراء صغيرة وضعها في زاوية من سجلاتهم المهملة.

قلت: «من سيعود من أجل حصاة مرارة؟».

قال شين بجدية: «بعض الناس يريدون أن يُدفنوا كاملين».

ارتجفت، وأنا أتذكر شان يو شونغ، رجل المبيعات، حينما كنت أرقص معه، وكلامه عن السحر، وكيف يجب دفن الجسم بهيئته الأولى ليرقد بسلام.

قال شين وهو يقرأ من أحد الملفات: «ها نحن أُولاء. إصبع الخاتم في اليد اليسرى، عامل هندي، ذكر، مصاب بطفيلي. محفوظ بالفورمالديهايد».

فتشت رفوف العيّنات. كان كلّ شيء قد أُفرِغَ تقريباً. ولم أشاهد أيّة قوارير تضم أصابع مبتورة.

«هذا ملف آخر، سبّابة يمنى، لأنثى، مرنة المفاصل، بهلوانية».

قلتُ بصوت مرتفع: «ليست هنا أيضاً».

بالحقيقة، رغم السجلات التي تشير على الأقل لاثني عشر إصبعاً مبتورة في مجموعة المستشفى، لم نجد ولا واحدة منها.

اقتربت من الملف مجدداً وقلت: «هل هذا ممكن؟». يسخر الناس في العادة من خطّ الأطباء، ولكن في هذه الحالة لم يكن الموضوع مضحكاً. كان خطّ الدكتور ميرتون أشبه بصف من النمل الذي يرقص الكونغا، حلقات مسرعة لشخص لا يهمّه أن يكون خطّه مفهوماً.

«ها هناك شيءٌ مفقود بالإضافة للأصابع؟».

«تفحّصتها. حتّى الآن لا شيء آخر مفقود».

ولوّحت بالملف بزهو أمامه حيث كنت أجلس عند صندوق كارتوني، بين بحر من الأوراق.

اشتكى بقوله: «ما زلتِ تنافسية، فكّرت به قبلك».

«كلا. لم تفعل». وعُدتُ إلى الملف.

«هناك عنكبوت على شعركِ».

جمدتُ، وأغلقت عيني لحين تمكّن شين من إزالته. في الماضي، كان سينفضه بإصبعه وهو ينقر جبيني بذكاء. والآن، تعامل معه بعناية وبلا عاطفة، كأنّه غريب.

وهمهم: «خاب أملي لأنك لم تصيحي فزعاً من هذا الشيء».

وفتحت عيني لأقول: «ولماذا يجب أن أصيح؟».

وجه شين، المجموعة المألوفة من الأسارير التي تكوّن أنفه وعظام خديه، كان قريباً جدّاً، وكان بمقدوري أن أمدّ يدي وألمسه. ما هذا الذي يجعل إنساناً يبدو حسن الطلعة؟ هل هو تناسق ملامحه، أم الظلال القوية لجفنيه ورمشيه، ولتجاعيد فمه المتبدّلة؟ وفي مركز عينيه، وهما أكثر اسوداداً من عينيّ، أمكنني رؤية نور ضعيف، شعاع ضوء يتوهج. ثم رمش بعينيه، وسقطتُ إلى داخل نفق. أومضت الصور أمام عينيّ. وغاص خطّ القضبان الحديدية تحت الماء. تذكرة إلى

مكان مجهول. وأسماك تسبح في المرآة. وفي مكان ما، خفقت تهيّؤات منتصف الليل، ونهض خيال من أعماق النهر. ازداد الهواء كثافة. وشعرت بخثرة في رئتيّ فشهقت. وهويت نحو الأمام.

«ما خطبُكِ؟».

أمسكني شين وأنا أسقط، وتشابكت أفكاري مثل أعشاب النهر، زلِقة وملتفّة. تماسكتُ وأنا أشعر بالدوار. واستندت للخلف. ومرّرت يدي على عرض كتفيه، والعضلات القاسية التي تعود لرجل وليس لولد. وكان قلبي يدق بسرعة حصان على أرض غدّارة. ولو لم أحذر، كنت سأسقط سقطة قاتلة.

وراقبني باهتمام. وحاجباه الأسودان يعبسان. مهما كان ذلك الذي شاهدته في عينيه؛ الخيالات المنعكسة، المرآة المتصلة بعالم آخر، اختفت. كان هناك شين فقط، وحتى حينها كان شبه غريب بالنسبة لي.

«هل تعانين من نوبات كهذه دائماً؟».

نوبات. تلك هي الكلمة الصحيحة. نوبات دوار. نوبات سحرية. ارتعاش ملتوٍ لإصبع مبتورة قادنا إلى مكان غريب. ولم أتمكّن من الكلام، وإنما أومأتُ برأسي بنعم.

قبضَت يدا شين على كتفي. وجعلني الضغط أشعر بالتحسن. ثم فكّ ياقتي، وتعامل مع الأزرار العليا بسرعة ومهارة. ورغم شعوري بالدوار تساءلت كم امرأة جرّدها من ثيابها. ولكنه كان حريصاً، ولم يلمس غير قماشة الثوب. وحرص ألا يلمسني.

«هل خضعتِ لفحص فقر الدم؟ كثير من الفتيات بعمرك يعانين منه».

إنّه عمليّ دائماً. تنفست. أغرق ضوء الشمس الغرفة، وانتهت النوبة مهما كانت.

«هل حلمتَ يا شين بصبيّ صغير ومحطّة قطارات؟».

«كلا». وجلس متنهداً على الأرض متجاهلاً الغبار.

«حسناً. أنا حلمتُ به. وهذا غريب جدّاً لأنه يتحدث معي. وأشعر كأنني التقيت به من قبل».

«صبيٌّ صغير. هل هو أنا؟».

ضربته بملف وقلت: «لاتكن مغروراً».

وتفادى الضربة ضاحكاً. طار الملف من يدي وتبعثرت الأوراق في كلّ مكان، أوراق رقيقة متفرقة عليها كتابة سيّئة بخطّ اليد. كان خطّ الدكتور ميرتون، قوائم ومزيد من القوائم التي اختلطت مع لوازم كان قد طلبها. الفورمالديهايد، صبغات كحولية طبية. مباضع. مثبتات لشرائح زجاجية. وأخيرا رأيتها: *إصبع تبرّع بها مريض أوروبي. محفوظة بالتجفيف بالملح.*

ولوّحت بها أمام أنف شين وقلت: «هذه هي، إنّها الإصبع الوحيدة حتّى الآن التي لم تُحفظ بالسوائل».

قرأ بصوت مرتفع وأنا أنظر من فوق كتفيه: «من الواضح أن هذه كانت إحدى العيّنات المحفوظة التي عنّي بها الشخص بنفسه. دكتور ما، اسمه مكفارلين أو مكغارلاند، لا أستطيع قراءته بوضوح، بُترت إحدى أصابعه في رحلة في الغابات. وأصيب بتسمّم الدم بعد عضة حيوان. آمل أنّه لم يفعلها بنفسه».

«لا. ورد أنّ من قام بالعملية هو الدكتور و. أكتون. ويليام أكتون، وهو الجراح الذي كان هنا. لقد أخبرني أنّه تبرع بإصبع صديقه». أقلقتني هذه الصدفة، مثل تيار خفيّ معتم.

قال شين بجفاف: «يا لها من صداقة رائعة».

تجاهلته وقلت: «حفظها بالملح، ولا بدّ أنّ هذا كان كلّ ما بحوزتهم آنذاك. أتساءل ماذا كانوا يفعلون».

قلت لنفسي، إن اكتشاف سجل طبيّ يخصّ الإصبع أمرٌ منحنا بعض الراحة، فقد بترها طبيب معروف لأسباب طبية. وما تبقى من هوس رجل المبيعات واعتبارها تميمة للحظ، لم يكن سوى خرافة.

«ها هي». وأخرج شين القارورة الزجاجية إياها من جيبه. ووضعها بجانب بقية العيّنات التي سبق أن فحصناها.

قلت وأنا ارتعش: «ضعها في الخلف، على الرفّ العلوي».

وغابت الشمس، وأصبح الضوء ذهبياً لدرجة أنّه يمكنك أن تأخذ منه قضمة، مثل كعكة بالزبدة، كوي لابس[1] التي أحضرها إلى بيتنا قريب لنا من باتافيا في أندونيسيا الهولنديّة. كلّ شريحة رطبة تعبق بروائح كلّ توابل الهند الشرقية.

انتهينا تقريباً من المخزن. مسحنا الرفوف الخشبية وملأناها بصفوف من العيّنات. وكل الملفات أودعت في خزانة وأعيد تصنيفها بالملصقات التعريفية. ونظرنا إلى لائحة العيّنات ذات الملصقات الجديدة، وشعرت بدفء متوهّج لهذا الإنجاز.

سألتُ شين: «هل تعتقد أن الدكتور سيدفع المزيد لقاء هذا العمل الجيد؟».

كان مهتماً بملف آخر وهو مقطب.

قال: «أشك في ذلك. وافق على أجر يوم إضافي واحد. وبالمناسبة هذا يتضمنك».

«ستقاسمه إذن؟».

قال شين فجأة: «نعم. هل لديك مشاكل مالية؟».

«هناك شيء أريد أن أشتريه».

وبدّلت الموضوع فقلت: «ماذا ستفعل بنقودك؟».

نظر لي من فوق كتفه نظرة مبهمة تقول لا تسأليني هذه الأسئلة. ثم قال: «سأدّخرها».

تساءلتُ، وليس للمرة الأولى، لماذا كان شين يكدّ في العمل بهذا الشكل. كانت لديه المنحة، ودفع له زوج أمّي تكاليف معيشة مريحة. ومهما كانت الهدنة التي اتفقا عليها بعد تلك الليلة المخيفة عندما انكسرت ذراع شين، فقد سارت الأمور تلقائياً باتّجاه اتفاق لم أطّلع عليه. كان زوج أمّي رجلاً قاسياً ولكنه كان يحافظ على كلمته.

ولكن شين تابع العمل في الفصل الدراسي. ورسائله الشحيحة ذكرت عملاً

---

(1) kuih lapis

مؤقتاً، وعمله في الصيف المنصرم وعيد الميلاد، منعاه من القدوم إلى البيت. ماذا فعل بكل تلك النقود؟ في ماي فلاور، يمكنك بسهولة أن تفتح حساباً. إذ لم يكن الأمر يقتصر على الرقص فحسب. فطلب المشروبات أو طلب فتاة على انفراد إلى موعد في الخارج، وهذا يعني تقديم العشاء لها، وأشياء أخرى كثيرة؛ كلّ ذلك يمكن بسهولة أن يخرج من السيطرة. وقد رأيت ذلك يحصل، وآمل أن شين لم يتورط مع هذا النوع من الفتيات في سنغافورة. هل علي أن أحذره؟

كلا، هذا ليس من شأني في كلّ حال.

17

باتو جاجاه

السبت، 13 حزيران

بعد مغادرة المستشفى، أخذ ويليام رين إلى مقهى في وسط المدينة حيث يحبّ الأجانب أن يجتمعوا. وتردّد رين حيال الخيارات المتاحة وهمس أخيراً أنّه يرغب بشطيرة لحم خنزير، لطفاً. ولحم الخنزير طبق غربيّ راقٍ، ويأتي معلباً من مخازن التبريد، ولكن يبدو أن ويليام لا يهتم به كثيراً.

حمل رين شطيرته إلى الخارج حيث كان هارون السائق ينتظر بصبر عند السيارة، وهي من نوع أوستن اشتراها ويليام من الدكتور الذي سبقه ميرتون. وهو نفس الطبيب الذي أقام في الكوخ الأبيض قبله. وخدمه آه لونغ وهارون. كان هارون يعتزّ بالغطاء اللماع، والانحناءات اللطيفة لهيكل السيارة. ومع أنّها ليست واسعة ولكنها تناسب عازباً مثل ويليام الذي يقودها بنفسه في عطل الأسبوع.

قال هارون: «الطبيب الآخر لم يكن يقودها بنفسه أبداً». وشرح قائلاً إن الأوروبيون يأتون ويرحلون. بعضهم يرحل بعد سنتين، وغيرهم يقيم مدى الحياة، ويعيشون بطمأنينة حياتهم الاستوائية المترفة مع الخدم، فلا يعود بإمكانهم التأقلم مع فكرة العودة إلى إنجلترا.

وأخبر آه لونغ رين أن الدكتور ميرتون ليس طبيباً حقيقياً أساساً. وكان ينفق وقته بتشريح الأعضاء المريضة وتقطيع الجثث، ولم يلق كلا الأمرين القبول عند آه لونغ. وهمهم، يجب أن تدفن كلّ أجزاء الجسم سوية بمكان واحد. ليس أن تتبعثر هنا وهناك. فهذا يقود للمتاعب، مثل الأشباح الجائعة التي تفرقت بقاياهم

بين الغرباء. ويجب أن يطالب الأبناء بالعظام، لا أن تترك في تلك الغرفة الفظيعة في المستشفى المليئة بأجزاء الجثث المحفوظة في قوارير، والتي جمعها الدكتور ميرتون.

وعلى الفور فكّر رين أن تلك الغرفة هي مخزن قسم الأمراض حتماً. الغرفة التي جعلت شارب القطّة الخفي يرتجف. وهو متأكد أن الإصبع هناك. ولكن من هو الخيال الذي كان في الباب هذا الصباح؟ ربّما هو الدكتور رولينغز، اخصائي الأمراض الذي حلّ محلّ الدكتور ميرتون.

الدكتور رولينغز رب عائلة، ولذلك لم يسكن في بيت الدكتور ميرتون العازب. وعوضاً عن ذلك، طلب كوخاً أوسع لزوجته وأولاده. ولكنهم لم يبقوا معه. لقد أمضوا عاماً واحداً، وهو عام العواصف الموسمية والحرّ المفترس والعقارب التي تختبئ في الأحذية، وكان كافياً لكي يعيدهم إلى إنجلترا. قال آه لونغ بسوداويته المعهودة إن العديد من الأجانب في هذا البلد غريبين إلى حدّ ما. وإلا لماذا يعيشون هكذا في المنفى، وعائلاتهم بعيدة عنهم بمسافة نصف العالم.

سأل رين: «حتى السيدات؟».

شخر آه لونغ: «طبعاً. مثل ابنة عائلة تومبسون التي ينادونها ليديا. كانت هناك فضيحة كبيرة حولها في إنجلترا». ولكن آه لونغ لم يذكر ما هي بالضبط. وفكّر رين بالآنسة ليديا التي رآها سابقاً تقدّم خدماتها في المستشفى. وتساءل ممّ هربت.

وراقب رين حلقة من الأولاد يلعبون *سباك تاكرو*[1] كُرة محاكة من خشب الراتان. طارت الكرة، وكادت أن تصيب السيارة. ولكن رين تلقّاها بالوقت المناسب. وجاء الأولاد يركضون وينظرون كالمذنبين للسيارة البرّاقة وزيّ الخدمة الأبيض الذي ارتداه رين.

ورماها لهم وقال: «خذوها». كانوا أصغر منه، بحوالي الثامنة أو التاسعة، بنفس عمر يي عندما مات. أحدهم قدّم له حلوى بالنعناع، أخرجها من أعماق جيبه. كان عليها القليل من زغب الملابس، ولكن رين قبلها بحفاوة.

(1) sepak takraw: لعبة كرة طائرة ولكنها تلعب بالقدم بدلاً من اليد. المترجمة.

سأله الصبيّ بالكانتونية: «هل تعمل عند *غاويلو*[1]».

نظف رين حلوى النعناع خلسة بواسطة كمه وقال: «سيدي دكتور». ووضعها في فمه. كان طعمها بارداً ومكسوّة بالزغب.

«هل تعمل في المستشفى؟».

هزّ رين رأسه نافياً، ولكن الصبيّ تابع: «هل شاهدت الشبح هناك؟».

قال ولد آخر: «الكثيرون ماتوا في ذلك المستشفى».

«لم أشاهد شبحاً قطّ». باستثناء يي، قال رين لنفسه، وفي الأحلام فقط لذلك لا يمكن أن يعدّ ذلك شبحاً.

«هل سمعت أن امرأة قتلها نمر الأسبوع الماضي؟».

قال الولد الآخر: «ولكن ليس في المستشفى. حصل ذلك في مزرعة المطاط».

«هو شبح نمر أبيض، هل تعلم ذلك؟».

«كلا، هو مستنمر. وتبيّن أنّه رجل عجوز».

وانقبضت معدة رين منذرة بالسوء، هذه التفاصيل عن رجل عجوز تحوّل إلى نمرٍ تعني أنّ كلّ مخاوفه صارت حقيقية.

«ومن قال إنّه رجلٌ عجوز؟».

وأسرع أصغر الأولاد للردّ وقال: «أحدهم شاهد رجلاً عجوزاً يتجوّل في مزرعة المطاط في الليل. وعندما اقتربوا للتأكد لم يشاهدوا غير آثار أقدام النمر».

ولم يمنع رين نفسه من السؤال: «وهل كان بإصبع مفقودة؟».

وتبادل الأولاد النظر. وشاهد رين عقولهم تنشغل، ولا شكّ أنهم سيضيفون هذه التفصيلة للحكاية.

قفزت ذكرى إلى رأس رين دون أن يستدعيها. الظلال المتمايلة للمزرعة في الليل، وهيئة رجل عجوز يرتدي الأبيض. كانت المسافة بعيدة ولا يمكن رؤية

---

(1) gwai lo: مفردة بالكانتونية تعني الغربي، الأوربي. المترجمة.

وجهه ولكنه كان يمشي بتلك الطريقة المتخشبة المألوفة. ازداد الظلام عتمة، وأطبقت الأشجار مثل ظلال صامتة، والضوء الوحيد هو بياض ثياب العجوز. وأسرع رين وراء سيده، ينادي على الدكتور مكفارلين ليعود إلى البيت. هذه واحدة من نوبات سيده، حينما يرتجف من البرد، ويتعرّق من الحمى، ولا يبدو مستقرّاً ذهنياً.

لقد حلّ الليل ولم يعد بمقدور رين أن يرى موطئ قدميه. دبّ في الأرجاء ذلك الشعور المألوف من الرعب الخانق، أي الخوف من أن الدكتور العجوز سيسقط أو يضيع أو يستدير نحوه فجأة بوجه مزمجر وغير مألوف، وسيكون رين وحيداً في الظلام مرّة أخرى.

وارتجف رين بالرغم من الشمس الساطعة وقال لنفسه هؤلاء الأولاد يردّدون قصصاً محلّية. مع ذلك، كم مضى على وفاة الدكتور مكفارلين؟ وبدأ يعدّ بقلق. بقي الآن خمسة عشر يوماً فقط. وعليه استعادة الإصبع هذا المساء. ثم سيدفنها في قبر الدكتور مكفارلين ويصحّح الأوضاع.

ابتعد الأولاد الصغار. وبعد شراء مفردات لائحة مشتريات آه لونغ، انتظر رين وهارون في الظلّ. ولقتل الوقت، تعلم رين لفّ السجائر، ولكن الورق الرقيق كان مراوغاً وسقط منه التبغ. ولزم هارون الصبر، ولم يشتكِ حينما صنع رين سجائر قبيحة وسميكة تبدو مثل الجزر، وهو يلف ويعيد لف نفس قطعة الورق منعاً للهدر.

قال هارون وهو يأخذها منه: «عليك أن لا تدخن. كم يبلغ عمرك؟».

ابتلع رين ريقه وقال: «ثلاثة عشر عاماً».

وتأمّله هارون وقال: «بدأتُ العمل عندما كنت في عمر اثني عشر عاماً. كان في عائلتي تسعة أولاد وأنا أكبرهم. كان الوضع صعباً».

وأبقى رين على رأسه مطأطأً. فعليه إتمام مهمته أولاً. وقال: «هل تعتقد أن النمر هو من قتل المرأة في مزرعة المطاط؟».

حكّ هارون ذقنه وقال: «لا أهمية لكلام القاضي. هذا شيء غريب. النمور

تفترس البشر إذا كبرت أو مرضت وعجزت عن الصيد. ولكن من سمع عن نمر توقّف في خضم تناول وجبته ورفض فريسته؟ لا بدّ أن هناك خطباً ما بالجثّة».

«هل تعتقد أن الإنسان يمكنه التحوّل إلى نمر؟». وهذا هو نفس السؤال الذي طرحه على آه لونغ وويليام.

أخذ هارون نفساً طويلاً من سيجارته. والتمع طرفها بلون أحمر متوهج ثم قال: «أخبرتني جدتي عن نمر قرية، قريبة من جوننغ ليدانغ في مالكا. كانت واجهات البيوت من *الجيلاتانغ*، شجرة القريص اللاسعة، والجدران من جلد البشر، والدعامات من العظام، والسقوف من شعر الإنسان. هناك كان المستنمرون يعيشون، *الهاريمو جاديان* الذي يبدلون أشكالهم. وبعض الناس يقولون هي وحوش تسكنها أرواح أموات».

لم يحبّ رين هذه الحكاية. فهي تشبه كثيراً هذيان الدكتور مكفارلين في أيامه الاخيرة، حينما كان ينتهي من نوباته، ويخبرنا بتفاصيل مقتطعة عن أين كان وماذا فعل.

قال مرّة لرين وعيناه الباهتتان تنظران حوله: «لقد ذهبتُ بعيداً هذه المرة. وقتلت حيوان تابير، على بعد ستة أميال».

قال رين بتعاطف: «نعم، نعم، أعرف».

فقبض على يد رين الصغيرة وهمهم: «أخشى أن يأتي يوم لا أعود فيه إلى جسدي».

ولم يحب رين أن يتذكر الدكتور مكفارلين بهذا الشكل، بعينين دامعتين، ومرتعشاً، وجمجمته الوردية تبرز من تحت خصلات شعره الرمادي. أراد أن يتذكره وهو يحتضن طفلاً مريضاً، أو يفكك جهازاً يعمل دون أسلاك ويشرح طريقة عمل البطاريات. كانت حمّى الملاريا قد أصابته. وسرعان ما شفي منها، بعد تناول جرعات كبيرة من دواء الكينين، وعاد كلّ شيء لحالته الطبيعية. ولكن بعد يومين، توقّف صيّاد محليّ ليريه الإذن المُشعرة وذيل التابير. وقال إنّه فريسة نمر، وأكل جزءاً منه، ووجده على بعد ستة أميال. وتسمّر رين عن سماعه هذه الأنباء، ورمق الدكتور مكفارلين، الذي كان يكتب بصمت في دفتر ملاحظاته.

قال العجوز: «هل هذا صحيح؟». وكانت عيناه الوديعتان نصف مغمضتين. لكن رين، حين تذكر أقواله، فكر بالموضوع.

والآن رين ينظر إلى هارون بتعبير قلق: «هل هذه الحكاية حقيقية؟ النمور التي لها أرواح بشر؟».

زفر هارون تياراً من الدخان من منخريه، وقال: «لم تكن جدّتي تخبرنا إن كانت الحكاية حقيقية أم لا. كانت تخيفنا بها لنأوي للفراش».

ودعس على سيجارته ليطفئها وتابع: «أعتقد أن *توان* سيذهب لاحقاً إلى النادي للعشاء. إذا كنت تريد العودة للبيت، يمكنني أن أقلّك معي. من الأفضل أن لا تمشي على قدميك حتّى تنتهي المطاردة».

«هل سيطاردون النمر؟».

«الليلة. ربطوا عنزاً في مزرعة المطاط، هناك صيّاد محلي يدعى باك إبراهيم، سيكمن هناك بانتظار النمر مع *توان* برايس و*توان* رينولدز. والبقية سيبقون لوقت متأخر في النادي، بانتظار الأخبار».

بمجرد مشاهدة قامة ويليام الممشوقة، نهضا استعداداً. كان مستغرقاً بحوار مع أجنبي آخر، رجل بشارب مثل فرشاة الأسنان. وأصغى رين لحديثهما خلسة وهما يذكران النمور.

قال الرجل: «يبدو أن رولينغز كانت عنده نحلة في قبعته بخصوص هذا التحقيق[1]. أراد أن يكون موتاً مشبوهاً».

قال ويليام: «نعم، سمعت ذلك. لكن القاضي رفض ادعاءه».

«ماذا يمكن أن يكون غير النمر؟ لا يوجد عند فاريل صبرٌ للحكايات الطويلة».

وغاص قلب رين فزعاً. لقد قرروا أنّه نمر في النهاية.

وفتح هارون باب السيارة وطوى ويليام ساقيه في المقعد الخلفي لسيارة

(1): bee up his bonnet عندما يبقى الشخص يتحدث بالموضوع نفسه مراراً وتكراراً اعتقاداً بأهميته. المترجمة.

الأوستن، وكما توقّع هارون، أخبره أن يقوده إلى نادي كيتا في أعلى الهضبة في شانغات.

قال لرين بعد تفكير: «يمكن لهارون أن يعود بك بعد أن يقلّني إلى النادي. أم تريد أن تنتظر لتسمع أخبار مطاردة النمر الليلة؟».

ولكن رين قال إنّه نسي شيئاً في المستشفى، وبنفس الوقت، نعم، هو يحب أن ينتظر. ورأى في المرآة ويليام وهارون يتبادلان نظرة استمتاع. إنّها النظرة المتسامحة التي ينظر بها الكبار لنزوات الأطفال، وجعلت رين يشعر بالحرارة والإحراج. ولكنه أخبر نفسه أن لديه واجباً يجب أن ينهيه.

وجد رين نفسه في مستشفى مقاطعة باتو جاجاه في الساعة الغريبة، حينما يتحول العصر إلى مساء. كانت السماء وراء الممشى المغطى بلون المسحوق الوردي، والشمس أخذت تذوي بين الغيوم الفاتنة التي تطفو مثل كعكة القشدة. ولكن لم يكن عند رين وقت ليتأمّلها إعجاباً؛ فذلك الإحساس الواخز الذي شعر به صباحاً في المستشفى لا يزال موجوداً، كما لو أنّه سلك يمرّ فيه تيار كهربائي. من وماذا يمكنه إرسال إشارة إليه، إن لم يكن يي؟

أولاً، عليه أن يتأكد من مستودع قسم الأمراض قرب البناية الخارجية، المخطط الآن بظلال طويلة من الأشجار. لقد تردّد، كان الباب الموارب في الصباح مغلقاً الآن. وجرّب رين فتح أُكرة الباب بهدوء؛ واستجابت ليده بسهولة.

في الداخل مساحة عالية السقف وواسعة بنوافذ تُفتح على الجانب الآخر من المبنى. من ملاحظة ويليام العابرة عن المستودعات ونقل الصناديق، تخيّل رين أن يكون المستودع مكدّساً بالبقايا، ولكن هذه الغرفة مرتّبة جداً. وتدخل إليها أشعة الضوء الأخيرة من الشمس، بالرغم من وجود ظلام متنامٍ في الزوايا، كما لو أن هناك مخلوقات صغيرة وخفية تتجمع في الظل.

تجاهل رين الأزيز الخافت في أذنيه، وتقدم إلى الداخل. هذه هي الغرفة التي تخيلها، حينما حمل عبء واجب البحث عن إصبع الدكتور مكفارلين المفقودة. غرفة بصفوف كثيرة من العيّنات المحفوظة في كلّ أشكال القوارير الزجاجية

الممكنة. وإلى جانب النوافذ الطويلة هناك صندوقٌ فارغ وسلّمٌ من المعدن، كما لو أن أحداً تركه هنا للتو. وكان هذا الانطباع قوياً لدرجة أن رين يكاد يرى قامة شخص رفيع يفتح آخر صندوق. كلا، من موضع السلّم اعتقد أنّه استُعمل لإيداع شيء ما في أحد الرفوف المرتفعة.

الإصبع هنا بالتأكيد؛ وعليه أن يغلق عينيه ليشعر بالإحساس الواخز. إنّه في الأعلى على ذلك الرف. قرّب السلّم وصعد عليه. بعد العلب الكبيرة بمحتوياتها الطافية البشعة، وبعد إناء يحتوي جرذاً ذي رأسين. من الصعب عليه أن يشعر بحدس القطّة الآن، فهو محاط بكهرباء ستاتيكيّة شديدة. لم يتصور قطّ أنّه سيجد العديد من العيّنات. رفع نفسه بجهد وحذر على أطراف أصابع قدميه، وبالكاد أمكن لنظره أن يصبح بمستوى الرف الذي يريده.

حرك بعض الزجاجات ونظر وراءها. كان الضوء يسرع بالخفوت بلون أرجواني ورمادي. وانتاب رين شعورٌ بأنه ليس وحيداً. وقال بصوت مرتفع: «بي!». وتعلّقت نبرة صوته في الهواء وتبع ذلك صمت منتظر. كأن حبيبات صمت باهتة وصغيرة تتدفق عبر ساعة رملية عملاقة.

كافح قلقه، وحمل بصبر الأواني الزجاجية للعيّنات لينظر وراءها. وقرقعت بنعومة. إنّه على هذا الرف أو الذي يليه. ولم يكن بمقدوره أن يحدّد بالضبط. مدّ يده وبحث متلمساً. وارتجف شارب القطّة بتفاؤل. سحب قبضته، وفتحها وشاهد قارورة زجاجية. وبداخلها إصبع مجففة ومسودّة كأنها غصن.

خفق قلب رين مع شعور مختلط بالراحة والرعب، وهبط ليتأمّل جائزته. كانت تقريباً تطابق وصف الدكتور مكفارلين. قال: «العينة محفوظة بالملح، على الأغلب هي الوحيدة من نوعها، العيّنات الأخرى محفوظة بالكحول أو الفورمالديهايد». وضعها رين في جيبه. كانت هذه أوّل سرقة يرتكبها، وهمهم بينه وبين نفسه معتذراً عن ذنبه، مع أنّه لم يكن متأكداً إن كان اعتذاره موجّهاً إلى الرب أو إلى بي، أو إلى الدكتور مكفارلين عن الوقت الطويل الذي استغرقه في المهمة والوصول للإصبع.

زادت كثافة الظلال، وأصبحت أثقل وكأنّ حجاباً لفّ الغرفة. كانت الإصبع المسروقة في جيبه تثقل على كاهله. ومرّت فترة طويلة عليه داخل الغرفة. ثم بزهو المنتصر، أغلق رين الباب خلفه، وجلده مقشعر، والشعر القصير منتصب على مؤخرة رقبته. ما أن أصبح في الخارج، حتّى بدأ يمشي ثم يغذ الخطى، وعندما لم يعترض طريقه أحدٌ أطلق ساقيه للريح على طول المماشي المغطاة وعبر الممرات، وكان يشعر كما لو أنّه اكتشف الحياة.

18

مستشفى منطقة باتو جاجاه

السبت، 13 حزيران

قلتُ: «إذن من بين كلّ العيّنات في تلك الغرفة، اختفت الأصابع فقط».

بعد إعادة الدلو وتنظيف السجاد المستلف من خزانة الحارس، عدتُ برفقة شين عبر أشجار *أنغسانا* ذات البتلات الذهبية المتساقطة.

وقطّب شين وجهه وقال: «كم عدد الأصابع في اللائحة الأساسية؟».

«أربعة عشر».

ولم أودّ أن أقول له إنّه رقم مشؤوم. لم يكن شين يُطيق مثل هذه الأمور. ولكن أرى من الرعشة الخفيفة في فكه، أنّه انتبه للموضوع. يعتبر المتحدثون بالكانتونية الرقم ثلاثة عشر فألاً طيباً. لأنّ لفظة *سُب سام*، تشبه كثيراً لفظة *سُت سام*،[1] والتي تعني «عش دائماً». بينما أربعة عشر كلمة فظيعة لأنّ لفظها يشبه ما معناه «موت محتم».

قال شين: «يجب أن أخبر الدكتور رولينغز. من الغريب فقدان هذا العدد الكبير من الأصابع؟».

ظهر ممرض بثياب بيض من بناء بعيد، وكان يحمل حافظة طعام[2]. واستدار فيما يظلل وجهه من الشمس المنخفضة. كان هناك شيء مألوف حيال قامته النحيفة ذات الزوايا الحادة، جعل بلعومي ينغلق. وظلّ الشكل الأبيض يقترب

(1) sut sang, sup sam

(2) tiffin container في بعض اللهجات المحلّية: سفرطاس (تركيّة معرّبة).

أكثر فأكثر. وعندما أصبح على مبعدة أربعين قدماً عنا، كشف وجهه الذي كان مظللاً بيده وحدّق فينا. وغاص قلبي ببن ضلوعي حينما ميّزت الرجل بفكه الملتوي، وكان السيّد ي.ك. ونغ، نفس الزائر لصالة الرقص.

ربّما حقّاً كان شيطاناً. يستنسخ نفسه، لكي يتبعني إلى أيّ مكان أذهب إليه. ولكن كلا، لقد كانت هذه صدفة سيّئة الحظ. أضف لذلك، لم أجد على وجهه أيّة علامة تدل على أنّه عرفني. فعيناه مغلقتين بسبب الشمس.

شهقت بذعر وسألت: «شين! من هذا الشخص؟».

نظر من فوق كتفه وقال: «هذا زميلي بالغرفة. ونغ يون كيونغ. الشخص الذي أخبرتُك عنه. نسميه ي. ك».

قلت له: «كنت أعتقد أن زميلك بالسكن هو كوه بنغ». الشاب المرح الذي يشبه الخنزير.

رد يقول: «كلا. كوه بنغ مجرد صديق».

كنا في الخارج في مكان مفتوح. على العشب تحت الأشجار العملاقة، ولم يكن هناك مجال للاختباء. وإذا أسرعت بخطواتي سيعرفني بالتأكيد. أو ربّما قد عرفني بالفعل.

«لا تدعه يراني أرجوك!».

«لماذا؟».

«سأشرح لك لاحقاً، أرجوك!». أغلقت عينيّ، ودفنت وجهي في صدر شين. وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي أمكنني التفكير به. تصلّب للحظة. ثم مد يديه حولي على مضض وضمني بهما. ولفحت رقبتي أنفاسُه الدافئة، وشعرت بحرارة صدره. وخالجتني مشاعر غريبة، كما لو أن رأسي أصبح خفيفاً، ولكن سرعان ما غلبني القلق. لقد راقصت عشرات من الأغراب، أمّا هذا فلم يكن شيئاً يمكن أن يجعلني أضطرب.

اقتربت خطوات تدوس فوق الأعشاب الجافة. ثم سمعت صوتاً. وتعرفت عليه فوراً. مع أنّني لم أسمعه غير مرّة واحدة.

«مرحبا يا لي شين! هل أتيت بصديقتك معك؟».

وتمسّكت بشين. وشعرت بقميصه ينزلق من بين أصابعي.

قال شين: «أنا باستراحة. ما بالك. ألا ترى أنّني مشغول؟».

صوت خطوات تقترب. كان صدر شين أعرض مما أتذكر، ويصعب علي الإحاطة به بذراعي. وكان قلبه ينبض بسرعة، أم أنّه قلبي؟

وجاء صوت ي.ك. ونغ مجدداً يقول: «سأدعك وشأنك إن عرفتني على صديقتك؟».

«إنها خجولة جدّاً وأنت تحرجها. والآن اذهب في سبيلك!».

ضحكة، ثم ابتعدت الخطوات. وهو يضيف: «لا تنس أن تقدّمني لها لاحقاً!».

وجمدت وأنا أعدّ الثواني. وعندما وصلت إلى عشرة، رفعت رأسي إلى الأعلى لأتأكد من أنّه انصرف حقاً، ولكن لفّني شين بدفء وحنان وهمس: «ليس بعد!». ثم أضاف: «لكن يجب أن تقدمي لي تفسيراً مناسباً لكل هذا».

تسرّبت حرارة يد شين بشكل محموم من ظهري إلى عمودي الفقري. وحرّرني فجأة وقال: «ما كلّ هذا؟».

احمرّ وجهي، وقدّمت له تفاصيل غامضة عن ظهور ي.ك. ونغ، وسؤاله عن الإصبع. وانطبق فكّا شين ثم قال: «كيف تأتّى لكِ أن تقابلي كلّ هؤلاء الرجال، أولاً رجل المبيعات حامل الإصبع، والآن شريكي في الغرفة؟ إن لم تخبريني، سأسأله بنفسي».

وتوجّب علي اختلاق عذر أفضل. وأخيراً قلت: «زرت صالة رقص مع صديقات لي. وهناك قابلت كليهما، البائع وشريكك في الغرفة».

«ولماذا تذهبين إلى أماكن من هذا النوع؟ لا مشكلة بالنسبة للرجال، ولكن ليس أنت، إنّك..».

قلت له: «أنا ماذا؟ أنا بنت؟ إذن تعتقد أنّه يمكنك اللهو والعبث في أرجاء المدينة، وأنا أمكث في البيت بانتظار الزواج؟».

كان الأسهل لي أن أفتعل شجاراً من الاعتراف بالحقيقة المخجلة التي هي إنّ أفضل عمل يمكنني الحصول عليه في أسرع وقت كان يتطلب الابتسامة والقبول بلمسات الغرباء ووضع أياديهم على جسدي. كنت حانقة من استعلاء شين وتفوقه، وهو يتلو علي الأوامر ويخبرني ماذا يجب أن أفعل. ومع ذلك كنتُ أشعر بالخجل من غبائي واختياراتي المتهورة. وإذا كنت خائفةحن أن يكتشف شين كيف أعيش، فكيف سيكون الحال إذا عرف زوج أمي؟ وماذا عن تدريبات التمريض التي وضعت بها كلّ أملي؟ السمعة الأخلاقية تهمّ، وبالأخص لامرأة غير متزوجة؛ ولكن لم أفكّر بالعواقب في المستقبل، حينما أسلمت مقاليد أموري لهوي وتبعتها إلى ماي فلاور.

صمَت ثم قال: «هل طلب أحد منك الزواج؟».

قلت بمرارة: «لا يوجد أحد للزواج». وتعلّق اسم مينغ في الهواء بيننا، ولم نلفظه، لكنّه كان واضحاً حتّى أنّني توقعت أن أسمعه يرن مثل جرس.

قال شين ببرود: «حسناً، لا تتزوجي قبل أن تستشيريني.»

«لماذا؟».

بدا منزعجاً وقال: «لأنّكِ ستتخذين قراراً غبياً على الأكثر».

«وماذا يجعلك تعتقد أنّني غبية؟ لعلمك، لقد رفضت ابن عم المرابي!».

وما أن أفلتت العبارة من فمي، حتّى وددت لو أنّي ركلتُ نفسي. كانت تلك فترة محرجة لم يكن شين يعرف عنها شيئاً. بعد أن ذهب شين إلى كلية الطب، عرضوا علي مشروع زواج. فقد سمع المرابي المحلّي أنّني توقّفت عن الدراسة، وبالنيابة عن ابن عمه خطبني من زوج أمي. ورفضت، ومن المفاجئ أن زوج أمّي لم يلح على الموضوع.

«المرابي؟ تقصدين صديق والدي؟ إنّه عنز عجوز». قال شين بهدوء وقد امتقع وجهه.

تلعثمت قائلة: «ليس هو، ابن عمه».

لم يكن شين يشبه زوج أمي، على الأقل، ليس كثيراً. والجميع يقولون إنّه يشبه

أمه المتوفاة منذ أمد بعيد. ولكن حينما ادلهمّ وجهه، كان بالضبط بنفس الشكل الذي يتلون به وجه زوج أمّي باللون الأبيض وهو يرتعد من الغضب.

وكرهت أن أرى تلك النظرة على وجهه. وجعلتني أودّ لو أتكور على نفسي، وأغطي عيني، وأهرب في أعماق الظلام، في أعمق خبايا قلبي وأكثرها عتمة وجُبناً. كنت أخشى أن ألتفت ذات يوم وأكتشف أن شين قد تحوّل إلى أبيه، في مفاجئة كابوسيّة وحشية.

قال بمرارة: «لا تنظري لي هكذا. لن أفعل بكِ شيئاً. لم أفعل شيئاً بكِ من قبل أبداً».

وابتعد. كنت أعرف جيداً الكتفين المربعين، وذلك الرأس المحني، وامتلأتُ بشفقة وبؤس لا يُحتملان.

وبعد قليل، أسرعتُ وراءه وجررت ذراعه وسألته: «هل نحن صديقان؟».

أومأ بالموافقة. كان الليل يخيّم، والأبنية تختفي في عدم رماديّ. وتابعنا المسير بصمت لبعض الوقت، يده بيدي كأننا عدنا طفلين مجدداً، وفكّرت بنحو غامض، نحن مثل هانسيل وغريتيل عندما ضلّا طريقهما في الغابة. صار وجهي ثقيلاً وارتفعت حرارته بالتدريج. ولم يكن عندي فكرة، هل كنّا نتبع درباً من فتات من الخبز أم أننا متوجهَينِ إلى مغارة الساحرة.

قلت أخيراً: «من الأفضل لي أن أعود إلى المحطّة».

قال: «فات الأوان. لقد رحل قطار المساء».

«كيف سأتصرف إذن؟». وانهرتُ على الأرض حتّى غصتُ في العشب الجاف وكنت مرهقة جدّاً فلم أهتم بالبقع لو لوثت ثوبي. وعموماً لم يكن هناك من أحد بالجوار، مع أن الأنوار الكهربائية في المستشفى كانت قد أضيئت.

قال: «امكثي هنا. أخبرتك أنّني تدبّرت أمر مبيتك. ولا تخافي من ي.ك. فإن استراحته الليلة وسيزور والديه».

وسقط رأسي على صدري. كان ثقيلاً، كأن قزماً مسحوراً خفياً كان يقف عليه ويضربه بقدميه بانتصار. وتلمس شين جبيني وقال: «أنت محمومة! لماذا لم تخبريني؟».

كانت صديقة شين الممرضة غائبة، ولكنه وجد لي سريراً احتياطياً في سكن الموظفين وهو مخصص لزيارة الأقارب. وبينما كان يوقّع على السجل، ظهر كوه بنغ من حول زاوية الممر.

«ألن تعودي إلى إيبوه هذه الليلة؟». وكان يرتدي قميصاً جديداً وبنطالاً من القطن ويحمل مشطاً في جيبه الخلفي، وشعره رطب ومسرّح على جانب واحد. فقد كان هذا يوم عطلة السبت في النهاية، والليل بدأ لتوه.

قال شين: «أختي مريضة».

وألقى عليّ كوه بنغ نظرة خبيثة وقال: «سمعت من ي.ك. قبل قليل أنّها ليست أختك حقاً. آه منك أيها الكلب!».

ونظرت إلى شين. ونظرتي تقول: *ماذا سنفعل الآن؟*

قال بهدوء: «هذا صحيح، إنّها فتاتي».

«ولماذا لم تخبرني بذلك؟».

«لأنني أسجلها الآن على أساس أنّها من الأقارب». ومن حسن الحظ لم يكن في الاستقبال أحد ليسمع ذلك، ولكن مرت عدّة ممرضات، وهن بثياب الخروج الأنيقة. ألقت علي اثنتان منهن على الأقل نظرة غير ودّية، أو أنّني تخيّلت ذلك.

وبدا كوه بنغ محبطاً وقال: «حسناً يا جي لين. إن سئمتِ منه تذكري أنّني موجود».

وابتسمتُ بصعوبة. كان رأسي يرتجّ كما لو أن الأقزام المسحورين الخفيّين يضربونه بالمطارق مبتهجين. وتساءلتُ إن كنت سأرى حلماً غريباً آخر. قلت: «سأذهب للنوم».

وضع شين علبة من الأسبرين في يدي وأضاف: «إن كنت بحاجة لأي شيء، أعلميني».

أومأتُ برأسي ثم تبعتُ عاملة التنظيف باتّجاه جناح النساء من سكن الموظفين. كانت عمة عجوزاً، لم تقل شيئاً. وكان ظهرها متخشّباً من الشك، وتساءلتُ هل

سمعَت تعليقات كوه بنغ. فتحَت غرفة ذات مساحة ضيقة تشبه الزنزانة ولا تتّسع إلا لسرير مفرد. وقدَّمَت لي المفتاح مع منشفتين رقيقتين من القطن.

وفي فتحة الباب، التفتت، كان فمها خطاً رفيعاً، وقالت: «غرف الضيوف مخصّصة لأعضاء العائلة، وليس الأصدقاء».

قلت لها: «ولكن نحن عائلة واحدة بالزواج. هذه هي الحقيقة». وكنت أعني *زواج والدينا*، ولكن كان لساني ثقيلاً وجافاً، كأن حجمه يفوق حجم فمي.

وبدا عليها الارتياح. وقالت: «آه، إذن سوف تتزوجان؟ هل تقدمتما بالاستمارة اللازمة؟». العديد من الأزواج الشباب يسجّلون مبكراً في المحاكم ليتمكّنوا من طلب مسكن مشترك. ولم تكن لدي الطاقة لأصحّح لها خطئي، فابتسمتُ بتعب.

سألت: «وكم مضى عليكما معاً؟».

«منذ كنّا بعمر عشر سنوات».

«إذن أحباب منذ الطفولة!». وظهر السرور على وجه عاملة التنظيف وأضافت: «يا لك من فتاة جميلة حسنة المظهر». وهنا حان وقت الإعلان عن متجر خياطة السيّدة تام، ولكن شعرتُ بالضعف الشديد وبالكاد تمكّنت من الكلام. وبعد أن غادَرَت، اغتسلت. وأحببت أن أسأل الممرضات عن جو العمل هنا، ولكن عوضاً عن ذلك ابتلعت حبتَي أسبرين واستلقيت. وآخر فكرة راودتني قبل أن أستغرق في النوم كانت هذا السؤال: هل أغلقنا مستودع الأمراض أم لم نفعل.

كنت أطفو بلا وزن وفي الماء. وفوقي دائرة من الضوء. وبعد عدّة ركلات كسولة في الماء سبحت باتّجاهها. اقتحم رأسي الضوء، وشهقت، ووجدت نفسي بمواجهة مشهد مألوف. نفس ضفة النهر المضاء بالشمس، والذي تحتله غابة من البامبو وأعشاب لالانغ. ونفس النهر النقي.

في الحياة الواقعية لا يمكنني السباحة بمهارة هكذا، ولكنّني الآن كنت أستطيع القيام ببعض القفزات بسعادة. وأنا أتأمّل من تحتي المياه الكريستالية، وشهدت الرمل الأبيض لضفة النهر، والمظلل بالأمواج، وبعده القاع الضحل الذي استسلم للعتمة. ما هذا؟ ما هذا العدم في قاع النهر؟ سبحت بعيداً بصعوبة. الخيال بقي

هناك، على مسافة نصف جسد ورائي، كأن قاع النهر استسلم للظلام أو أن الظلام أكله. وكان يتحرك.

وكلّما أسرعت بالسباحة، كلما اقترب مني. واحترقت رئتاي، ودفعني تخبط ذراعيّ وساقيّ بيأس إلى الأمام. وأمامي على ضفة النهر، لاحت قامة إنسان على مرأى مني. كان هذا هو الصبيّ الذي رأيتُه في محطّة القطار.

صاح: «هلمّي!».

وباندفاعة من الرعب، خرجتُ من المياه وألقيت بنفسي على الضفة وأنا ألهث. وانحنى الولد بسرعة فوقي.

وشهقتُ قائلة: «ماذا كان ذلك؟ ذلك الخيال تحت الماء؟».

طرف بعينيه وقال: «أنا لست متأكداً بنفسي. لأنه لا يمكنني أن أسبح كما ترين».

ولكن نظرته المعرضة جعلتني أعتقد أنّه يكذب، أو أقله، يتجنب الموضوع. وتابع: «كان يجب عليكِ ألا تسبحي! هيا!».

استدار وبدأ يمشي بسرعة، ورأسه أعلى من الأعشاب الطويلة قليلاً. كنت أعلم وجهتنا، محطّة القطار. ويمكنني رؤية سقف *الآتاب* الذي يعلوها، أضف لذلك، لم يكن هناك من مكان آخر أذهب إليه. فكل ما حولنا أخضر، برية نصف مزروعة، بقايا مزارع مهجورة مع نبات التابيوكا[1] وأشجار البابايا. وفي الخلف تمتد القمم الزرق للتلال وتتكاثف الغابة.

عندما اقتربنا من الرصيف، التفت الولد الصغير مع تنهيدة ارتياح. وقال: «خفت كثيراً حينما شاهدتك في الماء».

«هل كان ذلك الخيال دائماً هناك؟».

أومأ بنعم، وقال: «إنّه موجود لكي يمنع الناس في هذا الجانب من العودة إلى الخلف. آخر مرّة دخلتِ فيها إلى الماء، لم ينتبه إليكِ. ولكنّه رآكِ هذه المرة. وهذه إشارة سيّئة».

---

(1) ما تُعرف بثمر الكاسافا.

«ولماذا؟».

وتأمّل بيجامتي بحرص. وأدهشني أنّها كانت جافة ونظيفة كما لو أنّني لم أسبح للتو في النهر ولم أجرّ نفسي على أعشاب موحلة.

قال: «أنت لا تنتمين لهذا المكان».

سألته: «ما هو اسمك؟».

وظهرت عليه التعاسة مجدداً. وبدأت أعتاد على تلك النظرة. وكانت تعني أنّه لا يريد أن يكذب غير أنّه لا يرغب أن يخبرني لسبب ما. ثم صعقتني فكرة فجأة، إنّ هذه الأرض الهادئة، والمحطّة الفارغة بقطار خارج الخدمة دائماً، لا يمكن أن تكون سوى غرفة انتظار.

سألته: «هل أنت واحد من أطفال أمي؟ هل لهذا السبب ناديتني بأختي الكبيرة؟»، وتابعت: «هل أنت واحد من الفضائل الكونفوشيوسية؟».

علَت وجهه الدهشة. وقال بإعجاب: «أنت ذكية جداً. هذا بسبب اسمك، أليس كذلك؟ الحكمة».

«هل أنت رين أم يي أم لي؟».

وعادت إليه تلك النظرة المضطربة وقال: «أنا لست ابن أمك، ولكن أنا جزء من المجموعة. ولا أفهم لماذا تعاودين المجيء إلى هنا فيما أنا أحاول الوصول إلى أخي».

«هل تقصد شين؟ هو أخي أيضاً».

«كلا». تردّد وعض شفته، وقال: «أخشى أن أخي يذهب بالاتّجاه الخطأ. ويتبع السيّد الخطأ».

«وهل أعرفه؟».

«لا. لكنّكِ ستتعرفين عليه». وتظلّلت عينا الولد الصغير بالقلق.

ومع أن القطار الأسود الفاحم بعرباته الفارغة وقف ساكناً في المحطّة، فإنه بدّل موقفه. في أوّل مرّة كان قريباً من المكان الذي تخرج منه القضبان من تحت

النهر. وفي المرة الثانية كان نصفه خارج المحطّة وكأنه يغادر. واليوم يقف بموازاة الرصيف تماماً. وتأمّلتُ قضبان القطار، وانتبهت لإدراك مقلق أنّ هناك مساراً واحداً. ما من مسار آخر لكي يعود القطار منه، ولا رصيف على الجانب الآخر.

وتابع الصبيّ الصغير نظرتي وقال: «لا تقلقي. أنت لم تحضري بالقطار قطّ. لذا يمكنك العودة حسب مشيئتك. على الأقلّ هذه المرة».

ارتعشتُ من ذكرى الظلام في أسفل النهر. وقلتُ: «إذن هل تريد منّي أن أخبر أخاك أن يتوقّف عما يفعله؟».

وبدا الولد الصغير حزيناً وقال: «نعم. وأخبريه أن يحذر من خامس عضو في المجموعة. يوجد خطأ صغير في كلّ منا، ولكن الخامس هو الأسوأ على وجه الخصوص. وعليك أن تحذري منه أيضاً».

«سأبذل جهدي. إن قابلت أخاك، سأبلغه بالرسالة».

«عليكِ أن لا تخبري أحداً عن لقائكِ بي». وكان جاداً بكلامه، فأومأتُ بالموافقة التامّة.

وأردف: «لن أنسى لطفكِ أبداً. إن عرفت اسمي، يمكنك أن تناديني به».

أُناديك؟ فكّرت. ليست لدي نيّة بالقدوم إلى هنا مجدداً. ثم قلت لنفسي: وبالطبع، هذا حلم. إنّه مجرّد حلم. وعند هذه الفكرة، سقط وعيي من فوق أحد الرفوف إلى مكان رماديّ وناعم وفارغ.

19

باتو جاجاه

السبت، 14 حزيران

في النهاية، لم يقتلوا النمر.

انتظر رين متيقظاً، وجلس مع هارون وبقية السائقين على مصطبة طويلة خلف نادي كينتا، وهم يتكلمون ويدخنون وينتظرون أسيادهم، حتّى انطبقت أجفانه. ولا يتذكر كيف حمله هارون وهو يتخبط بنومه، إلى السيارة. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير حينما عادوا مع ويليام إلى البيت، وهم يترنحون بالسيارة فوق الطريق المليء بالحصى. وذهب رين فوراً إلى السرير دون أن يعي شيئاً حتّى أشرقت الشمس على وجهه.

زمجر آه لونغ يقول وهو يمدّ برأسه وينظر إليه: «الساعة تجاوزت الثامنة».

وقفز رين، وهو يتذكر مطاردة الأمس. سأل: «هل وقع بقبضتهم؟».

«لا. مع أنهم انتظروه طوال الليل».

كان الصيّادون يرصدونه في مخبأ أعدّوه عكس اتّجاه الريح من المكان الذي وضعوا فيه عنزة مربوطة. اختاروا بعناية مكاناً يجتذب النمر، وجعلوه في الظلّ وقريباً من الماء، لأنّ النمور تشرب كثيراً بعد الغذاء. ومرّت الساعات الطويلة، ولم يتخللها غير ثغاء العنزة الخائفة من حين لآخر. ولم تتغيّر النتيجة. لم تظهر ولا حتّى لمحة من النمر. وبعد ذلك كان هناك عشرات من التفسيرات. إن المكان خطأ؛ أو إنّ عليهم استعمال فخٍّ مع بندقيّة أوتوماتيكية، أو لم يكن عليهم يباشروا الأمر دون وجود *باوانغ*[1] العرّاف أو العطار، ليسحروا النمر.

---

(1) Pawing

سأله رين: «وهل هناك أشخاص من هذا النوع؟».

ولدهشته أومأ آه لونغ بنعم. وقال: «ويمكنهم استدعاء الفهود والخنازير البرية أيضاً. وحتى القردة. وهذا يعتمد على قدراتهم». وحكّ شفته العليا بخشونة وأضاف: «أو هذا ما يقال. والآن تأكد أن تجهز له الإفطار قبل أن يستيقظ».

سأل رين: «هل ستذهب إلى الكنيسة يا *توان*؟». حينما كان ويليام يتناول إفطاره، لمّع رين حذاء سيده بطلاء كيوي للأحذية البُنية، اشتراه من البلدة بالأمس، وتابع حتّى تأكد أنّها تلمع. وفحص ويليام عمله وقال إن الحذاء يذكره ببندق ناضج، ولكن رين لم يفهم إلامَ كان يشير ويليام. وفكر: هل البندق نوع من الفاكهة، ولم يتمكّن من تخيّل ثمارٍ تُشبه الأحذية.

أجابه: «نعم سأذهب هذا الصباح». وسيقود السيارة بنفسه لأنّ هارون يأخذ استراحة يوم الأحد.

سأله: «هل ترك النمر هذه المنطقة كما يقال؟».

وأومأ ويليام. كان كما لو أن النمر قد اختفى تماماً، وترك المجال لتكهنات فظيعة حول أنّه ليس نمراً طبيعياً. وانتشرت شائعات تقول أن أمبيكا كانت امرأة منحلّة ولهذا السبب اخذها. وإشاعات من هذا النوع تجعل ويليام منقبضاً بشكل ملحوظ. وانتهى رين إلى يقين، وهو يقف في مكانه على الممشى المغطى بالحصى ويتابع ابتعاد السيارة، إن ويليام إنسان رقيق القلب وعطوف.

بعد نهاية الأعمال المنزلية، أسرع رين عائداً إلى مهجعه ليفحص الإصبع التي أخذها، كلا، بل التي سرقها من المستشفى بالأمس. رغم أنّها ملأته برعب مجهول. البنطال الذي ارتداه في الليلة السابقة لا يزال معلّقاً على الخطّاف. أخرج رين القارورة ووضعها على حافة النافذة. في الخارج، كان سياج البامبو الكثيف مبتلاً وطريّاً بسبب الندى. وشقّ طائر مينا طريقه بين الأعشاب، ورأسه ينتصب بعين صفراء ثاقبة. وفي شمس الصباح، بدت الإصبع حزينة ومخيفة كما كانت تبدو في الأمس في مخزن قسم الأمراض.

وحدّق فيها حتّى أُصيب بالدوار ولكن حاسّة القطّة كانت هادئة على نحو

غريب. البارحة، امتلأ رأسه بالدمدمة المرتجفة، واليوم لا يوجد غير الركود. توقّعٌ صامت.

أغلق رين عينيه بقوّة، ورغب أن تعود له حاسّة القطّة. لقد افتقدها بقنوط خلال ثلاث سنوات بعد موت يي. والأسوأ أنّها اختفت في الوقت الذي كان يحتاجها بشدة، في تلك الشهور القليلة الأخيرة مع الدكتور مكفارلين، عندما بدأ يثرثر حول تلك الأشياء الغريبة والتي تسبّب لرين بالاضطراب والحيرة. كانت عينا الدكتور العجوز تُفتحان على اتساعهما وهو يهمس بغيبوبة زجاجية، بتفاصيل طويلة عن قتل غزال وخنزير بريّ، الزحف من خلفهما بصمت. ثم الهجوم المفاجئ، وخنق الحنجرة ونهشها وثني الرأس حتّى تنكسر الرقبة.

أوّل حادثة موت حصلت في الفصل الممطر، حينما كانت الأمطار الموسمية تتدلى من السماء بشكل ستارة رمادية على الأرض الحمراء المبلولة. ولا يمكن لرين نسيان تلك الفترة؛ كانت تدور مثل بكرة فيلم لا يمكنه أن يفهمه مهما كان عدد المرات التي شاهده فيها. وإذا أغلق عينيه، كان لا يزال يرى الدكتور العجوز وهو يكتب في أحد دفاتره. كان مريضاً، ويتقيأ في حمام الطابق الأول، وحينما اقترب رين منه ليرعاه لم يجد شيئاً يجب تنظيفه.

قال الدكتور مكفارلين: «نظفتها بنفسي». كانت عيناه محمرّتين، وحين قدّم له رين عشاء بسيطاً من بقايا الكاري قطب ملامح وقال: «أبعده من أمامي. لا أستطيع تناول اللحوم».

في وقت لاحق، وجده رين ينظر إلى الأمطار الغزيرة وهي تجري من سقف الشرفة. قال دون أن ينظر للخلف: «كيف تجدني برأيك يا رين؟».

لم يطرح أيّ أحد على رين هذا السؤال من قبل. على الأقل، ما من إنسان راشد وجّهه إليه. كانت العمة كوان توجه إليه الأوامر دائماً، ولا تسأله عن رأيه، وفي تلك اللحظة افتقدها بشدة. نظر إلى أنف الدكتور مكفارلين بلسان معقود، وهذه الخدعة تعلمها من الرجل العجوز كلما شعر بالخجل ولم يتمكّن من مواجهة عيني المتكلم.

وقال رين في النهاية: «أرى أنّك إنسانٌ طيب». وتساءل هل كان الدكتور مكفارلين مهتماً بالشائعات حول أنّه فقد عقله، أم أنّه حتّى لم يسمع بها أساساً.

تأمّله سيده لفترة طويلة وأراد رين أن يتهرّب منه بالنظر إلى قدميه الصغيرتين الحافيتين، أو بالنظر للنافذة، غير أن هذا ليس مهذباً. وعوضاً عن ذلك، فقد وجّه نظرته إلى الأعلى حتّى واجهت عيناه عيني الدكتور مكفارلين. ولدهشته، كان الرجل العجوز يبدو حزيناً.

قال: «دعني أُريك شيئاً». وتقدّم بمشيته القاسية المعروفة إلى الخزانة التي يحتفظ فيها بملفاته. كانت المفاتيح محفوظة بحلقة يودعها الدكتور مكفارلين في جيبه. وبعد وفاته، بحث المحامي في كلّ الأدراج ولكن ليس قبل أن يستفسر من رين، بكثير من الشك، إن لمس شيئاً.

أخرج الدكتور مكفارلين صورة فوتوغرافية. كان في الصورة رجلان من المالايو، كلاهما بصدر مكشوف يجلسان القرفصاء أمام جدار. والتعابير على وجهيهما ودودة، ولكن قلقة. كان الرجل من جهة اليمين يربط حول عضده حبلاً أو سلكاً.

قال الرجل العجوز: «أيهما يشبهني برأيك؟».

عقد رين حاجبيه وركّز أفكاره. هل يمرّ سيده بنوبة أخرى؟ ولكن كلا، إنّه هادئ وواعٍ. ثم فجأة، انتبه رين.

وقال: «هذا عنده أخدود على شفته العليا». وأشار للرجل الذي على اليمين وأضاف: «والآخر ليس عنده أخدود، مثلك». وظهر السرور على الدكتور مكفارلين. وكان فخوراً كما حصل بعد نجاح رين بإعادة تركيب أجزاء الراديو اللاسلكي التي فكّكها عن بعضها بعضاً.

قال: «نعم، هذا الأخدود يسمى بالنثرة [1]». وعاد التعبير القلق إلى وجهه.

فسأله رين: «من هذا الرجل؟».

«التقطتُ هذه الصورة قبل خمس سنوات، حينما كنت أسافر مع صديق. كنّا

---

(1) philtrum: فرجة في الشفة العليا بين الشاربين تحت الأنف.

في قرية صغيرة تسمى أولو أرينغ، وهذا الشاب..»، ثم أشار على الرجل الذي في جهة اليمين. «كان هو *الباوانغ* المحلي». كان الدكتور مكفارلين يتحدّث بسرعة وسلاسة بطريقة لم يتكلّم بمثلها منذ عدّة أيام.

سأله رين: «هل كان هذا يوم فقدت إصبعك؟». منذ أن عرف رين الدكتور مكفارلين كان يفتقد خنصر يده اليسرى.

قال: «نعم، في نفس الرحلة. وعندما شاهدني كان مغتبطاً جداً». وضع الدكتور العجوز إصبعه على شفته العليا وأضاف: «لمسني بيده اليمنى هنا، وناداني *أبانغ*». أو أخي الكبير.

«لماذا؟».

«قال إن عدم وجود أخدود على الشفة العليا علامة على أنّني مستنمر».

لزم رين الصمت، وتساءل هل كان العجوز يمزح. لكن لم يجد إشارة تدل على المزاح في عينيه الباهتتين. هناك حكايات عن البشر النمور الذين يأتون من الغابة ليخطفوا الأولاد ويلتهموا الدجاج. وأعاد تأمّل الصورة التي بالأبيض والأسود.

«وهل شاهدته يتحوّل إلى نمر؟».

«لا. ولكن آخرون ادّعوا ذلك. حينما تحين الساعة، يقول: «سأخرج للتجوال»، ويغيب في الغابة، يحرق البخور وينفخه من خلال قبضته حتّى يتبدل جلده ويطلع له ذيل وفرو. ثم يصطاد لأيام حتّى يأكل ما يُشبعه. وبعد أن ينتهي، يستلقي على الأرض، ويقول: «سأعود إلى البيت». ويتحول إلى إنسان. وبشكله البشري، يتقيّأ كلّ ما أكله ولم يتمكّن من هضمه من العظام والريش والشعر».

وتذكر رين فجأة نوبات قيء الدكتور مكفارلين وأصوات التهوّع والأنين التي تأتي من وراء الأبواب المغلقة.

وتابع الدكتور مكفارلين كلامه: «وهناك علامة أخرى للمستنمر، هي الساق المشوّهة. سواء كانت ساقاً أمامية أم خلفية. هناك دائماً ساق مشوهة. وعندما فقدت إصبعي في تلك الرحلة، أخبرني *الباوانغ* أن أدفنها معي لأعود كاملاً مجدداً، أكون إنساناً. ولم أصدّقه حينها». واستغرق في الصمت.

تململ رين بضيق، وهو يتأمّل هيئة الرجل العجوز. كان على وجهه تعبير لم يشاهده من قبل، ومضة خبيثة. أم أنّه ظلٌّ مرّ بشكل خاطف خلف عينيه، مثل ثعبان ماء؟

وسأله الدكتور مكفارلين: «هل أبدو لك كقاتل؟».

وفجأة، أصاب رين الذعر. وتراجع خطوة إلى الخلف. ثم خطوة أخرى. وتابع الدكتور مكفارلين التحديق من النافذة، ولم ينتبه له حين غادر.

ولم يجد رين مفرّاً من سماع صدى الكلمات: «*هل أبدو لك كقاتل؟*»، يتردّد في رأسه طوال عدّة أيام كلما نظر للدكتور مكفارلين. إنّه سؤال محيّر ومرعب. وهكذا، حينما جاءت السيدات الأجنبيات بثيابهن الخفيفة التي ترفرف وتقدّمن على طول ممشى الحصى بعد أيام من زيارة الدكتور؛ سعد رين بحضورهن وأسرع لتوضيب المكان.

ولدى دخول السيدات، سرّتهنّ رؤية الكوخ مرتباً ونظيفاً، وجلس الدكتور مكفارلين في كرسي راتان، وكان كتاب في حضنه. كان العجوز والصبيّ متواطئين، رغم أنّ الصبيّ يهرع إلى الأمام والخلف، ليُبقي على الأبواب مغلقة ولا يسمح لهن برؤية بقية البيت. وانتابه الشعور كما لو أنّه خائن. واشتبه أنّه من الأفضل لو تُمسك النساء بزمام الأمور، ولكن كيف يمكنه أن يشرح ذلك؟

إحدى السيدات، بصدر متخشّب مثل قيدوم سفينة، قالت: «لا يمكنك أن تبقى هنا وحيداً، ولا سيما بوجود وحش طليق يأكل البشر». كان صوتها الحاد والثاقب يرن بالغرفة حينما دخل رين، وهو يحمل صينيّة أكواب الشاي بمهارة. لم يكن معها البسكويت؛ فقد نفد من البيت منذ أسابيع.

وكان صوت الدكتور مكفارلين ودوداً كما لم يسمعه من فترة طويلة، لكن اليد التي تقبض على ذراع الكرسي ترتعش قليلاً، وقال: «هراء! أنا لست وحدي في كلّ الأحوال».

«هناك امرأة اختفت من مزرعة قهوة». ولمحت السيّدة رين وأومأت له ليضع الصينيّة على الطاولة. وانتظرت منه أن يغادر الغرفة. حين غادر تلكّأ قرب الباب. ولم يكن بمقدوره أن يفهم الكثير لأنها خفضت من صوتها.

كانت تقول: «.. بوغتت من الخلف. الرقبة مكسورة..».

وتابع رين الإصغاء، ولاحظ أن تفاصيل الاعتداء مألوفة بشكل مرعب. وبعد أن غادرن، كان وجه الدكتور مكفارلين رمادياً ومنقبضاً. وقد هجرته روحه المعنوية التي لاقاهنّ بها.

ولاحقاً، عندما نظف رين الحمام في الأسفل وجد خصلة من الشعر الأسود في الزاوية. كانت أطول من ذراعه، إنّها خصلة شعر من رأس امرأة. وبالنظر إليها، لم يعلم هل كانت هنا بالأمس ولم يلاحظها، أم أن إحدى السيدات استعملت الحمام خلال الزيارة.

في تلك الليلة حلم أن الدكتور مكفارلين انحنى وتقيّأ في هذا الحمام مجدداً. كان الجوّ معتماً في الحلم، والضوء القليل كان أزرق ووامضاً كأنّه من برق كان يعصف في الخارج. وجمد في مكانه، وراقب من الباب المفتوح الدكتور مكفارلين يرفع رأسه، ولعابه يسيل بينما عيناه أشبه بعيني حيوان بري. ثم أقحم يده اليسرى في فمه، اليد ذات الإصبع المفقودة، وجرّ خصلة ملتوية وطويلة وسوداء من شعر امرأة.

وتنتهي الذكريات إلى هنا، مثل شريط فيلم يومض إيذاناً بالخاتمة. وغمرت رين مشاعر مضطربة من أنّه ارتكب خطأً، ولكن لم تكن عنده أدنى فكرة ما هو هذا الخطأ. ولو أنّه كان يشعر بحاسة القطّة لربّما ساعدته آنذاك.

والآن، يعيد انتباهه إلى القارورة الزجاجية. لا يوجد مخبأ في هذه الغرفة العارية، ولكنّه كان يحتفظ بعلبة من القصدير وضع القارورة فيها. ثم خبأها تحت قميصه، وذهب إلى نهاية الحديقة، حيث البساط العشبي يستسلم للغابة قرب مكبّ النفايات. وهناك، حفر حفرة في الأرض الطرية ودفن العلبة القصديرية، ووضع حجراً كبيراً لتحديد الموضع.

وحينما سيحصل على إجازة للعودة إلى كامونتنغ سيخرج الإصبع من الحفرة وسيدفنها في قبر الدكتور مكفارلين وهكذا يكون قد أدى واجباته.

أصغى ويليام لقدّاس الكنيسة دون اهتمام، كانت عيناه مشغولتين بتأمّل

المصاطب الخشبية الطويلة. كانت كنيسة هولي ترينيتي مبنية من الخشب القاتم، وكانت ظليلة وباردة، ومع أنّ الوقت لا يزال في الصباح، لكن الطقس كان رطباً حتّى أنّ العرق بدأ يسيل من ياقته. كانت الكنيسة مزدحمة تماماً بسبب أنّ المحليين المقبلين كانوا أكثر عدداً من الأوروبيين. وتنَحَّت المرأة التاميلية، التي تقف بجانبه، قليلاً. وتساءل ويليام فجأة إن كانت رائحة الدم تفوح منه.

كانت رائحة غرفة العمليات تلتصق به غالباً، رائحة المطهرات الحادة ومزيج خفيف من روائح غبار العظام والدم. وهي لا تفارق منخريه، مع أنّه حريص على غسل يديه والاستحمام باستمرار. ولكنه لم يكن يدخل غرفة العمليات منذ يوم الجمعة، ولذلك لا بدّ أنّه طيف تبقى من تلك الرائحة.

في يوم الجمعة، حصل انفجار في إحدى آلات الحفر في المنجم. وفقد أحد الرجال كلتا يديه من فوق المعصم. ولجأ ويليام لعملية كروكينبيرغ، المشهورة منذ أيام الحرب العالمية. ونادراً ما كان يلجأ لها، وكان يفضّل إنقاذ كلّ بوصة من المعصم قدر الإمكان، ولكن في حالات من هذا النوع كان هذا أفضل حلّ أمامه. بفصل عظمتي الذراع، يمكن استعمال العظمين الباقيين بعد البتر مثل عصا طعام. وهو حلّ بشع لأنه يضخّم ويبرز التشويه. لن يكون هناك خطاف ولا يد خشبية لخداع الناظر في أوّل لمحة. فقط نتوءان مكشوفان، مثل مخالب القريدس عوضاً عن الذراعين. غير أنهما يعملان أفضل من الأطراف الصناعية. فالرجل سيتمكّن من التقاط الأشياء بإحساس كامل، وسيتمكّن من فتح الأبواب والتعامل مع الأدوات حتّى. فكر ويليام بالموضوع، وأدرك أنّه قام بالعمل الصحيح، رغم أنّه لم يكن بمقدوره أن يتخيّل أن أيّة امرأة ستكون مسرورة بلمسات هذين المخلبين الكئيبين. ما أهمية اليد دون أصابع؟ إنّ فقدان ولو إصبع واحد فقط يتسبب بضياع التوازن كله.

والآن المصلون يركعون، ويرددون معاً:

«أهملنا ما يجب علينا فعله

وفعلنا ما لا يجوز

فارحمنا يا رب».[1]

غير أن ويليام لم يركع وهو يقف في الخلف، مع أنّه رغب لو يركع. «*وفعلنا ما لا يجوز*»، وخيمت فوقه هذه الكلمات مثل طيور صغيرة وثقيلة.

وفكّر بسؤال رين. فهو لم يأمره بتلميع حذائه، ولكنه فعل ذلك هذا الصباح، وكان الحذاء أنيقاً أمام المدخل. ولأول مرّة، فهم حقّاً ملاحظات أمه حول أهمية وجود خادم جيد. غير أن رين مجرد طفل. من الواضح أنّه ذكي جدّاً ومن الأنانية والوحشية بمكان أن يحتفظ به لنفسه. فكّر: يجب *أن أرسله إلى المدرسة*.

في مقعد أمامي، شاهد ليديا وصدمه مجدداً مقدار تشابه لونها مع لون آيريس، خطيبته. كانت بشرتها رقيقة ومنمّشة وشعرها كان براقاً. ابتسمت له آيريس، وغمره ذلك الشعور المألوف بالفتنة، حينها يكون مستعداً لفعل أيّ شيء لإرضائها. كانت آيريس باردة وبعيدة وتدينه باللهو مع نساء أخريات. وهذا اتهام سخيف، لأنه لم يفعل ذلك، ولا حتّى لمرة واحدة عندما كان معها. يا للسخرية! وفي آخر لقاء معها كانت آيريس غاضبة، وفمها الصغير الوردي مفتوح بصرخة صامتة. *أيها القاتل*. وارتجف لهذه الذكرى.

وبعد انتهاء الصلاة، كان فشل الإيقاع بالنمر حديث المصلين.

قال ليسلي زميله الشاب في المستشفى: «ماذا قلتُ لكم؟». ابتسم وقال: «كان يجب طهوه بإشراف برايس».

لا يحب ليسلي برايس لسبب ما. في مجتمع صغير مثل هذا، كلّ خطأ بسيط يعتبر كبيراً، ولذلك توجّب على ويليام الحذر كي لا يربطه أحد مع جثمان أمبيكا المقطع. وبالتالي كان عليه أن يحتفظ بعلاقة طيبة مع ليسلي، الثرثار، الذي لا يتورع عن الكلام مع الجميع.

ثم انتقل ليسلي للكلام عن حفل العشاء الشهري الذي سيستضيفه ويليام هذه المرة وقال: «بخصوص حفلتنا، هل تمانع إن جهزّت فقرات للتسلية؟».

---

(1) صلاة يوم الجمعة. المترجمة.

لم يكن ويليام متحمساً لذلك، لكنه قال بدماثة: «كما تحب».

قال ليسلي: «ستكون مفاجأة!». وكان سعيداً وهو ينصرف. وأدرك ويليام متأخراً أنّه نسي أن يذكر دعوته إلى ليديا لحضور الحفل القادم، ولكن هذا لا يهمّ، لأنّ ليديا ستتلاءم مع ذلك الجمع أفضل بكثير مما يمكن لأمبيكا أن تفعل.

كانت الإشاعات تقول أن أمبيكا ضحيّة سحر أو روح غاضبة أخذت شكل نمر، وأزعجته هذه الإشاعات لأنها غالباً ما تتهمها بأنها امرأة منحلّة. وقد كانت كذلك، كما يعتقد. وفجأة، افتقدها بشدة. ولفّه ضباب من البؤس والعزلة، لكن كوخ أمبيكا الصغير بقي فارغاً. ولن تعود إليه بعد الآن.

وأخبر ويليام نفسه، أنّه منذ الآن وصاعداً، سيكون شخصاً أفضل. وسيزكّي الفتاة الصينيّة التي رآها البارحة في مستودع قسم الأمراض، الفتاة التي سألته عن التمريض. كانت الفتاة فاتنة بشعرها المقصوص، وكان متناسقاً مع حاجبيها المستقيمين وعينيها السوداوين المائلتين مثل عيني ظبية، كما رآها عندما حدقت به. كانت أشبه بولد جذّاب، أطرافها نحيلة وخصرها ضيق، لذا شعر وقتها بالرغبة باحتضانها، بقوّة، حتّى يسمع شهقاتها. وتساءل كيف يكون شعوره وهو يمرر إصبعه على طول رقبتها الرفيعة، حتّى يصل به إلى الأخدود بين ثدييها الصغيرين الناهضين. إنّها ليست من النوع الذي يفضله من النساء، ولكن كلما فكّر بها، ودّ أن يلمسها.

كان يفضّل النساء من نوع ناداني، الفتاة التي أنقذ رين ساقها. وحتى وهو يفكّر بها، كان يرى وجهها في الزحام. لقد تفاجأ، هل هو وجهها حقاً، أم أن كلّ الفتيات المحليّات ذوات الشعر المجدول يتشابهن؟ ولكنها ابتسمت بخجل، ووجهها الذي يشبه القلب، ظهرت فيه الغمازات. واستولت على ويليام موجة من الثقة.

أحياناً ودون أن يتوقع ذلك، يتحقق كلّ ما يتمناه. أبواب تفتح، عوائق تزول. مثل اشتباه رولينغر بحصول موت مشبوه، الذي نفاه قاضٍ متسرع. ثم التوقيت المحظوظ عندما قرأ نعي رجل المبيعات في الجريدة. سَمِّ ذلكَ صدفة أو مجرّد حظّ جيّد، ولكن حدث ذلك معه في مناسبات كثيرة في حياته.

ردّ بابتسامة، وشق طريقه إلى نانداني. وكانت تسير على عكازتين من الخشب.

سألها: «كيف ساقك؟». كانت إنجليزيتها، كما يذكر، ضعيفة، ليس مثل الفتاة الأخرى، الصينيّة. لكنّهما تبادلا الحديث بمزيج من اللهجة العامية من الماليزية والإنجليزية، ولا بأس بذلك.

قالت بخجل: «أفضل».

قال: «يمكنني أن أصحبكِ معي في السيارة في طريق العودة». فهي تعيش قرابة مزرعة المطاط.

ولكن ليديا وجدته وسألته: «هل ستعود للبيت يا ويليام؟».

كان ردّ فعله الأول هو الانزعاج، ثم أدرك أن هذا في الحقيقة شي جيد. إذ كيف تبادر له أن يدعو فتاة محلّية إلى سيارته ليقلّها للبيت وأمام الجميع في الكنيسة؟ هذه زلّة منه. ومن الأفضل أن تكون ليديا معه. هكذا أفضل له. ويمكنه أن يوصل ليديا أولاً، ثم يتابع مع نانداني.

سأل ليديا: «هل تريدين أن أقلّك معي؟».

وسعدت ليديا بالاقتراح. وقالت: «حسناً، إن لم يكن في ذلك عبء عليك».

«لا توجد مشكلة أبداً، وسأقلّ مريضة أيضاً». وتعمّد أن يغريها بكلامه.

وذهبت ليديا لتخبر والديها أنّها لن تعود برفقتهما. ومن نظراتهما، بدا السرور لبادرته مع ابنتهما. وهذا سوء فهم سوف يوضحه لاحقاً، مع أنّه مفهوم. فهو بالعمر المناسب ومن عائلة جيدة. ولكن كانت هناك أحاديث حول ليديا وكانت تزعجه، رغم أنّه لا يتذكّر تماماً ماهية هذه الأحاديث. وشعر ويليام بضرورة البحث والتقصّي. ولكن في هذه الأثناء، كانت الشمس مشرقة، والجميع يبتسمون، ومطاردة النمر تَعِدُ بمزيد من الإثارة في المستقبل.

جلست ليديا في المقدمة، طبعاً. وأعان ويليام نانداني لتجلس في الخلف مع عكازيها. بدا عليها الرهبة، فضغط ويليام على يدها بعطف. نكست عينيها، وتأكد لويليام أنّها تميل إليه. وربّما سيكون هذا اليوم هو يوم سعده.

20

مستشفى مقاطعة باتو جاجاه

الأحد، 14 حزيران

فتحتُ عينيّ على سقف غير مألوف. كانت الأرضُ تصدر صريراً، وتردّد صدى صوت في الممرّ، وتذكرت أنني نمت في سكن الممرضات. وتدفق ضوء رمادي من نافذة وحيدة. كان هذا صباح يوم الأحد.

أما صداع الأمس فقد تلاشى، ولكن تساءلت هل يوجد خطب ما بي، مرض ما في الدماغ يسبب لي أوهاماً حيّة. كلّ حلم حلمت به عن محطّة القطار المهجورة سبقه صداع. وتردّدت في الجوّ كلمات الصبيّ عن أنّه يوجد منا خمسة. وجلستُ على طرف السرير الضيق وأنا أعدّ. هناك شين وأنا والولد الصغير. وهو بدوره أشار لأخيه ولشخص خامس، شخص كان يسبب له قلقاً كبيراً. وبدأت الذكرى تتلاشى، بالطريقة التي تبهتُ بها الأحلام.

وراودني خيال غريب عن أننا نحن الخمسة تحت رحمة قدر غامض. اجتمعنا معاً ولا يمكننا التفرق، والضغط صنع نمطاً غريباً. وكان علينا إمّا أن ننفصل عن بعضنا، أو أن نجتمع معاً. ويمكنني بالتأكيد أن أجد هذا في حالتي أنا وشين. كان هو وجه الورقة الثاني مني، صديقي، وموضع أسراري. ومع ذلك كنتُ أحسده وأستاء منه.

اغتسلت بسرعة في الحمام العام الأبيض الموجود في السكن. كان مهجوراً، والأصوات التي كانت في الممرّ ذهبت إلى مكان آخر من فترة طويلة. ورداء الأمس كان وسخاً ولا يمكن ارتداؤه من جديد، لكن السيّدة تام أصرت على أن

أحمل معي ثوب *شونغسام* بخطوط هندسية مطبوعة ذات لونين كريمي وأخضر. ضيق كأنّه غمد لسيف. كنت أعتقد أنّني انتهيت من ثياب *الشونغسام* الضيقة بعد ارتداء ذلك الفستان الرمادي في جنازة رجل المبيعات. ولكن كان عند السيّدة تام رأي آخر، وهي تعتقد أن هذه الثياب المعقدة يجب أن يكون العمود الفقري لترسانة أيّ خيّاطة. وللأسف، كنت قد قللت من دور الثنيات. فما أن ارتديته، حتّى شعرت أنّني لن أكون قادرة على أن آكل ولا حتّى لقمة. لماذا، لماذا سمحت لها بتوضيب حقيبتي يوم أمس؟ وخطرت لي فكرة صدمتني، أن كلّاً من السيّدة تام وشين لهما قدرة على جرّي ببساطة إلى مواقف لم أحسب حسابها. إذا كان يوم الأمس إشارة على ما يمكن أن يحصل، سأكون محظوظة إن لم يجبرني شين على تنظيف دورات مياه المستشفى اليوم.

كانت صالة الاستقبال فارغة. وربّما كلّ من غادر في سهرة ليلة السبت لا يزال نائماً. وتساءلتُ أين يمكن أن يكون شين وماذا فعل ليلة الأمس، وتوجّهت إلى الكافيتريا لتناول الإفطار. تعلّق ضباب غائم وخفيف بالأعشاب الرطبة التي كنت أمرّ بها بحثاً عن طريق مختصرة. واقتربت من زاوية، وهناك سمعت هسهسات خفيضة لصوت غاضب.

«لا تنكري! كنت تبكين من أجله، مع أنّه رجل متزوج!».

«هذا ليس شأنكِ في كلّ حال».

تردّدتُ. وفي اللحظة التالية، جاء من خلف الزاوية شخص وارتطم بي. وتبين أنّها ممرضة شابة، وكان وجهها منفوخاً، وعيناها ممتلئتين بالدموع.

سألتها: «هل أنتِ على ما يرام؟».

انفجرت بالبكاء. ولم يكن هناك شيء لأفعله إلا تقديم منديلي لها. ولم أكن على استعداد لأدعها وحيدة وهي تبكي على العشب. ومما سمعت، يبدو لي أن حكايتها هي نفس الحكاية الحزينة التي رأيتها في ماي فلاور. الرجال المتزوجون مشكلة دائمة.

سألتني: «هل سمعتِ شيئاً؟».

ولابد أن وجهي فضحني لأنها قالت: «لم يتضمّن الأمر إقامة علاقة غرامية معه. إنهم يتهمونني فقط. هل آمل أن لا تخبري أحداً؟ سأواجه عقوبة الطرد إذا سمعت المشرفة بالموضوع».

قلت لها: «لا تخافي، أنا مجرّد زائرة».

وظهر الارتياح عليها. وقالت: «المسألة هكذا فقط، طبعاً. يغمرك الحزن إذا ما مات أحدهم. أليس كذلك؟». واغرورقت عيناها بالدموع مجدداً.

لطالما شعرت بالذنب من رؤية الناس يبكون، ولا سيما إذا كانت أمي، في المرات القليلة التي رأيتها تبكي بصمت في غرفة نومها المظلمة، وعيناها مفتوحتان على وسعهما والدموع تسيل على وجهها كما لو أنّها تمشي بنومها. هذه الممرضة بدت بائسة جداً، بركبتيها المقوستين، وزيّها المجعد. فربتُّ على ظهرها وهي تتمخط بصوت عالٍ.

قالت: «حتى أنّني لم أجد الفرصة لحضور جنازته في بابان خلال عطلة الأسبوع، لأنني كنت مشغولة بالعمل».

وانتصبت أذناي. كم من جنازة يمكن أن تكون في تلك البلدة في عطلة الأسبوع الماضي؟

سألتها: «ماذا كان يعمل؟».

قالت بسرعة: «كان رجل مبيعات، وأحد مرضاي. كنّا صديقين».

وهكذا وجدتها، الممرضة التي أعطت الإصبع لرجل المبيعات. هل هو القدر، أم أنّه رابط خفيّ مظلم، مثل خيط بارد من أعشاب البحر شبكنا؟ أحداث بمنتهى الغرابة ترتبط بهذا المستشفى. لم يكن بمقدوري أن أمتنع عن التفكير أنّه إذا كنتَ تصدّق أن روح الميت تطوف لتسعة وأربعين يوماً بعد الموت، فلابد أن هذا المستشفى مليء بهذه الأرواح.

سألتني بصوت مذنب: «هل كنتِ ذاهبة إلى مكان ما؟».

أجبت: «إلى الكافتيريا، ولكنّي أضعت الطريق».

«سأقودك معي. كنت بطريقي إليها بنفسي». وزمّت شفتيها وأضافت: «دعيني أغسل وجهي أولاً».

أسرعت الممرضة الصغيرة، وقد كانت أقصر مني، طولها يصل لكتفي، على أنّني أُعدّ طويلة بالنسبة لبنت، وانتظرتها وتساءلت هل غيرت رأيها وهربت مني. ولكن خبراتي في ماي فلاور علمتني أن الناس يخبرون أسرارهم للغرباء، وكانت على وشك أن تقول شيئاً.

وعادت حالاً وهي تبدو أفضل. ولكن كانت لا تزال خائفة كالأرنب، وقد ناسبت هذه الروح قوامها الشاحب وأسنانها الأمامية الصغيرة.

قالت: «بالمناسبة أنا بي لنغ».

أجبت: «اسمي جي لين. كنت الليلة الماضية في السكن، قمت بزيارة أخي، أقصد، خطيبي». وتعثّرت بنطق كلماتي.

وألقت عليّ نظرة متواطئة، وقالت: «تقصدين صديقك؟ إنّهم صارمون جدّاً في السكن. لا تقلقي، لن أفشي سرك. ما اسمه؟».

«لي شين، وهو ممرض».

قطّبت جبينها بحدة وقالت: «لا أعتقد أنّني أعرفه». كانت كأنها تحسب، ثم توقّفت، وعصرت يديها وقالت: «كنت طيبة معي». حاولت أن أعترض لكنها قالت: «أبداً. كنت طيبة. وكثير من الناس لا ينتبهون لي، أنا من ذلك النوع من الأشخاص. ولكن هل يمكنك أن تسدي إلي معروفاً؟».

«ما هو؟».

«قلت إن صديقك ممرض في سكن الرجال. ولا أعرف أحداً هناك. على الأقل، لا يوجد هناك أحد لأثق به. هل تعتقدين أنّه يمكنك أن تطلبي منه إحضار رزمة لي؟ لا أطلب منك أن تسرقي. فهي لي أساساً». كان وجهها أحمر وصوتها يرتعش. ولا بدّ أنّها كانت يائسة لتطلب ذلك من إنسانة غريبة. أو ربّما الغريبة هي أفضل طريقة لكي لا تشرك شخصاً تعرفه. وتابعت: «كان لدى يو شونغ صديق في سكن الرجال وكان يحتفظ له بأشيائه. قال إنّه سيعيده لي. ولكنه مات فجأة».

«ولماذا لا تطلبين ذلك من صديقه؟». وفكّرت لا بدّ أنّه ي.ك. ونغ. فقد أخبرني في ماي فلاور أنّه صديق رجل المبيعات.

«أنا لا أحبه. ولربّما استعمل ذلك ضدي». كانت عيناها تتجنبان النظر مباشرة، وشفتاها ترتعشان.

واشتبهت بكلامها ولكن ربّما عرفت منها المزيد عن ي.ك. ونغ، إن توجّب علي التعامل معه مجدداً، قلت لها: «حسناً، سأسأل شين».

زال قلقها وقالت: «إنها في الغرفة العامة في سكن الرجال. قال يو شنغ أنّه أخفى الرزمة في آنية زهور في آخر زيارة له لأنّ صديقه كان غائباً. يفترض أن يكون مخبأ مؤقتاً، وأخشى أن يجده أحد في نهاية الأمر».

في هذه الساعة المبكرة من صباح الأحد، لا يوجد إلا القليل من الأشخاص في الكافيتريا. وبدت عيون هؤلاء الذين كانوا يأكلون، ضبابية. ربّما كانوا يعملون في النوبة الليلية مثل بي لنغ.

«هل تحبين مهنة التمريض؟». سألتها ونحن نضع الشاي والخبز المحمص والبيض نصف المسلوق على الصينيّة.

«لا بأس بها».

وبحماس، استفسرتُ عن المؤهلات المطلوبة، وكيفية التقدم باستمارة. وسألتني: «ولكن لماذا تريدين أن تكوني ممرضة؟». تأمّلت بي لنغ ثوبي *الشونغسام* العصري، وقالت: «يبدو أنّك من عائلة ميسورة».

«لا، أنا مجرد مساعدة خياطة. وهذا من خياطة ورشتنا».

رشفت بكآبة من كوب تيه *أو*[1]، وهو شاي أسود محلّى وكثيف. وقالت: «أن تكوني ممرضة ليس أمراً سهلاً، وإذا ارتكبتِ خطأ ستأكلكِ رئيسة الممرضات».

قلت: «ولكنه عملٌ محترم، أليس كذلك؟ ويمكنك أن تصبحي مستقلّة مالياً».

ولم أسمع جوابها، لأنّ شين أقبل نحونا وجلس على الكرسي المقابل.

---

(1) teh O

«أين كنتِ؟ كنتُ أنتظرك أمام سكن السيدات حتّى أخبروني أن غرفتك فارغة».

شاهدتُ ظلاً تحت عينيه، وكان شعره الأسود رطباً ومسرّحاً كما لو أنّه غسل رأسه بماء الحنفية. ورغم ذلك، كانت له هيئة ذئبيّة أنيقة. يمكنك أن تحزم شين في كيس وتدحرجه في حقل، ومع ذلك سيخرج أشعثَ بشكل جذّاب. بعض الناس محظوظون، قلت في سري بحسد.

ونظرتُ إلى بي لنغ لأشاهدها ما إذا كانت ستفتح فمها وسيتراخى فكّها، وهي ردّة الفعل المعتادة للفتيات على الحضور الطاغي لأخي غير الشقيق. وهذا ما حدث دائماً مع صديقاتي، لكن بي لنغ لزمت الصمت، وهي تنظر إلى شين. كانت كأنها خائفة منه.

قلت له: «شين، هذه بي لنغ. وهي ممرضة هنا».

ابتسم بتهذيب، الابتسامة التي يسحر بها السيدات العجائز وردّ: «أنا شين». وتابع: «شكرا لرعايتك لـ». وصمت وهو يبحث باضطراب عن وصف مناسب لعلاقتنا، وهي نفس الحيرة التي وقعتُ فيها، ثم أضاف أخيراً: «رعايتك لها». والتفت برأسه نحوي بهدوء.

وفكّرتُ بسخط: «*عمل جيد يا لي شين*». رغم أنّني لم أستطع تدبّر قول شيء أفضل. قلت: «بي لنغ تسأل إن كان بمقدورك أن تقدم لها معروفاً. هل تستطيع إحضار شيء يخصّها من سكن الرجال؟».

وقالت بسرعة ودون تفكير: «لا. انسي الموضوع».

لم يسبق لي أن شاهدت ردّة فعل مماثلة تجاه شين فقلت: «هل أنت متأكدة؟».

ردّت: «نعم متأكدة. يجب أن أنصرف الآن». وانتفضت واقفة، ودفعت كرسيها إلى الخلف وهربت من الكافيتريا. وأسرعتُ وراءها بقدر استطاعتي وأنا بحيرة تامة. وبثوبي الضيق لحد الغباء.

وسألتها بأنفاس لاهثة: «ما المشكلة؟». كانت هذا الصباح تبدو مستميتة، كما لو أنّه لا يوجد آخر تطلب منه هذه المساعدة. «ألا ترغبين أن يعيد لك شين رزمتك؟ أنا واثقة أنّه سيفعل».

«ما درجة معرفتك به؟».

قلت بارتباك: «منذ كنّا أطفالاً».

عضّت شفتها، ونظرت بعيداً وقالت: «رأيته هنا مع صديق يو شنغ. الشخص الذي أمقته». ولم أعرف ماذا أقول، وتذكّرت أن ي.ك. ونغ هو زميل شين في الغرفة في هذا المستشفى.

«انسي الموضوع. سأستعيدها بطريقتي». قالت ذلك وابتعدت بخطوات متخشّبة، كما لو أنّ على ظهرها علامة تحذير مكتوب عليها: *لا تتبعيني*.

وعدتُ أدراجي إلى الكافيتريا، وشاهدت شين يأكل بقايا خبز *الكايا المحمّص*[1] خاصتي. قلت له: «أنت تفقد لمستك مع النساء. والآن أعد لي إفطاري».

مدّ ساقيه الطويلتين تحت الطاولة وقال: «فات الأوان، لقد تأخرتِ». ورغبتُ لو أنّي أركله، غير أن الثوب الذي أرتديه كان أضيق من أن يعينني على ذلك.

قال لي: «ما كان ذلك؟».

فأخبرته عن بي لنغ وعلاقتها مع كلّ من رجل المبيعات وي.ك. ونغ، واسوّد وجهه عندما أخبرته أن شريكه بالغرفة طاردني في ليلة الجمعة حتّى البيت.

«لماذا لم تخبريني أمس؟».

«تظاهر أنّك لا تعرف. لا أريدك أن تختلف معه».

ولحسن الحظ لم يكن يبدو أن ي.ك. ونغ شاهد وجهي البارحة.

«رغم أنني أتساءل ما هو الشيء الذي أرادت بي لنغ منكَ أن تستعيده لها من سكن الرجال».

كلّ شيء مرتبط بالإصبع المبتورة، ومن ضمنه بي لنغ وطلبها العجيب؛ ألقى ظلاً يثير الاضطراب. كان جزء منّي فضولياً حقاً، والجزء الآخر حذّرني أن من الأفضل لي أن أترك الأمر. وفي كلّ حال، كنّا انتهينا تقريباً من تنظيف المخزن، ونحتاج لساعتين إضافيتين ثم أجد نفسي في الطريق إلى إيبوه.

---

(1) Kaya toast: خبز محمص يُدهن بطبقة من مارملاد الكايا، المصنوع من جوز الهند.

وأنهى شين ما تبّقى من إفطاري وشرع يحدّق بتساؤل في الطبق الذي لم تلمسه بي لنغ.

«يمكنك أن تأكله أيضاً».

«لا أريد».

أشرت له قائلة: «إنّ طبقها أفضل، لأنها لم تقضم منه ولا لقمة واحدة».

قال بفتور: «أريد طعامك فقط».

وهربت بعينيّ منه، وشعرت بالامتنان لعودة روح الصداقة بيننا. ولكن يجب أن أبقي حذرة مع شين. قد يمرّ بطور حار وآخر بارد. ولم أقل شيئاً وتناولت خبز بي لنغ. وأزعجني أنّها كانت تبدو خائفة جداً.

وظلّل خيالٌ فوقنا، رفعتُ رأسي ورأيتُ كوه بنغ، الممرّض المرح. ورغم أن الصباح لم يزل في بدايته، إلا أن وجهه كان مغطى بطبقة رقيقة لامعة من العرق. سألني: «هل أنتِ بخير؟، لم تبدي أمس على ما يرام».

وكان لطفاً منه أن يتذكّر. وجلس معنا وبدأ يأكل طعامه. المعكرونة مجدداً، مع شرائح ريّانة ورقيقة من كبد الخنزير فوق الحساء الحار. وتمنّيت لو أنّني طلبتُ مثل طبقه. وسألني: «هل ترغبين بمشاركتي الطعام؟».

قال شين وهو ينهض: «نحن على وشك أن نغادر». ونهضت مثله، وأنا أمسد ثوبي باحتراس للأسفل. واستطالت نظرة بنغ على ساقيّ.

قلت وأنا أنقر على الطاولة الخشبية: «عيناك على الطاولة!».

ابتسم وقال: «أحب الفتيات اللواتي يفصحن بصراحة عمّا يدور في خواطرهن».

وقاطعَته ضجّة من الخارج. كان الناس يركضون للأمام والخلف ويصيحون.

سألت: «ما هذا؟».

تابع كوه بنغ التهام طعامه. وقال بلا اهتمام: «ربّما سحلية ورل عملاقة».

ويمكن للورل أن يكبر ليصبح بطول خمسة أقدام وأن يفترس الدجاج الشارد

والقوارض وكل شيء آخر يجده. وفكرة أن الورل يجوب في أرجاء المستشفى أصابتني بالقشعريرة. ونظرت إلى شين وكان عابس الأسارير، ورأسه منتصب كأنّه سمع شيئاً.

قال: «فلنذهب».

بعيداً عن المبنى الأساسي للمستشفى كانت التلال منحدرة، وتربط بينها دروب صغيرة وسلالم. وكان شين أسرع مني، وفي اللحظة التي بلغتُ بها الممشى حيث توقّف، كانت جماعة من الأشخاص قد وقفت في أسفل المنحدر.

«تنحّي عن الطريق رجاء!». ومرّ بسرعة رجلان يحملان نقالة إسعاف فارغة. والتفت شين وعاد نحوي. قال: «لا تنظري».

«ماذا يجري؟».

وكان جوابه أن قبض على مرفقي وقادني بسرعة بعيداً. التفتُّ ولمحت الرجلين يحملان شخصاً بالنقالة. ولم أشاهد غير قدم حافية صغيرة.

سألني شين بنبرة خافتة: «كيف قابلت تلك الممرضة؟».

«بالصدفة، وأنا في طريقي إلى الكافيتريا، لماذا؟».

«لأنها للتو سقطت على تلك السلالم. الأمر سيّئ جداً. لا، لا تعودي إلى الخلف. ليس بمقدورك أن تفعلي شيئا لها الآن».

«هل ماتت؟».

«يبدو أنّها إصابة في الرأس. شخصٌ وجدها للتوّ».

وصدمني النبأ. وشعرت أنّني سأبكي. يا له من شيء فظيع أصاب بي لنغ، ولم يمرّ على مغادرتها الكافيتريا أكثر من نصف ساعة.

«هل كانت تركض حينما تركتك؟».

«كلا. كانت تمشي. ماذا يجب أن نفعل لها يا شين؟».

«هي برعاية الأطباء الآن. المستشفى أفضل مكان للإصابة بالحوادث». ثم أضاف بصوت خافت: «إن كان ذلك مجرد حادث».

توقّفت، وسألته: «ماذا يحدوك لتفكّر هكذا؟».

«سقطت على مسافة بعيدة من آخر السلم. إن تعثّرتِ، فلن تسقطي بعيداً جدّاً بهذا الشكل، لأنكِ ستتداركين نفسك فوراً. ثم أن هناك سورٌ، أيضاً. ولكن إن دفعك أحد عنوة..»، تنهّد وتابع: «حينما أخبرتك عن الرزمة الموجودة في سكن الرجال، هل كان قربكما أحد؟».

«ليس في أوّل مرّة. ولكن عندما كنّا خارج الكافيتريا مرّ بعض الأشخاص».

وبقلق، راقبتُ المشهد في الأسفل. النقالة بحملها الحزين، والقدمان المسكيتان بارزتان منها، قدم حافية وأخرى بحذاء الممرضات الرزين، وقد مرّ الموكب وتوارى خلف المبنى الآخر. وتفرّق الجمع، ولكن بقي شخص واحد يراقب من مبعدة. وتعرّفت عليه من القامة المنحنية، إنّه ي.ك. ونغ.

همستُ: «أعتقد أنّك قلت إنّه غادر ليلة أمس». وأشرت له لتنبيه شين.

«لا بدّ من أنّه عاد في الصباح. أنت لا تشتبهين به، أليس كذلك؟».

ولم أكن متأكّدة مما يدور في فكري. حادثة بي لنغ أفقدتني أعصابي. بدا أنّها مصادفة غريبة أن يقع لها هذا الحادث الفظيع بعد أن باحت لي بسرها، فوراً. ومجدداً، فكّرت بالشيء الداكن الذي يتحرك في أعماق النهر في أحلامي.

«هل يمكنك أن تبحث عن رزمة بي لنغ يا شين، في الغرفة العامة في سكن الرجال؟ كانت خائفة من أن تقع يدُ شخص آخر عليها. علينا أن نحتفظ بها من أجلها». وألقيت عليه نظرة متوسلة.

لم يقل شيئاً، ورفع حاجبيه وانصرف. ومع ذلك أيقنت أنّه سيفعل. كنّا نلهو في أيامنا السابقة مع بطّتين منزليتين، كرتين صفراوين جميلتين من الزغب. وفي إحدى الأمسيات ضاعت بطّتي. التهمتها القطّة كعشاء. هكذا كان يقول الآخرون ليغيظوني. ولكن شين بصمت وعناد بحث في الحيّ لعدّة أيام، ولفترة طويلة بعد تلاشي كلّ أمل بعودة البطة المسكينة. وها أنا أتذكر ذلك، وأشعر بعاطفة من الامتنان تغمرني. وتعلّقت كلمات بي لنغ في رأسي: *كم تبلغ درجة معرفتك به؟* كان سؤالاً جيداً. فنحن لم نعد طفلَين. وحتى الآن، لست متأكدة لماذا لم يعد

شين إلى البيت لمدة عام. أضف لذلك، كم تبلغ ثقتي به؟ العائلة الحقيقية الوحيدة لي هي أمي، وهي من يتوجّب عليّ رعايتها.

اقترب صوتُ خطوات قادمة، فنهضتُ، إذ خشيت أنّه قد يكون ي.ك. ونغ. كان هناك شيء غير مريح بذلك الرجل. الطريقة التي يظهر بها في أماكن غير متوقعة. ولكن كان كوه بنغ فقط.

قال بحبور: «مرحباً! هل تنتظرين شين؟».

بتردّ قلت: «نعم فقد ذهب ليأتي بشيء». وتساءلت هل المفروض أن أذكر له الحادث الذي أصاب بي لنغ.

«هل تريدين أن أرافقك بجولة؟».

وافقت بسرعة. إذ لم يكن من الحكمة أن أنتظر قرب سكن الرجال، حيث يمكن أن يظهر فجأة ي.ك. ونغ ويراني. وكنت آمل أن ينتبه شين لغيابي ويبحث عنّي.

كان كوه بنغ مرشداً جيداً. ولديه ذخيرة من الحكايات المنوعة والإشاعات. هنا تمّت أوّل عملية نقل للدم في المستشفى. في ذلك المكتب ضبطت زوجة الدكتور السابق زوجها يجرب ثياب ممرضة من مقاس أكس. لارج. وانفجرتُ بالضحك مع أن معظم حكاياته سخيفة.

سألني فجأة: «هل أنت فعلاً صديقة شين؟».

«لماذا تسأل؟».

تردد كوه بنغ ثم قال: «لأن لديه صديقة أخرى. في سنغافورة».

«وكيف عرفت؟».

«يحدثنا عنها كلّ الوقت. قال أنّه قابلها في سنغافورة».

كيف يفترض أن أرد على هذه المعلومة، والمفروض أيضاً أنّها دليل على الخيانة؟ ربّما وجهٌ شجاع ومكتئب قد يكفي. نظرت لحذائي وقلت: «آه». ولكن كان في صدري إحساس غريب يعتصرني.

اقترب كوه بنغ وقال: «أنا آسف». ثم وضع يده على كتفي وقال: «هل من شيء بمقدوري أن أفعله؟».

وسمعت صوت شين ينادي: «جي لين!». كان قادماً عبر الصالة. وتابع: «لماذا انصرفت هكذا؟».

أفلت كوه بنغ ذراعه.

«كان يأخذني بجولة».

وضع شين ذراعه حول خصري، فتشنّجت. ولاحظ كوه بنغ ردّة فعلي، وابتسم بحرج وهو يستعدّ للانصراف. وقال: «أخبريني إن كنتُ قادراً على المساعدة»

سألني شين: «ما نوع الخدمة التي يقصدها؟».

«لا شيء». لم يكن علي أن أكتئب. كانت نصيحة كوه بنغ بحسن نيّة ولا علاقة لها بحالتي. وخلّصت نفسي من ذراع شين. وقلت: «لا ضرورة للتمثيل الآن. لا يوجد أحد معنا حالياً».

وألقى عليّ شين نظرة متسائلة. أحياناً، أتساءل ماذا يجري وراء تلكما العينين السوداوين السريعتين. حينما يبتسم، تضيقان في الزوايا، والآن يبتسم كثيراً في هذه الأيام، أكثر ممّا كان يبتسم عندما كان أصغر عمراً. ولست متأكدة من أنّني أحببت ذلك. لقد تعلّم أن يستغل وسامته لمنفعته.

قال بعد لحظة صمت: «لدي شيء غريب لأريكِ إياه».

«هل وجدت الرزمة؟». ولكن جاءت أصوات مرتفعة من خبطات أقدام. كان حشداً يقترب في الممرّ، بالتأكيد لم يكن مكاناً مناسباً لفحص رزمة مسروقة وغامضة. أضف لذلك، لم أكن لأخاطر أن يجدني ي.ك. ونغ مرّة أخرى. وحاول شين فتح أحد الأبواب وكان مغلقاً. وانفتح الباب التالي وكشف عن مخزن له نافذة صغيرة سمحت بدخول ضوء رمادي ضعيف. واختبأنا فيه بينما الأصوات ترتفع:

«يا له من شيء فظيع! ذكّرني، من هي؟».

«الممرضة الصغيرة. التي تورّطت بعلاقة مع مريض متزوج».

«كنت أعتقد أنّها انسانة عاقلة».

«ربّما أصابتها زوجته بلعنة».

وابتعدت الأصوات في الممر. وانتبهت إلى أنّني كنت أتنفس بسرعة. وقال شين بهدوء: «كانت في إناء الزهور في السكن الرجالي المشترك».

كان المخزن مزدحماً ومعتماً، ولكنّه كان أكثر أماناً من الصالة، بالأخص بعد أن حمل شين ذلك الشيء. وبدأ بفك أزرار قميصه.

همستُ: «ماذا تفعل؟».

قال والدهشة تعلوه: «لقد خبّأت الرزمة في قميصي». ثم ابتسم وأردف: «آه، هل كنت تأملين أن أخلع ثيابي؟».

«ومن يريد أن يراك وأنت تخلع قميصك؟».

«على رسلكِ! لقد كنتِ معتادة على السباحة دون ثياب تقريباً».

«لم أفعل! وقليلاً ما كنت أدخل في الماء. أنا لا أجيد السباحة. وأنت تعرف ذلك!».

«سأعلّمك السباحة إن أردت ذلك». اقترب مني، وأنفاسه الحارة تلفح أذني. وفي لحظة متوترة، سألت نفسي: هل سيقدم على تقبيلي؟

حصلت على قبلة سابقاً. من صبيّ لم يكن يعجبني كثيراً في الحقيقة. حصل ذلك في السنة التي سبقت رحيل شين إلى كلية الطب، حينما كنت أحنّ شوقاً لمينغ بلا أمل. كان لمينغ صديق اسمه روبرت شو، وهو صبيّ من عائلة غنية تعيش قرب إيبوه، ولأنني كنتُ أريد أن أبقى قريبة من مينغ، فقد وجدتُ نفسي مرغمة على مصادقة روبرت. كان روبرت هو الذي قبّلني على مصطبة أمام متجر صيانة الساعات. كان شين بعيداً في مكان ما مع صديقة جديدة، وكان مينغ غائباً بمهمّة. لم أفهم لماذا كان روبرت قريباً دائماً. لو كان بيتي كبيراً مع مدخل طويل للسيارات وسيارة سوداء لامعة مركونة فيه، فلن أنفق وقتي في منطقة نائية مثل فاليم. ولكنه استدار نحوي، وبشكل مفاجئ كمن يبدو أنّه اتخذ قراره النهائي، واحتضن كتفي. وكان فمه رطباً وحاراً وملحاحاً. حبست أنفاسي ولم يكن هناك من سبب لوجيب القلب باستثناء ذعري الشديد وأنا أدفعه عنّي.

قال: «كنت معجباً بك لفترة طويلة. وقدّرت أنّك تفهمينني».

هززت رأسي بالنفي. كان وجهي أحمر متورداً، ويداي ترتعشان. وآخرُ شيء رغبت به مع روبرت هو كلام صريح من القلب إلى القلب، ولكنه كان قد قبض على يديّ بيديه ولم أجد طريقة للهرب إلا بدفعه بعيداً عن المصطبة. كان الموضوع كله يدغدغ الأحاسيس، لكنه مرعبٌ للغاية في نفس الوقت، مثل حادث يجري بحركة بطيئة.

ولحسن الحظ، ظهر مينغ في تلك اللحظة الحاسمة. وانتابني شعور بالخجل الغامض، وخالطه قليل من التفاؤل. الآن حان دوره ليحترق بالغيرة، لأنّ روبرت لم يُفلت يديّ بعد، ولكنه رمقنا بطريقته المعتدلة والعاقلة، وقال لروبرت: «آه، هل تحدّثت معها؟».

قفزتُ من مكاني، وانتزعت يديّ منه. وقلت لروبرت: «آسفة وأشكرك على مشاعرك، ولكن لا».

وبدا مندهشاً وقال: «هل تقصدين أنّك غير معجبة بي؟».

«لا. لستُ كذلك أبداً». ثم لذتُ بالفرار.

ودون وعي، وجدتُ أنّ كلّ ما أفكّر به كان، إن تزوجت روبرت، فسأكون سيّدة لبيت كبير في إيبوه يضم جهاز فيكترولا[1]، وحينها يمكنني أن أشغّل ما أشاء من اسطوانات الأغاني الشائعة. وعلى قدر ما كان هذا مغرياً، ولكن هذا يعني أيضاً تحمّل عناقاته اللزجة. وتذكرتُ تلك الإشراقة الخجولة التي رأيتها على وجه أمّي مباشرة بعد زواجها الثاني، عندما ضبطتُها وهي في حضن زوجها الجديد. كان هناك شيء تحبه بخصوص هذا الرجل، وحتى الآن هي معجبة به. ولكن مهما كان، لن أجد هذا الشيء في روبرت. أنا متأكدة تماماً من ذلك، وحينما حضر مينغ للكلام معي بطريقته الهادئة والمهتمة، انفجرتُ بالبكاء فجأة.

سألني بقلق: «ما المشكلة. هل أخافك؟».

---

(1) Victrola: جهاز لتشغيل الأسطوانات.

هززتُ رأسي بالنفي، والأسف يملؤني. لم يكن مينغ مهتمّاً بي بنحو شديد، مؤلم، أعني بالنحو الذي يعني أنّه لا يطيق الحياة من دوني. كان عطوفاً فقط، مثل أخٍ أكبر.

قال: «أنا آسف. مع ذلك هو ليس إنساناً شريراً». وفكّرت *وهو صيد ثمين أيضاً*. ورغم أنّ مينغ كان أرقّ من أن يقول ذلك. بعكس شين الذي كان يدفعني للاقتران بالأغنياء، فكّرت بمرارة. وكاشفت مينغ بهذا، وبدا عليه الاستغراب.

«لا، شين ليس على علمٍ بهذا. ولا تخبريه بما حصل، اتفقنا؟».

لذا لم نقل له شيئاً. ولكن كلما فكّرت بقبلتي الأولى، تهيجت في داخلي كلّ المشاعر المؤلمة الخانقة الناجمة عن القلب المفطور وخيبة الأمل. ليس حزناً على المسكين روبرت لكن أسفاً على نفسي، لأنّني في ذلك اليوم أدركتُ حقّاً أنّ مينغ لن يمنحني قلبه.

ولاحقا في ماي فلاور، مرت عدّة مناسبات حاول فيها الرجال التصرف بوقاحة، تعلمت حينها أن أدفعهم عنّي. ولذلك عندما زاد اقتراب شين منّي في خزانة التنظيفات، بعد أن أغاظني بالقول أنّه سيخلع قميصه؛ ذُعرت ودفعته بعيداً بقوّة حتّى أنّه ارتطم بالباب.

«آخ! لماذا فعلت ذلك؟».

وكيف يمكنني أن أقول له أنّني توهمت أن أخي غير الشقيق مقدمٌ على تقبيلي؟ يا لها من سخافة. ناهيك أن كوه بنغ أكّد للتو شكوكي حول وجود صديقة لشين في سنغافورة. مع ذلك، رفرفت مشاعر غريبة في حفرة معدتي حينما مال نحوي. كأن ألف حشرة اجتمعت حول شمعة اشتعلت بشكل غامض وصامت.

وقلتُ لنفسي، إنّ ما يحدث لي، سببه وسامة شين فحسب. لقد سئمتُ من الرقص مع الرجال المسنّين ذوي الكروش. ومع طلّاب المدارس المراهقين، والآن أنا أخيراً أقدّر ما كنتُ أراه كأمر عاديّ على طاولة الغداء خلال تلك السنوات. كانت فكرة مخزية لدرجة أنّني رحت أضحك منها بهستيرية. لقد أفسد العملُ كمضيفة رقصات، بالتأكيد، أخلاقي.

فُتح الباب فجأة. وتجمّد كلانا، وطرفنا بعيوننا في الضوء المباغت.

قال صوت حادّ ورنان بنبرة أجنبية: «ماذا يجري هنا؟».

استدار شين بسرعة، وقد زال الجوّ الضاحك. وقال: «آسف يا سيدتي».

كانت هذه هي رئيسة الممرضات. وشعرتُ بالغثيان. ستتحطّم كلّ آمالي بالتقدم لعملٍ بالتمريض مع ما تتطلبه من سمعة حسنة، لو أنّها انتبهت لاحقاً أنّها ألقت القبضَ عليّ مع رجل في خزانة المكانس.

قالت: «آمل أنّ تلك التي تختبئ خلفك ليست واحدة من ممرضاتي؟». ومن الواضح أنّها كانت غاضبة، فيما تخبّطنا بخجل وحياء إلى الممر.

قال شين: «كلا يا سيدتي». وأعقب ذلك صمتٌ ثقيل. ثم قال فجأة: «هذه خطيبتي».

وكان شكّها ملموساً وهي تقول: «خطيبتك؟».

«لقد تقدّمت لها للتو».

«في الخزانة؟».

وكان بإمكاني تقريباً أن أرى العجلات تدور في رأس شين. وفكّرت: هذا أمر ميؤوس منه، إنّها حكاية ملفّقة دون دليل. ولكن بدهشة بالغة، وضع يده في جيب بنطاله، وأخرج علبة صغيرة مغطّاة بالمخمل. كان فيها خاتم من ذهب عليه خمسة أحجار من العقيق بشكل وردة. وضعه في إصبعي، وابتسم بزهو أمام رئيسة الممرضات.

وتفاجأت من ذلك، ولم يكن أمامها إلا أن تبتسم ابتسامة ضعيفة وقالت: «حسناً يا سيد... لي، أليس هذا اسمك؟ من فضلك توقّف عن هذا السلوك في حرم المستشفى. عموماً مبروك!».

وأحنى شين رأسه، وبدا سعيداً كأنّه أدّى خدعة سحرية ناجحة. لأنّ هذا كان بالفعل سحراً. وتبخّرت الشكوك والتحذيرات بعد أن اقتنعت رئيسة الممرضات. ثم صافحتنا وتمنّت لنا حظّاً طيباً. وكان شين قد تعمّد أن يكون فاتناً، وهو ما أنقذنا بالنظر لبلادة بداهتي في هذه المواقف.

تبعتهما على مبعدة خطوات قليلة، وأنا أحاول التماسك. كان الخاتم بيدي اليسرى واسعاً، وتوجّب علي ثني أصابعي كي لا يسقط، ولكن هذا متوقّع لأنه مخصص لفتاة أخرى. كيف سيكون شعورها تجاه شين وهو يستعمل خاتمها كحيلة للخروج من مشكلة؟

هذا الخاتم الذهبيّ الجميل والمستدير انتُقي بعناية فائقة. ولم يكن بإمكاني أن أتصور أيّة فتاة ترفضه، وللحظة، غمرني تيار غير متوقع من العزلة. وحدة خانقة جعلت حتّى أسناني تتهيّج ألماً.

21

باتو جاجاه

أسبوع يوم الـ15 من حزيران

كان رين متحمساً لحفل العشاء القادم في بيت ويليام. هو اجتماع شهري يتناوب عليه مجموعة من الأطباء الشباب. بعضهم متزوّج، ولكن حتّى المتزوجين منهم يعيشون كالعزاب لأنّ عائلاتهم عادت لتعيش في إنجلترا. ولذلك كان معظم الحضور من الرجال، يقول آه لونغ. والزوجات القليلات الباقيات يواجهن ضجر الأيام الطويلة، التي تمتدّ إلى فراغ وعدم. وبوجود الكثير من الخدم وقلّة الأعمال المنزلية يتطوّعن في الحفلات الخيرية، ويلعبن التنس، وإذا صدقت الشائعات، يتبادلن الأزواج.

سأل رين: «لماذا؟». كان تبادل الأشخاص والبيوت يبدو له أمراً شاقاً. ولكن آه لونغ هزّ رأسه وقال له إنّه أصغر من أن يفهم ذلك.

ولكن رين كان يفهم. أو نوعاً ما، يفهم. إنّه شيء له علاقة بكون المرء تعيساً مع أنّه يعتقد أن ويليام سيّد طيب ولا بدّ من أن تُعجب به بعض النساء. وخطرت في ذهنه السيّدة التي التقاها في المستشفى، ذات الشعر الناعم مثل كعكة إسفنجية. التي تسمى ليديا. فقد تبعت ويليام إلى المنزل يوم الأحد بعد الكنيسة.

وأمكن رين أن يعلم، من وجه سيّده المهذب جداً، أنّه ليس مسروراً. ومن الواضح أنّه خطط ليوصل ليديا أولاً قبل أن يتابع مع مريضته إلى بيتها، ولكن ألحت ليديا أن تزوره في بيته. والسبب الوحيد لانتباه رين للأمر، لأنّ المريضة هي نانداني. وفكر أنّها مريضته أيضاً، وانتابته مشاعر الفخر.

و عندما وقف ويليام وليديا معاً في غرفة بمقدّمة الكوخ، صدم رين مجدداً مقدارُ التشابه الظاهر بينهما. فكلاهما طويلان وأبيضان، بأنفين كبيرين ومرتفعين وبأيد طويلة. ولم يتمكّن من أن يقرر هل ليديا جذابة أم لا، ولكن يبدو أنّها معتادة على لفت الانتباه من طريقة عبثها بشعرها، وثقتها بنفسها أثناء الجلوس كلما قاطعت ساقيها، وهي بصندلها الجلدي الأبيض.

وسأل رين على استحياء: «كيف حال المريضة؟ أقصد نانداني؟». وأشرق وجه ويليام وهو يقول: «إنها تتحسّن. هل تريد أن تراها؟».

«نعم».

قال ويليام: «سيكون بمثابة درس تعليمي لك لو أنّك تابعت حالتها. سآتي بها إلى البيت في أحد الأيام».

ورمقَت ليديا رين، ولكنها ركّزت عينيها على رفّ الكتب ولم تترك انطباعاً من أنّها سمعت خطّتهما. وتجوّلت داخل المنزل برفقة ويليام، وهي تعطي اقتراحات حول ترتيب الأثاث من أجل الاستعداد للحفلة القادمة. وقال رين لنفسه: بعض نصائحها جيدة حقاً.

قال ويليام بجزع: «لن يكون معنا يوم السبت نساء كثيرات، هل أنت واثقة من الرغبة بالحضور؟ قد ينتابك الضجر القاتل؟».

لفّت ذراعها بذراعه وقالت: «آه، أحب أن أحضر. هل تريد أن أرتب لك الزهور؟».

ومن النظرة القلقة في عيني ويليام، أيقن رين أن الزهور هي آخر شيء يخطر في بال ويليام. كاد الموقف أن يكون كوميدياً، لو لا أن سيّده كان يعاني حقاً.

«لا ضرورة لذلك. آه لونغ هنا وسيهتم بأمر كلّ شيء». قال ذلك وقادها إلى السيارة ليرسلها إلى بيتها.

وسأل رين آه لونغ لاحقاً عندما تذكّر هذا الموقف هل عليهما إحضار الزهور للبيت. قطب آه لونغ وجهه وقال: «نعم. نحن بحاجة لآنية زهور في وسط الطاولة وشيء قرب الواجهة». وعلى الرغم من هيئته التي تدلّ على معاناة طويلة، إلا أنّه كان يستمتع بالتحضير للحفلة.

في يوم الثلاثاء، قرر آه لونغ أن يبيّض أغطية الطاولة ويثبّتها بالنشاء مجدداً، مع أنّها كانت مطوية ونظيفة، لكنّها الآن مصفرّة. يوم الأربعاء، نظّف رين الغبار ومسح كلّ شيء، وأدار كعوب الكتب وأعاد ترتيبها بأناقة. وتعرّف رين على بعض العناوين، إذ كانت نفس الموجودة في بيت الدكتور مكفارلين. *غرايز أناتومي*، أعداد من مجلة *ذي لانسيت*، *حوليات طب المناطق الحارة والطفيليات*. الكلمات الطويلة كان يلفظها أولاً الدكتور مكفارلين وتعلم رين لاحقاً محاكاته، وهو يجلس على طاولة المطبخ. وأومأ لها برأسه محيّياً، فهذه المطبوعات مثل أصدقاء قدامى وتابع مسح الأرض.

كانت هناك ثلاث دجاجات سمينات في قنّ الدجاج الخشبيّ ما وراء المنزل. وسوف يصنع منها آه لونغ شرائح *إنشي كابين*[1] وهي عبارة عن كريات مقليّة لمرتين، مقرمشة تقدّم مع صلصلة لاذعة وحلوة. اللحوم المحلّية قاسية ولا عظم فيها، ومصدرها من جاموس الماء. ولهذا فإن آه لونغ سيحضّر *بيف ريندانغ*[2] وهو طبق من الكاري الجاف المطهو ببطء مع جوز الهند لاستكمال الأطباق الرئيسية. وفي نفس الوقت في يوم الخميس سينقلون كلّ الأثاث من غرفة المعيشة ويطلون الأرض بالشمع. قال آه لونغ للتوضيح: «لكي تكون الصالة جاهزة للرقص. مع أنه لن تحضر سوى سيدتين». ومع ذلك أحضر الغراموفون، وانشغل رين بشحذ الإبرة. وسيكون معهما نادل صينيّ آخر، سيكلف بمهمة المساعدة في تلك الليلة لتقديم المشروبات. كان ويليام لا يأبه بهذه الموجة من التحضيرات. وعندما بحث عنه رين ردّ آه لونغ بتأفف: «إنه يتابع هوايته الجديدة».

وانتبه رين الآن إلى أن سيّده اختفى بعد طعام الغداء. فسأل: «ألم تكن عادته أن يخرج للنزهة في الصباح؟».

«صباح، مساء، ما الفرق؟»، وهمهم آه لونغ بصوت خافت: «ما دامت هي راغبة بذلك».

---

(1) Inchi Kabin

(2) beef rending

في صباح الجمعة، أوصل الحدائقيّ الزهور إلى باب المطبخ، وحمل منها رين ما أمكنه حمله وذهب بها إلى غرفة الطعام لترتيبها. لو أنّ هناك سيّدة في البيت، لرتّبت الزهور يوم الحفلة، ولكن الغد سيكون مخصّصاً للطهي. فالطعام يفسد بسرعة في هذا الحر، وعليه يجب أن يكون كلّ شيء محضّراً طازجاً. وحينما عاد رين أدراجه إلى المطبخ ليحمل كمية أخرى من الزهور، وجد الحدائقيّ منهمكاً في النقاش مع آه لونغ.

وناداه الحدائقيّ: «أنت، أيها الصبي!». كان من التاميليّين، وقامته النحيلة المنحنية أحرقتها الشمس التي لا ترحم حتّى اسودّت. وكان ودوداً ويتقن الماليزية، أما الحدائقيّ الآخر فلا يعرف غير اللغة التاميلية. وأضاف: «*ماوليهات؟*»[1] أو هل تريد أن ترى شيئاً؟.

وتبع رين الحدائقيّ بحماس إلى الحديقة. وتبعهما آه لونغ وهو يخبط الأرض بقدميه بعصبية، وانعطفا إلى الخلف، وصولاً إلى حيث يتحوّل المرج المشذب إلى شجيرات متشابكة. وهذه هي الجبهة الأمامية لصراع الحدائقيّ الدائم مع زحف الغابة التي تحاصر المرج. ساروا حول محيط الحديقة، واقتربوا من بقعة أرض غير مستوية، حيث يردم رين نفايات البيت، وحيث دفن الإصبع التي سرقها من المستشفى، القارورة الزجاجية داخل العلبة القصديريّة الرقيقة.

وتسارعت نبضات رين. وثبت عينيه على الحجرة التي استعملها كعلامة.

كانت تبدو مشبوهة فوق أرض محفورة حديثاً. لكنه لم يتوقع أن يحضر أحدٌ إلى مكبّ النفايات. لم يفعل ذلك أحد، ماعدا رين.

«سيني!».[2] قال الحدائقيّ: «انظر هنا وهنا، ألا ترى؟».

وأشار إلى آثار أغصان ملتوية ومكسورة وبصمات مطبوعة على التربة الرطبة والطرية. إنّها علامات أقدام نمر. أو هذا ما يقوله الحدائقيّ على الأقل، لأنّ رين لا يستطيع أن يؤكد ذلك من البصمات غير الواضحة والجزئية. ولكن من الواضح

(1) Mau lihat

(2) Sini: معناها هنا.

أن شيئاً ما مرّ من هنا؛ شيء كبير وثقيل، ثم دخل عميقاً إلى داخل الغابة حيث كانت الأوراق الجافة تشكّل بساطاً سميكاً تحت الأشجار. وتوجد الآثار فقط في الأرض المكشوفة العارية من أوراق الأشجار.

انحنى الرجلان عند الآثار المطبوعة، وكانت أعرض من راحة يد الإنسان.

قال الحدائقيّ: «هذه بصمة الساق الأمامية اليسرى».

سأله رين: «وكيف عرفت؟».

وشرح له الحدائقيّ أن القدمان الأماميتان أكبر من الخلفيتين. ولكل قدم أربعة أصابع ومخلب أثري، يقوم مقام الإبهام، وهي من خصائص قدم النمر الأمامية. ويبدو كأن الحيوان كان يقف تحت الأشجار في أطراف الحديقة. وتلك القدم، القدم الأمامية، هي العلامة الوحيدة على أطراف المرج المعشب.

قال الحدائقيّ: «النمور غدارة. كانت تجسّ نبض البيت».

وتسارعت دقات قلب رين. ما معنى أن الآثار قريبة من الحجرة التي تركها كعلامة لمكان دفن الإصبع؟ وتمنّى لو أنّ هناك شخصاً راشداً يمكن أن يطلب منه النصيحة، ولكن إذا كشف السر لويليام، فعليه أن يقرّ بذنب سرقة الإصبع. وبلا وعي، ضغط يديه الصغيرتين، وعصرهما بعصبية. بقيت أمامه تسعة أيام من مهلة التسعة وأربعين يوماً الممنوحة لروح الدكتور مكفارلين. وبالتأكيد هذا وقت فيه متّسع لإعادة الإصبع.

وحدق آه لونغ بالبصمات غير الواضحة وقال: «هذا النمر ينقصه إصبع. الإصبع الصغير من قدمه الأمامية اليسرى».

وأطبق رين عينيه، وأخذ نفساً عميقاً. وشحذ أذنيه؛ وانتصب شعر رأسه. وأصاخ السمع بكلّ قوته، ولم يسمع شيئاً. لم تبلغه أيّة همسة من حاسّة القطّة. صمت مطبق حتّى أنّه ملأ التجويف الأخضر للمرج المشذّب والذي يحيط بالبيت المطليّ بالأبيض، كأنّه بركة أسماك في وسط الغابة.

قال الحدائقيّ بنبرة متردّدة: «هل علينا أن نقدّم أضحية؟». فهو هندوسيّ وآه لونغ بوذيّ بالاسم. وبين الاثنين تكمن تقاليد من الأضاحي والهبات الرمزية،

لكن آه لونغ قال بتجهّم: «وماذا يجب أن نقدّم؟ دجاجة؟ لدي ثلاث دجاجات فقط ونحن بحاجة لها في الغد. أضف لذلك، نحن لا نريده أن يعود».

لو إنّه كان خنزيراً برّياً أو غزالاً، فلربّما أمكنهم نشر بعض الدم والشعر البشري لمنعها من الاقتراب، ولكن هذه الأشياء لا تردع نمراً. ومال الحدائقيّ نحو الغابة الصامتة وقال شيئاً بالتاميلية. ثم قال لنا وهو يبتسم قليلاً: «قلت يا سيدي النمر أرجوك لا تعُد إلينا». وحدق رين بوجهه الرجل المتغضن والأسود. لم تكن عنده فكرة إن كان الحدائقيّ قلقاً حقّاً أم أن هذا واحدٌ من الأشياء التي تحدث من وقت لآخر، مثل العواصف الموسمية والطوفان. في الوقت الذي أمضاه مع الدكتور مكفارلين لم يسبق لنمر أن اقترب من البيت بهذا الشكل، على الرغم من كلّ هذيان العجوز. أو ربما، لم تكن توجد علامات في خارج البيت لأنّ النمر كان يعيش في الداخل. وسبحت أمام عيني رين صورة وجه الدكتور مكفارلين الأبيض، ويسراه ذات الإصبع المفقودة وهو يلتفّ بالملاءة القطنية؛ فأصابه الشحوب.

قبض آه لونغ على ذراعه وأخبره: «لا داعي لهذا الخوف! النمور تجوب الأرجاء على مساحة أميال. ولا بدّ أنّه ابتعد كثيراً».

في تلك الأمسية، أخبر آه لونغ ويليام عمّا رآه بلغته الإنجليزية العرجاء التي يكلم بها مخدومه. كانت هذه ثاني مرّة يُعثر فيها على أثر قدم نمر قرب المنزل؛ والأولى ظهرت قرابة وقت موت تلك المرأة المسكينة.

وأنهى آه لونغ كلامه بقوله: «وهكذا يا *توان*، لا يجب أن تخرج وحدك ليلاً».

ومرت رعشةٌ خاطفة على وجه ويليام وردّ: «وأنت أيضاً. وكذلك رين، لا تتجولا بمفردكما هنا وهناك».

أحضر رين طبق *إيكان بيليس*[1]، وهي أسماك صغيرة تحضّر مع صلصلة *السامبال* اللاذعة. كان يقدّم الأطباق من جهة اليسار من الجالس ويحمل الأطباق الفارغة من جهة اليمين. هكذا علّمته العمة كوان. كانت الغرفة خانقة بالرغم من النوافذ المفتوحة. والزهور التي جهزّها الحدائقيّ، عصافير الجنّة، وزنابق

(1) ikan bilis طبق آسيوي من سمك الأنشوفة المجفف.

القنا والأغصان الرفيعة الخشبية من الخبازة، كانت متيبّسة وتبدو أشبه بتقدمات الجنائز. وكانت بشرة رين مشدودة وترتعش، وحنجرته ملتهبة. فآثار الأقدام في الحديقة كانت قلقاً ينخره.

«هل أنت بخير؟». نادى ويليام على رين ولمس جبينه بقفا يده. يده كبيرة، ذات لمسة حيادية مهنية. وتابع: «آه. إنها الحمى. اذهب واطلب من آه لونغ الأسبرين وتمدّد قليلاً للراحة».

ولم يكن رين قد أنهى خدمة العشاء أو الغسيل، ولكن ويليام أصدر أمره. وذهب إلى المطبخ، وتأمّل الرجل العجوز وجهه بقلق، وقدّم له الأسبرين وأخبره أن يذهب إلى السرير.

سار رين بخطوات مترنحة ليخرج من باب المطبخ، وتابع في الممشى المغطّى إلى جناح الخدم في الخلف. وكان وجهه يحترق، وساقاه كأنهما من المطاط. في طفولتهما كان يي عرضة للمرض دائماً؛ وإذا صادف أن هناك انفلونزا أو تسمّم بالطعام، كانت المرض يصيبه قبل رين. قال يي: «أنا جهاز الإنذار». وهو يكشر مبتسماً، ثم يقول: «سأرحل قبلك». وفي النهاية، سبقه بالرحيل فعلاً.

وبدأ رين يرتجف بفراشه الضيق، وغطّى نفسه بالملاءة القطنية الرقيقة. ورغم دفء الحجرة، فقد كان متجمداً من البرد وعظامه تؤلمه. ولكن رافق ذلك إحساس بالسلام، وشعر بذلك الدوار الذي يلازم المرض. ولم يعد يفكّر بالنمر بشكل متماسك. وعندها، استغرق في أحلامه.

كان الحلم القديم نفسه، حين يقف على رصيف محطّة القطار. ولكن في هذه المرّة وقف القطار بالمحطّة. ولكن رين لم يكن هناك. كان في جزيرة صغيرة، أشبه بجرف رملي، في وسط نهر، وكان يحدّق بالقطار من على الجانب الآخر من المياه. وأشرق ضوء الشمس من خلال نوافذ القطار الفارغة. أين يي؟

ومشى رين من طرف الجرف الرملي إلى الطرف المقابل، وهو يظلل عينيه وينظر بعينين نصف مغمضتين عبر الماء. ثم شاهده، وكان يتخبط ويلوح بعنف من الضفة الأخرى. وكان يقفز من قدم لأخرى بطريقته المألوفة. كيف أمكن لرين أن ينسى تلك الحركة؟

وصاح: «بي!». وضع الصغير الواقف على الضفة الأخرى يديه حول فمه وردّ النداء، ولكن بلا صوت.

لماذا لا يوجد صوت؟ ثم أدرك رين شيئاً آخر. كان بي صغيراً جداً. ليس بسبب بُعد المسافة فحسب، ولكن لأنه لا يزال بعمر ثماني سنوات، العمر الذي قضى نحبه فيه. ورين هو الذي تغيّر. وبدا السرور على بي وهو يرى رين، لدرجة أنّ هناك كتلة من السعادة صارت في حلق رين.

والآن صار بي يلوّح بإيماءات معناها *كيف حالكَ؟*

فأشار لنفسه ورفع إبهامه إلى الأعلى. «*وأنت؟*».

رفع بي إبهامه إلى الأعلى أيضاً. وأومأ بما معناه: *لا تقلق.*

حول ماذا؟ لا بدّ أنّه يعني النمر والدكتور مكفارلين والوفيات السابقة والوفيات القادمة. وطبعاً، لا بدّ أن بي كان يعلم. لطالما كان يعرف كلّ شيء يقلق رين.

وصاح رين أنّه بخير، وأنّ لديه عملاً، وأنّه وجد الإصبع وهو يخفيها في مكان آمن. كان من الصعب عليه التعبير بالإشارات والإيماءات حول كلّ هذه الأمور، لكن يبدو أن بي فهم. ربّما الصوت يعمل باتّجاه واحد، ولم يرغب رين في أن يهدر وقته مع بي في محاولة عبثية للتخمين.

كان الوقت يمضي.

وحتى وهو يفكر في هذا، لمست المياه قدميه الحافيتين. فقفز إلى الخلف، وأدرك أنّ الجرف الرملي يضيق، أو ربّما كانت المياه تغمره.

وصاح من الجانب الآخر للمياه: «يوجد نمرٌ في الحديقة. ولكن لا تقلق. أنا أعرف كيف أتصرف».

و بدا القلق على بي.

«سأعود إلى كامونتنغ بعد الحفلة».

وهزّ بي رأسه، رافضاً.

«لا بأس. لدي إذن بالذهاب. ثم سأنفّذ إرشادات الدكتور مكفارلين».

وعندها لوّحت ذراعا بي بانفعال، بإشارات وإيماءات صامتة تخبره بشيء معقّد. وكان وجهه الصغير مشدوداً بالقلق.

قال رين: «أنا لست خائفاً».

اسأل الفتاة.

أيّة فتاة؟ ولم يكن بإمكان رين أن يفكر بأيّة فتاة أو أيّة امرأة باستثناء العمة كوان، وقد رحلت إلى الجنوب لتقيم في كوالا لامبور.

وارتفعت المياه، وتموّجت بصفاء فوق الرمل الموحل. هناك شيء غريب حيالها. إنّها لزجة، وأسمَك قليلاً، ولكنّها لا تزال صافية بما فيه الكفاية ويمكنه رؤية كلّ حصاة وورقة عائمة. ولا وجود لأية سمكة صغيرة في المياه الضحلة. ولا حتّى قريدس كريستالي ولا حشرات عائمة. لا حياة أبداً.

ونادى رين يقول: «سأسبح إليك. انتظرني!».

وضع قدماً في الماء. كان بارداً لدرجة غريبة وهناك دوّامة تسحب كاحله. ولكن الضفة الأخرى بعيدة جداً.

كلا! لا يريده بي أن يدخل في الماء. والآن راح يحثّه على التوقّف بإشارات وإيماءات عاجلة.

لم يكن رين سباحاً سريعاً، ولكنه كان واثقاً من أنّ بوسعه أن يجدف بأطرافه بطريقة بدائية، لمسافة كافية. وقف وكاحلاه مغموران في المياه الضحلة. كانت قارصة البرودة. ولم يسبق له أن شعر بهذا البرد من قبل. في مرّة استعار الدكتور مكفارلين كتاباً كبيراً ويبدو من مظهره ثميناً، وهو حكايات خيالية وذلك ليعلّم رين القراءة، وركز رين اهتمامه على الرسوم الجميلة للثلج والجليد وذلك الطقس الضبابي الذي قال عنه الدكتور مكفارلين إنّه مألوف جدّاً في اسكوتلندا. ووصف الطقس بكلمة *دريك*[1]. وكانت في الكتاب حكاية عن فتاة صغيرة تبيع الثقاب، وآخر رسمة كانت للفتاة وهي ممدّدة في الثلج. كانت عيناها مغلقتين،

(1): Dreich بالاسكوتلندية يعني كئيب. المترجمة.

ولكنها مبتسمة، وقد رسم الفنان ظلاً أزرق باهتاً في زوايا فمها. فهل هذا الذي أشعر به هو نفس البرد الذي عانت منه تلك البنت؟

صرّ بأسنانه. ووراء المياه الضحلة عند الجرف الرملي، كان الماء عكراً. وشيء ما يتحرك داخله، فشعر بالتردّد. على الضفة المقابلة، كان يي يلوّح ويومئ بشكل محموم. *كلا، كلا، كلا!*. ولكن رين صار أكبر وأقوى مما كان عليه يوم افتراقهما. نظر إلى النهر بثقة ولد ابن أحد عشر عاماً وبطمأنينة من بمقدوره أن ينجح.

والآن وصل الماء إلى خصره. يحوم ويدور حوله في دوّامة مظلمة. كان يسحبه بقوّة. وأصبح البرد لا يطاق تقريباً. وأخذ ينهش عموده الفقري، ويمتص كلّ الحرارة من جسمه.

و ركع يي على الضفة الأخرى، ووجهه متشنج، ودموعه تصبّ، وهو يومئ بضراوة. *توقّف!*.

وأراد رين أن يقول له أن لا يبكي؛ لأنه سيكون معه قريباً. ولكن أسنانه اصطكت بشدة حتّى منعته من أن يقول كلمة واحدة. وبفورة أخيرة من الشجاعة، غمر رين رأسه تحت الماء الأسود الجليدي.

22

إيبوه

الاثنين، 15 حزيران

إنّه الصباح. حدّقتُ بالسقف مجدداً، هذه المرة السقف المألوف في بيت السيّدة تام. نهضتُ، تلمّست الخاتم الذي أعطاني إيّاه شين، وكان لا يزال معقوداً في منديل. وتساءلتُ كيف كانت تبدو الفتاة التي لها إصبع بحجم مختلف من حجم إصبعي. المعدن الناعم واللون البراق يدلّان على أنّه ذهب من عيار أربعة وعشرين قيراطاً. كانت أمّي تخبرني دائماً أن تكون مجوهراتي من عيار أربعة وعشرين قيراطاً. لا ثمانية عشر قيراطاً، أو رقماً أقلّ منه.

وأضافت كأنها تقرّر حقيقة: «الذهب الثمين يمكن رهنه وبمبالغ أعلى».

وبالطبع، أصبح لديها خبرة بمتاجر الرهونات بعد وفاة والدي. في الوقت الوجيز الذي عملتُ فيه في ماي فلاور قدّم لي الرجال الهدايا من قلائد فضية، أساور رفيعة. وكنت أقبلها على مضض. بقية الفتيات قلن لي أنّني مغفلة إذا رفضتُ واحدة من المنافع القليلة التي تأتي مع هذه الوظيفة. وكانت الوالدة مصيبة في كلّ الأحوال. لم تكن أيّ من تلك الحُلي تساوي شيئاً في متجر الرهونات، حينما حاولت، في مرّة أو اثنتين، أن أخفف من ديونها بشكل أسرع. وتساءلتُ كم أنفق شين من نقوده. وكان دائماً هو الذي ينهي علاقته بالبنات. ولا يرغب بالالتزام. وحسب علمي، لم يقدّم لأية فتاة هدية من هذا النوع.

أمس بعد انصراف رئيسة الممرضات، حاولت إعادة الخاتم إلى شين مع ابتسامة، وأنا أقول: «يجب أن تحتفظ به لصديقتك». وهذا كلامٌ جميل وودود وهو بالضبط ما كنتُ سأقوله له قبل بضعة سنوات.

قال: «أبقِهِ عندكِ حالياً. سنثير الشبهات إن استعدتُه منك بعد إخبار الجميع بخطوبتنا».

وكان علي أن أتابع وأن أسأل عن شكل صديقته ومتى سيأتي بها إلى البيت لنراها، لكنّي لم أجد القدرة على ذلك. إن أخبرتني قبل شهر أنني سأشعر بالحرج والحزن لأنّ أخي غير الشقيق سيتزوج، لضحكتُ، ولكنّني الآن أشعر بوحدة غريبة. كأنّني أفقده مرّة أخرى، مثلما قرّر أن يستبعدني عن حياته. ولكن هناك فرق، لم يكن ذلك لأنّ شين كان ودوداً معي، وكأن ما أزعجه في السابق قد زال عنه الآن. لكن لأنه أصبح جديراً بالثقة، وأكثر نضجاً، وأكثر جاذبية.

ها أنا ذي. لقد قلتُها أخيراً.

حسناً، لطالما كان شين جذاباً ولكن ليس بنظري. وربّما كنتُ أنظر إلى الجانب الآخر عمداً. حاولت قدر استطاعتي أن أستحضر وجه مينغ الطويل واللطيف، والخصلة العنيدة المنتصبة من قفا رأسه، ولكن دون نتيجة. الافتتان الذي خيّم علي لسنوات تلاشى، وترك مكانه إحساساً مبهماً بالحيرة والذنب.

وهكذا اخترعتُ عذراً للعودة إلى إيبوه مباشرة. وكنت لحينه لم أشاهد رزمة بي لنغ، وحينما وقفنا أمام المستشفى حيث انصرفت رئيسة الممرضات، وعلى مرأى من عابري السبيل، كان الأفضل لشين أن يتركها بأمان وأن لا يفتحها في المستشفى وأن يعيدها إلى بي لنغ بعد شفائها من السقطة.

عندما صعدتُ للقطار، نزعتُ الخاتم وحزمته في منديلي. ولم يكن من المناسب أن أضعه في إصبعي فهو ليس لي. خبّأت المنديل في سلّة الراتان وشعرت بالأطراف الحادّة للبطاقة التي حصلت عليها من الطبيب الأجنبي. *ويليام أكتون، جراحة عامة.* فثنيت أصابعي حولها، وفكّرت ربّما أتصل به في النهاية.

في مساء الثلاثاء ذهبت لرؤية هوي، وتجنّبت الغداء مع عائلة السيّدة تام. فقد لمّحت لي بضرورة أن أكون موجودة في ذلك المساء لأنها تريد منّي التعرف على شابّ وهو ابن عمّ زوجها، والذي رفضته فتاة ويودّ الآن الزواج قبل نهاية العام. فقط ليثبت أنّه قادرٌ على ذلك. ولم أعتقد أن هذا أمراً يبشّر بالخير لأيّ منا.

وحملت معي خاتم شين، لأنّ السيّدة تام كانت ستفتش خلفي وأنا في الخارج. لمع العقيق في الخاتم مثل حبّات الرمان. وهذا العقيق حجارة بلون الدم، ويقال إنّه للحماية. وعندما كنت بنتاً صغيرة، جاء بائع هندي جوّال ليبيع عقداً من خرزات عقيق مستديرة مضمومة في خيط قطني مشدود.

وقال لأمي: «يحمي ابنتك من الأذى. ومن الشيطان والكوابيس والجروح. وهو أيضاً جيّد للحبّ». ولدهشتي اشترت لي واحداً.

واحتفظتُ بعقد العقيق ذلك لسنوات، حتّى أتى يوم ذهبت فيه مع مينغ لأخوّض في النهر فانقطع خيط القطن الضعيف فجأة. وانزلقت الخرزات الصغيرات إلى المياه الجارية، ولم أجدها بعد ذلك. وعند هذه الذكرى أعدت الخاتم إلى جيبي. فهو ليس لي ولا يسعني فقدانه.

كانت هوي واقفة أمام المرآة، تضيف المساحيق لوجهها الذي اعتلته نظرة مصمِّمة. إنّ عملية إضافة المسحوق على نحو متقن تحتاج لعشرة دقائق، والبودرة لا يتم فركها على الوجه وإنما التربيت بها عليه، على الفم والأذنين والجفنين والرقبة. تربيتٌ. تربيتٌ. بكثير من النشاط. إذا وُضِعت المساحيق بطريقة متقنة فإنها ستدوم لساعات، لتظهر بشرة وجهكِ «ملونة، ناعمة ولطيفة»، حسب ما تقوله المجلات. وعن نفسي، لا أعلم ذلك على وجه اليقين، فأنا لم أستغرق أكثر من ثلاثين ثانية لوضع المساحيق على وجهي.

وبدا على هوي السرور وهي تقول: «ها هي جي لين! ماذا أتى بك؟».

جلستُ على السرير. وقلت: «هل تعملين الليلة؟». وأملت أنّها حرة ويمكن أن ترافقني إلى وجبة عشاء في أحد الأكشاك المنتشرة على الأرصفة والتي تبيع سمك الرقيطة المشويّ الملفوف بورق الموز، ولكن يبدو أنّها كانت تتهيأ للخروج في سهرة.

قالت: «كلا، أنا مرتبطة بدعوة إلى الخارج».

الدعوة للخروج في سهرة تعود بأجر أفضل بكثير من الرقص، ولم يكن لدى هوي عمل نهاري مثلي كمساعدة خياطة. لم تكن تحتمل ذلك، كما قالت. القصّ والقياس كلّ النهار. لكنّني قلتُ لها إنّ الدعوات للخروج في سهرات أسوأ.

قالت: «ليست كذلك بالنسبة لي». لطالما كانت غامضة حول ما يجري في تلك السهرات، هناك عشاء وشيء من التواصل الجسدي، ولكنّها أكدّت أنّ الأمر يقتصر غالباً على قبلات ولمسات. وأضافت: «إن الموعد في مطعم، وهناك حدود لما يمكن أن يفعله الرجل في أماكن عامة».

وسألتها مرّة إن كانت قد فعلت شيئاً آخر. وبدت مستمتعة وأغلقت عينيها في إغماضة طويلة. ثم قالت: «طبعاً لا».

وضحك كلانا بشيء من الحرج. أنا أقلق عليها أحياناً.

قالت هوي: «تبدين كئيبة اليوم».

ولأنني لم أرغب برواية كلّ تفاصيل الأحداث التي مرت في عطلة الأسبوع؛ قلتُ ببساطة لقد أعدنا الإصبع إلى المستشفى. واعتقدت أنّها ستُسرّ لسماع هذا، ولكنها رفعت حاجبيها وقالت: «وماذا يعني أعدنا؟ من كان معك؟».

قلت لها: «أخي وأنا». وتذكرت أنفاس شين على مؤخرة رقبتي حينما احتضنني، على مضض، تحت شجرة *الأنغسانا*. وصعد الدمُ إلى وجهي، وكلّما حاولت أن لا يظهر التأثر عليّ، ازداد الأمر سوءاً.

تفحّصتني هوي باهتمام وقالت: «هذا هو أخوك من زوج أمك، صحيح؟».

«نعم، وسيتزوج. أو على الأقل، هو متعلق بفتاة ما. وأنا سعيدة لأجله».

وخشيت أن تسخر منّي هوي، ولكنها لفتني بذراعها. وقالت: «آه، يا عزيزتي. الرجال مثل الوحوش، هل أنت معي بهذا الرأي؟».

«إنّ الأمر يُشعرني بالوحدة. هذا كلّ شيء. لقد عرفنا بعضنا منذ أن كنّا في العاشرة من العمر.. وأنا... أنا متعلّقة به جداً». كانت كلمات غير مناسبة. ولم تكن كافية لتوضح كم كنت أشعر بالقلق والاضطراب. وربّما كنت أخلط العاطفة البسيطة مع شيء آخر. تابعتُ: «هذا شيء سخيف في كلّ الأحوال».

نهضت هوي واقتربت من طاولة الزينة وقالت: «ولكنكما لستما بشقيقين». وراقبتني بالمرآة. كانت تلهو بقلم طلاء الشفاه، تفتحه وتغلقه بذهن غائب. تابعت: «أودّ لو أقابله، أعني أخاك غير الشقيق هذا».

«لماذا؟».

«لأن الرجال كذابون». ولاحظتُ حدّة لم أسمعها من قبل بكلامها. كنت أعرف أن هوي جاءت إلى إيبوه من إحدى القرى ونادراً ما كانت تزورها. ولكن لم أتطفل على خصوصياتها، وتوقّفتُ عند حدود ما تريد أن نعرفه عنها. وتصرفت معي بالمثل.

ثم نظرت نحوي وقالت: «لا تقلقي منّي يا جي لين. أنت فعلاً فتاة لطيفة».

ولامست قلبي بمديحها، فضحكتُ مسرورة، وبدّلت الموضوع فقلتُ: «هل يمكنك إخبار الماما أنّني لن أكون موجودة هذا الأسبوع؟»،

«وما هو السبب؟».

وشرحت مشكلة ي.ك. ونغ، وكيف أنّه لاحقني بعد العمل في الجمعة الماضية، وكيف أنّني رأيته مرتين في المستشفى في هذه العطلة. مصادفات كثيرة، أكثر من اللازم، فلا يمكن أن تبعث إلا على القلق. قلتُ: «أخبريها أن أمّي مريضة أو أيّ شيء آخر». وكنت فعلاً أفكّر بالبحث عن عمل آخر، ولكن الوقت لم يكن يبدو مناسباً لطرح الموضوع.

«وماذا عن الحفلة الخاصة في باتو جاجاه يوم السبت؟».

«سأحضر». فقد كان الأجر جيداً.

وتكلّمنا عن ترتيبات الحفلة، ولكنّني لم أكن مقتنعة بالأمر من قلبي. وربّما هي آخر مرّة أعمل بها مع هوي وروز وبيرل. وفكّرت لعلّ هذا أفضل لي. بالأخص إذا أردت العمل كمرضة. ومع ذلك خيّمت الكآبة علي، مثل غيمة مطر فوقي. الوداعات دائماً هكذا.

وقالت هوي: «والآن لنرسم لكِ فمك». كان يصعب عليّ رسم قوس كيوبيد[1]، ولم أكن صبورة لأنتهي منه بشكل مناسب.

قلت: «لا تضيّعي وقتك معي، وإلا تأخرت؟». وكانت هوي مسرورة بصنعة يديها، ثم قامت بتمشيط رموشي بالماسكارة.

---

(1) الانحناءة الصغيرة فوق الفم على الشفة العليا. المترجمة.

«دعيه ينتظر».

«من؟».

«مدير المصرف الذي يأتي في أيام الأربعاء».

كان في أواخر الخمسين من عمره، مبقّعاً مثل ضفدع، وله عادة لعق شفتيه بلسانه. قلت: «هل تكرهينه؟».

قالت بلامبالاة: «كبار السن هم الأفضل. الشباب يتوقعون منك أن تقعي بغرامهم، وأن تقدّمي لهم نفسك بالمجان».

قلت ضاحكة: «هوي! أنت فظيعة».

ردّت بأسف: «لا تثقي بالرجال يا جي لين. ولا حتّى بأخيك الفاتن ذاك».

أخبرتني هوي أن لا أنتظرها. لم تكن قد انتهت من زينتها بعد، ووددتُ لو أني أبقى وأرافقها إلى موعدها، غير أنّها لم توافق. وقالت: «لقد تأخّر الوقت». وهكذا غادرتُ.

لم يكن الوقت متأخّراً على الإطلاق. في الحقيقة، كان مبكّراً حتّى أنّي لو عدتُ لكنتُ سأصل في وقت موعد عشاء السيّدة تام وبحضور ابن عم زوجها. لذا لم أرغب بالعودة إلى البيت، وانعطفتُ إلى شارع بيلفيلد. كانت عربات الترايشو والدرّاجات الهوائية تنطلق مسرعة بجواري، وتبحث عن طريقها بين العربات التي تجرّها الثيران والسيارات القليلة. وفي زاوية طريق بروستير وعند الفضاء المفتوح الأخضر *لبادانغ* إيبوه، أو ملعب إيبوه، وهو حقل كريكيت شيّدته الجالية الصينيّة المحلّية تكريماً لذكرى اليوبيل الفضي للملكة فكتوريا، وقفتُ أمام حانة ومطعم و.م.م.[1] وهو اختصار لاسم «الولايات المتحدة الماليزية»، وكان المحلّيون والوافدون يأتون للشراب في الحانة الطويلة ويطلبون من الطباخ الهايناني[2] الأطباق الغربية، كشرائح اللحم المقلية والدجاج المفروم، التي

(1) FMS اختصار لـ Federated Malayan States المترجمة.

(2) أصله من جزيرة هاينان في الصين.

يأكلونها مع البيرة المثلجة. لم أدخل إليه قطّ، ولكنّني مررت من أمام واجهته الكولونيالية المتألقة عدّة مرات.

وذات يوم، قررتُ أن أدخل وأشتري شريحة لحم، مع أنّني لم أكن متأكّدة أنّه يُسمح للعازبات بالدخول. وعندما هممت بالانصراف، تأرجحت أبواب حانة و.م.م. الخشبية وانفتحت. وقفز قلبي عندما قبض أحدهم على ذراعي.

قال: «جي لين؟». كان شاباً أنيقاً بشاربين رقيقين وبسببهما لم أتعرف عليه. أضاف: «هذا أنا، روبرت! صديق مينغ، روبرت شو».

كان روبرت هو من منحني تلك القبلة الدبقة البغيضة في المصطبة المقابلة لمتجر صيانة الساعات. غدا الآن شاباً ناضجاً، وأدركتُ ما صرت أعرفه الآن عن ثمن الأشياء، وقد اتّضح غالياً. ولكنه نظر لي نظرته نفسها، المتشوقة نصف المتحمسة، وهذا ما أدهشني. فلو أن شابة نحيلة من فاليم رفضتني كما حصل له، لما سعدتُ لرؤيتها مجدداً، ولكن من الواضح أن روبرت كان متسامحاً.

سألني: «ماذا تفعلين هنا؟». وتنقّلت عيناه من الأعلى إلى الأسفل. أعرف تلك النظرة؛ في العمل أتّخذ احتياطاتي من الرجال الذين يحدّقون على هذا النحو، ولكنّني أخبرت نفسي أن هذا روبرت فحسب. ناهيك عن أنّه لم يكن لديه أيّة فكرة عن عملي المؤقت.

قلت له: «كنت أعبر الطريق».

حلّ المساء، وحانت ساعة الشفق الأزرق الساحر، وتوهّج الضوء الأصفر من حانة و.م.م. وتسلل من وراء عوارض الباب والنوافذ.

قال: «لم أركِ من فترة طويلة. كيف أحوالك؟».

وتبادلنا الكلام حول أشياء غير مهمة. كان روبرت يدرس القانون في إنجلترا وهو الآن بعطلة. كان يتحدث بسرعة، وكانت كلماته تتساقط كما لو أنّه كان خائفاً من أن أمشي وأتركه. أخبرني قصصاً عن الجامعة والأصدقاء الذين لا أعرف عنهم شيئاً، واستمعت له دون اهتمام.

توقّف عن الكلام وعاد يحدّق بي.

قلت بنبرة مذنبة: «أنا آسفة». يا لروبرت المسكين. كلّ تلك النقود ولا يزال مملاً. قلتُ: «ماذا كان موضوعنا؟».

«لا شيء. أنتِ تبدين جميلة».

ربّما كان النور الذي تسلل من الحانة، دافئاً ومغرياً، وقد غمر كلّ شيء بوهج ذهبي. حتّى روبرت بدا متميزاً بثيابه الثمينة وشعره المسرّح بأناقة. وخفضت عينيّ لكن روبرت فهمني بشكل خاطئ.

قال وقد تشجّع: «سمعت من مينغ أنّك لم تتزوّجي بعد».

قلت بمرح: «كلا، أعمل مساعدة خياطة». من الأفضل أن تكون واضحاً في أوقات كهذه.

«وهل تحبين عملك؟».

فكذبتُ ملء فمي: «نعم».

«يدهشني أنّك لم تتابعي دراستك. لتكوني معلمة أو ممرضة».

«أخشى أن السبب هو النقود».

وألقى عليّ نظرة محرجة وسريعة وقال: «هل فكّرت بمنحة؟ عائلتي أحياناً تمنحها للطلبة المتفوقين، نحن نملك مؤسسة عائلة شو، كما تعلمين».

«ولكنّي تركتُ الدراسة».

«هذا لا يهم. يمكنني أن أقدم لك تزكية شخصية».

نظرتُ إلى الأرض، ولم أجد الكلام المناسب. كانت هذه فرصة كبيرة وأية فتاة ستتمسّك بها، وبروبرت. ولكن لم يسعني إلا أن أفكّر أن لكل شيء ثمنه. لذلك شكرته، وقلت له إنّ هذا لطفٌ منه وسأفكّر بالأمر، ثم أردفتُ: «والآن أخشى أنّني يجب أن أنصرف».

ولم يقبل روبرت أن أذهب مشياً على الأقدام إلى البيت. قلت ضاحكة: «لكنه ليس بعيداً».

وألحّ كثيراً، وسرعان ما عرفتُ لماذا. قادني حول المنعطف إلى سيارة جديدة

براقة. كانت بلون القشدة، ذات منحنيات فاتنة وبواجهة معدنية تلمع كالفضة في ضوء آخر المساء.

وقال: «تفضلي». وفتح الباب. كانت جميلة. المقاعد من جلد بلون الجمل، وناعمة مثل خد الطفل، وكل شيء له رائحة غنية، من الجلد وشمع الليمون والعبير الخفيف للبنزين. فجلست، وقاطعت ما بين قدمي لإخفاء مقدمة حذائي البالية، وتنفّست بعمق. كان من السهل الاعتياد على التنقل بالسيارة. أو ربّما لا. لأنّ روبرت لسوء الحظ، كان سائقاً رديئاً.

تشبّثت بمقبض الباب، وشحبت مفاصل أصابعي فيما كان روبرت يندفع بالسيارة في الشارع وهي تتمايل بشكل يثير الغثيان. كان هناك صوت صرير وهو يضغط على عتلات مختلفة بقدمه ويجذب غيرها بيده. واندفعنا في تقاطع، وروبرت يلوّح بطريقة ودية لسائق عربة غاضب، وبصعوبة تلافى أن يصطدم بصنبور اطفاء. وأسوأ ما في الأمر أنّه تابع الثرثرة.

صاح بصوت أعلى من نفير بوق سيارة أخرى: «والآن يا جي لين. هل ستبقين هنا طوال الصيف؟».

وكأن لدي مكاناً آخر لأذهب له. قلت بتهذيب ومن بين أسناني المطبقة: «سأكون هنا». وأخيراً، والسيارة تلفها غمامة من دخان العادم، وصلنا إلى منزل السيّدة تام.

قال روبرت: «آه، إذن هذا هو المكان. لقد أخذت ثوباً لأختي من هنا في إحدى المرات».

كانت ساقاي ضعيفتين ومطاطيتين، واضطررت للاعتماد على يد روبرت وهو يساعدني للخروج. وربّما هذه هي عادته مع النساء، يرعبهنّ بسيارته حتّى يسقطن، حرفياً، بين ذراعيه.

وفي لمحة خرجت السيّدة تام من متجرها. من الواضح أنّها كانت تنتظرني.

نظرت لروبرت وقالت: «أنا مسرورة لعودتك يا جي لين. من هذا؟».

قال روبرت: «أنا صديق قديم لأخيها». رغم أنّه وشين لم ينسجما معاً قطّ.

«آه!». وتصارع فضول السيّدة تام مع رغبتها في نقل الأخبار. وانتصر الطرف الثاني. قالت: «وصلني خبر مؤسف يا جي لين. أمّك مريضة».

وكان هذا أكثر خبر كنت أخشى سماعه، منذ تزوجت أمّي للمرة الثانية. جملة «إنها مريضة» قد تعني أيّ شيء، رغم أن معظم الإصابات التي لحقت بها كانت حتّى الآن تتوقّف بحدود التواء في الكاحل أو علامات أصابع على الرسغ. وصورة ذراع شين المكسورة والمتدلية كانت تقبع دائماً خلف رأسي.

«مرت بإجهاض».

إجهاض؟ بحسب التقليد الصينيّ بإضافة عام إلى العمر، كانت أمّي تبلغ من العمر اثنين وأربعين عاماً، وتقترب من الفترة الحرجة من الحياة. وبما أنّ لفظ الرقم اثنين وأربعين، يقارب لفظ عبارة «أنت تموت»، لذا غاص قلبي خوفاً.

قالت السيّدة تام: «هل ستذهبين إليها في صباح الغد؟».

«سأستقل الحافلة». وتذكرت أنّني طلبت من هوي هذه الأمسية إخبار الماما أنّني لن أحضر بقية هذا الأسبوع لأنّ أمّي مريضة. كم كنت قليلة الاحترام!. والآن، مثل لعنة، عادت كلماتي تطاردني، لأدفع الثمن. وفكّرت باللون الأسود للنهر في أحلامي، ذلك الشكل المشؤوم الذي يتحرك تحت الماء.

قال روبرت: «سأقلّكِ! الآن إن أردت». وكنت قد نسيته كلياً.

«المكان ليس بعيداً بالسيارة».

قالت السيّدة تام: «هل ستفعل حقاً؟ هذا لطف منك».

صعدت السلالم وأنا مصابة بالغثيان من الخوف، وتركتها تهاجمه بأسئلتها. وما أن أصبحنا في السيارة، حتّى جلسنا في صمت. العزاء الوحيد لي أن قيادة روبرت تحسنّت لأنه لم يكن يتحدث.

وبعد قليل قال: «إن كانت حالتها سيّئة، يمكن أن نحملها إلى المستشفى. مستشفى مقاطعة باتو جاجاه أبعد بقليل من مستشفى إيبوه العام، ولكن العناية فيه أفضل».

«لماذا؟».

«لأن والدي يعمل في إدارة مستشفى مقاطعة باتو جاجاه». لم أكن أعلم ذلك. الأغنياء يعيشون في عالم مختلف، في عالم يسهل الحصول فيه على الوظائف والتزكيات. ولو كنت أذكى لحصلت على رعاية أفضل لأمي، ولكن كنت بالكاد أستطيع التفكير. في الأسابيع القليلة الماضية، كان الناس من حولي أما أن يصابوا بموت مفاجئ، أو بحادث فظيع، والآن إجهاض.

سيقول شين إن أفكاري سخيفة، ولكن من يعلم كم من حادث آخر وقع في هذه الأرجاء في نفس الإطار الزمني؟ على سبيل المثال تلك المرأة المسكينة التي قرأت عنها في الصحيفة والتي قتلها نمر. لا يمكن أن نعزو كلّ شيء للقدر. ولكن آخرين سينصحونني أن أشتري تعويذة تحميني من الأرواح الشريرة. جلستُ في سيارة روبرت الكبيرة، وأنا أضع يديّ في حضني وأعتصرهما، في محاولة جاهدة كي لا أبكي ونحن نسرع في الظلام.

23

باتو جاجاه

مساء الجمعة، 19 حزيران

الماء بارد. بارد جدّاً حتّى أن رين فكّر أنّ قلبه سيتوقّف. وآلمته عظام جمجمته. وكان الماء كثيفاً، كالجلاتين أو الدم المتخثر. هزّ رين رأسه كالكلب. ونظر إلى الشاطئ الآخر البعيد. وتابع بي الركض والوثوب إلى الأعلى والأسفل بشكل محموم، والرعب الخالص يغطّي وجهه وهو يومئ بما معناه: *اخرج من الماء!*

وبدأ يجدّف بقوّة. لم يكن الماء بارداً جدّاً خلال السباحة. أو ربّما تخدرت ساقاه وذراعاه. وكلما ابتعد، كان الألم يتضاءل، وانتاب رين إحساسٌ غريب أنّه كان ينسلّ ليخرج عن جسده. وشيء ما خدش ساقه. ابتلع الماء، ونظر للأسفل وشاهد صفاً من الأسنان المفتوحة وعيناً لامعة تطفو تحت قدمه. كان تمساحاً ميتاً. يتدحرج ويجرفه تيار النهر العميق، وبطنه البيضاء تظهر للحظة ثم تختفي في الظلام. هناك أشياء أخرى، أيضاً، في أعماق النهر. أسماك ميتة، ديدان ميتة، وأوراق نباتات ميتة. وأطلق رين صرخة تدل على القرف.

انتابه الذعر، وخذلته ذراعاه وساقاه. والتيار يجرّه. وغمر رأسه تحت الماء مجدّداً وشاهد المزيد من الأشكال. كان هناك رجل صينيّ ينجرف إلى جواره، وكان عنقه معلقاً بزاوية غريبة كما لو أنّه مكسور. ثم رأى امرأة تاميلية بفم مفتوح وعينين مغلقتين لحسن الحظ. بلا جسم، فقط رأسها المقطوع والهادئ. وبدأ رين يبكي، ويصارع الأمواج. امتلأ رعباً، وكوى الماء رئتيه.

وضربته قطعة من الخشب. شهق، وصعد إلى سطح الماء وحاول التشبث بها

ولكنه لم يفلح. وفيما ابتعدَت عن متناوله لاحظ أن يي هو من أطلقها باتّجاهه. ثم اندفع باتّجاه رين جذع طويل آخر. كان أكبر من سابقه وحينما ارتطم به، رأى وجه يي المتلاشي وهو يومئ بما معناه: *ارجع!*

وامتثل للطلب. امتثل له أخيراً.

كان رين ممدّداً على بطنه على أرض الغرفة. وجهه للأسفل ويداه ممدودتان على طولهما مثل وزَغة على السقف، ولكن لم يكن هناك مكان ليسقط عليه، لأنه كان فعلياً في الأسفل، على الأرض. وبعد قليل، بدأ يبكي.

انفتح الباب. كان آه لونغ، ووجهه متجعد من القلق.

«*آياه!* هل تأذّيت؟».

نهض رين وهو تحت تأثير الدوار. وتحسس آه لونغ جبينه وقال: «لقد تفحصتك قبل قليل، كانت حرارتك مرتفعة من الحمى».

«كم الساعة؟». كان صوت رين أجشاً وجافاً. مسح آه لونغ وجهه بمنشفة دافئة.

«حوالي الخامسة صباحاً».

«لقد شعرت ببرودة شديدة». وذكرى المياه المتجمدة جعلت شعر ذراعيه ينتصب.

«هذا بسبب الحمى».

وانتبه رين أنّه الآن أفضل حالاً. لا يرتعش من البرد. ولا يحترق من الضعف والخور. وجرب أرجحة ساقيه. وانحسر الحلم، مثل ماء يسيل بالعكس، والرائع في المسألة حدس القطّة، تلك النبضة الكهربائية الخفية التي تخبره عن العالم، ها هي تعود له، وتدمدم بهدوء في خلفية رأسه.

وغضن آه لونغ جبينه، وتأمّله. كان يبدو مثل قردٍ عجوز رمادي. وقال: «كنت تصيح كثيراً. مع من كنت تتكلم؟».

«أخي. أخي التوأم الميت».

قرفص آه لونغ على مؤخرته حتّى أصبح وجهه تقريباً بمساواة وجه رين.

«وهل تحلم به دائماً؟».

«ليس كثيراً. ولكن يبدو كأنّه واقع وليس حلماً». وروى له رين عن القطار والنهر، وكيف أنّه لو بذل المزيد من المجهود كان سيمكنه أن ينجح بالعبور إلى الطرف الآخر.

«وهل طلب منك أخوك أن تأتي إليه؟».

«لماذا؟».

تنهد آه لونغ ونظر إلى السقف. كان كلّ شيء هادئاً. هادئاً جدّاً في تلك الساعة المعتمة والفارغة التي سبقت الفجر، عندما حتّى الطيور لا تزال ساكنة في أعشاشها. تقع المالايو قرب خطّ الاستواء، لذا فإن الشمس لا تشرق حتّى السابعة صباحاً. وطول النهار اثنتا عشرة ساعة بالضبط.

سأل آه لونغ: «هل تؤمن بالأشباح؟».

وأصابت الدهشة رين. كان آه لونغ ينظر للدين بنفس الشكّ الذي ينظر به إلى الكهرباء والإذاعات والسيارات.

قال رين: «لا أعلم». ولكن الأحلام ليست مثل تلك الحكايات التي سمع فيها عن أرواح شاحبة تسكن في أشجار الموز، أو نساء بشعر أسود وأقدام تتجه إلى الخلف.

قال آه لونغ: «خالي كان يراها. كان طباخاً في بيت من بيوت مالاكا. أخبرنا عن أشياء غريبة كثيرة حدثت في ذلك البيت. كان لديهم فتاة جميلة يفترض أن تتزوج برجل ميت».

«وهل تزوّجت به؟». كان رين مهتماً بالأمر لدرجة أنّه جلس منتصباً.

«لا. مع أنّه كان من عائلة واسعة الثراء. أرادوا منها أن تكون عروسَ شبح[1]».

«وماذا جرى لها؟».

---

(1) A ghost bride لاعتقاد الصينيين بأن الموتى يعيشون في الحياة الأخرى فيقومون بتزويجهم. وهو تقليد صينيّ عمره 3000 سنة، يكون فيه أحد أو كلا الطرفين ميتاً. المترجمة

«هربت مع غيره. ولكن بعد عدّة سنوات عندما هرم عمي، قال إنّها عادت لزيارته. ومن الغريب أنّها كانت تبدو بنفس الهيئة التي غادرت بها البيت وعمرها ثماني عشرة سنة. ولكن هذه حكاية أخرى. كان عمي يشاهد الأشباح دائماً. كان أمراً مقلقاً. وهي بعكس الأحياء، تمكثُ في المكان نفسه باستمرار. على سبيل المثال، كانت هناك عربة ريكشاو معينة، وقال إنّها كانت دائماً تحمل نفس الراكب، ولد صغير يحاول الجلوس في حضن الآخرين. وفي أوقات أخرى كانت هناك امرأة تجلس بجانب سريره طوال الليل. وهي تسرّح شعرها وتبكي. ولكنه قدّم لي نصيحة سأخبرك بها الآن، لأنني أعتقد أنّك بحاجة لها».

«وما هي؟».

«لا تتكلم مع الأموات».

لزم رين الصمت لدقيقة من الوقت. لم يقدّم له أحد نصيحة بهذا الموضوع. سأله: «لماذا؟».

حكّ آه لونغ رأسه. وبدا عليه التعب والتقدّم بالعمر. وقال: «لأن الأموات لا ينتمون لهذا العالم. حكاياتهم انتهت، وعليهم أن يمضوا في سبيلهم. وأنت لا يمكنك أن تطيعهم وهم في قبورهم».

وانتقلت أفكار رين فوراً إلى الدكتور مكفارلين. وسأل: «ولكن لو أننا احترمنا وصاياهم ورغباتهم ألن يجعلهم ذلك سعداء؟».

نهض آه لونغ بتثاقل وقال: «شش! سعداء أم أشقياء. هذا شأنهم وليس شأنك. الآن إن شعرت بالتحسّن اذهب إلى سريرك».

وتذكر رين فجأة فقال: «ولكن اليوم موعد الحفلة».

«أنا أطبخ هنا من قبل أن تولد أنت. وكأنني لن أتدّبر أمري من دونك!».

وضع آه لونغ كوباً من الهورليك الدافئ[1] بجانب رين واستعد للانصراف. وضع يده للحظة قصيرة على رأس رين وقال بصوت مبحوح: «تذكّر ماذا قلت لك».

(1) Horlicks اسم مزيج من الحليب المحلّ وخلاصة الشعير ودقيق القمح.

بعد أن شرب رين الحليب الدافئ المخمّر، تمدّد في فراشه، وغطى نفسه باللحاف القطني الرقيق. وفكّر: آه لونغ لا يفهم. بقي القليل مما يجب فعله، ثم سينتهي كلّ شيء.

24

فاليم

الثلاثاء، 16 حزيران

كانت الساعة تقارب الثامنة مساء والجو معتم عندما توقّفت سيارة روبرت وهي تصدر صريراً من مكابحها أمام متجر زوج أمّي. قفز منها روبرت وكنت أنا عند الباب الأمامي، أبحث عن مفاتيحي. كان كلّ شيء خلف مصاريع النوافذ، معتماً؛ هل ساءت الأمور جدّاً فأخذوا أمي؟ وتململت الريح في الشرفة العلوية المظلّلة، كانت أشباح الأخوة الذين ينتظرون ولادتهم. أو لعلهم الآن يتجولون في أرجاء هذا العالم.

انفتح الباب بذلك الصرير المعهود. وظهر وجهُ زوج أمّي الذي رسّخت الشقوق العميقة بين فمه وأنفه شبهه بصخرة منحوتة. ولدهشتي، بدا عليه لدى رؤيتي الارتياح، بل السرور.

سألته وقلبي يقفز في فمي من الفزع: «أين أمي؟».

«إنها ترتاح. هي بخير».

ونظر لروبرت، ثم للسيارة القابعة عند الرصيف مثل حوت فضّي لامع. ومدّ روبرت يده، وقدّم نفسه، وأنا أندفع بتوتّر إلى داخل البيت. وظهر ظلّ وراء زوج أمي. كان شين.

لطالما قلتُ لنفسي إن شين لا يشبه أباه، ولكن من زاوية معينة، كان هناك شبه غريب. وأومض المصباح النفطي الذي حمله زوج أمّي وجعل ملامحهما تسبح، وللحظة تشبه الكابوس، كانا يبدوان مثل ماضي ومستقبل الشخص نفسه.

ودمدمتُ بشيء عن رغبتي برؤية والدتي، ولكنّي لم أتمكّن من إخفاء نفوري الوجيز.

ولا بدّ أن شين لاحظ ذلك لأنه استدار مبتعداً وقال: «إنها ترتاح في المكتب في الطابق الأسفل، إذ من الأفضل لها ألّا تصعد السلالم الآن».

كان مكتب زوج أمّي غرفة ضيقة وكئيبة في منتصف المتجر الطويل. يحتفظ فيه بسجلّات حساباته في خزانة معدنية للملفات وعدّاد كبير أسود[1]. عندما أسرعنا عبر المتجر المعتم، قلتُ: «لماذا لا تشعل المزيد من المصابيح؟».

«بعد أن غادر الدكتور والعمة ونغ، أطفأ والدي الأنوار. أنت تعرفينه».

كنت أعرفه حقاً. كان لدى زوج أمّي نزعة للجلوس في الظلام، لا سيما إذا كان معكّر المزاج. وتذكّرت مجدّداً تلك الليلة المزعجة عندما كسر ذراع شين. آنذاك أيضاً كان يعمّ البيت الظلام والسكون.

«وماذا قالت العمة ونغ؟».

لم تكن العمة ونغ من الأقارب، ولكنها تعيش في البيت المجاور قبل وصولنا، أنا وأمي. وكانت الجارة المتطفلة في الحي، غير أنّها أُغرمت بوالدتي.

«قالت إنّها نزفت كثيراً. وطلبت الدكتور. ولكنه غادر قبل أن أحضر، ويبدو أنّه إجهاض مبكر». تكلم شين متعمداً، بنبرة ذكرتني أنّه في منتصف الطريق لإنهاء تدريباته الطبية. ولكنها أمّي، وليس إنساناً غريباً. فركضت الياردات الأخيرة إلى الغرفة وفتحت الباب.

كان هناك مصباح وحيد مشتعل على الطاولة، يضيءُ فراشاً موضوعاً على الأرض. وبدا وجه أمّي شاحباً أكثر من المعتاد، وجبينها بارزاً ومكشوفاً. كأن عظام جمجمتها تنفذ من خلال وشاح بشرتها الرقيقة.

كانت يدها جافة وباردة، ومع ذلك أجبرَت نفسها على صنع ابتسامة ضعيفة وقالت: «قلت لهم أن لا يزعجوك يا جي لين. أصابني الدوار قليلاً ونادت العمة ونغ الطبيب وانتهت المشكلة».

---

(1) abacus: آلة الحساب الصينيّة ذات الخرزات للعدّ والحساب. المترجمة.

ضغطتُ على يدها وقلت: «هل كنت تعلمين أنّك حامل؟».

نظَرت لشين بإحراج. ففهم الإشارة وحمل نفسه وغادر بهدوء.

«لم أكن أعلم ذلك. لطالما كانت دورتي الطمثية غير منتظمة. هل تفهمينني. أضيفي لذلك أنّني كبيرة جدّاً لكي أحمل». كانت بعمر اثنتين وأربعين سنة. ولا يزال الحمل احتمالاً وارداً. لدى بعض صديقاتي أشقاء أصغر منهن بعقود.

«عليك أن تبعديه عنك». لماذا لا يمكن لزوجها أن يدعها وشأنها؟ بالكاد كان بإمكاني الحديث، كنت غاضبة جداً. وملأت المرارة فمي.

«لا تقولي هذا. إنّه حقه. وأنا من فشلت، لأني لم أنجب له المزيد من الأولاد».

عضضتُ على شفتي بقوّة. لم يكن هناك من جدوى في توبيخها وهي بهذا الوضع الضعيف. وكان عليّ أن أجد طريقة أخرى، وعادت فكرة أن أسمّم زوج أمّي مجدداً إلى مخيلتي.

في وقت متأخر من تلك الأمسية، حينما كانت أمّي ترتاح وزوجها في غرفته، رافقت شين لتناول الطعام في الخارج. كان الجوّ حارّاً لدرجة خانقة. ومعظم الأماكن كانت مغلقة، لكن شين أخذني إلى كشك على الرصيف يقدم هور *فان*[1]، معكرونة الرزّ المسطحة والعريضة، في الحساء. وجلسنا أمام طاولة متزعزعة قابلة للطي، إحدى قوائمها كانت مثبّتة بقرميدة، بجوار ثلاثة رجال يستريحون من حفلة ماهجونغ قد تستغرق طوال الليل.

وعندما ذهب شين ليطلب الطعام، اختلستُ السمع إليهم وهم يناقشون ديونهم المترتبة عليهم من الخسارة في لعبة الماهجونغ. لا بدّ أن أمّي اشتركت بحفلات من هذا النوع أيضاً حتّى بلغت ديونها أربعين دولاراً ماليزياً. التفكير بالنقود جعل معدتي تضطرب، وحين وضع شين الطبق أمامي، حركّته بسأم بعيدان الطعام.

جلس قبالتي وانقضّ على طبقه. تحت أزيز مصباح غازي، تحوم وترفرف حوله حشرات، لم يكن يشبه زوج أمّي إطلاقاً. وغمرني تيّار من الأمان. ودفعت طبقي الذي لم ألمسه نحوه.

---

(1) hor fun

«أريدك أن تحدّث أباك».

«بأيّ خصوص؟».

كان من غير المناسب أن أناقش شؤون والدينا هكذا. ولكن شعرت بضرورة ذلك.

«عليه أن يدع أمّي وشأنها. لا يمكنها أن تحمَل مجدداً».

شحب وجه شين تحت المصباح الغازي الأبيض الساطع. وقال: «أخبرته بذلك لحظة وصولي هذه الأمسية».

«هل سيفهمك؟».

هزّ منكبيه. كان الحوار غريباً ومحرجاً لكلينا.

«أخبرته أن لديه خيارات أخرى كثيرة».

قلت: «مثل ماذا؟ زيارة العاهرات أو الرهبنة؟». وحملت بعصبية وبعود الطعام كرة سمك من طبق شين. لم أكن مهتمة بخيارات زوج أمّي ما دام هذا يضمن بقاءه بعيداً عنها.

عبس لكي يخفي إحراجه وقال: «مثل مانع الحمل». وتابع: «عموماً، لا يجب أن تقلقي كثيراً من أشياء كهذه».

قلت له: «حتى أنا سمعتُ عن الرسائل الفرنسية»، وكان هذا هو الاسم الذي يدعون به «الدروع الذكرية»، أو الواقيات الذكرية كما لو أنّها شيئاً باسلاً. وتابعتُ قائلة: «لكنّني متأكدة أنّه لن يقبل. العجوز الوغد».

كانت «العجوز الوغد» هي جملة شين في العادة. وكنت عموماً أتجنب شتم أباه. ولكنّني اليوم بقولي ذلك، تجاوزت حدوداً خفية.

لم أكن على يقين أبداً من شعور شين حيال والده. في النهاية، غالباً ما اتّخذت أمّي قرارات حمقاء جعلتني أرغب في هزّها لتوبيخها، غير أنّي لا زلت أحبّها. وظننت أن الحال هو نفسه بالنسبة لشين، ومهما كانت الأخطاء التي يرتكبها والده. وربّما كان هذا هو معنى العائلة، أن تكون مقيّداً بآخرين بواجبات لا يمكنك الفرار منها.

ولكن عوضاً عن أن ينزعج، ألقى عليّ تلك النظرة المتفحصة مجدّداً. وقال: «كيف تعرفين الكثير عن هذه الأشياء؟».

كل ما أعرفه جاء من الاستماع إلى الفتيات خلال العمل. فقد ذكرن أن أفضل سبيل للوقاية هو الرسائل الفرنسية، أو الكوندومات[1]، فهي تُوزَع على نطاق واسع منذ أيام الحرب العالمية. ولكنني لم أتمكّن من التوضيح له كيف أنني كنتُ أعلم بشأنها.

وقلت باعتراض: «إنّ ذلك يأتي من انعدام الرقّة الأنثوية».

قال شين: «إذا أقنعتُه، فسيلتزم بوعده على الأغلب».

نعم، ذلك الرجل المتخشب البارد، يمكنه أن يلتزم بكلمته. مثلما لا يغفر لأحد ديونه. نقرت كلمات شين نقرة إدراك خافتة في رأسي. وعندها فهمت فجأة.

«لقد عقدت معه اتفاقاً».

«كلا، لم أفعل».

«أنا لا أتكلم عن اليوم. أقصد ما حصل قبل سنتين. حينما كسر ذراعك».

وباغتُّ شين على حين غرّة، رأيت ذلك في تقطيبة وجهه وكيف أسقط رأسه، وهو يحدّق بالحساء.

«لقد اتفقت معه على شيء، أليس كذلك؟ ما هو؟».

لكن شين أطبق فمه بإحكام. ولم يوضح لي ماذا جرى بينهما في تلك الليلة.

«إذن يمكنني أن أعقد صفقة معه أيضاً».

«لا تفعلي». وقبض شين على معصمي، بحركة سريعة وشديدة. فجفلتُ.

وانتبه لنفسه، وفكّ أصابعه ببطء. وقال: «لا يجب أن تعقدي أيّ اتفاق مع والدي أبداً. عديني بذلك يا جي لين».

ولم أنطق. كانت هناك أساليب لأصل لما أريد من زوج أمي. ولكن السؤال المطروح كان: ماذا يريد هو بالمقابل؟

* * *

(1) condoms الواقي الذكري المطاطي.

كان الطريق إلى البيت مظلماً جداً. وكان منظر أشكال البيوت وهي تتكئ على بعضها بعضاً، والنوافذ موصدة بوجه الليل؛ مشهداً خاطئاً ومقيتاً في نظري. حينما عاد شين إلى سنغافورة، لم أجد أحداً لأشاركه عبء مشاكل العائلة. أما هو فكان حاله مختلفاً. إذ وجد أحداً إلى جانبه.

تذكرت وقلت فورا: «الخاتم»، وتابعت: «يجب أن أعيده إليك».

قال: «احتفظي به الآن». كان هادئاً منذ العشاء، وهذه إشارة خطيرة تعني أنّه كان مستغرقاً بالتفكير في شيء ما، ثم قال: «ماذا كنت تفعلين برفقة روبرت؟».

«التقينا بالصدفة. وبالمناسبة، ماذا فعلت أنت برزمة بي لنغ؟».

قطب شين وجهه وقال: «كان غباء منك أن تتورطي معها. أعتقد أنّ ذلك سيسبب المشاكل».

قلت بامتعاض: «أردت أن أساعدها فحسب. هل فتحت الرزمة؟».

«بالطبع فتحتها! لأنه لا يجب على المرء أن يحتفظ برزم مجهولة لأشخاص آخرين. ألا تعتقدين أنّه من الغريب أن تطلب منكِ استعادة غرض لها، وهي لا تعرفكِ حتّى؟»، ثم أضاف ببرود: «اسمك يعني الحكمة. ولكنّني أحياناً أعتقد أنّك غبية بالنسبة لشخص يجب أن يكون ذكياً».

وأصابني الغضب. إذ ليس بسبب الغباء أنّني كنت لا أتقدّم في الحياة. فقلت له: «واسمك يعني الوفاء، مع ذلك أنت تتنقّل بين النساء طوال الوقت!».

كانت تلك ضربة تحت الحزام، حمل شين كتفيه وأسرع بخطواته، وتركني خلفه. وتبعته وأنا أستشيط غضباً، مع أنّني أعلم أن اسمه يدل على شيء أكبر من الوفاء. شين كلمة تحمل معنى النزاهة والولاء أيضاً، ومثل كلّ الفضائل فهي كلمة تحمل معاني أعمق وأوسع. ولم أكن لأقول أبداً أن سلوك شين يتناقض وهذين المعنيين. في الظلام، فكّرت مجدداً بما قاله لي الصبيّ الصغير في أحلامي. *هناك خطأ صغير في كلّ واحد منا.*

كنت أمشي ببطء، حتّى لا أترك لشين فرصة الزهو بالنفس، لو أنّه شعر خطأ أنّني أتبعه. ولكن عندما انعطفت من حول الزاوية، رأيته بانتظاري. وفي مرّة، كنت منزعجة

من كوني لصيقة دائماً، فاحتجزني صبيّ آخر في سقيفة مهجورة، ثم هرب وهو يضحك، وانتابني الخوف وانهمرت دموعي، حتّى أتى شين باحثاً عنّي. وتذكرت هذا الموقف، وهمهمت: «أنا آسفة». فعاود المسير وهو يسبقني بخطوتين. وقريباً سيعود إلى سنغافورة. وفي لقائنا التالي ستكون معه خطيبته. وشعرت بذلك الضغط المؤلم في بلعومي مجدداً، كأنني ابتلعت عيدان تناول الطعام.

«أخبرتك آنني متأسفة!».

والتفت شين وقال: «هذا ليس اعتذاراً. إنّه مجرّد صياح!».

كنت أعلم أنّني يجب أن لا أتهمه بعدم الوفاء. فلسبب ما كانت هذه الكلمة تمثّل عنده جرحاً ملتهباً.

«لا تغضب يا شين. كنت أشعر بالغيرة فحسب».

«من ماذا؟». ووقف تحت ظل شجرة أوراقها ترتعش في ضوء القمر. وسهّلت العتمة أن أقول أشياء لا يمكنني الاعتراف بها في غير وقت.

«كنت مستاءة وأشعر بالحسد لدراستك في كلية الطب. ولأنك صبيّ أيضاً. ويمكنك أن تختار ما تريد من بينهما كسبب».

لزم شين الصمت لفترة طويلة. ثم قال: «هل هذا كلّ شيء؟».

كان لصوته نبرة حادة. وغمرني إحساس غير مريح كأنني فشلت في امتحان ما. ماذا بقي لأقوله أكثر مما قلتُ؟ في النهاية، هو يبدّل صديقاته ولم أعترض من قبل. ومن المهين أن أعترض الآن.

وصلنا إلى البيت دون أن نتبادل كلمة إضافية. وشعرت بالبؤس، كما أشعر دائماً حينما أتخاصم أنا وشين، ولكن هذه المرة لم أكن متأكدة تماماً من سبب الجدال. في الداخل خيم الظلام والصمت. كان زوج أمّي في سريره، وبعد الاطمئنان على حال أمّي النائمة، توجهنا إلى المطبخ. وأشعلت المصباح وامتلأت الحجرة بنوره الدافئ. كان شين لا يزال منزعجاً مني، لكنه قال: «انتظري هنا». وغاب على السلالم وهو يصعد للأعلى.

وانتابتني مشاعر سيّئة حيال ذلك. حدس باحتمال الندم من رؤية ما تحتويه

رزمة بي لنغ. تململتُ في المطبخ بكثير من القلق. رتّبت الأطباق، وعاودتني تلك الوخزة الحادة من الشعور بأنني مراقَبة. هل إن ي.ك. ونغ موجود في المتجر بطريقة ما؟ أمر سخيف حتماً. تجمّدت في مكاني، وأنا أستمع لنبضي المتثاقل، ورنين الصمت الذي يلّف البيت. وقبضت على سكين اللحوم، وواجهتُ باب الممرّ المفتوح.

ورأيت بالفعل إنساناً يقف في الظلّ. ولكنه شين فحسب. أو لم يكن هو؟ كان تحت ضوء المصباح المرتعش بهيئة كائن جائع غاضب، كما لم أشاهده من قبلُ قطّ. تلك النظرة العميقة المستذئبة لحيوانٍ يحدّق بنار مخيّم. ولدقيقة من الوقت، لم أتعرف عليه وشعرت بالخوف البالغ.

ونظر شين للسكين وهي في يدي وتحرّكت شفتاه بتعبير يدلّ على المرارة.

«هل حسِبتني أبي؟».

لم يكن خطؤه أنهما من نفس اللحم والدم. قلت له: «كلا. لقد جفلتُ فحسب».

واقترب شين منّي ببطء وهو يراقبني باهتمام.

«هل مد يده عليك؟».

«من؟ أبوك؟». قلت لنفسي: ذلك الرجل بالكاد اعترف بوجودي على مدى العشر سنوات الماضية.

وجلس شين عند الطاولة ووضع رأسه بين يديه وقال: «قلقت عليك عندما كنتُ غائباً».

قلت بمرارة: «لا يمكن لوجودي أن يزعجه». كان لدى زوج أمّي طرقٌ أخرى ليسيطر علي بها. مثلاً ذلك الهيام الأحمق الذي أراه حتّى الآن في عيني أمي، والرضوض التي يتركها على ذراعيها. قلت: «عموماً، لو كنت مهتماً حقاً، لأجبت على رسائلي».

وفرغت عينا شين من كلّ التعابير بشكل خطير فجأة. وقال: «يبدو أنّك تدبّرت أمركِ جيداً من دوني».

«ماذا تعني؟».

«أنا أتكلم عن روبرت. أنت لم تذكري لي علاقتك الطيبة معه».

كان هذا ظلماً لدرجة أنّه سرق أنفاسي. قلت: «أخبرتك أننا التقينا الليلة بالصدفة!».

وتعلقت عينا شين بثوبي الأنيق. ونظر لطلاء الشفاه والماسكارة التي وضعتها عليّ هوي حينما كنّا نضحك ونروي النكات في غرفتها قبل ساعات قليلة مضت. كانت يرمقني بنظرة تفحص غاضبة، جعلتني أكتوي بالنار وبالبرد في نفس الوقت. كان أمراً بلا جدوى لو أنّني حاولت تفسير الأشياء له. ولكن على كلّ حال، لماذا يجب علي ذلك؟

ثم قلت بغضب: «كان روبرت لطيفاً معي».

قال شين: «نعم. بنقود والده».

«ولماذا تهتمّ؟ في النهاية، أنت هربت من هنا بأول فرصة».

«لم أهرب».

«أنت حتّى لم تكن تأتي في العطل. تركتني ببساطة. وفي هذا المنزل».

ويا لرعبي حينما اغرورقت بالدموع عيناي. إنّها دموع الغضب، قلت لنفسي، وأنا أصكّ أسناني. وشرع شين بالكلام ولكنّني قاطعته قبل أن يبدأ، فقلت: «هل تعتقد أنّني أريد أن أكون خيّاطة حقاً؟ أنا أكر هذه المهنة. ولكن، من كان سينفق عليّ مزيداً من النقود لأكمل دراستي؟».

«جي لين...».

«لذلك لا تحاول أن تدّعي الآن أنّك كنت مهتماً بي. وحسب ما أرى، أنت عقدت صفقة معه. لكي لا تعمل عنده، وهكذا كان بمقدورك أن تبتعد وتفعل ما تشاء. أيها الجبان!».

كان بمقدوري أن أجرح شين لو أردت ذلك. أجرحه بطريقة قذرة ودموية، كتعليق الأحشاء الطرية لفريسة. وكان قلبي يدق بشدة، وأنفاسي تتقطّع. وتوقعت تقريباً أن أشاهد الدم يغطي طاولة المطبخ.

ردّ قائلاً: «هل هذا ما تظنين أنّي فعلته؟». وغطى وجه شين شحوب الموت، وتحول لقناع موت وسيم.

وحضّرت نفسي لما سيكون بالتأكيد ردّاً عنيفاً معاكساً. ولكن بدهشة شديدة، ألفيته صامتاً. ألقى عليّ نظرة مصدومة فحسب، تلك النظرة التي يخصّني بها وحدي، حتّى عندما تعرّض لعقوبة الضرب ودنا من الموت.

ولم أرغب أن أشاهد شين هكذا. ومع ذلك وفي تلك اللحظة، كرهته. وتذكرت كيف كان يبدو، وهو يستلقي في حضن فونغ لان، ويدها على صدره العاري كأنّه ملكها. والطريقة التي كانت تنظر فيها إلى عينيه وهي تبتسم.

وضع شين رزمة صغيرة من الورق البني على الطاولة. وقال: «يمكنك أن تنظري إليها أو لا تنظري. القرار قرارك».

واستدار وغادر المطبخ. وتجمّدت ووقفت بانتظار صوت خطواته وهي تصعد السلالم، ولكن عوضاً عن ذلك سمعته وهو يبتعد في الممرّ إلى مقدّمة المتجر ويفتح الباب الأمامي. وصدر من الباب ذلك الصرير الواشي. ثم زال السحر. وأسرعت في الممرّ، ذلك المعبر الضيّق الطويل خلال أحشاء المنزل المعتمة.

قلت: «شين! إلى أين أنت ذاهب؟».

«عائدٌ إلى المستشفى».

«اعتقدتُ أنّك ستبيت معنا الليلة».

«لديّ عملٌ في الغد». وفطرَت قلبي طريقة كلامه التي يملؤها صبرٌ منهك.

«لا توجد حافلات أو قطارات الآن».

«أعلم. لقد استعرت درّاجة مينغ».

«لكن المستشفى بعيدٌ جداً». سيستغرق الطريق الوعر أكثر من ساعة في الليل، هذا غير أنّه على سفح مرتفعاتٍ تعلو بالتدريج حتّى باتو جاجاه.

«لذلك من الأفضل أن أنطلق حالاً». ورسم طيفَ ابتسامة وتابع: «لا تقلقي، سأكون بخير».

وحرك شين الدرّاجة الهوائية السوداء الثقيلة، والتي كانت تقف أمام المتجر، وانطلق للشارع. وتبعتُه بعجز.

قال بنعومة: «عودي إلى الداخل أرجوكِ». ورمق النوافذ العالية المعتمة لغرفة زوج أمي.

«أنا آسفة يا شين». قلتُ، وأحطته بذراعي من الخلف، ودفنت وجهي في ظهره المحنيّ. وشعرت بصدره يرتفع ويهبط.

قال: «لا تبكي. ليس في الشارع. وإلا نبّهتِ العمة ونغ، وستنتشر إشاعات حول عائلتنا أغرب حتّى من التي تدور حالياً».

ودفعتني محاولته للمزاح هذه لمزيد من النحيب، ولكن حاولت كتم الصوت. البكاء بصمت كان مهارة تعلّمها كلانا في هذا البيت. تنهد شين واعتلى الدرّاجة. وبعد دقيقة طويلة، التفت. وحتى حينها، لم أفلته. كان لدي إحساس بشيء فظيع سيحدث إن تركتُه. كانت فكرة سخيفة، ولكنها جعلتني أشعر بوحدة رهيبة، لذلك احتضنتُه أقوى.

قال: «أنت تكتمين أنفاسي».

«آسفة». كنّا نتكلّم همساً، مدركَين أننا نقفُ في الشارع رغم أنّ الجيران لا بدّ وأنهم يغطون بالنوم الآن. شعّ ضوء القمر بظلال حادّة من السواد والفضة. وبدا شين منهكاً.

«دعني أرافقُك. يقلقني أنّك ستذهب في طرقات مظلمة».

سألني: «ولكن كيف؟»، ومسّد رأسي. لم يفعل ذلك من قبل، ولأُغطّي على ارتباكي، دفنتُ وجهي في كتفه. في الغد سيكون مِلك إنسانة أخرى مجدّداً، ولكنه الليلة لي.

قلتُ: «سأركب خلفك. وسنتناوب على القيادة».

«أنتِ ثقيلة جداً. سأقع».

لكزته وقلت: «أحمق!». قبض على معصمي، وجرّني إليه. فرفعت وجهي

وانقطعت أنفاسي. كنت واثقة تقريباً من أنّه سيقبّلني الآن، ولكنه توقّف، وخفض يديه. في نور القمر، لم أتمكّن من قراءة تعابير عينيه. ثم قال: «عليك الاهتمام بأمك».

كان محقّاً بالطبع. شعرتُ بالخزي وحرّرت معصمي منه. ما هذا الذي كنتُ أفكّر فيه، أن آمل بأن يقبّلني أخي غير الشقيق؟

قلتُ له وأنا أتراجع إلى الخلف: «الزم الحذر». وراقبتُه وهو يشعل عود ثقّاب ليضيء مصباح الدرّاجة النفطي. تأرجح شين، ثم بحركة رشيقة ابتعد باتّجاه الليل المخيِّم.

25

فاليم

الثلاثاء، 16 حزيران

طبعاً، أوّل شيء فعلتُه هو العودة فوراً إلى المطبخ وفتح رزمة بي لنغ المغلّفة بالورق البُنّي. كان شين قد ذكر لي أنّها لم تستعِد وعيها بعد السقوط. واخترقتني رجفة. كنت متأكدة تقريباً أنّها سقطت بفعل فاعل، وأن ي.ك. ونغ له علاقة بالموضوع. ولكن ليس عندي دليل. إنّه مجرّد شعور، شيء يشبه ارتعاشة في الهواء.

عندما تخلّصت من طبقتين من ورق الجزّارين، سمعت صوت قرقعة. حبست أنفاسي وأنا أشاهد قارورة زجاجيّة صغيرة وحزمة أوراق انزلقت على طاولة المطبخ. كنت أعرف حجم وشكل تلك القارورة جيداً. وكانت تحتوي إبهاماً. ليست جافة وذابلة، كالإصبع التي أخذتُها من جيب رجل المبيعات، ولكنّها محفوظة في سائل مصفّر مثل معظم بقية العيّنات في المستودع. وضعت القارورة بجانب المصباح. واستغربت لأنني لم أخَف منها كما حصل مع الإصبع المجفّفة بالملح بذلك الالتواء المسود. ربّما لأنّ الإبهام لا تبدو حقيقية، وتشبه النماذج التعليمية المصنوعة من الشمع. وكنت متأكّدة أنّها تعود لقائمة العيّنات المفقودة التي صنّفناها.

وقد احتوت الرزمة أيضاً بعض الأوراق بخطّ بي لنغ الأنثوي، وكانت في ظرف معنون إلى السيّد شان يو شونغ، رجل المبيعات. ولم أجد أنّه من الصائب أن أطّلع على مراسلات الآخرين، ولكن رنّ تحذير شين، من تقديم خدمة للغرباء، في أذني. وأكّدت شكوكي نظرة سريعة. كانت رسائل غرامية، صفحات وصفحات

من الحنين والحب. كانت عيناي تجتازان الصفحات بسرعة، ولكنّني قرأتُ عبارات متفرقة مثل: *متى ستخبر زوجتك*، وعبارات أكثر إحراجاً، مثل: *شفتاك على بشرتي*. وفي كلّ حال، كانت الرسائل حقيقيّة وفاضحة تماماً. ولا غرابة أنّها طالبت باستعادتها. لأنها لو وقعت بيد رئيسة الممرضات، ستفقد بي لنغ عملها.

وفي أسفل الكومة صفحة من الورق مأخوذة من دفتر يوميات. كان الخطّ مختلفاً عن خطّ بي لنغ، أقرب لخطّ الذكور. وفي الجهة اليسرى قائمة من ثلاثة عشر اسماً، وكلها أسماء محلّية. وكان شان يو شونغ في المرتبة قبل الأخيرة. وهناك إشارة بجواره، شَرطة مائلة غامقة، كما لو أنّ شخصاً ما شطب الاسم. وعلى الطرف الأيمن من الورقة قائمة أخرى ولكن أقصر. وفيها ثلاثة أسماء فقط: ج. مكفارلين، و. أكتون، ل. رولينغز.

تأمّلت اللائحتين. هناك نمط يمكنني رؤيته تقريباً. بجانب اسم «ج. مكفارلين» هناك إشارة استفهام وكلمتين: *تايبنغ/كامونتنغ*. وتذكرت ذلك الاسم، إذ كان مدوّناً في سجل مستودع الأمراض للعيّنة التي تبرع بها و. أكتون. لقد قابلت ويليام أكتون حينما كنت أنظف الغرفة. ولا بدّ أن ل. رولينغز هو نفسه الدكتور رولينغز الذي يدير قسم الأمراض. وهكذا فإن القائمة الثانية هي لأطباء بريطانيين لهم علاقة بمستشفى مقاطعة باتو جاجاه.

كان قفا الورقة يذكر أرقاماً، وكانت مبالغُ كلية لما يبدو أنّه دفعات أوّلية. نسختُ القائمة على ورقة فارغة بحرص، وأعدت حَزم الرزمة كما كانت، وأنا أتساءل إن كان شين قد ذكر أياً من هذا للدكتور رولينغز.

كان الوقت بعد منتصف الليل، والطرقات مهجورة في هذه الساعة، ولا يملك شين سوى الهالة الباهتة لمصباح الدرّاجة النفطي. وعندما فكّرت به وهو يقود دراجته لأميال في الظلام، ويمرّ بحفر المناجم البكماء والمزارع المتفرقة؛ شعرت بدفقة قلق. وتخيّلتُ شين بوضوح تحت عجلات شاحنة أو بين أنياب نمر يجرّه معه. مؤخراً قتلوا جاموس ماء، واكتُشفت بقايا جثّته قرب مزرعة. هناك مخلوق طليق ويصطاد، وهو مختبئ في الظلال. ألم يمُت شان يو شونغ في ليلة مماثلة، وهو عائدٌ إلى بيته في وقت متأخر؟

تفحّصت أمّي النائمة، ومسّدت لها شعرها برقة وأبعدتُه عن وجهها الضامر، وكنتُ شاكرة لأنها بخير، ولكن نصفي الشرير كان يفكر: في حال موتها، لن يبقى هنالك شيء يربطني كرهينة في هذا المنزل.

* * *

استعادت أمّي عافيتها ببطء أكبر من كلّ المرّات التي أجهضَت فيها في الماضي. ولم يقُل زوجها أكثر من المعتاد، ولكنّه أمضى وقتاً طويلاً جالساً معها وأدهشني بهذا التصرف. وتساءلتُ، هل هذه أوّل مرّة يدركُ فيها كم صارت هزيلة وضعيفة. كانت شاحبة جدّاً وفقدت شفتاها لونهما، وهذه إشارة أنذرتني بالخطر.

سألت العمّة ونغ عندما جاءت للزيارة: «هل توقّف النزيف؟».

ردّت أمي: «توقّف معظمه».

ونظرت لي العمة ونغ وقالت: «إن كانت مصابة بالحمى، عليكِ أن تحمليها إلى مستشفى. قد تكون مصابة بتلوث».

وأردتُ أن أنقلها إلى المستشفى حالاً، ولكن الحركة كانت ستجهدها. وفاجأني زوجها بنفس المخاوف. جلس قربها وأخذ يدها بيده وقال: «أخبريني إن كنتِ لا تشعرين بخير لنتصرف».

ولم أسمعه يتكلم بهذه الحميمية معها من قبل، ولكن لم يبدو على أمّي الاستغراب، وتساءلت هل هذه هي طريقته بالتعامل معها عندما يكونان داخل غرفة النوم لوحدهما، خلف الأبواب مغلقة. ربّما كان هذا سبباً كافياً بالنسبة لها ليعمي ذهنها ويمنحها دفعة من التفاؤل. ولكن أنا لا زلت أمقتُه حتماً. ولا شيء سيبدّل رأيي بهذا الخصوص.

ولاحقاً، جاءت آه كيوم وجلست في المطبخ وأنا أطهو حساء بعظام الخنزير. وأضفت له التمر الأحمر المجفف لأرمّم طاقة *يانغ*[1] لأمي.

قالت آه كيوم: «أبوكِ قلقٌ من أجلها فعلاً. هذا شيء لطيف».

---

(1) yin ـ yang: في الفلسفة الصينيّة وهي الطاقة المسيطرة على الحياة. اليانغ تشكل أعضاء الجسم وأنسجته وتغذيتها. والين تنشّط أعضاء الجسم وتشحنها. المترجمة.

وافقتُ بإيماءة من رأسي. انتقلت آه كيوم مؤخراً إلى فاليم في السنة المنصرمة وربّما كانت لا تعلم أنّني لست ابنته الحقيقية.

«هل عاد أخوك لعمله؟».

«نعم، الليلة الماضية».

تنهّدت آه كيوم فتذكرتُ كيف كانت معجبة بشين في آخر زيارة له إلى البيت. في وقتها لم أكن مهتمة كثيراً، واستغربتُ كيف أن عشرة أيام فقط صنعت هذا الفرق الملحوظ.

سألتني: «هل لديه صديقة؟».

لم يعلن شين لأهلنا عن هذا الموضوع شيئاً وهذا ليس مستغرباً. قلت: «أعتقد ذلك، في سنغافورة». وتذكّرت تنبيه كوه بنغ لي وتحذيراته حسنة النيّة في المستشفى.

«آه، سنغافورة بعيدة جداً! لذلك ربّما يبدّل رأيه ويختارني في نهاية المطاف».

«ربما». وأعجبت بعزيمتها الساذجة.

ثم قالت آه كيوم بمزاح: «سأنجب له ستة أولاد وسيكونون جميلين».

أجبرت نفسي على الابتسام. وقلت: «ماذا يدفعك لهذا التفكير؟».

«انظري لنفسك ولأخيك، أنتم عائلة وسيمة».

طأطأتُ رأسي بحرج. ستواجهني المشاكل إن شعر أحد بمشاعري حيال شين. ويمكن أن أتصور ثورة زوج أمي، وخجل والدتي، وهمسات الجيران أن هناك شيئاً غير مقبول يجري في بيتنا.

قالت آه كيوم: «ستشِيدين بي أمام أخوكِ أليس كذلك؟ بالأخص أن لك صديقاً غنياً. سمعتُ أنّه أحضرك أمس إلى البيت بسيارة كبيرة».

كنت قد نسيت أمر روبرت تماماً، ولكن من الواجب أن أشكره. وأكتب له رسالة شكر، رغم أنّه لم تكن عندي فكرة عن كيف سأتواصل معه. ولكن على كلّ حال حُلّت تلك المشكلة عندما جاء روبرت في المساء، ثم أتى أيضاً في الصباح

التالي. في أوّل مرّة أحضر أعشاباً صينيّة مجففة. وفي المرة الثانية، أحضر حساء الدجاج في طاسٍ من الخزف الأزرق والأبيض. وقال إن طباخ العائلة حضّره من دجاجة سوداء الجلد ذات ريش حريري وهو جيد للمرضى.

وكانت هذه بادرة جميلة منه، وشعرت بالذنب، خاصة بعد أن شاهدت كيف لوث الحساء الجلد الناعم لمقعد السيارة. رغم أن قيادة روبرت المتهورة مسؤولة عن هذا الخطأ، ولكنّي لم أذكر ذلك عندما هرعت لأنظّف البقعة. وأمضى بعض الوقت يتكلّم مع زوج أمي. ولم تكن عندي فكرة عمّا تبادلانه من كلام. ولكنّ أمي، التي استعادت قواها وأمكنها أن تجلس في غرفة المعيشة وتحييه، كانت مسرورة جداً.

قالت وأنا أسخن حساء الدجاج من أجلها: «يا له من شابّ لطيف!». لزمت الصمت. لم أنجح في إزالة بقعة الحساء من مقعد سيارة روبرت. وترك ذلك فيّ شعوراً مزعجاً. كأنّه دينٌ آخر أصبحت مدينة له به.

حلّ يوم الجمعة، وهذا يعني أنّني أمضيتُ في فاليم ثلاثة أيام. ثلاثة أيام عاد خلالها اللون إلى وجه أمّي وعادت إلى غرفة النوم في الأعلى التي تتشاركها مع زوجها. ولم أسمح لها بتأدية أيّ من الواجبات المنزلية، رغم إصرارها على أنّها معافاة وبخير. قلت لها: «وما هي الغاية من وجودي هنا إذن؟». وذكّرتها أن السيّدة تام سمحت لي بأسبوع إجازة. ولكن كان علي العودة إلى إيبوه في الغد، بسبب الحفلة الخاصة المقررة يوم السبت.

في هذه الأيام الثلاثة، لم أسمع كلمة واحدة من شين. لو أن شاحنة صدمته أو نمراً افترسه، لاتّصلَت بنا الشرطة بكل تأكيد. مع ذلك لم أتمكّن من الامتناع عن النظر إلى الساعة كلّما تقدم يوم الجمعة الطويل والحار باتّجاه المساء. فقد كنت أتوقع قدوم شين ليمضي معنا إجازة نهاية الأسبوع.

خبّأت رزمة الأوراق البنية مع الإبهام المبتورة في غرفة شين الفارغة. كنت أعلم أين يخبئ أشياءه الثمينة، تحت زاوية من لوح خشب مخلوع في أرض الغرفة، رفعته قليلاً ووضعت الرزمة. وقفتُ في غرفة شين، وألواح الخشب

الأرضية تحت قدميّ الحافيتين، وصعب علي أن أتخيّله وهو يشغل هذه الحجرة لعدة سنوات. كانت فارغة تماماً.

عندما ذهب إلى كلية الطب، رتّب أغراضه بنشاط محموم. وراقبته بصمت من الباب وهو يُخلي غرفته بطريقة منهجية، حتّى روايات الكونغ فو الرخيصة التي كنّا نجمعها كلانا.

سألتُه: «هل يمكنني الاحتفاظ بها؟».

أومأ موافقاً، دون أن يرفع رأسه نحوي. وعلمتُ حينها أن شين لم يكن ينوي العودة إلى البيت مطلقاً.

قلت لنفسي: خائن. هارب.

ألقيت نفسي على الفراش العاري المرتّب، وتساءلتُ إن كانت فونغ لان قد استلقت مع شين في هذا الفراش هنا، وماذا فعلا معاً. هل فتح أزرار بلوزتها ببطء وانحنى لتقبيلها، ويده تنزلق لتقبض على صدرها. وهل ابتسم لها بكسل كما يفعل معي وهو ينظر للأسفل من بين رموشه؟ وأنا أستلقي هناك في الظلام، أطبقت عينيّ بإحكام. يجب خنقها بسرعة، هذه العاطفة الجديدة المولودة للتوّ، التي تخفق بين أضلاعي.

وعندما حان وقت مساء الجمعة وسمعت صوت زوج أمّي يرتفع بالتحية أمام المتجر، أخبرت نفسي أنّه يجب أن لا أسرع بالخروج لتحيّة شين مثل كلب مطيع. ومع ذلك، أسرعت نبضاتي كلما تقدمت أصوات الخطوات في الممرّ الطويل، إلى أن بلغت المطبخ حيث كنت أقطّع الدجاج المبخر. وقررت أنّه من الأفضل أن أبدو مبتهجة كي لا أبدو كمن سهرت نصف ليلتها تتذكّر عشرة سنوات من الغيرة دفعة واحدة. مبتهجة ومتنبهة، هذه هي الطريقة المناسبة لمقابلته.

قلت له: «عدت مجدداً؟ توقعت أن شاحنة سحقتك!».

وعندما استدرتُ خلفي أرعبني أن أرى من وقف ورائي كان روبرت وليس شين.

سأل بدهشة: «هل قيادتي سيّئة لهذه الدرجة؟».

«أنا آسفة، ظننتك شين».

والتمعت عينا روبرت بسبب تعابيري المضطربة. وقال: «لا مانع عندي يا جي لين. أحبّ طريقتك بالكلام هكذا». لم يكن هذا جيداً. الطريقة التي ذكر بها اسمي، كان خجولاً وبنفس الوقت مسروراً، وهو يحمل كلّ علامات الهيام. رأيت ذلك من قبل في صالة الرقص، ولكن هناك يسهل عليّ الصدّ وأنا أتقمص دور لويز ذات العينين المبالغ في تكحيلهما.

قال روبرت: «لطالما حسدتُ مينغ وشين. وكيف كنتم فيها أنتم الثلاثة مقرّبين من بعضكم البعض في صغركم».

وحاولت أن أهرب من الموقف بالضحك وسألته: «لديك أخوات، أليس كذلك؟».

اقترب وقال: «الحال يختلف». نظرت إليه بانتباه شديد. إن فكر بقبلة مجدداً، لربّما ضربته بالدجاجة. لم أكن أعلم لماذا أنا رافضة له بهذه الشدة. فهو بأية حال صيد ثمين لأية بنت. ولأنني لم أعرف ماذا أفعل، قدّمت له بعضاً من كعكة الرزّ الحلو، من ذلك النوع المنفوش مثل غيمة.

سألته بصورة عرضية: «هل قلتَ إن أباك في هيئة مستشفى مقاطعة باتو جاجاه؟».

هزّ رأسه بالموافقة وفمه مليء بالكعك.

وأخرجتُ القائمة التي نسختُها أمس من حزمة أوراق بي لنغ. كان الأمر يستحقّ المحاولة، قد يكون لديه معلومات تلقي الضوء عليها. سألته: «هل تعرف أيّ اسم من هؤلاء؟».

وتأمّلها روبرت للحظة طويلة. قال: «لايتون رولينغز، هو طبيب الأمراض. وهذا، ويليام أكتون، هو الجراح العام».

«وماذا عن ج. مكفارلين؟».

«لا أعتقد أنّه من الموظفين في المستشفى». وعبس روبرت وأضاف: «لكنّني سمعت بذلك الاسم من قبل. وتوجد عنه قصة غريبة انتشرت هنا، لها علاقة بوفاة امرأة في كامونتنغ. ولكن من أين حصلت على القائمتين، من المستشفى؟».

سبح ظل بارد تحتي. ندمتُ على سؤال روبرت، بسبب شخصيته المتخبطة ذات النوايا الحسنة.

قلت له: «هذا ليس مهماً».

قال روبرت: «تبدين حزينة جدّاً يا جي لين. هل أنت قلقة من أيّ شيء؟ إن كنت كذلك، عليك أن تخبريني».

تأمّلني ملياً وبقلق، بوجهه السخيف، وشاربه الرفيع الأنيق. وبالطبع كنت قلقة. قلقة بسبب ديون لعبة الماهجونغ والمرابين وفقدان عملي المسائي. بالإضافة لقلقي من تلكما المسألتين الصغيرتين، الأصابع المبتورة ووقوعي في حبّ أخي غير الشقيق، ولكن لم يكن من الممكن أن أخبر روبرت بأيّ شيء من هذه الهواجس. وفي تلك اللحظة، دخلت آه كيوم. ووجدتنا نتبادل النظرات من طرفي الطاولة، وارتدت على عقبيها ببسمة تهنئة.

ألحت أمّي على روبرت أن ينتظر للعشاء، ولكن تبيّن أن لديه موعداً ارتبط به. وتنفّستُ الصعداء. شين لم يصل بعد، ومن الأفضل أن لا يلتقيا. فهو لديه مشاعر عدائية نحو روبرت، شيء منها يدلّ على الحسد، وشيء لا يمكنني تسميته، قد يكون نفوراً طبيعيّاً، على ما أفترض.

ولدهشتي، خرج زوج أمّي ليشاركني وداع روبرت. انطلقَت سيارته الضخمة اللماعة ذات لون القشدة، بصوت المكابح الزاعق، تاركة أثر علامة على طرف الرصيف حيث بقينا واقفَين كلانا في الشارع. كان زوج أمّي يلوك عود تنظيف الأسنان، ودون تعابير كعهده دائماً، لكنّني شعرت أن مزاجه كان هادئاً، ومَنحني ذلك الجرأة لأقول: «والد روبرت عضو في هيئة إدارة مستشفى مقاطعة باتو جاجاه».

همهَم.

أضفت: «قال إذا أردتُ أن أتقدم من أجل منحة لدراسة التمريض سيدعمني».

كان هذا جدالاً قديماً محتدماً خضناه في السابق. كان زوج أمّي لا يعتبر التمريض عملاً مناسباً لامرأة شابة، فهو يتضمن التغسيل والاحتكاك الحميم مع جميع أشكال الغرباء، ومنهم الرجال.

فاستدار نحوي وقال: «هذا ليس عملاً مناسباً لبنات عازبات. ولكن بعد الزواج يمكنك أن تتصرّفي كما يحلو لك».

ولم أصدّق أذني. فقلت له: «ما علاقة الزواج بالموضوع؟ العمل هو العمل».

«ستكونين مسؤولية زوجك بعد ذلك».

«وهل يهمّك بمن سأتزوج؟».

جر زوج أمّي عود تنظيف الأسنان من فمه وحدق به. ثم أضاف: «ما دام يكسب قوت يومه، لا أهتم بمن تتزوجين ولا بشكل حياتك بعد ذلك».

أخذت نفساً عميقاً. وأضفت: «هل تعدني؟».

نظر لي العين بالعين. كان من المستحيل معرفة ما هو تفكير زوج أمّي في مثل هذه الأوقات.

قال: «نعم. ما أن تتزوجي فلن تكوني مسؤوليّتي إطلاقاً. ولا حتّى مسؤولية أمك». وأشار للكشط الأسود الذي خلّفته سيارة روبرت على الرصيف. وتابع: «لكن تعلّمي قيادة السيارات بشكل مناسب».

26

باتو جاجاه

السبت، 20 حزيران

وحان يوم السبت. يوم الحفلة. ترك آه لونغ رين يتأخر في النوم، وبلغت الساعة تقريباً التاسعة صباحاً عندما فتح عينيه. كان قد برئ من الحمّى، وعاوده ذلك الشعور الغامض بالتماسك.

أسرع لارتداء بزة صبيّ الخدمة البيضاء. وكان آه لونغ مشغولاً في المطبخ، يحرّك قدراً ضخماً من عصيدة *ريندانغ* لحم العجل المطبوخ على نار هادئة مع حليب جوز الهند، متبّلة بأوراق ليمون الكافير[1]، وعشب الليمون، وحبّ الهال.

سأله: «هل تعافيت من الحمى؟».

وافقه بإيماءة وعينين مشرقتين.

وهمهم آه لونغ بقوله: «من الجميل أن يكون المرء شاباً». وبدا عليه السرور، وبعد أن تناول رين الإفطار، أرسله إلى العمل على التحضيرات الأخيرة في اللحظات الحرجة قبل موعد الحفلة.

كان ويليام موجوداً. منذ اكتشاف آثار أقدام النمر عند أطراف الحديقة، لم يغادر في المساء، وعوضاً عن ذلك، حبس نفسه في مكتبه وراح يكتب المزيد من الرسائل.

وغالباً ما كان رين يتساءل أين تذهب كلّ تلك الرسائل. كان ساعي البريد يأتي أحياناً ويحمل بعضها، ولكن أبداً ليس تلك الرسائل التي لها ظرف سميك وبلون

---

(1) حمضيات من جنوب شرق آسيا. معروف باسم ليمون الكافير.

القشدة والمعنونة إلى امرأة اسمها آيريس. وحيّر هذا التصرف رين، وخمّن أن ويليام يحملها إلى النادي معه ويُلقيها هناك في علبة البريد. أو رُبّما يعطيها لها باليد في كوخ كولونياليّ فاخر. ومهما فكّر فلم يكن يتخيّل شكل السيّدة آيريس هذه. ولم يكن في ذهنه غير سيّدة أجنبية واحدة هي ليديا. وكانت هي الوحيدة التي يتخيّلها تفتح الرسائل، وتشرب الشاي على الشرفة، وتذهب إلى المستشفى مع ويليام. وأظرف شيء بالموضوع أنهما تقريباً متوافقان. إلا أنّ سيده يبتعد عنها دائماً، وكأن ليديا تذكّره بشيء يريد أن يتجنبه. ولا شك أن هذا يخيب آمالها، ذلك أنّه لا يوجد هنا أحدٌ غيره يناسبها، حسب إشاعات الخدم.

حضّر رين المنضدة الطويلة مع الأطباق وأدوات الطعام الفضية والمناديل المنشّاة المطوية بعناية بشكل طواويس. كانت أدوات المائدة من الفضّة الحقيقية، وأتت من بيت عائلة ويليام في إنجلترا. مكسوّة بالزخارف وكل قطعة منقوشة بحرف أ. وأنفق رين صباح الأربعاء كلّه في تلميعها. كلّ ملعقة وكل شوكة كانت فاخرة وثقيلة. وقال آه لونغ إنّها مقياس لمكانة سيّده. كان لدى آخر طبيب عمل بخدمته سكاكين وشوكات من الحديد المقاوم للصدأ، وليس من الفضة الأصلية كهذه. وعندما سأل رين ويليام بخجل هل كانت عائلته معروفة، ضحك ويليام ضحكة قصيرة وقال شيئاً عن الخروف الأسود، ولكن لم يتضح لرين ما علاقة الخروف بالمجموعة الفضية.

وكان ويليام عصبياً اليوم. دخن السيجارة تلو السيجارة، وهو يستند على الحاجز الخشبي للشرفة ويحدق بالأوراق الخضر الزاهية لزنابق القنا، والتي أحاطت بالكوخ. لا بدّ أن السبب هو الملاحظة التي وصلته هذا الصباح بيدِ شابّ سنهالي بعمر ثلاثة أو أربعة عشر عاماً، وتعلو وجهه نظرة متجهمة.

كان رين ينفض ماسحة الغبار أمام الباب عندما جاء الصبيّ على درّاجة هوائية.

قال بلغة المالايو: «*تولونغ كاسي سورا تني بادا أواك بونيا توان*»[1]. أو قدّم هذه الرسالة لسيدك.

---

(1) «Tolong kasi surat ni pada awak punya Tuan.»

كانت ورقة مطوية ومكتوبة بخط اليد. والخطّ طفولي، وغير متقن، كأن الكاتب ليس واثقاً من رسالته. وكانت معنونة إلى *السّيد ويليام*.

سأله رين بفضول: «هل تريد شيئاً من سيدي؟».

وبدا الشاب محتقِراً. وقال: «ليس أنا. ابنة عمي. أخبره أنّها تريد رؤيته فوراً. فساقُها ليست على ما يرام».

وعندها فهم رين، فسأله: «هل ابنة عمك هي نانداني؟ كيف حالها؟». وتذكر رين ابتسامة نانداني الدافئة، وخصلات شعرها الأسود الجميل.

زمّ الشاب شفتيه ثم قال: «هي تريد أن تراه هو. وأعتقد أنّك لا تفهم بهذه الأمور. فأنت ولد صغير. كم عمرك؟».

«ثلاثة عشر عاماً تقريباً».

وضحك الولد الآخر وقال: «لا تكذب. عمرك عشرة أعوام. وربّما أحد عشر».

كان هذا أوّل شخص يحزر ذلك. ولزم رين بالصمت. وبهذا النصر قال الصبيّ الآخر بطريقة وديّة: «أعطه الرسالة، هل فهمت؟ لقد اكتشف أبوها الأمر».

«أيّ أمر؟».

«ليس من شأنك». ثم عبس وانصرف بدراجته. وترك رين يحمل الرسالة. ولأنه لم يعرف كيف يتصرف، دخل رين إلى البيت وقدّم الرسالة إلى ويليام. ولدهشته، لم يفتحها ويليام ولكن دسّها في جيبه.

فسأله: «هل تريد أن أحمل جوابك؟». وتساءل لماذا لم يفتح ويليام الرسالة.

قال ويليام: «لا. إنّه فقط سوء فهم». وذهب ليخرج إلى الشرفة.

في الساعة السابعة مساء وصل أوّل الضيوف، وهم رجال بسترات العشاء الخفيفة الاستوائية المصنوعة من القطن، وسيّدتان ترتديان فستانين جميلين. وكانت ليديا أطول من السيّدة الأخرى، وهي امرأة ناعمة كفأرة وسمراء قليلاً وكانت زوجة لأحد الأطباء اليافعين.

وتجولوا في أرجاء الغرفة الأمامية، يرشفون الشراب الذي جهّزه النادل

المكلّف برعاية هذه الأمسية. وكان صديقاً لآه لونغ، وهو شابّ من هاينان ويعمل في نادي كينتا. وكانت يداه الماهرتان تعصران الليمون وترجّان الثلج حتّى يخضع. ورغب رين أن يتابعه ولكن آه لونغ كان يبقيه مشغولاً بالعمل، لذا لم يكن يلتقط إلا أجزاءً من الحديث الذي يصل لسمعه من بين قرقعة الكؤوس والضحكات.

كان هناك ليسلي، الطبيب ذو الشعر الأحمر والذي يحتفظ بعلاقة طيبة مع ويليام، وكان يقول بإحراج للزوجة الشبيهة بالفأر: «أرجو أنّك لا تمانعين يا سيّدة بانكس، فلم أعلم أنّه سيحضر سيدات في هذه الليلة ورتّبت أموري للترفيه عن النفس وبعض اللهو. أقصد راقصات. ولكن راقصات محترمات».

قالت له: «آه، أنا لا أمانع أبداً». ولكن مع ذلك بدا عليها بعض القلق.

ومرّ رين من قربهما ومعه صينيّة، وتساءل أيّ من هؤلاء الرجال هو الدكتور رولينغز. وبشيء من الذنب طارت أفكاره إلى الإصبع المدفونة في الحديقة. هل لاحظ الدكتور أن العيّنة مفقودة من الرف؟ وتذكر رين تلك الدغدغة الكهربائية، مثل تيّار ساكن يمهّد لرسالة تنبثق من داخله، والتي شعر بها قرب غرفة الأمراض. حرك رأسه من طرف إلى طرف آخر، وهو يتساءل إن كانت حاسّة القطّة ستخبره أن المصدر هو حقّاً الدكتور رولينغز.

ولكن لم يكن لديه وقت لينظر. كانت الطاولة الطويلة الجانبية في غرفة الطعام زاخرة بأطباق *الريندانغ* والرزّ الذي يتبخر بعبير متميز. وأطباق المانغا الخضراء الحامضة المفرومة مع *الكيرابو*، وهو سلطة مخلوطة بالنعناع والكراث، والقريدس المجفف المتبل بالليمون وصلصة *السامبال* اللاذعة. كان ويليام يحب الأطعمة المحلّية وطريقة تقديمها العصرية مع وجبة الكاري، ولكن آه لونغ الأقل مخاطرة حضّر من صدور الدجاجات الثلاث شرائح متبّلة ببصل مفروم وبازلاء معلبة. وكانت اللحوم السود مقليّة مرتين بطريقة *إنشي كابين* [1]، وهناك أطباق زجاجية صغيرة من المخللات والبهارات.

جلس الضيوف الآن، ورافق ويليام السيّدة بانكس الصغيرة ووضع ذراعه

(1) Inchi Kabin دجاج متبّل بعشرة أنواع من التوابل وحليب جوز الهند.

بذراعها، فالسيدات المتزوجات لهن أفضلية على العوانس. ووقف رين على الجانب ليقدّم يد المساعدة، وتفحّص المنضدة الطويلة ووجوه الرجال النشيطة. وهم مشغولون بمدّ الفوط المنشّاة الكتّانية والشرب من الكؤوس. وهي أكواب من الكريستال الحقيقي، كما أخبره آه لونغ.

وجلست ليديا على طرف الطاولة المقابل لويليام. وكانت معظم الوقت تضحك، وتسرق الأنظار من السيّدة بانكس المتحفّظة. ومال ليسلي، وهمهَم بشيء في أذن ويليام، الذي ظهر عليه الغضب.

«فتيات صالات رقص! ما الذي دار بخلدك؟».

«لم أكن أعلم أنّه ستوجد معنا سيدات هذه الليلة». وخفض ليسلي صوته من الخجل بينما ويليام يهزّ برأسه.

«كان عليك أن تُعلمني».

«حسبت أنّني أعدّ لكم مفاجأة سارة».

نادى ويليام على رين وقال له: «أخبر آه لونغ أنّ بعض الفتيات سيحضرن. كم عددهن؟».

قال ليسلي: «خمس. ومرافق. من ملهى محترم».

«حسناً جداً. خمس شابات. حين وصولهنّ أدخلهنّ إلى مكتبي»، وأضاف وهو ينظر إلى ليسلي: «آمل أن لا يتسبّب ذلك لنا بكارثة».

«إنّه مجرّد رقص. ولا شيء أكثر ممّا تراه في صالة فندق سيليستيال هوتيل في مساء عطلة الأسبوع». كان لون شعر ليسلي مدهشاً، بلون زنجبيلي برتقالي لم يشاهده رين إلا في القطط. وأدرك أنّه كان يحدّق باستغراق عندما انتبه إلى الرجلين وهما يراقبان نظراته بدهشة.

قال آه لونغ حينما حضر رين ليخبره هذا الخبر المثير: «صالة الرقص سترسل مرافقاً. إنّهم صارمين بخصوص هذه الأمور، وإلا لن تمكّنوا من إدارة عملهم».

مسح رين طبقاً وقال: «لماذا ذلك؟».

«إنهم لا يريدون مشاكل، على الأقل الأماكن المحترمة لا تريد المشاكل».

«وماذا عن الأماكن غير المحترمة». سأله رين.

«عليك أن لا تفكر بزيارة تلك الأماكن. حتّى لو كنت أكبر بالعمر من الآن».

وأراد رين أن يسمع المزيد عن صالات الرقص، ولكن كان لديه واجبات عليه تأديتها. فالأثاث بحاجة للترتيب والأرض لا بدّ من رشها بالمساحيق لتكون جاهزة للرقص. وعندما كان يجرّ الأثاث إلى الجوانب، انفجرت في صالة الطعام ضحكات رنّانة اختلطت بقرقعة الكؤوس. وتساءل رين هل سيتركون بقايا من الطعام، وعندما كان يفكّر بالموضوع، التقطت أذنه الحادة ملاحظة قويّة اللهجة جاءت من المطبخ.

«*نانتي، نانتي*! لا يمكنكِ أن تذهبي إلى هناك!». كان هذا صوت آه لونغ. ثم تبعه نداء لجوج: «رين!».

ألقى رين علبة مسحوق التالك، وهرع إلى الخلف. هل هنّ فتيات صالة الرقص؟ لو صدق ظنه، لماذا هن في المطبخ؟ ولكن كانت هناك امرأة يافعة واحدة فقط، نانداني. كانت تبدو في غير محلّها تماماً وهي تحاول أن تشرح شيئاً لآه لونغ. وبغضب سدّ الباب بذراع واحدة، وهو يقبض بالأخرى على *ووك تشان*، أو المغرفة المسطحة التي يستعملها لتحريك المقالي.

قال لها: «لا يمكنك إزعاجه الآن. عودي من حيث أتيت!».

والتمعت عينا نانداني عندما شاهدت رين. وقالت: «أريد أن أقابل سيدك».

سألها: «هل تؤلمك ساقك؟»، ونظر إلى الأسفل ولاحظ أن ساقها لا تزال بالضمادة.

ردّت تقول: «لا أبداً. إنّها أفضل حالاً».

قاد رين نانداني إلى الخارج عبر المطبخ باتّجاه المساحة المغطاة. وسألها: «كيف وصلتِ إلى هنا؟».

«ابن عمي أتى بي بدرّاجته الهوائية. يجب أن أكلّم سيدك». وبدت له حزينة ويائسة لدرجة أقلقته. ربّما هي مريضة وبحاجة إلى المعونة الطبية.

وأردفت: «والدي سيرسلني إلى بيت عمي في سيريمبان».

ولم يفهم رين علاقة هذا الكلام بويليام، ولكنه شاهد القلق واليأس في عينيها. فقال: «سأخبره. انتظري هنا».

وعندما استدار آه لونغ بظهره، تسلل رين في غرفة الطعام واقترب بهدوء من ويليام. وقال: «نانداني هنا لتقابلك يا *توان*».

ولكن ويليام لم يحرك رأسه، مع ذلك شحب لونه رغم سمرة الشمس.

وسأل: «وأين هي؟»

«في الخارج. خلف المطبخ».

ولزم ويليام الصمت للحظة. ثم دفع كرسيه إلى الخلف. وقال بمرح للسيد الذي كان على يساره: «سأغيب للحظة فقط». ثم همهَم لرين: «أحضرها إلى الشرفة في الطرف الآخر».

وما أن وقف ويليام، حتّى شعر رين بوخزة حادة، إنذاراً بأن ساعة خفية بدأت تدقّ، وتعدّ الثواني والدقائق التي استغرقها ويليام بعيداً عن ضيوفه. كان من غير المستحب أن يغادر في وسط العشاء، وويليام لا يحب النهايات المفتوحة والفوضى. ولذلك أسرع ليقود نانداني حول البيت باتّجاه الخلف ونحو الشرفة.

كانت تعرج وتتخبط على الأرض غير المستوية. قال رين: «يمكنك أن تتعكزي عليّ». وأبقيا على صوتيهما منخفضين، ولم يفهم رين السبب. ألقى الضوء القادم من غرفة الطعام ظلالاً دافئة على العشب، وارتفعت أصوات الأحاديث منها وأعقبها انفجار ضحكات.

سألت نانداني: «من يكون هؤلاء؟».

«أطباء من المستشفى. هل أنتِ جائعة؟».

هزّت رأسها بالنفي، ولكن رين عزم أن يقدم لها ولابن عمها طبقاً من الطعام قبل أن ينصرفا. وعلى الطرف الآخر، كان ويليام بانتظارهما، وله شكل معتم على الشرفة. ولدى رؤيته أسرعت نانداني بحماس نحوه.

ولم يمكن لرين أن يسمع ماذا يقولان من هذه المسافة، ولكن لا بدّ أن ويليام كان يطلب منها شيئاً، لأنها كانت توافق برأسها من حين لحين. ثم لفّها بذراعه، أو بكلا ذراعيه؟ وجمد رين من المشهد. مدّ عنقه ليرى، ولكنه لم يشاهد الكثير بسبب الظلام. هل كانت نانداني تبكي؟ وتنحّى رين خطوة إلى الجانب وارتطم بشخص ما. إنّه آه لونغ. جاء يتلصّص من الزاوية في الظلام مثل قطّة عجوز تنهشها البراغيث.

وقال بامتعاض: «لماذا أخبرته عن وجودها؟ كان الأفضل أن تطردها».

«اعتقدتها مريضة».

«اصمت! هذا مرض الغرام. ولكنها ليست الفتاة المناسبة لكي يلهو معها ويعبث».

«لماذا؟».

«لأنها ساذجة وستأكل من أكاذيبه الحلوة. كم مضى عليه غائباً عن العشاء؟».

كانت الدقائق تتوالى والمكان الفارغ الذي تركه ويليام بغيابه من حفلة العشاء قد بدأ ينهار على نفسه ويتداعى. وبدأ رين يشعر بالإنذار يتثاءب ويهتزّ، ذلك المنبّه الضعيف بين الضيوف على العشاء الذين يتساءلون أين اختفى مضيفهم كلّ هذه المدة.

واقترب أحدهم من نافذة غرفة الطعام. كانت ليديا، وقالت شيئاً من فوق كتفها عن حاجتها لاستنشاق الهواء المنعش ثم اختفت مجدداً. ولم تكن لدى رين فكرة إن كانت قد شاهدت شيئاً. ربّما لا، ما دام الليل مخيّماً.

وعندما استدار، كان ويليام قد عاد أدراجه، وتعثّرت نانداني وهي تبحث عن طريقها إلى رين. ولتوازن نفسها، وضعت يدها على كتفه. كانت باردة وانتاب رين إحساس سيّئ. كما لو أنّها ليست نانديني الحقيقيّة، وإنما مخلوق آخر عظميّ وبارد ويقفو أثره في الظلام.

واستعاد ويليام مكانه على كرسيه، في اللحظة التي ظهرت فيها الحلويات.

ساجو جولا مالاكا[1] مصنوعة من لآلئ التابيوكا مع حليب جوز الهند وعصير مركّز من سكر جوز الهند البني، وكويه *بنجكا أوبي*[2]، تلك الكعكة الذهبية ذات الرائحة العطرية المنعشة المحضرة من جذور التابيوكا المبشورة. كان آه لونغ قد تفوّق على نفسه، ولكن ويليام فقد شهيته للطعام. وكان يجبر نفسه على ابتلاع الطعام، وهو يتظاهر أنّه يصغي للكلام ويشارك به.

وبعد نهاية التحلية، عاد الضيوف إلى الغرفة الأمامية، واصطفوا استعداداً للرقص. وسمع ويليام السيّدة بانكس تقول بامتعاض لزوجها: «ربّما يجب أن ننصرف إلى البيت باكراً».

وتمنّى لو انصرف الجميع حالاً. فقد هزّه حضور نانداني إلى حفل العشاء. فقد أصبحَت عاملاً لا يمكن توقّعه على نحو منذر بالخطر، ولكن في الأغلب كان حانقاً على نفسه. غبي، غبي، فكّر، والمشاعر المألوفة باحتقار الذات تغمره مجدداً. كان على ويليام أن ينتبه مبكراً إلى أن رغبة نانداني في الحقيقة مجرّد افتتان ساذج. هذا سيّئ. سيّئ جداً. وإذا كان سرقة عناقات قليلة تكفي لتعزيز أوهامها، إذن من الأفضل أن يضع حداً لارتباطه بها.

بالطبع، هو لم يقل أيّ شيء من هذا القبيل لها، فقط كلمات لطيفة وتعابير آسفة نبيلة. كان يأمل أن يقنعها ذلك، ولكن إذا ذهبت إلى مخدومها، مدير المزرعة وهو والد ليديا، وتسبّبت بضجة، فسيكون ذلك مُضرّاً له. يا للسخرية! آخذاً بعين الاعتبار أنّه كان أكثر ذنباً بتورّطه مع أمبيكا. وقرّر ويليام أنّه من الآن وصاعداً يجب أن يقتصر على نساء لقاء أجر مدفوع. وهذا أفضل من اتهامه بإغراء شابات عذراوات. إنّه أحمق، على الرغم من كلّ خبراته. ولكنه لا يستطيع التحكم بنفسه.

وطفَت في مخيّلته صورة رولينغز طبيب الأمراض بشكله المنحني والطويل، تردّد ويليام. فهو ليس خائفاً من رولينغز بعد الآن، ليس بعد أن قرّرت المحكمة أن موت أمبيكا مجرّد حادث مؤسف، مع ذلك لا يزال يحسب حسابه.

---

(1): Sago gula Malacca تابيوكا نشأ مستخرج من جذور نبات الكاسافا. المترجمة.

(2) kuih bingka ubi

هذه الليلة، كان رولينغز يبدو بهيئة لقلق أكثر من أيّ وقت مضى. قال: «أخبار صيد النمر لا تشجّع، ما رأيك؟».

أومأ ويليام موافقاً. وأجاب: «أنا متأكّد أنهم سيحاولون مجدداً».

وحكّ رولينغز فكّه. كانت يداه كبيرتين وبيضاوين، وحاول ويليام أن لا يتخيلهما تشرّحان جلداً بشرياً بمباضع حادة. شيء سخيف. لكونه جرّاحاً أيضاً. وفكّر: *إنما أنا أفتح أجساد الأحياء فقط*. ليس مثل رولينغز، الذي مرضاه جميعهم من الأموات.

قال: «أنت تعلم أن نتيجة التحقيق لم تسرّني».

واحتفظ ويليام بحيادية وجهه.

قال رولينغز: «هناك دائماً حالات مثل هذه، حينما يكون هناك شيءٌ مثير للشبهة ولكن لا أحد يصدّق أقوالك. ومرّت بي قضية مماثلة حينما كنت في أعمل في بورما، وقالوا إنّه سحر، كان الناس يموتون الواحد بعد الآخر، ولكن هذا هراء. وتبين أنّه سمّ زرنيخ انتشر من بئر خاص».

«وماذا تريد أن تقول بصراحة؟».

قال رولينغز: «هذه القضية..»، وراح يجرجر حذاءه على الأرض بذهن غائب، ثم أضاف: «قضية تلك المرأة، أميكا، تركت عندي نفس الانطباع».

«بالتأكيد أنت لا تلمّح أن أحداً ما استأنس نمراً واحتفظ به في بيته!». وأطلق ويليام ضحكة عصبية.

«ليس النمر. بل التقيؤ. هل تذكر ماذا قلتُ لك عندما وجدنا الرأس، كانت هناك بقايا قيء في فمها».

ولم يتحكم ويليام بنفسه. وعادت إلى ذهنه صورة جثّة أميكا المقطعة كما شاهدها، نصف مستلقية تحت الشجيرة. جذع بلا رأس وببشرة مطاطية رمادية.

«لو أنّها تعاطت أيّ شيء سام، فهذا دليل على سبب كون الضحية سليمة. لدى الحيوانات غريزة جيدة، إن باشرت بالمعدة والأمعاء أولاً، وهو ما تفضّله معظم

القطط الضخمة، فإنها ستعلم فوراً أنّه يوجد في الجثّة شيء ما لا تحبّذه. ولكن طبعاً فاريل لم يصدقني. وربّما لن نثبت ذلك حتّى القيام بتحقيقات مسهبة، من هم صحبها، وهل هناك عشاق أو فضائح. كلّ هذا الكلام المحلي عن الشعوذة والسحر والنمور عبارة عن ستارة من الدخان، حيلة لتغطية أمر ما مشبوه».

ورأى ويليام أن الأمسية أصبحت لا تطاق. وابتلع ريقه، وذكّر نفسه أنّه لم يرتكب جرماً. ولكن بأخذ قوّة الرأي العام بعين الاعتبار، فإن ارتباطه مع أمبيكا وناندانى، سيكون كافياً ليُنهي أمره في هذه الحلقة الاجتماعية الصغيرة. وسيتبعه الناس بعيونهم، وسيخفضون أصواتهم إذا دخل إلى غرفة. وقد سبق لويليام أن تذوق مرارة هذه المذلة في دياره.

وأخبر نفسه، *تماسك*. هذه مجرد ثرثرات رولينغز. ولن يخونه حظه. ثم قال وهو يأمل بأن يشتت تفكير رولينغز: «أخبِرني الآن هل مررتَ بتجربة حقيقيّة مع الشعوذة والسحر؟».

قال: «لا. ولكن رأيت ضربات حظّ مدهشة».

«من أيّ نوع؟».

«كما تعلم، في المقامرة، أو أشياء مثل أن لا تصعد على متن قارب قبل أن ينقلب وهكذا».

وللحظة شعر ويليام بشيء يدفعه ليخبر رولينغز عن حظّه الغريب، كم مرّة تفادى المشاكل بتبدل الحظّ فجأة، مثل رؤية خبر نعي رجل المبيعات ذاك فجأة، وهو الشاهد الوحيد على علاقته مع أمبيكا. ولكن من الأفضل أن لا تثرثر كثيراً أمام رولينغز، والذي لا يزال يسرد باهتمام أنواعاً كثيرة من ضربات الحظ.

قال: «الصينيّون يعتقدون أنّه قدرك. أنت كنت في الصين، أليس كذلك؟».

قال ويليام وقد ارتاح لتبدل الموضوع: «أنا مولود في تينتسين[1]. وكان والدي نائب القنصل».

---

(1) Tientsin مدينة في شمال الصين.

نظر رولينغز إلى ويليام باهتمام وقال: «هكذا إذن؟ وهل تتحدث اللغة الصينيّة؟».

«كلا، غادرنا وأنا بعمر سبع سنوات. كان لديّ مربية علمتني اللغة الماندرينية ولكن نسيتها».

لكنه لم ينسَ الشوارع الأنيقة، والأبنية الأوروبية على أطراف الشوارع العريضة في المحميات الأجنبية، ووراءها كوكبة من الأزقة و*الهوتونغات*[1]. وفي ذكرياته، كان الشتاء لا يغيب عن تينستين، تلك المدينة الموجودة في أقصى الشمال في الصين. الشتاء البارد والجاف والجوّ الذي تعبق فيه الروائح النفاذة من إحراق روث الحمير والرياح التي تنفذ للعظام وهي تهبّ من السهوب.

«أستغرب لأنك لم تنتسب إلى السلك الدبلوماسيّ أيضاً».

هناك أسباب لعدم اتباعه خطوات والده، ولكنه لم يرِد أن يخوض فيها. عوضاً عن ذلك، قال: «ما زلت قادراً على كتابة اسمي الصينيّ، ولكن يصعب علي لفظه صحيحاً».

وأخرج قلم الحبر الأسود البراق، ودوّن ثلاثة حروف صينيّة على رقعة من الورق.

سأل ليسلي وهو ينظر من فوق كتفه: «هل هذا بالصينيّة؟». وتجمع الحضور حوله بفضول.

وضغطت ليديا على ذراعه وهي تعبّر عن إعجابها. «أنا لي اسم صينيّ أيضاً. كتبَتهُ لي عرّافة في هونغ كونغ».

قال ويليام بمرح: «استعملت اسمي كإشارة سرية في المدرسة الداخلية لسنوات طويلة. وربّما لهذا السبب لا أزال قادراً على كتابته. رين، كيف تلفظ هذا؟».

وهز رين رأسه بخجل. مع أنّه يتكلم بالكانتونية، لكن لا يمكنه قراءة الكثير من الحروف. ولكن ربّما كان هذا بمقدور آه لونغ. فتوجّه الضيوف وهم يتحدثون ويضحكون إلى المطبخ. رغم اعتراض ويليام، فالأسهل استدعاء الطاهي.

---

(1) hutongs: بالصينيّة، الشوارع الضيقة. المترجمة.

وأرعبه أن يشاهد نانداني تجلس بهدوء على طاولة المطبخ مع طبق من الطعام. ونظر بغضب إلى رين، الذي طأطأ رأسه كالمذنب. لا بدّ أن الصبيّ منحها شيئاً لتأكله. حسناً، لا يمكن أن يلومه على ذلك. *فهو إنسان أفضل مني*، فكّر ويليام، وهو يتمنى بكل قواه أن تختفي نانداني وأن لا تنظر إليه بعينيها الحزينتين.

وشعر آه لونغ بالاشمئزاز من هذا الغزو المفاجئ لمطبخه، ولكنّه مسح يديه بمريوله الأبيض المتجعد ونظر إلى رقعة الورق.

قال: «*وي لي آن*».

«هذا هو». ابتسم ويليام ابتسامة محرجة، وهو يود أن يختفي من المطبخ ومن عيني نانداني بأسرع ما يمكن. «هذا اسمي. ويليام».

«ولكن ما معناه؟». سألت ليديا، ونظرت إلى نانداني، التي انطوت على نفسها في كرسيها.

قال آه لونغ شيئاً بالصينيّة لرين، فأومأ برأسه.

قال رين: «يقول معظم أسماء الأجانب بالصينيّة مجرد تقليد لأصوات أسمائهم الحقيقية، ولكن لهذا الاسم معنى». وأشار رين للحرف الأوسط، والذي كان يبدو معقّداً. وقال: «هذه الكلمة هي *لي*. وتعني أداء الأفعال بالترتيب الصحيح، مثل الطقس. وهذا الحرف، *آن*، يعني السلام. إن أضفت لهما وي، يصبح المعنى في سبيل النظام والسلام».

وخيّم الصمت على المطبخ. ورفع رين عينيه عن الورقة، واكتشف أن الجميع يحملقون به ويبدو عليهم الخوف.

وبدّد رولينغز هذا الصمت بقوله: «هل هذا هو صبيّ الخدمة؟».

أومأ ويليام برأسه بنعم. وعلى الرغم من رغبته الملحة بالابتعاد عن نانداني، التي جلست في مكانها متسمّرة مثل فأر، إلّا أنّه شعر بالزهو لصوت رين الهادئ ولتفسيره الواضح.

«أين وجدته بحق السماء؟».

ودعا ويليام الجميع لمغادرة المطبخ المزدحم. وقال: «إنها قصة طويلة. الأفضل أن أرويها لكم مع كأس *ستينغا*».

وضع أحد الحاضرين اسطوانة في الغرامو فون، وفي الخارج ارتفعت أصوات الكلام والأحاديث. وبقي اثنان من الضيوف في المطبخ: ليديا، التي ذهبت لتتكلّم مع نانداني، ورولينغز. واختلق ويليام عذراً ما لبقية الحضور للعودة إليهما. كان عليه أن يوقف ليديا من الكلام مع نانداني، حتّى لا تشمّ رائحة عن علاقتهما. فليديا متفوقة في هذه الأمور.

ولكن حينما دخل إلى المطبخ، كانت ليديا تستعدّ للمغادرة. ابتسمت وهي تضع عينها بعينيه، مفترضة أنّه جاء من أجلها. وتدبّر رسم ابتسامة ضعيفة حينما شقت طريقها عبر صالة الرسم، وقد غمرته موجة من الشعور بالذنب.

كان رولينغز لا يزال يتكلم مع رين، ولأن ويليام لا يريد أن يتبع ليديا أو أن يتكلم مع نانداني، التي راقبته بعينين بائستين، لذا استند على الباب ليصغي لهما.

كان رولينغز يقول: «أليست كلمة *لي* الموجودة في اسم سيدك هي واحدة من الفضائل الكونفوشيوسية؟».

رد رين: «نعم. وفي الحقيقة اسمي أحدها أيضاً».

قال رولينغز: «هل هذا صحيح؟ أيّة فضيلة منها؟».

«أنا رين». وراح يعبث بكُمّ زي الخدمة الأبيض الذي يرتديه.

فقال رولينغز: «*رين* تعني الإيثار، أليس كذلك؟ و*يي* تعني الاستقامة، و*لي* تعني الطقوس أو النظام. جي هي الحكمة وشين الوفاء». وعدّدها رولينغز على أصابعه وتابع الترنم بالحكمة التالية: «*من دون لي، ماذا يبقى لتميز الإنسان عن الوحش؟*».

وبدا على رين الاندهاش. وسأل: «وكيف تعرف كلّ هذا؟».

«درستها قليلاً». وتأمّل رولينغز رين بإمعان. وفكّر ويليام: رولينغز سلس وسهل مع الأطفال بنحو مدهش، بعكسه. طبعاً، بما أن رولينغز أبٌ بنفسه.

واختلس ويليام نظرة سريعة على الصالة. كانت ليديا لا تزال تقف هناك، وظاهرياً مشغولة بالكلام مع شخص ما. وإذا خرج الآن، ستلحق به وتوجّه كلّ أنواع الأسئلة عن ناندانى ولماذا هي موجودة على طاولة المطبخ الآن.

قال ويليام: «هل تعلم يا رين أن الدكتور رولينغز هو رئيس قسم الأمراض». ولدهشته، جفل الصبيّ قليلاً، كأنّه أدرك شيئاً ما.

سأل رين بتردد: «هل أنت مسؤول عن مستودع قسم الأمراض التابع للمستشفى؟». ولكن لم يكن بموضع يسمح له بتوجيه أسئلة للضيوف.

وبدا الاستغراب والمرح على رولينغز وقال: «لماذا، هل تريد أن تراه؟».

هزّ رين رأسه بنعم. وظهر تعبير محتار على وجهه، كما لو أن رجاءه خاب تماماً.

كانت هناك جلبة عند الباب الأمامي.

قال ويليام بارتياح: «آه، زوّارنا»، ثم سأل رولينغز: «هل سمعت بمفاجأة ليسلي؟».

«وما هي؟».

«فتيات من صالة للرقص في إيبوه. هيا يا رين، افتح الباب».

ولكن رين تسمّر في مكانه. اتسعت عيناه، وارتجف كتفاه الرقيقان والطفوليّان قليلاً. وفكّر ويليام أنّه أشبه بكلب صيّاد. بالضبط مثل كلبٍ خاب أمله في البداية بسبب إشارات خاطئة، ولكنه الآن التقط الرائحة الصحيحة. ثم، مثل طفل يمشي في نومه، غادر رين المطبخ بخطوات مستقيمة، وفتح الباب الأمامي.

27

باتو جاجاه

السبت، 20 حزيران

كنّا خمس فتيات موجودات في ليلة السبت: هوي وروز وبيرل وأنا وفتاة أخرى تدعى آنا. كانت تعمل بالعادة في أيام الخميس والسبت، ولذلك لم أقابلها من قبل. كانت آنا طويلة جداً، أطول مني، وممتلئة بطريقة مغرية. وقالت الماما إنّها اختارت آنا لهذه الحفلة خاصة لأنّ الأجانب لا يحبون الانحناء خلال الرقص.

سألتُها ونحن بانتظار سيارة الأجرة: «هل لهذا السبب اخترتني أيضاً؟». ألقت عليّ نظرة قاسية، كما لو أنّها تعتقد أنّني كنتُ أمازحها، ولكن في الواقع كنتُ جادة جداً.

قالت هوي وهي تضغط على ذراعي: «طبعاً لا. اختارتك لأنك محبوبة».

كانت السيارة التي استأجرتها الماما كبيرة، ولكنها ليست طويلة ومهيبة مثل سيارة روبرت. وجلست آنا في المقعد الأمامي لأنها كانت الأضخم بيننا، وحُشرنا بقيتنا في الخلف. وقاد السيارة أحد الحراس، وكان له خال على خده وهو المدعو كيونغ. فكان بذلك سائقنا ومرافقنا.

قالت الماما: «السلوك الفاحش ممنوع»، وهدّدتنا بنظرة مثل حدّ الشفرة، وتابعت: «فقط ثلاث ساعات رقص، من التاسعة حتّى منتصف الليل. وكيونغ سيهتم بالأتعاب. وإذا وقعت مشكلة، أخبرنه حالاً».

أومأ كيونغ بوجهه العريض الخالي من المعاني. كانت هناك إشاعات إما أنّه ابن أخ الماما أو أحد عشاقها، ولكنّني كنت مسرورة أن حارسنا هو كيونغ. إذ كنتُ أجده شخصاً يُعتَمد عليه، ولم يحاول أن يغازل الفتيات أبداً. وكانت روز

وهوي تضحكان في السيارة. وقالت بيرل إنّها لم تركب سيارة من قبل. وفكّرتُ أنّي إذا ما تزوّجت روبرت، فسأركب كلّ يوم في سيارته القشديّة الرائعة، ذات المقاعد الجلدية الناعمة. ولكن حينها سيتوجّب علي أيضاً أن أفعل أشياء من قبيل أن أجلس في حضن روبرت وأقبّله.

وهذه الفكرة جعلت أسناني تصطك. لم أكن أحب التفكير بروبرت، وإذا وضعت شين بمكانه، ستنتابني فورات من السعادة. ولكن لا فائدة من التفكير بشين، فهذا يدفعني للدخول في نوبة من الخيبة والكآبة.

في النهاية، لم يحضر شين إلى فاليم حتّى يوم السبت. وحينها دُفع الباب ونحن نجلس استعداداً لغداء مبكر.

قال زوج أمي: «اعتقدتُ أنّك ستعود في الليلة الماضية».

«توجّب عليّ أن أعمل».

لم ينظر شين لي، مع أنّني أسرعت لأحضر له طبقاً من المعكرونة المقلية. كان يخامرني شعور سيئ. وربّما فكّر بكل الاتهامات المشينة التي وجهتُها له ليلة الثلاثاء وقررّ أنه يمقتني في النهاية.

سألته أمي: «هل ستبقى معنا في عطلة الأسبوع؟». أومأ شين رأسه بنعم.

باستثناء منطقة رقيقة تحت عينيها والبطء المتزايد الذي ترتقي به السلالم، فقد عادت أمّي تقريباً إلى طبيعتها، ولذلك تراجع شعوري بالذنب عندما أتركها.

قلت لها للتذكير: «سأعود أدراجي إلى إيبوه بعد الغداء».

«ألا يمكن للسيّدة تام أن تستغني عنك حتّى الأحد؟».

في الواقع قالت السيّدة تام أنّه لا ضرورة للإسراع بالعودة، ولكن لم يكن بمقدوري أن أخبر أمّي أنّني أتلقى النقود للرقص مع الأجانب في حفلة خاصة. وقررت أنّها أوّل وآخر مرّة سأقوم فيها بشيء من هذا القبيل، لأنني كنتُ سأطلب قرضاً من روبرت. أن أدين له بالمال أفضل من أن تكون أمّي ضحية للمرابين الذين استدانت منهم المال لتسدّد ديون لعبة الماهجونغ. وكان موعد القسط القادم بعد أقل من أسبوع. أطبقتُ أسناني. إذا اكتشف زوجها الموضوع، لن يكون هناك أبدا

وقتٌ هادئٌ حول طاولة الطعام مثل الآن. فغضبه مفاجئ وغير متوقع؛ وربّما يُبدي برودة تجاه هذا الأمر، وربّما العكس. نظرتُ إلى رأس أمّي المطأطئ، وعرفت أنّه لا يجب المخاطرة.

تمتم زوجها من بين أسنانه: «*سامبال*». ومدّ طبقه حتّى دون أن ينظر لي.

وبينما كنت أغرف له معجون الفليفلة العطري اللاذع، كنت أصغي للكلام الذي يدور بين الثلاثة. سأل شين أمّي عن صحتها وناقش والده حول أسعار القصدير الخام، يا له من حوار مهذّب وطبيعيّ، رغم أنّه يحمل في طيّاته شيئاً من التوتر. ربّما لأنهما كانا ينظران لشين الآن على أنّه ندّ لأبيه. وعلى الأقل فقد كان ندّاً له أكثر مني. التزمت الهدوء، وأنا ألتهم المعكرونة. ولم يوجّه لي شين أيّة كلمة.

وراحت أمّي تتكلم الآن عن روبرت وكيف أنّه يكرر زياراته لنا. فألقيتُ نظرة خاطفة على شين، ولكنه بدا ضجراً. وقالت أمّي بتفاؤل: «سيكون من اللطيف أن ندعو روبرت على العشاء معنا. من باب تقديم الشكر له على كلّ شيء».

قال زوج أمي: «لتكن الدعوة في الجمعة القادمة». وفاجأني كلامه. فهو غير مهتم بصداقاتي. وأضاف: «وستكون معنا في البيت يا شين».

ردّ شين بوجه يخلو من الانطباعات: «بالطبع!».

وتابع زوج أمّي فقال: «أنا وجي لين تكلّمنا أمس». وذُعِرت. ما خطب زوج أمّي اليوم.

ورمقتني والدتي بقلق وقالت: «عن ماذا؟».

«أخبرتُها أنّها إذا تزوجت، يمكنها أن تتصرف كما تشاء. أن تكون ممرضة أو معلمة أو أن تهرب وتنضم إلى السيرك». ووضع في طبقه ملعقة *سامبال* وعصر عليها شريحة ليمون.

رفعتُ عيني وقلت: «لقد قطعت لي وعداً. أليس كذلك؟».

«نعم. إذا تزوجتِ، لن تكوني مسؤوليتي، ولا مسؤولية والدتك أيضاً». ولكن ما أدهشني أن زوج أمّي لم يكن ينظر لي. عوضاً عن ذلك كان يتأمّل شين. بحذر شديد، مثل قطة تراقب سحلية.

وواصل شين طعامه بضجر ولامبالاة. في العطلة الماضية حينما كنّا في المستشفى، طلب منّي بغضب أن أخبره قبل أن أتزوج، لأنّ قراراتي غبية دائماً، ولكنّي لم ألحظ أيّ أثر من ذلك الاهتمام الآن. كانت عيناه باردتين، ولم تقابلا عينيّ ولو لمرة. دفعتُ كرسيي إلى الخلف، وهمهمتُ بشيءٍ ما عن حزم حقيبتي وصعدت إلى الأعلى. ربّما لم يتعين علي أن استغرب. كنت مدركة لمقدار عدم مبالاة زوج أمّي بي، وكيف ينظر لي على أنّني فتاة عديمة النفع، زد على ذلك أنّني لست من لحمه ودمه. ولكن أن يعدني شين ويقصيني عنه مجدداً، لهو أمر مؤلم أكثر مما توقعت. وتساءلت بسري، وليس لأول مرّة، إن كنت أحبه أم أمقته.

وعندما طويت الغطاء القطني الرقيق، دخلَت أمّي إلى الغرفة. وجلَست على السرير وقالت: «هل سيأتي روبرت ليقلّك بسيارته؟».

«كلّا».

«هل تعلمين أنّني سأكون مسرورة جدّاً إن انسجمتِ معه».

«لكنه لم يتقدم لخطبتي». قلتُ باقتضاب.

«وإذا فعل هل ستفكّرين بالموضوع؟».

«حسناً».

ورفعت عينيّ لأشاهد رأس شين يبرز من الباب. وكالعادة، لم يدخل إلى غرفتي ولو مقدار خطوة واحدة. كانت عادة قديمة، ولكن ما أهمّية ذلك الآن ما دام كلانا لا يعيش هنا؟

قال لأمي: «أبي يسأل أين مكان الفواتير».

قالت: «آه، سأُحضرها له». ثم نهضَت وحذوتُ حذوها. إذ لم أودّ أن أبقى وحدي مع شين. وتذكّرت كيف رفعتُ وجهي بتفاؤل في ضوء القمر، وكيف توقّف وتركني وشأني، وملأني ذلك الإحساس بالمهانة الحارقة.

قال بصوت خفيض وأنا أمرّ بمحاذاته في الممرّ الضيق: «جي لين!». ورغم أن الوقت كان ظهراً، وهناك القليل من النور يتسرّب إلى الممرّ ويعبر من أمام حجرتينا الصغيرتين؛ لكنّ الجوّ كان كئيباً جدّاً في هذا المنزل الطويل والضيّق جداً، كما لو أنّك تعيش في معدة ثعبان.

«ماذا؟». قلت له.

«أريد أن أتكلّم معك». وأحنى شين رأسه المغمور بالظلّ نحوي.

«ولكن ليس بعد تلك الخشونة التي أبديتَها لي في الأسفل».

وللحظة قطّب وجهه، ثم تقلّصت زاويتا فمه، وقال: «إنّكِ حقّاً بليدة. ألا تعرفين كيف تتصرّفين كفتاة؟».

فتحت فمي بسخط لأُخبره أنّني في الحقيقة ثاني فتاة مفضلة في ماي فلاور في أيام الأربعاء والجُمع، ولكن أغلقته قبل أن تفلت منّي هذه المعلومة.

ثم قال: «ولكن هذا ما أحبه فيك».

كانت مثل طعنة خنجر. نعم. كان مغرماً بي. مغرماً جدّاً لدرجة أنّه لم يكن يراني كأنثى.

ثم أضاف بصوت جديّ: «هل فعلاً قطع والدي عهداً على نفسه بأن لن يتدخل بشؤونك إذا تزوجتِ؟».

«وقال لا يهمّه من سيكون ما دام لديه عمل مناسب». قلتُ.

«فهمت. هذا شيء جيد، أليس كذلك؟». قال.

لماذا كان شين مسروراً بهذا الأمر؟

ثم اقترب بنظراته منّي وقال: «هل أنتِ على ما يرام؟». وأجبرتُ نفسي أن أبدو مشرقة ومبتهجة.

فقلت لتبديل الموضوع: «فتحت الرزمة التي حصلت عليها من بي لنغ».

رفع حاجبه وقال: «ثم؟».

«أعتقد أنّه يجب أن تخبر دكتور رولينغز عن الإصبع المفقودة. فهي من ممتلكات المستشفى في النهاية».

قال شين: «كنت أنوي ذلك. ولكنّني عندما عدت إلى المستودع للبحث عن الإصبع الأصلية، تلك التي خبأتِها، رأيتُ أنّها اختفت».

«ماذا تعني بكلمة/اختفت؟».

وضع شين يده على فمي وقال: «لا ترفعي صوتك».

قلتُ همساً إذ لم أكن أريد لأميّ أن تسمعنا: «وضعتُها على الرف، خلف الجرذ ذي الرأسين».

«حسناً، لكنها ليست هناك بعد الآن؟».

«هل أنت متأكد؟».

ألقى عليّ نظرة مستاءة وقال: «إذا أخبرتُ الدكتور رولينغز أنّني حددت مكان إحدى الأصابع المفقودة لكنها الآن اختفت مجدداً، فسيعتقد أنّني مجنون. أو سيعتقد أنّني سرقته. لذا من الأفضل أن نتكتّم على الموضوع».

«ولكن إذا فحص أحدهم السجل، فسوف يجدُ أن بعض العيّنات مفقودة. وآخر شخص رتّب الغرفة هو أنت».

ولم أسمع ردّه، لأنه في تلك اللحظة ارتفع صوت خطوات ثقيلة على السلالم ونبّهنا بقدوم زوج أمي. وببطء، تباعدنا. اختفى شين في غرفته، وأنا توجّهت إلى السلالم لأنزل، ومررتُ بجوار زوج أمّي بهدوء كما لو أنّني لم أكن واقفة في الممرّ أناقش مع ابنه قبل لحظة مسألة أجزاء جسم مفقودة.

ولم أتمكّن من منع نفسي من التفكير بالمسألة، حتّى وأنا أجلس في سيارة الأجرة ليلة السبت تلك، نصف مصغية لثرثرة هوي وروز. ثم توقّفت السيارة في ممشى مقوس طويل. كان الجوّ هادئاً ومعتماً جداً، كما هو حال معظم الرحلة، على طول طرقات فارغة تغطّيها أشجار الغابات ويأتي منها حفيف أوراق مزارع المطاط والبن.

وعندما توقّفت السيارة خلف صفّ من السيارات، خيّمت لحظة من الصمت. ثم تحركت روز وبيرل، ووضّبتا ثوبيهما ومسّدتا شعريهما. لم أحضر إلى كوخ خاص كبير هكذا من قبل. والتمعت الأنوار من النوافذ الأمامية. وبدت الأشجار المحيطة والمرج الواسع الأسود كأنها تحاصر البيت. وجاءت أصوات خافتة لضحكات وأنغام غراموفون لتتهادى عبر النوافذ المفتوحة. نظرتُ نحو هوي، ولكنها كانت تنظر للباب. كان هناك تعبيرٌ قاس على وجهها، وأدركت أنّها

تستجمع شجاعتها تمهيداً للدخول. كنّا معتادات على السكان المحليين، لكن الأجانب موضوع مختلف. وبصراحة، كنت مرتعبة.

سمعتها تسأل كيونغ: «من الباب الأمامي أم الخلفي؟».

وقرأ ورقة عليها تعليمات. كان الجوّ معتماً واضطر لرفعها والتحديق بها. ثم قال مزمجراً: «الأمامي».

دق كيونغ على الباب وتولّى شأن التعريفات. ووقفتُ وراء آنا، الفتاة الوحيدة التي تفوقني بالطول، وبلا تفكير تبعتهن بالدخول. كان هناك موجة من الضجيج. وبالكاد عرفت أين أنظر. ولكن لا بأس بهذا، لأنّ أحدهم كان يقودنا عبر المكان إلى أحد الجوانب.

«رين، اذهب مع السيدات إلى المكتب».

انتصب الشعر في قفا رأسي وأصبح مثل إبر. كانت ذاكرتي بالأصوات جيدة، نبرتها ورنينها، ولم يكن هناك أيّ معنى من إخبار نفسي أن كلّ الإنجليز لهم أصوات متشابهة. وكان يجب أن أفكر باحتمال وجود الدكتور ويليام أكتون، طبيب الجراحة العامة في مستشفى مقاطعة باتو جاجاه في هذه الحفلة الخاصة. والآن، أنا عالقة.

انتظرنا في الغرفة الأخرى حتّى أصبحوا جاهزين لنا، وقالت بيرل إن هذا شيء عادي. زد على ذلك، أننا قدِمنا مبكّرات قليلاً. كان كيونغ دائماً دقيقاً في المواعيد. كانت الغرفة مكتباً لإنسان مرتّب جداً، بالنظر لطاولته التي حملت علبة الحبر وورق التنشيف بتناظر دقيق. وكان هناك جلد نمر حقيقي على الأرض. وقالت روز إنّه سبّب لها القشعريرة، ولكن آنا اعتقدت أنّه يبدو محزناً جدّاً بعينيه البلّوريتين الخضراوين الجامدتين بنظرة فارغة. وفكّرتُ: سأكون مثله بعد أن يتعرّف ويليام أكتون عليّ. وداعاً لأيّة فرصة بمهنة التمريض، على الأقل في هذا المستشفى بالذات.

قالت روز: «هل رأيت صبيّ الخدمة الصغير الذي فتح لنا الباب؟ اعتقدتُ أن عينيه ستسقطان من رأسه، لقد كان يثقبنا بنظراته».

لم ألاحظ شيئاً، لكن هوي انتبهت وقالت بنبرة خبيثة: «مع أنّه أصغر من أن يطارد النساء». وكانت تغلي ببطء بطاقة من التوتّر والحماس، وهي ذات الطاقة المتوثّبة التي جذبتني إليها منذ البداية.

قرع كيونغ على الباب وقال: «حان الوقت».

وبعد ذلك، ابتدأنا العمل كالعادة. قادنا كيونغ إلى الخارج، وكنا أشبه بصفّ من جياد الاستعراض، وتحمّل الدكتور الشاب بالشعر الأحمر مهمّة تقديمنا. وهمسَت روز تخبرنا أنّه أحد زبائنها الدائمين.

قال بصوت مرتفع: «أقدّم لكم مضيّفات رقص رائعات من ملهى محترم جداً». وسمعنا القليل من التعليقات. وكان ويليام أكتون يتكلم مع ضيف في المؤخرة، ولحسن الحظّ لم يكن مهتماً. ولاحظتُ وجود سيّدتين، وكنت أعتقد أنّه من الأفضل أن تكون هذه الحفلات مختلطة، لكن لم أكن متيقّنة من كونهما مسرورتان من وجودنا. كانت إحداهما تشبه فأرة، والثانية طويلة جدّاً وجميلة.

وقد وضعت يدها بنُزعة امتلاكيّة على ذراع أكتون وبدأت الرقص. كنّا نحن خمس بنات، ومقابلنا دزينة من الضيوف على الأقل، وكلهم رجال باستثناء السيدتين المشغولتين بالرقص. وتوقّعت أنهما ستقفان بالخلف، ولكن معظم الضيوف كانوا يافعين وجاهزين لوقت ممتع. وكانوا، عموماً، مهذّبين. لم يكن هناك صياح ولا مسابقة على اختيار الفتيات وكأنهنّ قطيع من المواشي، وكنت أخاف في سري من ذلك بغياب نظام التذاكر الصارم المتّبع في صالة الرقص. كان من السهل أن ترى كيف أن حالة من هذا النوع يمكن أن تنتهي نهاية فظيعة.

راقصتُ رجلاً قصيراً له شعر بلون الرمل، ثم آخر يداه تتعرّقان. وكانت الموسيقى سريعة، أسرع مما هي عليه في الفرقة التي تعزف في ماي فلاور، وكانت الرقصات شعبية تعود لخمس أو ست سنوات خلت مثل شارلستون وبلاك بوتوم[1]. وأدركتُ أن هذه الموسيقى وضعتنا على المحك لمعرفة ما إذا

---

(1) Charleston and the Black Bottom شارلستون رقصة انتشرت منذ عام 1923 وسُميت باسم مرفأ شارلستون في ساوث كارولينا. وبلاك باتوم رقصة من رقصات عام 1920 أو عصر الجاز

كنّا جيدات بالرقص. ولكن هذا شيء سخيف، لأننا بالطبع نعرف كيف نرقص.

وعندما توقّفت الموسيقى، كنّا نلهث من شدة الدوران في أرجاء الصالة والتلويح بالأذرع. وهم إذا تابعوا بهذه الوتيرة، فسوف أنهار قبل نهاية الأمسية، ولكن من حسن الحظّ أن الفقرة التالية كانت مخصصة للفالس.

هذه المرة، راقصتُ شاباً صغيراً قبض على خصري بشدة. عليكَ الحذر من أولئك الهادئين؛ لأنهم قد يثيرون المشاكل على نحو ماكر. وحينما كنّا نتابع الدوران حول الغرفة، بقيتُ أراقب ويليام أكتون. إذا حالفني الحظ، ربّما لن يراقصني أبداً، وربّما بسبب كلّ هذا الكحل ومسحوق الوجه، لن يتعرف علي على أيّ حال. وقمنا بدورة محكمة قرب غرفة الطعام، ولمحت قامة صغيرة ببزّة بيضاء.

من المدهش كيف يمكن للمرء أن ينتبه لكل هذه التفاصيل من رؤيتها للحظة قصيرة. مشهد وجه يمرّ بسرعة قبل اختفائه، مثل البرق. لم أصدق عيني في البداية. وأردت أن ألتفت، لكن شريكي في الرقصة كان يدور بنا بالاتّجاه المعاكس.

قال: «ما الأمر؟ تبدين كأنّكِ رأيتِ شبحاً».

وهذا هو بالضبط ما شعرت به. الوجه المربع الصغير، والعينان الجادّتان والشعر المجزوز قصيراً. إنّه الصبيّ الصغير الذي رأيتُه في أحلامي. وتعثّرت وأوشكت أن أسقط.

قلت له: «لا. أبداً».

وتأرجحنا حتّى استدرنا، ولكن المدخل كان فارغاً الآن. ولا بدّ أنّها نوبة هلوسة.

«كم أنتنّ نحيفات أيتها الصينيّات». قال شريكي وهو يبتسم. وتسلّلت يده إلى أسفل ظهري. وأضاف: «هل أخبرك أحد أنّك تشبهين لويز بروكس بالضبط؟».

وكانت أنفاسه مشبعة برائحة *ريندانغ* العجل. واستدرت بحدّة، وأعدت تسوية المسافة بيننا. وألقيت نظرة أخرى على الممرّ المؤدي لغرفة الطعام. لا يزال فارغاً. شبحي الصغير اختفى.

وجاء صوت ويليام أكتون يقول: «إنها راقصة جيدة، أليس كذلك؟ هل يمكنني أن أستعيرها؟ حقّ المضيف كما تعلم».

وانزعج شريكي ولكنه تخلى عنّي. ولم أكن متأكدة هل يجب أن أكون سعيدة لذلك أم لا. إجمالاً، كانت الحال تسير نحو الأسوأ، رغم أني شعرت بالامتنان لأنّ أكتون أنقذني من عناقٍ مشين.

ورقصنا بصمت، كتفاي مشدودان ورقبتي متيبسة من الحذر. كان راقصاً جيداً، مثل معظم الأجانب. لا بُدّ أنهم جميعاً تلقّوا تدريبات كافية.

وعندما بدأتُ أعتقد أن ويليام أكتون لم يتعرف علي، قال: «والآن هلا أخبرتني كيف حالكِ يا لويز؟».

28

باتو جاجاه

السبت، 20 حزيران

تابع رين الدخول والخروج من المطبخ، لحمل الأطباق من غرفة الطعام. كان هذا معذِّباً لأنّ الإشارة التي شعر بها في المستشفى وصلت إلى هنا. وكانت تناديه منذ أن فتح الباب الأمامي. رنّت أذناه واقشعرّ جلده. مرّت فترة طويلة بعد وفاة يي. ثلاث سنوات من الوحدة، كان فيها كمنارة وحيدة في قفر موحش، ولكن الإشارة الآن تعود مجدّداً.

وجاء في ذهنه: *يوجد هنا شخص مثلي*. وتمنّى لو يترك كلّ شيء ويفتش عنه، لكن آه لونغ كان يكلّفه بالمهمّة تلو الأخرى.

حينما فتح رين الباب قبل قليل، دخلت الفتيات بحفيف التنورات والهمسات الناعمة والضحكات المكبوتة، وعبرن من أمام رين بصور ضبابية، وكان يحدّق مذهولاً وغير قادر على تحديد مكان صدور الإشارة.

وها هنّ الآن يرقصن في الغرفة الأمامية حيث يعزف الغراموفون. كان الهواء مكهرباً بأعصاب وفضول غريزة الحيوان عند الضيوف. وكان بإمكان رين أن يشعر بالإثارة الضبابية وهي تتخلّل هذه الليلة بمزيد من الارتباك.

كان يتلصص على الغرفة الأمامية كلما أمكنه أن يختلس خطواته بعيداً عن آه لونغ، وكان ذلك يزيد من انزعاج آه لونغ. أمّا النادل الصينيّ الآخر فقد نظر من فوق كتفي رين.

ثم سأل وعيناه على البنات: «أيّة فتاة منهن تلفت نظرك؟».

وقطب رين وجهه، وهو يتلمّس طريقه بحدس القطّة، والشعرات الخفيّة تطفو أمامه مثل أذرع قنديل البحر. وأجاب: «لست متأكداً. لا يمكنني أن أحدّد».

كان هناك خمس فتيات، كلهنّ صينيّات، ويرتدين أثواباً غربية وعصرية. أما الموسيقى فقد تماوجت بشكل وبائي، ومعها زادت سرعة الرقص. كن يثنين ويقاطعن سيقانهن كالمقصات ويلمسن ركبهن، وترتفع الأذرع عالياً. ولهث الرجال في هذا الحرّ اللاهب، وتخلصوا من السترات الواحد بعد الآخر.

قال النادل مع ضحكة: «أعجبتني تلك». وأشار لفتاة بثوب زهري وحاجبين مقوّسين يبدو عليهما الثقة بالذات.

«وترقص جيداً أيضاً». أمّا أطول فتاة، ذات الصدر الذي يهتزّ عندما ترقص، فقد رفعت من حرارة رقبة رين من الخلف، وسببت له الارتباك دون سبب مفهوم. ولكن لم تكن أيّة واحدة منهما هي الفتاة الصحيحة.

وازدحمت الغرفة بأشخاص أطول من رين. من لم يكن يرقص منهم تسكّع في الغرفة وهو يضحك ويصفق كلما تبدلت اسطوانة الغراموفون.

قال النادل: «آه. انظر لتلك الفتاة ذات الشعر القصير. لديها ساقان رائعتان». كان يمتّعُ نفسه، وقد مال برقبته لينظر إلى فتاة نحيفة بثوب أزرق باهت، وشعرها مجزوز قصيراً ويكشف عن خلفية رقبتها الطويلة.

ودقّ قلب رين بعنف. حاجبان مستقيمان، وعينان واسعتان، وشعر أسود مقصوص بخصلات تطير وهي تتمايل بجانبه على ذراع شخص آخر. وارتفع الطنين في رأسه حتّى أنّه ترنّح، واضطر للاستناد على الجدار. أما هي فنظرت إليه مباشرة، واتسعت عيناها وهي تتعرّف عليه.

توتّر رين، وأراد أن يهرع نحوها ويقبض على معصمها، ولكن ظهر أمامه وجه آه لونغ المتجهم، وهو يهسهس مثل أوزة مسنّة آمراً رين والنادل بمتابعة واجباتهما، ولكن رين بالكاد كان يستمع لإرشاداته.

قال آه لونغ بامتعاض: «ما خطبكما؟».

قال النادل: «نحن نحظى بالقليل من المرح». ولزم رين الصمت.

كيف تأتى لها أن تعرفه؟ هل تشعر بنفس الإشارة الكهربائية التي يشعر بها؟ كلا، إنّه شيء آخر، لقد عرفَته بالنظر. وأربكه التعبير المصدوم المطبوع على وجهها.

قال آه لونغ: «الحبّ غير مسموح به. يكفينا ما رأينا منه في هذه الليلة». وأشار برأسه نحو المقعد الفارغ عند طاولة المطبخ حيث جلست نانداني منذ نصف ساعة خلت.

سأله رين: «هل ذهبت إلى البيت؟». كان الظلام يخيّم في الخارج، والهلال في كبد السماء بالكاد يضيء بلون الفضة. وذهب إلى باب المطبخ الشبكي وفتحه وأصبح بمواجهة الشاب السنهالي الذي قدّم له الرسالة.

قال دون مقدمات: «أين نانداني؟ طلبت منّي العودة لآخذها معي، وها أنا ذا». واندفع إلى المطبخ. وهو يصيح: «نانداني».

قال آه لونغ: «إنها ليست هنا. لقد عادت إلى بيتها».

«ولكن لا يسعها أن تبتعد مشياً، فكيف ذهبت إلى البيت؟».

كان على حقّ. كانت نانداني تعرج، وتتكئ على كتف رين حتّى عندما أخذها حول البيت لملاقاة ويليام قبل قليل. عبس آه لونغ وقال: «حسناً، مع ذلك غادرت قبل حوالي عشرين دقيقة».

وبلا أيّة كلمة، غادر ابن عمّها مجدداً. وراقب رين الباب المتأرجح خلف الشاب، وتساءل هل يجب أن يقدم له المعونة للبحث عنها.

قال آه لونغ: «ربّما هي تنتظر في الخارج، ولكن هيا الآن اذهب واجمع الكؤوس الفارغة».

وذهب النادل الآخر ليهتم ببار المشروبات. وتبعه رين، والشعور بعدم الراحة يعتصر بطنه. كان الليل معتماً جداً. هل نانداني في الخارج، وترمي نظراتها المتشوقة من وراء النوافذ المفتوحة؟ ولكنه نسيها وهو يعود بخُطاه إلى الغرفة الأمامية، لأنّ الفتاة التي ترتدي الثوب الأزرق الباهت ترقص مع ويليام أمام عينيه.

وتمايل الاثنان مثل زهرتين تسبحان مع التيار، وشاهد رين سيّده يضحك. ولكنها لا تبتسم. كان وجهها جاد الملامح، وتتكلم بإيجاز شديد مع أنّها تتقن الرقص. كلّ الفتيات المحترفات مثلها. وحتى رين يمكنه أن يؤكّد ذلك.

ولاحظ ويليام نظرته ودهشته، وأشار له بذقنه. ونظرت الفتاة إليه وراحت تحدّق به. ها هي مجدداً، تلك الشحنة الكهربائية غير المحتملة والتي تدعوه ليجرّها من يدها. كلّ مرّة يدوران فيها أمامه، كانت تلتفت برأسها نحوه، كأنها تريد أن تتأكّد من وجوده.

وقال ويليام شيئاً لها. وكان يرى فمها يتحرّك، ولكن ماذا قالت له؟ ولماذا أحنى سيده رأسه، كأنّه يفكر بشيء؟ وملأت نانداني تفكير رين. واعتقد أنّها تنتظر في مكان ما في هذا الليل البهيم وارتفع شعور بالاحتجاج في صدره. ليس من حق ويليام أن يتصرف هكذا، ليس مع الفتاة ذات الرداء الأزرق، والتي عقدت حاجبيها المستقيمين الأسودين.

وحاول أن يُفهمها، وأن يُفهم ويليام بنفس الطريقة التي يمكنه بها أن يشعر بأثر الطاقة التي تغمره في المستشفى، ولكن مهما حدّق بهما لم يكن يجد شيئاً، فقط بقعة غريبة فارغة. كان رين قد انتبه قليلاً إلى ضجة ما تأتي من المطبخ. وتردّد، إذ لم يكن يريد أن يخلي مكانه عند الباب، ثم تراجع ببطء منصرفاً.

في المطبخ، كان ابن عم نانداني يصيح غاضباً على آه لونغ عن فقدان أثرها مع أنّه فتش عنها في كلّ الأرجاء.

وكور آه لونغ قبضته داخل مريوله الأبيض المتّسخ وقال: «وما شأننا بذلك؟».

قال: «لقد كانت هنا، وإذا اختفت، فهذا خطأ سيدك».

قال رين: «سأبحث عنها. ربّما هي عند الشرفة الأخرى».

وألقى آه لونغ على رين نظرة انزعاج وقال: «ليس أنت. أنت صغير للغاية. يا آه سينغ!». ونادى على النادل المؤقت وقال له: «اذهب معه وساعده بالبحث عنها. واحمل معك هذا المصباح».

وانخفض حاجبا آه لونغ الغزيران للأسفل، وفهم رين فجأة قلقه. في مكان ما، في الظلام الموبوء بالسراخس والخشخشة، ترك وحشٌ مفترس آثار أقدام عميقة على الأرض الندية.

وصاح رين بقلق: «وماذا عن نانداني؟».

قال آه لونغ: «لا أريدك أن تخرج. ربّما بلغت نصف الطريق إلى بيتها».

إنه افتراض معقول، وعموماً هناك الآن شخصان يبحثان عنها. وعاد رين إلى الغرفة الأمامية ليأتي بصينيّة الكؤوس الفارغة. كان الهواء كثيفاً من دخان السجائر والعرق. وكان ويليام يرقص مع فتاة أخرى الآن، الفتاة ذات الحاجبين المقوسين والرداء الزهريّ. وتردّد رين، وتساءل هل يبلغه باختفاء نانداني، ولكنّه أعاد النظر في الأمر. إذ سيزعجه بهذه المقاطعة وحسب. وحينما استدار لينصرف، سمع الفتاة ذات الرداء الزهري تكرّر بصوت مرتفع اسمها لويليام. قالت بإغراء: «هوي. اسمي هوي».

وبدا على ويليام أنّه يمنح لهذه الفتاة نفس القدر من الاهتمام الذي منحه لفتاة رين ذات الرداء الأزرق، ولسبب ما شعر رين بالراحة من هذا.

وطلب أحد الضيوف شراباً آخر، ولكن النادل، الذي من المفترض أنّه يعتني بالبار، كان في الخارج يبحث عن نانداني. ورين يعرف كيف يحضر نوعاً واحداً من الشراب، كأس ويسكي *الستينغا*، وحضّره بالطريقة التي يفضّلها ويليام، مع الكثير من الجوني ووكر حتّى أصبح للكأس المتجمدة لون الشاي الصينيّ. وأدهشه أن ينادي سيده أحد الضيوف، ثم وجد نفسه محاطاً بوجوه ضاحكة فيما هو يمزج الشراب كأساً بعد آخر.

قال رين: «آسف، لا يوجد مزيد من الثلج». وحمل دلو الثلج وملقط الثلج براحة عظيمة. وشقّ طريقه بين الحضور، وسار بخط مستقيم إلى المطبخ. وتمنّى أن يكون النادل ونانداني قد عادا أدراجهما. ولكنّه وجد آه لونغ فقط يمد قامته النحيلة من الباب الخلفي والقلق يغمره.

وانقبضت معدة رين من القلق وقال: «هل وجدا نانداني؟».

«ليس بعد».

«دعني أحاول». كان رين متيقناً من أنّه سيجدها. فقد ارتجفت حاسّة القطّة مرّة، ومرة أخرى.

وعبس آه لونغ، وانحنت رقبته المتغضنة كالسلحفاة. وقال: «فتّش في البيت. ربّما عادت من أحد الأبواب الجانبية».

وهرع رين بقدمين صامتتين. كان يعرف كيف يتجول دون أن يمرّ بالفضاءات المأهولة حيث انتشر الضيوف، للتسكع والكلام. تفحّص الصالة الخلفية، والممرّ الفاصل بين المكتب وغرفة الطعام. وتوقّف عند كلّ نافذة، ونظر للخارج، ربّما كانت نانداني تنتظر على الطرف الآخر، في الظلام. هناك الكثير من القصص عن نساء منتقمات يأتين في الظلام، يسمونهن نساء *البونتيانات*[1] وهي امرأة تموت خلال الولادة أو الحمل وتشرب دم الرجال. وتبدو مثل سيّدة جميلة بشعر طويل ولا يمكن قهرها إلا بسد ثقب في مؤخرة عنقها بمسمار حديديّ. أو ربّما بتشذيب أظافرها الطويلة ووضعها في ثقب مؤخرة رقبتها؟ رين لم يكن متأكداً من ذلك إلا أنّه كان متأكداً من شيء واحد، أنّها غاضبة على الرجال. وهناك أيضاً مخلوقات أخرى، منها أرواح الأطفال مثل *التويول*[2]، الذي يعمل خادماً عند الساحر، ويسرق ويؤدّي المهام التي يأمره بها. وذكّره ذلك بمهمته المزعجة والثقيلة. وهزّ رين رأسه بحركة عنيفة كأنّه كلب. كان هناك شيء ما حيال هذه الليلة، من الضيق المقلق، وضحكات الراقصات، ووجه نانداني المتألم، كلّ ذلك كان يرسل في عموده الفقري رعشة طويلة.

وهدأت حاسّة القطّة، والخيوط الملتوية الخفية تراجعت كأنها تخاف أن تخترق هذه المساحات الصامتة خارج المنزل. كلّ شيء لفّه الصمت، ويترقّب مرتعشاً. سيكون أسرع إذا ركض، لكن الركض خيار أسوأ، وكأنه بهذا يستسلم لمخاوفه.

وحينما بلغ مكتب ويليام، تجمّد بمكانه، ووضع يده على الباب. كان جلد النمر على الأرض، فاغراً فاه بجمود، هذا ليس ما يريد أن يراه الآن. ليس في هذا الظلام، تحت نور القمر الهزيل الذي يشعل العينين الميتتين وهجاً.

وأفلتت من رين آهة. وفكر: *لا أود أن أكون وحدي يا بي*. وحدق عبر الممرّ باتّجاه بقعة مضاءة وساطعة تأتي من غرفة الرسم. وها هي، الفتاة ذات الرداء الأزرق، تتكئ على الجدار. ونظرت إليه نظرة مباشرة. وحملقت فيما حولها، ثم

---

(1) Pontianak

(2) toyol

انسابت في الممرّ إلى جانب رين.

«أنا جي لين، من أنت؟». كان صوتها خافتاً ووديا.

«أنا رين». وانقبض صدره. كان يخبر نفسه: *واحد، اثنان. تَنَفَّس*

«رين.. بمعنى الإيثار؟».

«نعم».

«ولكنّك أصبحت كبيراً الآن!». وتأمّلته بعينين واسعتين تعلوهما الدهشة. ثم تمالكت نفسها وقالت: «أقصد تبدو مثل شخص كنت أعرفه. هل تعرفني؟».

ولم يعرف رين كيف يردّ على سؤالها. عملياً هو لم يشاهدها من قبل ولكنه يعتقد بكل قلبه أنهما ينتميان لبعضهما البعض. كان الشعور قوياً جدّاً حتّى أنّ حنجرته اختنقت. وأخيرا قال: «كلّا». وكان كأنّه يعترف بخسارته.

سألته: «كم عمرك؟».

«أحد عشر». هذه أوّل مرّة يخبر بها أحداً عن عمره الحقيقي منذ غادر الميتم. كانت جميلة لحد مبهر عن قرب. أو على الأقل هكذا هي بنظره. ولكن ربّما يقول أحدهم إن شعرها المجزوز قصيراً، وقوامها النحيف، يجعلانها تشبه الصبيان.

سألته: «هل لديك أخ؟».

«نعم. كلّا». وارتبك رين وهو يردّ. العمّة كوان قالت له أنّ عليه أن لا يخبر كلّ إنسان يقابله أن لديه أخاً فهذا يسبب الارتباك للآخرين. ولكن يي لا يزال موجوداً بالنسبة له. وفي النهاية قال: «نعم».

سألته: «ما اسمه؟». وتأمّلته باهتمام، وكأن هذا امتحان ما وأراد رين من كلّ قلبه أن ينجح فيه.

ثم قال: «يي».

تنهدّت تنهيدة طويلة. وأخيراً قالت: «رين ويي. حسناً، جي في اسمي هي جي الحكمة. هل هذا يعني لك شيئاً؟».

انفجر قائلاً: «*آه جيّ*». أختي الكبيرة. تلك هي الطريقة المناسبة لمناداتها مع أنّه

يفهم بالضبط ماذا تقصد. إنّهما جزآن من مجموعة، هي وهو؛ وهو يعرف ذلك منذ البداية. وغمرته موجة من البهجة، وراحت تضحك، والتمعت عيناها. وقالت بحماس: «وأخوك يي. دعني أحزر. هل هو أصغر منك؟ بعمر سبع أو ثماني سنوات؟».

«نعم». قال رين وأوشك أن يخبرها أن يي أصغر منه لأنّ الموت وسع الفجوة بينهما، لكنّه لاذ بالصمت، ولم يعرف كيف يذكر هذا. ليس هنا، في الظلّ المبهم الذي يأتي من النوافذ.

ثم سألها: «هل تعرفين أخي؟».

وحان دورها بالتردد، شعرت وكأنها أفصحت بالكثير. وقالت: «لست متأكدة. ولكن أنا لدي أخ أيضاً. واسمه شين. وهذا يعني أننا أربعة من خمسة».

«في الحقيقة الخامس موجود. إن وضعت بالحسبان سيدي».

«ماذا تعني؟».

«له اسم صينيّ كذلك، وأخبرنا به الليلة. وجزء منه هو *لي*، الذي يعني الطقوس».

وبدا عليها الاضطراب لسبب من الأسباب وقالت: «هل أنت متأكد؟».

أجاب: «نعم، لكن ربّما لا يصلح لنا، باعتبار أنّه أجنبي».

وظهر آه لونغ في الممرّ ونادى: «رين!».

ودار رين على عقبيه والذنب يدفنه. من المفروض أنّه يبحث عن نانداني، لا أن يكلم شابة غريبة. فصاح: «أنا قادم!». ولكن آه لونغ وضع يده على كتف رين وسأله: «هل وجدتها؟».

«لا». ولم يفهم رين لماذا كان آه لونغ قلقاً جداً.

«لا تخرج الآن».

«لماذا؟».

«*آياه!* لأنّ النمر في الحديقة. آه سينغ وذلك الصبيّ ابن عم نانداني أقسما أنهما شاهداه الآن».

«أين؟».

«في نهاية الحديقة حيث تُدفن النفايات، هل تذكر آثار مخالبه؟ يفضّل أن تبقى في الداخل حالياً!».

«وهل أخبرت سيدي؟».

«ذهب ليأتي ببندقيته».

وسألت جي لين: «ليقتله؟».

ونظر إليها آه لونغ كأنّه ينتبه لوجودها لأول مرّة وقال: «ليخيفه ويبعده، حتّى يتمكّن الضيوف من الانصراف. لا يمكن قتل نمر بهذا النوع من البندقيات».

واستدار على عقبيه واختفى. وأدرك رين أن الجوّ في البيت تبدل. ارتفع الصخب، وهناك صيحات خوف وصيحات إثارة وتشويق. *نمرا إنّه نفس النمر الذي انتظره الجميع في النادي في تلك الليلة؟* وكانت السيّدة بانكس تنوح أمام زوجها، وتقول كنت *أعلم أننا كان يجب أن نغادر باكراً*، ولكن كان الرجال متحمّسين. ولهذا السبب أصلاً أتوا إلى الشرق: مغامرات من نوع نمور في الحديقة، وفتيات راقصات شرقيات، وثعابين كوبرا في أسرتهم. وقال رولينغز بصوت مرتفع: «ربّما انصرف الآن». ولكن لم يشأ أحد أن يصدقه.

وانتابت رين مشاعر مضطربة وكئيبة. هناك مصادفات عديدة الليلة، وإشارات إنذار عديدة أيضاً. وتوجّب عليه أن يمنحها اهتمامه، ولكن أصابه الشرود. والآن نانداني مختفية، والنمر ينتظر، تماماً حيث وجدوا آثار أقدامه أمس. ما نوع هذا الوحش الذي يعود بهذه بسرعة مع أنّه لا توجد فريسة؟

رين يعرف إنّ تلك البقعة هي حيث دفن الإصبع. ربّما إذا أعاد الإصبع، سيعيد النمر لهم نانداني. وبصيحة مخنوقة، اندفع إلى الشرفة.

وتبعته جي لين وقبضت على كُمّه وسألته: «ماذا تفعل؟».

«يجب أن أستعيدها». قال ولديه إحساس غريب أنّها ستفهمه: «إنه يبحث عن الإصبع».

«أيّة إصبع؟». قالت في الضوء الخفيف ووجهها يصبغه شحوب أخضر.

«إصبع الدكتور مكفارلين! لا بدّ من إعادته».

وبحركة حادة، حرّر رين نفسه وأسرع بالخروج من باب الشرفة.

الآن هو الوقت المناسب لإحضار الإصبع، قبل عودة ويليام مع البندقية. إنّه لا يخاف من النمر، أخبر نفسه. كان هذا النمر شبحاً يهوى اصطياد النساء ذوات الشعر الطويل فقط.

ولكن كانت هذه أكذوبة، لأنه كان خائفاً. رأسه يدقّ، ورئتاه تحترقان. وكان رين متيقناً، حتّى نخاع عظامه، أنّه تبقى القليل من الوقت لناندانى. وربّما هي ميتة. ولكن كلا، إن عودة النمر هي إشارة. إنّها آخر فرصة أمامه.

شهق وهو يقول: *أنا آسف*. كان عليه أن يطيع رغبة الدكتور مكفارلين منذ البداية. لقد وعده، أليس كذلك؟ وهذا ما يحصل حينما تخون وعدك.

في الخارج، كان للعتمة عبيرٌ أخضر رطب، كما لو أن الأرض نفسها تتنفس. وأسرع رين يتخبط فوق المرج، متوجها إلى مكب النفايات. وأنفاسه تصفّر وهو يتعثر ويتخبّط وينهض. وخلفه صيحات بعيدة. وخبط أبواب وفتح نوافذ.

وها هو الآن ينبش الأرض الطرية، ويُنحّي جانباً الحجرة التي استعملها كإشارة. دون مجرفة، لا شيء معه سوى يدين عاريتين وأظافر مكسورة.

كان يخبر نفسه: *أسرع، هيا أسرع!*

ثم سمعه، ذلك الشخير المزمجر. جاء خافتاً لدرجة أنّه جعل الهواء يرتعش؛ كان بإمكان رين أن يشعر بارتداد ذبذبات الصوت في عظامه. وتجمّدت كلّ عضلة في جسمه، وانتصب الشعر الذي على رأسه فرقاً وذعراً. في هذه اللحظة، لم يعد رين صبياً أو حتّى إنساناً. إنّه لا شيء، مجرّد قرد أصلع محاصر على الأرض.

واستمر الزئير يتوالى بدمدمات ثابتة ملأت الفضاء. وشعر بالدوار، ولم يعد يعرف من أيّة جهة يأتي. ثم سمع نباحاً كالسعال، وقعقعة خشنة قطعت الصمت فجأة.

واستطاع أن يسمع الصيحات الخافتة التي تأتي من جهة البيت. صوت فتاة تصيح: *توقّف، لا*.

لكن رين تابع النبش مثل مجنون. وأمكنه أن يشعر أنّه قريب، ولمس حافة العلبة الرقيقة. وبإبهامه أزال الغطاء. إنّها مفتوحة الآن وسقطت القارورة الزجاجية في يده المتوسّخة بالتراب. وأطلق رين سراح تنهيدة راحة. وجلس القرفصاء، واستدار ليواجه البيت. ثم فجأة، هناك ومضة وبعدها زمجرة تصم الآذان.

سقط رين على الأرض بعينين مفتوحتين على اتساعهما. كان تحت تأثير الدهشة البالغة، ولم يشعر بأي شيء سوى الخدر. ورفع يده اليسرى، كانت رطبة وزلقة وتبدو مثل لحم نيء. ثم أصابه الألم في جانبه. وانطوى على نفسه، وتغضن مثل ورقة من صحيفة قديمة. وآخر شيء رآه هو فتاته ذات الرداء الأزرق. كانت تحمله في حضنها، والدم يغطّي ثوبها الجميل. وفكّر إذا كانت هي نفسها فلا بأس. ثم أودع القارورة الزجاجية التي كانت بيمناه السليمة في يدها.

29

إيبوه

السبت، 20 حزيران

كيونغ هو من تمكّن من إنقاذنا في تلك الليلة. بعد أن أدرك أنّه توجد مشكلة، من صوت الصياح وما أعقبه، ثم طبعاً تلك الرصاصة، وصوتها الذي اخترق هدوء وسكون الليل. وهو من فتّش عنّي مع بقية الحضور في ظلام المرج وحملني لأنني كنتُ معزولة عن البقية. لا توجد عندي ذكرياتٌ بهذا الخصوص. كلما أُغلق عينيّ أجد نفسي هناك. وأرى ومضة بيضاء مكتومة، وبعدها زعيق حاد لحيوان صغير.

كان ثوبي مغطى بالدم، بقع داكنة تلوّث القماش الأزرق الباهت الحريري. ولم ترغب أيّ من الفتيات الأخريات الجلوس على مقربة مني. تكوّمن في الجانب المعاكس من السيارة، وتبادلن الهمسات. وكانت بيرل تبكي. فهي أم لولد صغير، كما أذكر.

كان علي أن أمنعه، ذلك الولد حينما انطلق بسرعة الصاروخ من باب الشرفة، كان يجب أن أعود أدراجي إلى البيت لأحذرهم أنّه خرج، ولكنّني بغبائي تبعته، وأنا أتعثر في ظلمات تلك الحديقة التي لا أعرف عنها شيئاً، وكنت أترنّح وأسقط وأدور حول البيت. ليتني لم أهدر كلّ ذلك الوقت! ثم أخيراً ظهرت قامة سوداء لذلك الرجل القادم من البيت ومعه بندقية. وعرفت ذلك فوراً ـ إذ كان أحد أصدقاء زوج أمّي معتاداً على صيد الخنازير البرّية ـ من القامة النحيفة كعصا والطريقة التي تأبّط فيها البندقية بإحكام تحت ذراعه.

«توقّف!». صرختُ وهو يشهرها ليُسدد. وقلت: «لا!».

ولكن فات الأوان.

وانبثقت الأصوات العالية وراءنا تسأل: *هل أصبته بمقتل يا أكتون*؟ ولكنّني كنت أعلم مسبقاً على ماذا أطلق النار. وأسرعتُ من جانبه، أبكي وأشهق. وشقّ الطاهي العجوز طريقه وبيده فانوس، ووجه رمادي. وفي دائرة ضوء الفانوس، تداعى الولد على الأرض.

صغيرٌ جداً. كان ذلك أوّل شيء مرّ بخاطري وأنا أنظر للصبيّ الصغير المسكين، وظلال الأشجار والشجيرات تتأرجح فوقه. لا بدّ أنّه كان يحفر، لأنّ ذراعيه توسّختا حتّى المرفقين بالتراب. وعلى وجهه نظرة دهشة بالغة. ولم أتمكّن من النظر لجانبه الأيسر وذراعه اليسرى، وهما مبتلّتان بالدم الذي له لون أسود في هذا الضوء. تلك الذراع، هل بقي منها شيء يمكن أن يُسمّى كفّاً؟ وكنت أركع على ركبتي بجواره، على الأعشاب الخشنة والأرض المقلوبة. ونظر نحوي وتحرّك فمه.

قال بعجز: «أعيديها. ضعيها في قبر سيّدي. فقد وعدته». ووضع شيئاً في راحة يدي مستعملاً يده اليمنى السليمة. وعندها تقاطر الرجال وهم يعوون بالأوامر.

«تنحَّي جانباً! تنحَّي من فضلك!».

وقبضت يد على مرفقي. كان هذا كيونغ. قال: «حان الوقت لننصرف».

قلتُ: «تمهل!». وكنت أريد أن أستمع لما يقوله الآخرون وهم يحملونه، وجسده المتداعي يتدلى مثل قدم بي لنغ إثر السقطة. كان معنا الليلة أطباء، وهم يعرفون نوع إصابته وإذا ما كان سينجو أو يموت.

لكن كيونغ جرّني بمنأى عنهم. ولم أتمكّن من كسر قبضته الحديدية المتمسّكة بذراعي. وكان يقول: «سنغادر حالاً».

وهذا ما فعلناه. بقيّة الفتيات كنّ بانتظارنا في السيارة. ولدى وصولي اندلعت الأسئلة، ولكنّي لم أجد كلمة على لساني لأردّ عليهن.

قالت هوي: «ولكن ما الذي كنتِ *تفعلينه* في الخارج؟». وبدا أنّها منفعلة، أكثر منّي إن شئت الحقيقة. وشلّ الخدر يديّ وقدميّ، وكان لساني ملبّداً ويابساً.

قلتُ في النهاية: «حين رأيته يغادر حاولت أن أوقفه».

واحتضنتني هوي بقوّة حتّى عصرتني وقالت: «ولكنّك عرّضت نفسك لمرمى النار!».

قلت لها: «لا تقتربي. فستاني ملوّث بالدم».

وكان طريق العودة يبدو أقصر من رحلة الذهاب، ونحن نتابع على طريق يشبه شريطاً باهتاً، وكنّا نطويه ميلاً بعد ميل. وبعد فترة قصيرة، بدأت الفتيات بالكلام، وهنّ يفكّرن بالأحداث التي وقعت.

قالت روز: «يا له من أحمق، لقد أصاب صبيّ الخدمة».

قالت آنا: «حسناً، يبدو أنّه يتيم، ولذلك لا يوجد من يشتكي إذا مات».

ولم أشارك بالكلام. وبقيتُ أحدّق من النافذة. وكانت أصابعي تقبض بإحكام على الشيء الذي أعطاه لي الصبيّ رين. وداهمني اضطراب في المعدة كنت أعرف ما هو بالضبط، من ملمس اسطوانة الزجاج الناعمة. لذا لم أكن بحاجة للنظر. كما وأنني لم أرغب بالنظر.

ولم يكن لفستاني جيوب، والحقيبة الصغيرة التي حملتها معي تركتها في الخلف بسبب الفوضى والاضطراب أثناء الرحيل. ولم يكن فيها شيء ذو بال في كلّ حال، فقط مفاتيح البيت وأحمر الشفاه. إذ أخبرتني هوي أن لا أترك أدلة مثل اسمي أو عنواني في حقيبتي إن اضطررت لعمل خارج الصالة. ولكن في الوقت الحالي، لم يكن عندي مكان أودع فيه هذا العبء، هذه الهدية غير المرغوبة التي وضعها رين بيدي.

لماذا كان يحمل الإصبع؟ إنّها أشبه باللعنة، واحدة من تلك الحكايات السود التي تدور حول غرض معيّن كلّما حاولت التخلص منه يعود إليك دائماً. وعاد خيال الصبيّ الصغير الذي أشاهده في أحلامي واختلط مع وجه رين. نفس الصبيّ، مع ذلك هو مخلوق آخر.

والآن نحن نجتاز شوارع أعرفها، في قرية منجلمبو، وقريباً سنصل فاليم، حيث مكان بيت زوج أمي. وخطط كيونغ أن يقلنا إلى بيوتنا لأنّ الوقت تأخّر

جداً. ولكن كيف يمكنني التسلل إلى بيت السيّدة تام بثوب مبقع بالدم ومن دون مفاتيح؟

وهمست هوي: «ابقي معي». وكأنها قرأت أفكاري. وأردفت: «سأقرضك بعض الثياب».

تردّدت، ولا بدّ أنّها شعرت بذلك، لأنّها قالت: «هيا. كانت الصدمة قاسية عليك. سأعتني بك».

كانت لهجتها ودية جداً حتّى أن بلعومي انطبق. وفكّرت أنّي أرغب بمرافقتها حقاً. وأحتاج لمن يفتح أصابع يدي المطبقة بإحكام ويحمل عنّي عبء القارورة الزجاجية الناعمة وإصبع الرجل الميت المودعة فيها. ولدى عبورنا من أمام متجر زوج أمّي في لاهات رود، قاومت الرغبة الملحة للقفز من السيارة والجري إلى البيت. كنت بحاجة إلى أمي. أردت أن أدفن وجهي في حضنها، وأشعر بيدها الرقيقة وهي تمسد شعري، وأنسى كلّ شيء ما عدانا، أنا وهي.

ولم أكن أرغب بالتفكير بشين، ولا بنظرته المسرورة التي رأيتها على وجهه عندما تكلمنا عن وعد زوج أمّي إذا تزوجتُ. عندما قال شين: *أليس هذا شيئاً جيداً؟*

قلت لـ هوي: «حسنا، سأرافقك».

* * *

في غرفة هوي المستأجرة. اغتسلتُ واستعرتُ بيجاما. وحينما كنت أغسل وجهي بالكريمات الباردة المنظفة، جاءت هوي وجلست على طاولة الزينة.

سألتني: «هل أنت على ما يرام؟».

أومأتُ بخدر.

قالت: «اذهبي ونامي لتستريحي».

كان سرير هوي فرديّاً وضيقاً، وما أن ألقيت رأسي على الوسادة بجانبها، حتّى شعرتُ بتيّار ثقيل يجرّني بعيداً. وتسلّل إلى ذراعي وساقي شلل بارد. وحاولت

استبقاء عينيّ مفتوحتين، ولكن كنت أسقط. وبصوت ضعيف سمعتُ هوي تقول شيئاً ما، ولم أتمكّن من فهمها. كان التيار جارفاً. وهكذا سقطتُ، وتابعتُ السقوط إلى أعماق أبعد من أعمق بحيرة، إلى أن وصلت إلى ذلك المكان الذي صرت آلفه جيداً.

هذه المرة، وقفتُ بمحاذاة الشاطئ المشمس، وقدماي الحافيتان تغوصان حتّى الكاحل في المياه الصافية. لم تكن باردة قطّ. كانت بنفس حرارة ما بعد الظهيرة الحالمة التي جعلت الأشجار البعيدة تلمع. وكالسابق، هدهدني السكون، ومع ذلك أسرعت بالابتعاد عن المياه. ذلك الماء الرائق ذو الصفاء المخادع، والذي يؤوي ذلك الظلّ الأسود الصاعد.

ولم يكن هناك من أحد، ولا حتّى الصبيّ الصغير. وما دمتُ هنا في كلّ حال، بدأت أفتّش عنه عبر الأعشاب المتموّجة، ولكن حالما وصلت إلى محطّة القطار المهجورة، لم يكن هناك أحد. ولم يكن هناك قطار، كما هي الحال في كلّ المرات السابقة.

وتطاول الوقت، ولم تكن معي طريقة لأحدد الفترة. وراح القلق يأكلني بينما نور الشمس مثبّت بزاوية معينة. ولم أحبّ أن أعلّق هنا. ماذا قال الصبيّ الصغير؟ إذا عرفت اسمه، يمكن أن أناديه.

وناديت بهدوء: «يي!».

كان الصمت يوتّرني. ونظرتُ إلى الطرف المقابل من الرصيف، ورأيته واقفاً ورائي. كان قريباً جدّاً ويمكنه أن يمدّ يده الصغيرة ليلمس ظهري. فجفلتُ قليلاً.

«هل ناديتني؟». كان يبدو جاداً جداً. لا ابتسامة، ولا تلويحة مرحة. والآن بعد أن تفحّصته بعناية، لاحظت الفرق بينهما. كان رين أطول قامة، ووجهه أطول ويبدو أنضج. والمسافة التي تفصل بينهما ربّما تبلغ سنتين أو ثلاثاً.

أومأتُ بوجل بنعم. وقلتُ: «لقد قابلتُ أخاك. لقد أُصيب بعيار ناريّ اليوم». قلتُ ذلك وتذكّرت العتمة وضوء الفانوس المتأرجح، والدم الذي يزهر على كلّ أرجاء الجسم المكسور، وامتلأت عيناي بالدموع.

«أعلم. لذلك رحل القطار».

القطار الذي يسير على خطّ واحد، وباتّجاه واحد.

وصعد الولد الصغير على مصطبة خشبية، وجلستُ قربه. وكان هذا الوضع يسهّل الكلام بيننا. قلت له: «أنت ميت، أليس كذلك؟ يقولون إن رين يتيم، وكل عائلته ميتة».

التفت برأسه بعيداً، ذلك الرأس المستدير الصغير الذي بات مألوفاً عندي. ومع أنّه هو ورين متماثلان تماماً على نحو مثير للقلق، فهما أيضاً مختلفين. طبيعتاهما، صوتاهما. وتذكّرت النظرة المسرورة التي منحها لي رين قبل عدّة ساعات. كم كان مسروراً برؤيتي، كأنّه كان بانتظاري طوال حياته، وشعرتُ بالرغبة في البكاء مجدداً.

قال: «هذا صحيح. أنا ميت». واستدار رأس بي باتّجاهي. وبدا ناعم الملمس وبريئاً، ولكن شعرت أنّه كان يركز قدر استطاعته. ومهما بدا أنّه أصغر من رين، لكنه كان أكبر منه، وقد جعلني هذا اضطرب. ربّما بسبب طريقته بالكلام أحياناً، مثل البالغين.

«لماذا لم تخبرني؟».

وأخذ يؤرجح قدمه الصغيرة ذات الصندل، وقطّب وجهه. قال: «لم يظهر أحدٌ من قبلك بهذه الطريقة. كلهم يحضرون بالقطار. ولكن أنت فقط.. تظهرين. وهذا شيء جيد، على ما أعتقد».

«لماذا؟».

«لأنه إذا أتيت بالقطار، ستكونين مثل الآخرين. مثلي». واندلعَت في ذهني التساؤلات، ولكنه نظر لي، وهو يهز رأسه قليلاً.

«هل رين على وشك أن يموت؟».

«لا أعلم». وعادت تلك النظرة الثاقبة المتأمّلة على وجهه. قال: «القطار رحل. وهذا يعني أن غيره سيأتي قريباً. ولكن لا أعلم من سيكون على متنه»

«هل هذا هو ما فعلته؟ نزلت إلى هذه المحطّة وحدك؟».

«نعم. منذ فترة بعيدة. كنّا توأمين، رين وأنا».

«توأمان، مثل شين وأنا. لم نكن توأمين فعلاً، وأننا ولدنا في نفس اليوم».

قال عابساً: «أنا لا أعرف شين. وهو لا يحلم مثلك».

«لا، هو لا يحلم». قلت بتمهّل، وتذكّرت التعويذة الورقية التي قدّمتها أم شين له. سحر يمنع الكوابيس ويستدعي *المو*، ذلك الوحش الأبيض والأسود مفترس الأحلام، ليلتهمها. ولكنّك إذا ناديت *المو* مراراً، سيلتهم أيضاً آمالك ورغباتك.

قال يي: «وهذا يعني أننا أربعة. هل التقيت بالخامس؟».

قلت: «أعتقد ذلك». وعادت أفكاري إلى ويليام أكتون، وكيف وجد رين كلمة *لي* في اسمه الصينيّ، والتي تعني الطقس أو النظام. ولكن شيئاً ما أزعجني حياله. ربّما لأنه أجنبي، ولم أتفهم كيف يكون له اسمٌ صينيٌّ.

قال لي: «أخبرتُك، هناك شيء خطأ بكلّ واحد منا. ولن تسير الأمور بالاتّجاه المرغوب».

قلت: «وما الذي يُفترض بي فعله؟ وماذا عن الإصبع التي أعطاها لي رين؟». كنت قد خبّأتها، لففتها بثوب الرقص المبقع بالدم حينما كانت هوي في الحمام.

وتنهد يي وأرجح ساقه القصيرة. وقال: «ذلك شأن سيّده. افعلي ما ترينه صائباً».

وارتفع في داخلي منبّه، مثل جرس رقيق وبعيد بدأ بالرنين. كلا، كان يرنّ منذ وقت، ولكنّي لم أنتبه له. وقلت: «انظر لي يا يي. لماذا لستَ قلقاً على رين؟».

انحنى بقامته، وثنى جسمه لطرف آخر كأنّه لا يحتمل أن يراني. وفجأة، بدا كما لو أنّه عاد طفلاً من جديد.

«أنت تنتظر موته، أليس كذلك؟».

تلك النظرة المذنبة، المذنبة جداً. الوجه المتداعي والبائس، والمشرف على البكاء. وأردتُ أن أهزّه، ولكنّي لم ألمسه من قبل. ولا حتّى في تلك المرة حينما طاردني داخل الماء الشكل الأسود المختبئ في الأعماق.

قلت بمرارة: «كيف يمكنك ذلك؟ إنّه أخوك».

كان الآن متكوّماً على نفسه. الكتفان يرتعشان، والقبضتان مضمومتان وهما فوق عينيه.

قال: «لم أقصد ذلك على الأقل، ليس في البداية». وأصابه الفَواق. ولوّث وجهه بدموعه. وقال: «أنا أحبّ رين. إنه كلّ شيء بالنسبة لي».

«ولماذا بقيت إذن؟».

هز رأسه وقال: «لم نفترق من قبل قطّ. وأعلم أنّه بائس من دوني. كيف سيتدبّر شؤونه وحده؟ ولذلك حينما عبر القطار النهر، غادرتُه. هذه أوّل محطّة وقوف للقطار في هذا الجانب. وأنا متأكد أنّه توجد أماكن أخرى أفضل من هذا المكان أبعد في الداخل، ولكنني لا أريد الذهاب من دون رين».

وثبّت نظراتي عليه وقلت: «وهكذا بقيت هنا».

«لستُ الوحيد. هناك دائماً عدد قليل منا يغادرون القطار. أنتِ رأيتهم من قبل».

وتذكرت الأشكال البعيدة للأشخاص الذين كانوا يتجولون على هذا الشاطئ في أوّل مرّة سبحت بها في النهر.

قال: «في النهاية يئسوا جميعاً وتابعوا طريقهم. ما من فائدة من الانتظار كما ترين. من هذه الجهة لا تستطيعين مناداة أحد أو الحديث معه».

ونظرتُ إليه بإمعان وقلت: «أمّا أنت يمكنك ذلك».

أومأ برأسه بالموافقة. وقال: «لطالما كان عندنا هذا الرابط الذي يربط التوائم. عندما نزلتُ من القطار، وجدت أن الحاسة لا تزال معي. ضعيفة جداً، مثل إشارة إذاعة. ولذلك لم أمضِ في سبيلي. لن أذهب ما دمتُ أستطيع التواصل مع رين في الجهة المقابلة».

كان يبدو صغيراً جدّاً ومثيراً للشفقة، مجرّد طفل بانتظار أخيه منذ ثلاث سنوات. ينتظر وحيداً على شاطئ مهجور. وتعاطف قلبي معه، لكن في نفس الوقت، أدركت أن ما فعله كان خطأً فظيعاً.

قال: «وجدتُ أنّي ما دمت هنا، فبإمكاني أن أناديه فيأتي على تلك الضفة من النهر ثم تحصل معه أشياء بعد ذلك. حوادث وأشياء. أحياناً، أعتقد أنّني سأقفز على القطار وأرحل. ولكنّي دائماً أجبن. لا أريد أن ينساني رين».

قلت له: «لا أعتقد أنّه نسيك».

ولكنه لم يكن يصغي إليّ، وتابع: «في البداية فكّرت أن أراقب وأنتظر. وأحياناً أستطيع أن أشاهد القليل مما يفعل. ثم أدركتُ أنّه يجب أن أنتظر لفترة طويلة، طويلة جداً، ربّما تكون كلّ الفترة المتبقية له في الحياة. وكان رين لا يتوقّف عن التغيّر. أنّه يكبر وينمو. وفي أحد الأيام، سينسى كلّ شيء عني».

«إذن أنت حاولت أن تخدعه ليأتي إليك؟».

والتفت بي لينظر نحوي. ورأيت بؤساً متفاقماً في عينيه لدرجة أنّني لم أقدر أن أبقى غاضبة عليه. قال: «ظننتُ أننا سنكون أسعد معاً. ولكنّي لم أتمكّن من جعله يأتي. ليس تماماً. وفي تلك الليلة أصابته الحمى وظهر على ذلك الشاطئ الرملي». وأشار إلى لون أبيض فضّي رقيق في النهر.

«أراد أن يعبر. وفعل! حتّى أنّه قفز وحده في الماء. وخفت عليه بسبب المياه. كان فيها شيء لا يسمح للناس أن يسبحوا للعودة إلى الجانب الآخر».

ارتجفت لذكرى ذلك الشكل الأسود، وهو يعلو وينهض في أعماق الماء.

وأكمل قائلاً: «لكنّني دفعته للعودة. لا فائدة من أن تذهب بذلك الاتّجاه. لأنه سينفصل عن جسده فحسب وسيكون ذلك أسوأ».

«هل تقصد مثل غيبوبة؟».

وطرف بي بعينيه: «لا أعرف معنى تلك الكلمة».

«عندما يكون جسمك حياً ولكن دماغك غائب».

«نعم. حينها سنعلق كلانا هنا بانتظار جسمه حتّى يموت»

«حسناً». قلت بتعب، وأضفت: «لقد تحقّقت أمنيتك. أخوك يلفظ أنفاسه الأخيرة الآن».

طأطأ يي رأسه. ونظر ببؤس لقدميه.

«وماذا ستفعل؟».

انفجرت دموعه مجدداً. قال: «يي يعني الاستقامة. ومن المفترض أن أكون قادراً على القيام بالخيار الصحيح، لكن لا يمكنني ذلك!».

قلت: «لا تبكِ». وقاومتُ الرغبة باحتضانه. أما الآن وقد علمتُ أين أنا بالضبط، فقد شعرتُ بالخطورة. قلتُ له: «كانت نيتك حسنة».

«هذا لا يكفي!». صاح وهو يمسح وجهه الغاضب المحمرّ: «النوايا حسنةٌ ليست مثل القيام بالفعل الصحيح. ربّما كنّا كلنا ملعونين. كان يجب أن نولد جميعنا لنفس العائلة، أو ربّما نولد كشخص واحد، لا يفصلنا شيء مثلما يفصلنا الآن المكان الزمان».

نحن الخمسة لا شك أن نصنع نوعاً من الانسجام. وفي النهاية، أليست الفضائل الكونفوشيوسية هي التي تحدّد صفات الإنسان الكامل؟ والإنسان الذي يهجر الفضيلة يفقد إنسانيته ولا يكون هناك فرق بينه وبين الوحوش. أصابني الذهول، وتساءلت هل كان هذا ما يجري لنا جميعاً.

قال يي بيأس: «المشكلة في النظام. الطريقة التي تُلوى بها الأشياء ويُعاد ترتيبها. وكلما أمعن أحدنا بالانحراف، ازدادت الأمور تعقيداً والتفافاً. والخامس هو الأسوأ».

«ماذا تقصد؟»

ولكنه كان يتلاشى. كان العالم كلّه يتلاشى إلى لون رمادي، وكافحت بكل ما أمكن، ولم أتمكّن إلا من الشهيق والتخبّط وفمي ووجهي يغطّيهما شيء ناعم ولكن خانق.

وصحت: «يي! دع رين وشأنه!».

30

باتو جاجاه

الأحد، 21 حزيران

طرفت عينا رين وفتحهما. أغلقهما. ثم فتحهما ثانية. هناك جفافٌ في حلقه، وشعورٌ سميك في رأسه، كما لو أن أحداً ملأه بالقطن. وطاف وجهٌ غير مألوف أمام ناظريه. امرأة أجنبية، ربطت شعرها بشدة إلى الخلف تحت قبعة بيضاء.

«إنه يستعيد وعيه».

وجه آخر. كان هذا ويليام. وفمه محكم الإغلاق ومشدود. وخطّان يحفران عميقاً تحت عينيه. خاطبه: «هل بمقدورك أن تسمعني يا رين؟ نحن في المستشفى».

المستشفى. هذا يفسر الإحساس بالهواء الفارغ الذي يحاصره، المساحة الجوفاء لعنبر المستشفى. كان السرير أكبر، أيضاً، وأطول من الفراش الذي ينام عليه رين. وكان هناك ثقل في جانبه الأيسر، ولم يكن بمقدوره الإحساس بذراعه أبداً.

سأله: «هل تتألم؟».

وتحت طبقات الخدر، انتشر الألم في جسد رين. ألم عميق كان مدفوناً بوسائل صناعية. كان النور ساطعاً، إنه النهار. قالت الممرضة: «من الأفضل يا سيد أكتون أن تعود إلى البيت. لقد أمضيت الليل كله هنا».

قال ويليام: «فقط امنحيني دقيقة أيتها الأخت». واستدار نحو رين.

يا للغرابة. بمقدور رين أن يشاهد كلّ هذه الخيوط وهي تنبعث الآن من ويليام. خيوط عنكبوت تخرج منه، مثل خيوط دودة القزّ. ولم يكن يراها من قبل، كان

فقط يشعر بشرارة الطاقة التي تسري منها. والآن، حاسّة القطّة لديه أقوى من أيّ وقت مضى، أو ربّما كان ذلك بسبب أن جسده قد تحطم بشدة. وهو يعرفها حتّى دون أن ينظر في وجه ويليام المسكون.

قال ويليام: «أنا آسف فعلاً يا رين. أمس أطلقت عليك الرصاص».

إذن هذا ما حصل، الومضة والزمجرة اللتان مزّقتاه. ونظر رين إلى ويليام بعينين واسعتين لا تطرفان.

وتابع ويليام: «لكنك ستكون على ما يرام. حسناً تقريباً. لقد فقدت الكثير من الدم، ولكنّنا نجحنا في إخراج معظم الطلقة. وما يقلقني حقّاً هو حشوة الرصاصة، فقد تسبب تلوثاً في النسيج الحي، كما تعلم». كان فك ويليام يتحرك مثل لعبة زمبركية شُدّ نابضها أكثر من اللازم.

وقالت الممرضة مُجدداً: «سيد *أكتون!* هذا يكفي».

وقف ويليام. وبلّل شفتيه المتيبّستين بلسانه وقال لرين: «طبعاً. نعم. إن أردتَ شيئاً أخبرني فوراً».

كان من الصعب على رين أن يتكلم. وكان حلقه يابساً. لكنه قال: «نانداني». وأرسلت عيناه إشارة استفهام.

حدّق به ويليام بعينين فارغتين وقال: «آه. نانداني. لا أعلم أين هي. لا تقلق، ستظهر حتماً».

وظهر على وجه رين تعبيرٌ يقول: «*لا. بل يجب أن تجدوها!*». وجرحت ويليام تعابير رين المتعذّبة مثل سكّين، فرسم تكشيرة شديدة وقال: «طبعاً سنبحث عنها. هل هذا حسن؟ فقط استرح الآن. من المهم أن ترتاح».

وغرق رين في نوم خفيف، وهو يسمع من خلف نومه أصواتاً ضعيفة لأبواب تُفتح وتُغلق. وارتفعت الشمس ثم بدأت تضعف، ولكن رين لا يعلم أيّ يوم هو هذا. وفي مكان ما، كان جسمه يزداد ضعفاً وبرودة، أم أنّه محموم؟ وطرفه المتألم تلقى الفحوصات، والضمادة الثقيلة على ذراعه أزيلت. ويسمع:

«..إنها تنزف ثانية. وتبدو أسوأ».

«..خطر تلوث الجرح».

وأغلق رين عينيه. وخلفهما امتدّ مشهد آخر، ساطعاً وحارقاً مثل هذيان. وها هو، النمر الذي خاف منه طويلاً. يقف أمامه، كان ضخماً لدرجة لا تصدق. كتلة من العضلات المتحفّزة تنتهي بذيل متقلص. ليس هذا جلد النمر البائس الذي يقتات عليه العثّ والمتمدد على أرض مكتب ويليام، ولا المخلوق الأبيض الشبحي الذي تخيّله رين هائماً في الغابة وله وجه الدكتور مكفارلين. إنّه ببساطة وحشٌ ضخم زاهي الألوان. حيوان لا يمكنه استيعابه. وأدهش رين أنّه لا يشعر بالخوف، وإنما شعور غامر بالراحة فقط.

إذن *هذا ما أنت عليه*، فكّر رين، ولكن بدا أن مخاطبته أمرٌ غير وقور لا يجب فعله. كانت الخطوط على فرائه المدهش تتموج، والعينان الصفراوان تتوهجان مثل فانوسين. ولا يسع رين إلا أن يخفض نظره. وزمجر النمر بنغمة عميقة. ثم استدار وانصرف، بخطوات متعمدة ومحسوبة، ثقيلة ودقيقة في آن واحد. إلى أين ينصرف؟

وفي المشهد الطبيعي المتلألئ، شاهد رين خطوطاً تُشبه حدود كوخ مألوف، إنّها محطّة قطار، مثل التي سافر منها في تايبنغ حينما ركب لأول وآخر مرّة بعد موت الدكتور مكفارلين. وكان يبدو له كأمر طبيعي تماماً أن يتبعه. وأخذ خطوة إلى الأمام. ثم تذكّر شيئاً ما.

نادى على النمر قائلاً: «أين نانداني؟».

لم يسمع ردّه. شاهد فقط الطرف الأبيض لذيله المتأرجح بحركة تنويم مغناطيسي. ثم رآها، الآثار غير المستقيمة لخطوات امرأة. طبعات أقدام جميلة ونحيلة على الأرض، والساق اليسرى تجر نفسها وتعرج.

«هل نانداني هنا؟». إذا كانت هنا، فلا بدّ أنّها تتجه إلى المحطّة. وأخذ رين خطوة أخرى. واستدار رأس النمر نحو رين وزمجر. هل هذا تحذير؟ رين لا يعلم، ولكن جانبه يؤلمه، ألم مبرح يلتهب في أنحاء جسمه، وينتشر نحو ذراعه اليسرى الهامدة. وصكّ بأسنانه من شدة الألم، وأجبر نفسه على متابعة آثار الأقدام باتّجاه محطّة القطار.

31

إيبوه

الأحد، 21 حزيران

دويّ. هربت الأنفاس من جسمي، وضغط وجهي على سطح صلب وبارد. ولدقيقة وجيزة استلقيت هناك هامدة بلا حراك.

وقفت هوي فوقي وقالت: «هل أنتِ على ما يرام يا جي لين؟». كنت مستلقية على أرض غرفتها، ملتفّة بملاءة من القطن الرقيق. وأشعة الشمس في غرفتها كانت ساطعة وحارة.

قالت: «يبدو أنّك سقطت من السرير، بعد كابوس. كنت تتخبّطين وتبكين على شخص اسمه يي. ولم أجد الجرأة لإيقاظك».

يجد الصينيّون كراهية في إيقاظ النيام فجأة، حتّى لا تنفصل الروح عن الجسم. ولم أكن أعتقد أن هوي متطيّرة لهذه الدرجة، ولكن كنت ممتنّة لذلك. وإلا من يعلم أين كان سينتهي بي أمر أن أتجوّل؟

نهضتُ متضعضعة، وأفكاري مشتّتة مثل شبكة من النمل. وكان ينتابني شعور من أنّني كدت أقبض على خيط هارب، مثل نهاية ذيل فكرة تختفي بلمحة، مثلما يحصل لي مع وجه يي الدامع.

قالت هوي: «ما خطبكِ؟».

نظرتُ إلى الثوب الأزرق الذي ارتديته ليلة الأمس. وكان لا يزال مطوياً بعناية على الكرسي، كما تركته. ولم أرغب بإخبار هوي عن الإصبع المحفوظة في قارورة زجاجية. إذ سأزعجها فقط. كما أنّ هناك مشاكل أخرى أكثر إلحاحاً.

مثل: هل نجا رين من هذه الليلة؟ وماذا أفعل بالقارورة الزجاجية النحيفة الملفوفة بثوب مبقع بالدم؟

* * *

وهكذا، عادت الإصبع لي. وتفحّصتها وأنا أشعر بضرورة تفحّصها وبالرعب من ذلك، حينما ذهبت هوي بمهمة، بعد أن أقرضتني فستاناً. إنّها ذاتها، من الرقم المطبوع على الغطاء إلى الانبعاج الخفيف في أعلى الغطاء المعدني.

إنّها *إصبع الدكتور مكفارلين*، هكذا قال رين قبيل أن يهرع إلى الليل المخيّم في الخارج. كيف وجدت الإصبع طريقها من مستودع الأمراض، حيث تركتها، إلى حفلة ليلة أمس؟ وشعرتُ بالغثيان. وتمنّيتُ لو أنّني أوقفتُ رين من التهوّر والخروج. أو لو أنّني صرختُ بصوت أعلى على ويليام أكتون الذي كان يتجول ويبحث خارج بيته وقد تأبط بندقيّته تحت ذراعه اليمنى. كان الأثر يدور ويدور، والإصبع تظهر ثم تعاود الظهور، مع ذلك خالجني إحساس واهٍ أن هناك نمط حول كلّ هذا. وعندما سألت يي في الحلم ماذا أفعل بالإصبع، كان يبدو غير مهتمّ على نحو مستغرب. *افعلي ما ترينه صائباً*، هكذا أجاب. ولكن ربّما كان ذلك بسبب أنّه لم يكن يهتمّ إلا برين. ورين، كما علِم كلانا، كان يحتضر.

توجّهت إلى ماي فلاور مجهدة ومضطربة. ربّما كانت لدى كيونغ أخبارٌ إضافية عمّا حصل لرين. كان الوقت قرابة الظهيرة، وصالة الرقص لم تُفتح بعدُ، وسمحت لنفسي بالدخول من الباب الخلفي وانتظرت في الممرّ أمام مكتب الماما المزدحم، كأنّه عش سنجاب مع طاولة مثقلة بالأوراق التي تتكدس عليها. ومع ذلك لا يمكنني أبداً التقليل من شأنها. فهي سيّدة أعمال ممتازة.

وأخبرتني الماما أن كيونغ غير موجود، ولكنها عرفت كلّ شيء عن إخفاق ليلة الأمس.

سألتُها دون أن أتمكّن من إخفاء اهتمامي: «هل الولد بخير؟».

«لا أعلم. ولكن من المحتمل أنّه حيّ لأنّ أحداً لم يأتِ ليستجوبنا. ولم نحصل على أتعابنا، أيضاً. ولهذا السبب لا أحبّ الحفلات الخاصة. سمعت أنّك كنت قرب الولد المصاب. هل إصابته خطيرة؟».

أومأتُ برأسي بنعم، دون أن أودّ الخوض بالموضوع.

«يا له من ولد مسكين».

«لا أعتقد أنّني أرغب بمتابعة عملي هنا بعد الآن».

كان الوقت الآن مناسباً لترك العمل. ولم يكن من المحتمل أن أجد عملاً مؤقتاً آخر يمكن أن يدفع أتعاباً مجزية، ولكن لم أكن مستعدّة للمخاطرة. وسأطلب من روبرت أن يقرضني النقود.

لم تبدُ متفاجئة. وقالت: «لقد رجّحتُ أنّك ستشعرين على هذا النحو. حسناً، لن أقول إنّني لست آسفة، فأنتِ واحدة من أفضل الفتيات في نوبة المساء. إن بدّلتِ رأيك، أخبريني. لكن هل يمكنك أن تأتي لمرة واحدة أخيرة في السبت القادم؟ فأنا ينقصني بعض الفتيات».

أومأتُ بالموافقة. وحينما غادرتُ، تبادر لذهني أن هذه المرّة ستكون واحدة من المرات الأخيرة التي سأعبر فيها من هذا الممرّ الأخضر الكئيب الذي يشبه لون النعناع. كلّ الضحكات والصداقات، والأقدام المتورمة، وصفع الأيادي الوقحة؛ كلّ ذلك سينتهي. ورَبّما هذه النهاية هي أفضل ما يمكن.

32

باتو جاجاه

الاثنين، 22 حزيران

كلّ شيء ينهارُ من حولي، قال ويليام لنفسه.

اليوم هو صبيحة الإثنين، وهو في طريقه إلى المستشفى ليطمئنّ على صحة ضحيّته الصغيرة. الضحيّة هي الكلمة الصحيحة. وأعاد ويليام في ذاكرته مرّة تلو الأخرى ذلك المشهد في تلك الليلة: أخذه آه لونغ جانباً ليُخبره بوجود النمر في الحديقة، وما أعقب ذلك من إثارة محمومة حلّت على الحفلة، وتذكّر نفسه وهو يفتح خزانة السلاح ويخرج بندقية الصيد منها. لماذا، لماذا فكّر بذلك؟

ليس الأمر وكأن ويليام يخرج للصيد كثيراً، فقد كانت بندقية البوردي مجرّد إرث عائليّ ثمين تناقلتها الأجيال في عائلة أكتون، مثلها مثل أكواب زجاج الكريستال والفضة النقيّة والتي نقلها معه عبر نصف العالم. ولكن لماذا يهتم بذلك الإرث، ما دامت عائلته قد تبرّأت منه تقريباً؟ ذلك لأنّ الألقاب والسلالة تفتح الأبواب في كلّ مكان، حتّى ولو تظاهر أنّه يحتقر هذه الأمور. وربّما ما دفعه لإخراج بندقيته هو اعتقاده أن إطلاق عدّة دفعات من الرصاص في الظلام وإرهاب النمر قد يكون فيه دلالة على الفخامة. ولكن يا له من مغفل!

كل الأخطاء التي ارتكبها كانت عندما تغلبه عاطفته. وفي الحقيقة، لقد راودته بعض الشكوك في وقت سابق من تلك الأمسية. ولكنّه ظنّ أنّها بخصوص نانداني وكيف يجب عليه أن يفصل نفسه عنها. عندما غادر البيت، وكان يتأبّط البندقية تحت ذراعه اليمنى في الحقل كان يتبع التعليمات التي تلقّاها من والده منذ فترة

طويلة، وشعر بلحظة أخرى من الشكّ، ولكن الأوان حينها فات كثيراً، مع أن الفتاة صرخت لتنبيهه ليتوقّف.

كيف لتلك الفتاة لويز أن تعلم أن صوت الخشخشة الآتي من الأدغال هو لرين، ولا يصدر من حيوان؟ وإذا أغلق عينيه، كان لا يزال يراها، تعدو من الظلام باتّجاه بركة النور التي تفيض من فانوس آه لونغ.

ثوب أزرقٌ باهت، ووجهٌ مشدود بسبب الرعب. وحتى آنذاك، وجد الجانب المظلم منه ذلك الذي يحاول باستمرار أن يكبحه؛ وجد في رعبها شيئاً يغويه، بتلك الساقين الرفيعتين والرموش الطويلة كأنها غزالة خائفة.

وشكر الربّ أنّه لقّم بندقيته بطلقة من عيار ستة. ولو كان لقّمها بطلقة صيد الأيائل[1]، فإنه مع هذه المسافة، ومع الانتشار الحتمي للإطلاقة، كان رين سيموت بكل تأكيد. قال رولينغز إن جراحه كانت من أسوأ الإصابات بالنسبة لولد من عمره. واحدة من أصابع يده اليسرى تمزّقت بالإطلاقة حتّى بُترت تماماً. البنصر، إصبع الخاتم. ووجد ويليام نفسه يتساءل بطريقة غير منطقية، هل هذا يعني أن رين لن يتزوج أبداً إذ لا وجود لإصبع الخاتم. ولكن مثل هذه الأفكار عديمة الفائدة لأنّ رين، ولسبب غير مفهوم، ورغم كلّ هذه العناية التي يتلقاها، كان يحتضر.

وهو لا يفهم ذلك. لا أحد يمكنه أن يفهم. فالجروح لاقت العناية اللازمة من تنظيف وخياطة. والأعضاء الحيوية لم تتأذّ.

ربّما كان السبب الصدمة. لقد سمع ويليام عن رجال يسقطون موتى في ساحة المعركة، بعد توقّف قلوبهم مثل ساعة معطوبة. مع ذلك، هذا لا يفسر التدهور السريع والشديد لحالة رين. الخوف يسبب تسمّم الدم، بالأخص في المناطق الاستوائية حيث الجروح تفسد بسرعة.

سأل رولينغز في تلك الليلة: «كم يبلغ عمر الولد؟». وذلك حين كانا يعملان، ويبحثان في الجرح الدامي عن حشوة الرصاصة. كان من الضروري إزالة كلّ ما

---

(1) Buckshot: ذخيرة من الخردق تستعمل لصيد الحيوانات الكبيرة.

يمكن إزالته من حشوة الرصاصة، وكان هناك القليل من الوسائل لمقاومة التلوث غير غسل الجرح بحامض الكربوليك.

«قال لي إن عمره ثلاثة عشر عاماً».

«هراء! لا يمكن أن يكون فوق عشرة أو أحد عشر عاماً بأبعد تقدير».

وشعر ويليام أنّه ينكمش من الخجل. كان عليه أن يعلم. وإذا مات رين، لن يهتمّ بذلك أيّ واحد في الحقيقة. وسيُتّهم ويليام بأنه أحمق أطلق النار على صبيه، وستندثر الحكاية بمهدها لأنّ رين يتيم ولن يجد من يدافع عنه. وقال ويليام لنفسه: *ما عداي*.

وعندما خرج ويليام إلى السيارة، وجد آه لونغ يقف بجانبها. كان يحمل الطعام في حافظة من المعدن، من النوع الذي يستعملونه لتوضيب طعام الغداء[1]. وكانت الخطوط على وجهه تبدو أعمق مما سبق.

«اسمح لي بالذهاب إلى المستشفى يا *توان*».

«هل تريد أن تطمئن على رين؟».

إيماءة من الرأس.

وشعر ويليام بطعنة من الذنب تخترقه. وقال: «حسناً». بالطبع، لا بُدّ وأن يكون العجوز متعلقاً برين.

في المستشفى، فحص ويليام جدول متابعة حالة رين. لا يبدو الأمر مبشّراً. كان لا يزال تحت تأثير حمى خفيفة.

والأسوأ، أنّ وجه الصبيّ قد بدأ يأخذ الملامح الغائرة التي يخشاها ويليام. وضع آه لونغ حافظة الطعام على الطاولة وجلس قرب سرير رين، وتكلّم معه بهدوء بالكانتونية. ولم يردّ رين، كانت عيناه مغلقتين وتحتهما ظلال زرق. ولم يكن بيد ويليام شيء آخر ليقوم به. ووقف هناك حائراً يتساءل ماذا يقول آه لونغ.

فسأل آه لونغ: «إنه نائم، أليس كذلك؟».

---

(1) سفرطاس، ذكرناه في هامش سابق.

«أو يطوف».

عبس ويليام. هذا شيء لا معنى له على الإطلاق في نظره. وبحث آه لونغ في جيبه وأخرج شيئاً صغيراً في علبة زجاجية نحيلة، من النوع الذي تأتي به سمكة الانشوفة.[1] ولم يصدق ويليام ما يرى. إنّها النهاية المبتورة من إصبع ولد صغير، تطفو في سائل بلون الشاي.

وقال: «هل هذه من رين؟». وحاول أن يبتلع المرارة في حلقه.

قال: «نعم، بحثت عنها ووجدتها».

يا إلهي. إنّها محزنة جداً. وتذكّره بإصبع الدكتور مكفارلين. الإصبع التي اضطر لبترها بسبب تسمّم الدم خلال رحلة قاما بها، ولكن هذه أسوأ لأنها بحجم صغير يخصّ الأطفال ومحفوظة بهذه الطريقة المرعبة.

قال ويليام: «أنت تعلم أننا لا نستطيع إعادتها لمكانها في يده»، وفكّر بالساعات الطويلة التي وجب على آه لونغ أن يمضيها وهو يمشط الأدغال والأعشاب بحثاً عن هذه الإصبع الصغيرة. وكانت معجزة أنّه وجدها قبل أن يجدها الغراب.

أومأ آه لونغ برأسه. كان على وشك أن يضعها على الطاولة قرب سرير رين عندما منعه ويليام. إذا استيقظ رين، سينتابه الخوف على الأرجح منها. ماذا ينوي آه لونغ، بهذا التفكير الخرافي البربريّ؟ ووضع ويليام علبة الزجاج في جيبه.

وقال: «سأحتفظ بها، قد يكون فيها نفعٌ». واستدار على عقبيه، واستعد لمتابعة أعماله. ثم سأل: «بالمناسبة، ما نوع هذا السائل؟».

ولم يظهر أيّ تعبير على وجه آه لونغ.

سأله ويليام بصبر: «بماذا حفظتها؟». هو بحاجة لأنّ يعلم وعليه أن يبدل السائل.

قال: «جوني ووكر يا توان».

* * *

(1) سمك صغير يعيش في المياه العذبة.

عندما عاد ويليام إلى مكتبه، كان هناك زائر بانتظاره. وبإحساس مضطرب تعرّف على القامة المفرطة بالطول لمفتش الشرطة المحليّة، النقيب جاجيت سنغ. ولم يكن قد شاهده منذ اكتشاف جثّة أمبيكا في مزرعة المطاط؛ ولم يفكّر بسببٍ لحضوره خاصّة بعد الحكم بأن موت أمبيكا كان مجرد حظّ سيّئ. والآن ها هو يقف في مكتب ويليام كما لو أنّه ينتمي إلى المكان. وكان الشرطي الماليزي نفسه برفقته.

قال ويليام بترحاب: «ماذا يمكنني أن أفعل لك أيها النقيب؟ هل الزيارة بسبب إطلاق النار؟ أبلغتُ أمس عنها وأخبروني أنّه يمكنني الحضور إلى المخفر وتسجيل إفادتي».

«في الحقيقة أرغب بأخذ إفادتك في موضوع آخر».

وازدادت رهبة ويليام: «إفادة حول ماذا؟». هل ما زالوا مشغولين بقضية أمبيكا؟

تفحّص النقيب سنغ وجه ويليام وقال: «ألم تسمع عن إحدى مريضاتك، ناندانى ويجيداسا؟».

«هل حدث لها مكروه؟».

«أخشى أنّها ماتت».

وغاص ويليام في أحد المقاعد وقال: «ماتت؟ كيف يُعقل هذا؟».

«سيد أكتون، متى رأيتها آخر مرّة؟».

وفكر ويليام بسرعة وتشتّت ذهنه ثم ثاب لرشده وقال: «ليلة السبت. زارت بيتي».

«لماذا؟».

وفكّر ويليام أن يكذب، لكن حدسه يخبره بأن لا يتكبد عناء الكذب. ثم قال: «أرادت رؤيتي قبل أن ترحل بعيداً. ماذا حدث لها؟».

راقب النقيب سنغ ويليام بعينين صفراوين حادّتين وقال: «هل كانت مستاءة؟».

«قليلاً». ونزع ويليام نظارته وراح ينظفها وهو يقول: «اكتشف أبوها علاقتنا

وأراد أن يرسلها بعيداً. إلى بيت عمّها كما أعتقد».

«وما نوع علاقتك بها؟».

هذا هو السؤال الذي كان يخشاه ويليام. فقال: «تودّدت إليها. رأيت أنّها امرأة جذابة، وزرتها في مكان سكناها وذهبنا في نزهة على الأقدام لمرتين».

«هل عرفتها لفترة طويلة؟».

«وقع لها حادث وجرحت ساقها من فترة بسيطة».

وأومأ النقيب سنغ. وقال: «نعم، لم يكن هناك ما يكفي من الوقت لإنشاء علاقة».

وجاء صوت ويليام حاداً وبارداً وهو يقول: «هل يمكنني أن أسأل أين سينتهي هذا التحقيق؟».

وبسط النقيب سنغ كلتا يديه وقال: «حسب أقوال عائلتها، التبدّل غير الطبيعي الوحيد في روتينها لهذا الأسبوع أنّها ذهبت لتقابلك. وابن عمها قال أنّها كانت مستاءة جدّاً عندما غادرت بيتك».

«نعم، أخبرتُك بذلك. لم تكن تريد أن تذهب لبيت عمّها، ولكنّي قلت لها أن تفعل ما أراد والدها. إنها تُعلق الكثير من آمالها على علاقتنا. والآن، من فضلك أخبرني ماذا جرى لها؟».

أصبح النقيب فجأة متصلّباً. وقال: «ليلة السبت اختفت من بيتك لفترة وجيزة، ثم هناك من رآها تمشي في الطريق مع ابن عمها، الذي حملها إلى بيتها بدراجته الهوائية. وذهبَت كالعادة لتنام. وفي الثامنة والنصف من صباح السبت، اكتُشف جسدها في الغابة قرابة بيتها».

«هل هو النمر؟». وقفز ذهن ويليام مباشرة إلى الجثّة المحزنة لأمبيكا المسكينة.

«لا، وإن كان على ما يبدو أن هناك نمراً كان حديقتك في ليلة السبت».

«نعم»، قال ويليام بشرود.

«أخشى أنّه في حالة الآنسة ويجيداسا كانت مريضة بشدة. ونحن نحقق باحتمال وقوع حادث، أو انتحار».

واستقرت عيناه باهتمام على ويليام.

«انتحار؟ كانت مستاءة، ولكنها ليست انتحارية!».

«وعائلتها أيضاً تعتقد ذلك. ولكن في صباح هذا اليوم وصلت جثّتها للتشريح».

«ومن قام بالتشريح؟ رولينغز؟».

«نعم. حسب انطباعه الأول، تناولَت شيئاً في الصباح قبل الإفطار. ربّما دواء عشبي، تقول والدتها إنّها اشتكت من آلام في المعدة».

«إذا لماذا تحتاج لإفادتي؟». كان رأس ويليام مغلّفاً بالضباب الآن، وركبتاه ضعيفتين ومتشنّجتين.

«أردنا التأكد من خطّ سيرها في عطلة الأسبوع هذه. ويبدو أنّك أمضيت معظم ليلة السبت في المستشفى لتكون مع صبيّ الخدمة». قال النقيب سنغ بهدوء.

هل هو خيال ويليام، أم أن الرجل كان يتلاعب به لفترة طويلة؟

ثم تابع النقيب: «عندما نظرتُ لحوادث الموت الأخيرة في هذه المنطقة، لاحظتُ أن مريضاً آخر من مرضاك مات منذ فترة غير طويلة. رجل مبيعات، السيّد شان يو شونغ من بابان، والذي كما يبدو مات فجأة وهو على الطريق».

«قرأتُ عنه في الصحف. الشاب المسكين».

«حسب زوجته، كنتَ آخر طبيب رآه».

«كان ذلك لالتهاب الزائدة الدودية، من نصف عام».

«ولا علاقة لذلك بفشل قلبي لاحق أو كسر في الرقبة، طبعاً».

«هل هذا ما حصل له؟». وكانت هذه أوّل مرّة يسمع بها ويليام عن التفاصيل التي تحيط بموت رجل المبيعات. فخبر النعي في الجريدة ذكر أن الموت حصل «فجأة»، ولكن فشلٌ قلبي وكسر رقبة يوحيان حرفياً بالمبالغة.

«يبدو أنّه أفرط بالشراب وسقط في مصرف المياه فكُسرت رقبته. ولكنّ شاهد عيان أشار إلى أنّه كان قد اشتكى من آلام في الصدر قبل ذلك. ولكن لم يتم تشريح الجثّة».

وافترض ويليام عدم إجراء تشريح، ما دام هناك أكثر من سبب ملموس للموت.

وشكره النقيب سنغ لوقته واستدار لينصرف وهو يقول: «يبدو أن الحوّادث والموت قريبة منك كثيراً في الفترة الأخيرة».

وبعد أن رحل، غاص ويليام في أحد الكراسي. إذن نانداني ماتت. أحسّ بفجوة في بطنه، رافقها تشنج محزن. هل ماتت بسببه؟ لا، هذا غير صحيح. ومع ذلك غالبه إحساسٌ بالذنب، أوَلم يتمنى بشدّة وبغضب، لنانداني أن تختفي في ليلة السبت؟

ولكن عدا ذلك، ما هو السبب الذي يجعل امرأة معافاة وشابة تموت بغتة؟ غطى ويليام عينيه بيديه. وزاد في داخله شك فظيع بوجود قوّة خفية مظلمة ترتب لهذه الأحداث لتتوافق معه. بداية مع آيريس، ثم ما حدث مع أمبيكا حالما بدأت تطلب منه المزيد من النقود. ثم هناك رجل المبيعات، الذي مات في الوقت المناسب بعد أن اكتشف علاقته بأمبيكا. وأخيرا نانداني. هذا التحول الأخير في الأحداث الذي أرعبه، كما لو أنّه ليس عليه إلا أن يقول: «أتمنى انتهاء الأمر!»، وإذا بنمط الأحداث يعيد ترتيب نفسه بشكل يتوافق معه. إنها مثل حكاية خرافية شريرة، حيث كلّ الأمنيات، مهما كانت شريرة وغبية، تتحقّق. وربما، مثل تلك الحكايات، هناك ثمنٌ يجب دفعه بالمقابل، بالدم.

33

إيبوه/ باتو جاجاه

الجمعة، 26 حزيران

طوال الأسبوع، تابعتُ الصحف باهتمام محموم لأرى إن كانت هناك أيّة إشارة لحادثة وفاة في باتو جاجاه، ولكنّي لم أجد شيئاً. ولكن ربّما كان صبيّ خدمة يتيم لا يرقى للفت الانتباه. عندما نظرت إلى القارورة الزجاجية الصغيرة، تذكّرت صوت رين الخائر وهو يقول: «أعيديها له وادفنيها في قبره».

الصينيّون أحيانا يفتحون القبر. ويسمّون ذلك جمع العظام، وهو ما يحصل عندما تدخل البقايا سنتها السابعة بعد الموت ويحين أوان إرسالها إلى القرية التي وُلد فيها الميت. وإذا لم يكن لديك عائلة وتوفّيتَ في أرض أجنبية، ستتحول إلى شبح جائع، وتبقى تطوف جائعاً إلى الأبد. ولمنع ذلك، تُغسل العظام بحرص بالنبيذ وتوضَع على قماشة صفراء قبل تعبئتها في إناء. وإذا فُقدت عظمة، مهما كانت صغيرة، لا بدّ من إيجاد بديل.

مجموعات ناقصة ووعود منقوضة. أفكار سودٌ تتلوى في رأسي مثل سمكة الأنقليس. كنتُ مهمومة جدّاً لذا أخبرتني السيّدة تام يوم الجمعة أن أحصل على استراحة فيما تبقى من اليوم.

قالت: «أنتِ قلقة على أمّك أليس كذلك؟».

شكرتُها والذنب يخيّم علي، فقد كنتُ أقل قلقاً على صحة أمّي لأنها تحسّنت، ولكن لم تغِب الديون عن ذهني. كان الجوّ في المنزل هادئاً أكثر من المعتاد بقليل، ولا شكّ أن زوج أمّي أدرك فجأة أنّه قد يصبح أرملاً للمرة الثانية. وكان من المقدّر أن تطير كلّ تلك النوايا الطيبة من النافذة إذا ظهر من يطالب بديونها.

وضغطتُ على يدي، في محاولة للسيطرة على أفكاري المتصاعدة. إذا كان شين معي، سيكون في ذلك بعض المواساة لي. فهو الوحيد الذي آنس له ويمكنني إخباره عن إصابة رين وكيف عادت الإصبع لي. إنما ارتجفتُ من التفكير بردّة فعل شين المحتملة إن اكتشف أنّني أعمل في مجال التسرية عن النفس لقاء أجر. هناك ظلٌّ يباعد بيننا؛ لذا لم أستطع الهرع إليه والاعتراف.

لكن أكبر أسباب قلقي هو رين، هل هو حيّ أم ميت، وهل كانت مناشدتي ليي في آخر لحظة ذات نفع. وحينما صرفتني السيّدة تام من متجر الخياطة، توجّهتُ مباشرة إلى باتو جاجاه. وطلبتُ من كيونغ، بعد أن أعلمتُ الماما، أن يذكر لي عنوان البيت الذي ذهبنا إليه. لكنه كان متردداً.

قلت له: «إذا مات الصبيّ، أحبّ أن أُقدّم هبة لروحه. فهو يتيم، أليس كذلك؟».

وزمجر كيونغ، ثم كتب العنوان على قطعة من الورق وهو يقول: «لو كنتُ مكانكِ كنتُ سأجرّب المستشفى أولاً. فعلى الأغلب أنهم نقلوه إليها إن بقي حيّاً».

عندما بلغتُ محطّة باتو جاجاه، كان الوقت بعد الظهيرة، وكان حارّاً مثل اليوم الذي نظّفنا فيه مستودع قسم الأمراض. وبدا المستشفى لي مشغولاً بما فيه الكفاية لأتمكّن من المخاطرة بزيارة سريعة دون أن أصطدم بأيٍّ من شين أو ي.ك. ونغ صاحب الوجه الرفيع.

وما أن غادرتُ القطار، حتّى لاحظتُ رجلين كانا يقتربان وكلاهما مطأطئ الرأس، أحدهما طويل جدّاً وبكتفين محنيّين، وبمقدمة أنف ضخم كالمنقار. كان مألوفاً، وأدركت أنّني التقيت به في تلك الحفلة الملعونة. والآخر هو ويليام أكتون. وبسرعة السهم اختفيت وراء عمود، على أمل أن أتجنّبهما. ولكنهما وقفا بالضبط وراءه من الجهة المقابلة.

قال الطويل: «أشكرك على الرحلة بالسيارة».

«سعيد لأنني وفرت عليك عناء المسير. هل تعتقد حقّاً يا رولينغز أنّها جريمة؟».

ولكن من مات؟ قفزت أفكاري إلى رين. وتابع رولينغز الكلام: «جريمة قتل أو انتحار. لا شك في رأيي أنّها قتلت نفسها أو أنّ شخصاً آخر وضع لها السمّ».

«يا إلهي. لا يمكنني أن أصدق ذلك».

«ألم تكن في بيتك ليلة السبت؟ أليست هي الفتاة المحلّية التي جلسَت في مطبخك؟».

«نعم. كانت واحدة من مرضاي. وكانت على علاقة حسنة برين». وبدت في صوته نغمةٌ دفاعيّة على نحو غريب.

«لا ضرورة لأن تلوم نفسك. وقتُ الوفاة كان في بواكير صبيحة الأحد، ولا أحد يمكنه أن يعلم ماذا حدث». وكان هذا مؤلماً للقلب قليلاً، كما لو أن الرجل الآخر كان يرى شيئاً في إنكار أكتون. وتابع: «من الأرجح أنّه سمّ نباتي، ولا يمكننا تحديده. إنما سأطلبُ من المختبر في إيبوه ذلك. فالميزانية لا تسمح لنا بإرسال هذا إلى ك. ل.[1] إذا كانت مجرد فتاة محلّية انتحرت أو تناولت دواءً عشبياً سخيفاً. فاريل سيجعلني أدفع الثمن».

جاءت تنهيدة. وسمعته يرد: «حسناً. شكرا لأنك أخبرتني».

ثم سمعتُ وقع خطوات أقدام سريعة. وانتظرت حيث أنا. أفكّر بلا هوادة إن كان ويليام أكتون حقّاً هو الفضيلة الخامسة، لا بدّ أنّه لي، الطاعة والطقوس. كان برفقة الدكتور مكفارلين حينما بُترت إصبعه، وقد ورد اسمه أيضاً في قائمة بي لنغ الغامضة. والآن، ها نحن حيال شخص آخر مات.

انتظرت عدّة لحظات حتّى أصبحت متأكدة من أنهما انصرفا. وكانت الإصبع في قارورة الزجاج داخل جيبي، لأنني لم أتمكّن من تركها في مكان يمكن للسيّدة تام أن تجدها فيه. وفكّرت بإعادتها إلى مستودع الأمراض، ولكن منعني إحساس متشائم. بطريقة ما تملّصَت كدودة وأخرجَت نفسها من المستودع، ودفنَت نفسها في الأرض السوداء خارج منزل ويليام أكتون، كان لهذه الإصبع أجندة. وهذه الفكرة جعلتني أرتجف.

ابتعدت عن الرصيف وأنا غارقة بالتفكير، ودون أن أنتبه لطريقي، وطاردني

---

(1) كوالا لامبور.

نفير سيّارة للتحذير. وجمدتُ، ورفعتُ عينيّ لأرى أن السيارة هي أوستن، وكان ويليام أكتون يقودها. وودتُ لو أركل نفسي، ما الهدف من الاختباء إذا كان سيصدمني بسيارته بعد خمس دقائق؟

قال: «لويز»، ومدّ رأسه من النافذة وتابع: «هل تريدين أن أقلّك لمكان ما؟».

وباعتبار أنّه تعرّف عليّ، وأن طريق المستشفى طويلٌ ويتطلّب تسلّق سفح الهضبة، لذا صعدتُ في سيارته. ولم يكن يبدو أن رؤيتي فاجأت أكتون، وإنما قاطعَت تفكيره، كما لو أنّه كان يرتّب في ذهنه شيئاً ما.

قلتُ: «كيف هو رين، خادمك؟ هل هو بخير؟».

«لا يزال في المستشفى، هل ستعملين هناك اليوم؟».

ربّما افترض أنّني أعمل هناك باعتبار أنّني كنت أنظّف مخزن الأمراض. ولكن غمرني إحساس بالراحة. راحة عظيمة ومن القلب. لأنّ رين تخطّى حاجز الموت.

«الحقيقة أن أخي ممرّضٌ هناك وكنت أساعده».

«اخوكِ؟ أتقصدين الشاب الذي كان معك في ذلك اليوم؟».

«نعم».

ورماني أكتون بنظرة سريعة وقال: «لم أفهم الموضوع كذلك».

«نحن لا نتشابه». وتساءلتُ لماذا أنا أعتذر دائماً عن ذلك.

ابتسم وقال: «لم يخطر في بالي ذلك. عموماً، هل تريدين رؤية رين؟ أنا ذاهب إليه بنفسي».

كان ويليام أكتون سائقاً أفضل من روبرت. على الأقل أنّه يبدّل السرعة دون أن يسبّب غثياناً في المعدة. وعندما صرفتُ عن بالي الفكرة المرعبة بالموت في حادث سير، فقد نظرتُ إليه نظرة متشائمة، وغمرني التشاؤم منه مجدداً بسبب طريقته المجرّدة من الحواجز. وظننتُ أن سبب كونه غير متكلّف معي لأنه لا ينظر لي كإنسانة، وإنما كفتاة محلّية يمكن استعمالها واستبدالها.

وحينما بدأت السيارة بتسلّق السفوح، قال: «اسمعي يا لويز، في ليلة السبت في الحفلة، هل صادفِ ورأيت فتاة سنهالية اسمها ناندانى».

لا بدّ أنّها الفتاة التي كانا يتكلّمان عنها في محطّة القطار. الفتاة التي ماتت. سألتُه: «هل كانت هناك لتقابلك؟».

نظر بسرعة إلى الأعلى ثم خارج النافذة مشيحاً ببصره. وفكّرتُ: *لقد افتضح أمرك*. قال: «جاءت إلى المطبخ وقدّم لها رين بعض الطعام للعشاء». كان يخفي شيئاً. وتحرّكت ذكرى في رأسي: وجه رين الخائف والشاحب في عتمة الممرّ، ثم الطاهي الصينيّ العجوز القادم ليخبره بشيء ما.

قلت له: «أعتقد أن رين كان يبحثُ عنها حول البيت».

جفل قليلاً. ثم قال: «وهل أخبرك بأيّ شيء؟ حول لماذا كانت هناك؟».

هززتُ رأسي بالنفي. ممّ كان خائفاً؟ كنّا نمرّ من أمام أبنية كولونيالية بيض متتالية، وحولها مروج خضر مشذّبة وتُضفي عليها لمسة من السحر والجمال. وكان المنظر من السيارة مختلفاً جدّاً بالمقارنة مع منظرها وأنت تسيرُ على قدميك. كانت الطريقة التي يمرّ بها المشهد من أمامي بهدوء ونعومة؛ مثل حلم. وأخبرته بذلك، كحديث ثانوي، ولكن يبدو أنّه تأثر به، كما وقد بدا متحمساً لتبديل الموضوع من نانداني لشيء آخر.

قال: «ما نوع الأحلام التي ترينها يا لويز؟». وأحسست في أكتون بذلك الإحساس الدائم بالوحدة الذي أراه في بعض زبائن ماي فلاور، أولئك الذين يبقون طويلاً، ويدفعون ثمن الرقصة تلو الرقصة. ولكن حانت الآن فرصتي لأتأكّد إذا كان هو خامسنا.

قال يي لقد انجرفنا جميعاً باتّجاه خاطئ، ربّما بمعنى أننا فشلنا بالتعبير عن الفضيلة التي نحمل اسمها. اختياراتي مثلاً، كالعمل في صالة للرقص، والتورّط بإصبع شخص ميت، ورواية الأكاذيب كذبة بعد كذبة؛ كلّ ذلك يصعب النظر إليه كتصرف حكيم، على الرغم من ذكائي المفترض في المدرسة. وتخيّلت أننا نحن الخمسة نشكل نموذجاً. مجموعة تستكمل بعضها بعضاً بشكل طبيعي مثل أصابع اليد. كلما تفرقنا، زاد اختلال التوازن الذي يحكم عوالمنا. نصبح أقلّ بشريةً وأكثر توحشاً. مثل مخالب وحش.

وماذا عن الخامس المجهول؟ *أسوأ واحد على الإطلاق من بيننا*، حسب تعبير يي. *لي* تعني الطاعة. الطقوس. أن تفعل الأشياء على النحو الصحيح، وأن لا تختصر الطرق من أجل تحقيق رغبات أنانية.

قلت ببطء: «أحيانا أحلم بنهر. وهناك قطار وصبيّ صغير يقف بانتظاري».

«هذا عجيب، أنا أيضاً أحلم بنهر».

«وهل يتكرّر الحلم نفسه دائماً؟ حلمي كذلك. يتكرّر ليلة بعد ليلة، مثل حلم مستمر، أو قصة تتكشّف».

ويبدو أن ذلك فاجأه. فكرّر ورائي: «قصّة تتكشّف. يا له من تعبير شاعري لوصفه».

«وماذا يحدث في حلمك؟». وكنت أتصرّف هنا بحذر، وأتحسّس طريقي. لقد فعلت ذلك مراراً وتكراراً في ماي فلاور. فهم يدّعون أنهم يريدون أن يرقصوا فقط، لكنهم في الحقيقة يريدون أن يتكلّموا عن أنفسهم وحسب.

قال: «في حلمي، أرى امرأة تقف في النهر. وهي دائماً هناك. ودائماً تكرّر الكلام نفسه».

ارتجفتّ، وتذكّرتُ وجه يي الأحمر المنفعل، واعترافه بذنبه في خديعة رين ليأتي إليه. سألته: «هل تطلب منك أن تأتي إليها؟».

«كلّا، أنها غاضبة منّي جداً». رسم شبح ابتسامة، وأضاف من وراء أنفاسه: «ولهذا السبب أكتب الرسائل».

«ومن هي؟».

زال مفعول السحر. وأطلق أكتون ضحكة تدلّ على عدم ارتياح وقال: «لا بدّ أنني أضجرك».

قلت بصوت متردّد: «أبداً. الموضوع مثير للاهتمام كثيراً».

ألقى عليّ نظرة حادّة وقال: «أنت لا تتكلمين مثل معظم الفتيات المحليات».

فكّرتُ: كلا، *بل أتكلم مثل مضيّفة رقص*. ولكن طبعاً لم أخبره بذلك. كانت الغاية من اختراع حوار من هذا النوع أن تفتح الصنبور. أو، في هذه الحالة، اكتشاف مزيد من التفاصيل.

واشتعلت شرارة في عيني أكتون، نارٌ خفيفة جعلتني أتوتر. وقال: «أنتِ فتاة مثيرة للاهتمام جدّاً يا لويز. يبدو أنّه القدر، أليس كذلك، هو الذي يجعلنا أنا وأنتِ نصادف بعضنا دائماً؟».

كنّا قد وصلنا إلى المستشفى وأوقف السيارة، ولكن لم تبدر منه أيّة حركة ليغادرها. وفجأة، تذكرت تحذير هوي: *لا تركبي سيارة بصحبة رجل.*

فقلت: «شكرا للتوصيلة»، وأنا أحاول فتح الباب. كان مقبض الباب مختلفاً عن سيارة روبرت، وللحظة، لم أتمكّن من تحريكه. وذعرت للحظة حينما مال أكتون باتّجاهي، إلا أنّه كان يساعدني في فتح الباب فقط. أو هل كان كذلك؟ فيده لامست ركبتي. لا يوجد مرافقين هنا، ما من وجود لكيونغ بعينه الساهرة، وشعرت بنوبة تشنّج من الخوف. فلو أنّه ثبّتني تحته، لن يكون بإمكاني التملّص منه. فدفعت الباب بقوّة حتّى كدت أسقط من السيارة.

قال: «هل أنتِ على ما يرام؟». وعندها رأيت الشمس، والنهار الساطع والمشرق، وكنت أبدو سخيفة، وعلى وشك السقوط من السيارة. وأخبرت نفسي أنّني ولا بدّ تخيلت مشاعر افتراسية مفاجئة وأنا أنظر ليديه، تلكما اليدان الماهرتان اللتان تعودان لجرّاح، لا بُدّ وأن لهما قبضة كالملزمة.

ثم سمعت صوتاً نسائياً ينادي: «ويليام؟». وكانت السيّدة الطويلة الجميلة التي رأيتُها في حفلة السبت. كانت تقف تحت إفريز المستشفى كما لو أنّها تنتظر أحدا يقلّها بسيارته، وراحت تقترب، وكانت خطواتها السريعة بصندل من الجلد المصنوع ببراعة. صندل أبيض، بتصميم لم أشاهد منه في السوق المحلّية. واضطربتُ، وأحمرّ وجهي ورحت أرتّب فستاني آملة أن لا تتذكّر أنّني شاركت في الحفلة، ولكن نظرتها الحادة أعلمتني أنّها تتذكّر.

وتحوّل وجه أكتون فجأة إلى ملامح متملقة ودمثة. وقال: «مرحباً يا ليديا. لم أعلم أنّك اليوم هنا».

وتلاشى الشرود المذنب الذي فضحه سابقاً، وأدركت أن السبب يعود إلى أن فتاة محلّية مثلي لا تصنع فرقاً. ولكن ليديا كانت مختلفة. إنها واحدة على شاكلته. واحدة من ناسه.

قلت له: «شكرا للتوصيلة». وجهزت نفسي للتسلّل من السيارة. وأومأت بتهذيب نحو ليديا، لم يكن يبدو مناسباً أن اتجاهلها مع أنّها بذلت ما بمقدورها لتتظاهر أنّها لا تلاحظ وجودي، لكن أكتون قال: «انتظري. سأرافقك إلى العنبر».

ولم يكن هناك فائدة من الاحتجاج أنّني سأجد طريقي. كان سريعاً جداً، وقال لليديا: «هي هنا لزيارة رين. صبيّ خدمتي، كما تعلمين».

ورقّت ملامحها وقالت: «هكذا إذن؟ ولد مسكين، كيف حاله؟».

«ليس على ما يرام. فهو في عنبر البالغين. أسّرة عنبر الصغار كلها مشغولة».

«آه، لهذا السبب لم أرهُ قبل قليل حينما قمت بجولتي للكتب المستعارة». والتفتَت نحوي بتخشّب وأضافت: «هل أنت من أقاربه؟».

أومأت بنعم. كان من الصعب جدّاً تفسير شعوري نحو رين بالحماية الشرسة.

ثم قالت ليديا بنغمة منخفضة: «يجب أن نتكلم يا ويليام».

ألقى نظرة على ساعة يده، وكأنه تذكّر أنّه مشغول فجأة. قال لها: «ليس الآن الوقت المناسب. تأخّرت على العنبر».

قالت: «سأرافقك. أرغب بزيارة صبيّ خدمتك أيضاً».

وتبعتهما وكان يرميني بنظرة متآمرة من فوق كتفها. أخبرني يي أن التزم الحيطة والحذر، فخامسنا هو الأسوأ من بيننا جميعاً. السؤال الآن: ماذا يريد أكتون مني؟

34

باتو جاجاه

الجمعة، 26 حزيران

إنه يوم الجمعة. ولكن لم يكن عند رين إحساس أين يذهب الوقت. كان مريضاً، رغم أن «مريض» ليست كلمة مناسبة لوصف ما يشعر به. كان معطوباً أو مكسوراً. بعض الضمادات سقطت، ومن ضمنها أكبر ضمادة حول يده اليسرى. اليد التي فقدت الآن إصبعاً منها. ولم تكن الممرضة مستعدة لنقل هذا الخبر له، كانت تتلعثم وتتردّد، وفي النهاية ستدعو طبيباً محلياً وتحمّله مهمة نقل هذه الكلمات البسيطة. كما لو أن هناك فرق.

وشعر رين فجأة ودون تفسير بالشوق للدكتور مكفارلين. ولحاجبيه الغزيرين، لصوته المبحوح. كان سيوضح كلّ ذلك له، ببساطة ودون عواطف مزيفة. كان سيقول: *من الأفضل لك أن تفقد إصبعاً من أن تضيع كلّ يدك*. أو كلّ حياتك. ما هذا الذي يحتاج أن يتذكّره حول الدكتور مكفارلين؟ ثمة صوت خفي في دماغه يجيبه همساً أنّه تبقى أمامه يومان فقط ليفي بوعده، ولكن رين مرهق، ومتهالك جدّاً لدرجة أنّه بالكاد يمكنه إبقاء عينيه مفتوحتين. تفحص الممرضات حرارته ويتحدّثن عنه بأصوات خافتة. وويليام يأتي مرّتين باليوم.

يقول بمرح مع أن عينيه كئيبتان: «لأنك تلقّيت صدمة، فإنّ جسمك يحتاج لبعض الوقت ليتعافى».

«هل وجدوها؟». سأل وعاد ذلك الشعور المقلق يأكله ثانية.

«هل تقصد نانداني؟ لا تقلق. عادت إلى بيتها في تلك الليلة».

وبضعف، هز رين رأسه بعدم تصديق. وقال: «كلا، لا تزال تجوب الطرقات. في مكان ما في الخارج».

وظهر تعبيرٌ مرهق على وجه ويليام. ودون مقدمات انزوى مع الممرضة على جانب ليناقش معها شيئاً، وحذّرها بهزّة من رأسه قبل أن يغادر العنبر. كانت حمّى خفيفة تجري في عروق رين. وهناك مكان آخر عليه أن يذهب إليه في الحال، ولكنّه لا يستطيع أبداً تذكر عنوان هذا المكان حتّى يستغرق بالنوم. وشعر أنّه وسط رحلة يقوم بها، وكل ما عدا ذلك عبارة عن مقاطعة.

استيقظ. شعر بالألم. فحصت الممرضة حرارته وبدت غير مسرورة. ببعض الجهد، تمكّن رين من تحريك ذراعه، التي لا تزال ملفوفة بالضمادة، وتساءل هل سيتمكّن من معاودة العمل في تلميع الأحذية وكيّ القمصان وتحضير العجة. وماذا إذا استغنى عنه ويليام؟ هناك العديد من الأولاد بحاجة لعمل، أولاد أكبر وأقوى وبعشرة أصابع. وتمنى رين لو أنّ هناك أحد ليتحدث معه، ولكن العنبر فارغ، والأسرّة الأخرى مثل شرانق بيض.

قالت إحدى الممرضات أن آه لونغ جاء أمس حينما كان رين يغط بالنوم وترك له حافظة طعام فيها حساء الفاصولياء الحمراء الحلوة والتي يحبها رين كثيراً. هل تدبر آه لونغ أمر تنظيف كلّ البيت بمفرده بعد الحفلة؟ كانت عينا رين جافتين. وعظامه تؤلمه. وفكّر: *حان وقت الانصراف*، ولكن إلى أين؟

هناك أصوات في الممر. ها هو ويليام ثانية، يقوم بزيارته الثانية اليومية. ووراءه، شخص آخر. ذلك الطنين الغامض الذي لا ينساه. وجالد رين نفسه. إنّها هنا! الفتاة التي التقاها في الحفلة، في نهاية الممرّ الطويل الأبيض، إنّه يشعر باقترابها. وومض إحساس القطّة، والركود الذي يحيط به بدأ يذوب. ولكنها تتباطأ، تتراجع، لماذا؟

ودخل ويليام إلى العنبر. مع ابتسامة سرور لرؤيته رين جالساً لأول مرّة. قال له: «أحضرت لك معي زائرة».

ولكن الزائرة التي ظهرت من خلف ويليام لم تكن فتاة رين ذات الفستان الأزرق، وإنما ليديا.

قالت: «مرحباً»، بنبرة مبالغة بالحماسة التي غالباً ما يعتمدها البالغون الذين لا يرتاحون لوجود الأطفال حولهم. وتابعت: «أحضرت لك بعض الكتب».

ودفعت عربة كتب ومجلات الإعارة. وخيّم الشعور بالذنب على رين لأنه أخطأ بالحكم عليها. قالت له: «كنت في عنبر الأطفال هذا الصباح، ولم أكن أعلم أنّك موجود هنا».

ونظر ويليام إلى جدول متابعة حالة رين، ثم تفحص الضمادة. وشردت نظرات رين نحو عربة الكتب. واختارت ليديا كتاباً لتعليم الحروف يحمل شعار سلسلة ليدي بيرد وقالت: «ما رأيك بهذا؟».

وفتحه رين على *الحرف أ مثل: عربة الإسعاف*(1). وهمس يقول: «شكراً»، وهو يحاول أن يخفي خيبة أمله.

قال ويليام بهدوء: «قدّمي له غيره يا ليديا. يمكنه أن يقرأ بشكل جيد».

وامتقع لون ليديا من الإحراج وقالت: «آه، حسناً. ليس لدينا الكثير من الكتب اليوم».

وشعر رين بالأسف لأجلها، وقد وُبِّخت بهذا الشكل. ولكن البريق المتفائل في عينيها يقول إنّها ليست مهتمة. وقدّمت له كتاباً له اسم نسائي، جين أي أو ما يشابه. من هي جين *وما مشكلة عينها؟* فكر رين. وهناك كتاب آخر، مجلد رقيق ظهر خلسة. بعنوان *قلب الظلام*. ولكن أبعدته ليديا وهي تقول: «آه، كلا، يا عزيزي. ليس هذا».

وعادت تلك الدغدغة الكهربائية إلى رين. وها هي تتحرك، وتقترب من الباب. وشاهد فتاته من الحفلة، كانت نظرتها جادة، وهي تبحث عن رين. وحينما رأته، أضاء وجهها بالنور.

شعر رين بالسعادة. السعادة البالغة. وجلست بجواره، ولكنها ليست بالأزرق اليوم، وإنما بفستان رقيق من القطن الأبيض. قالت له: «أنا سعيدة لأنك على ما يرام». وسكبت له كأساً من الماء. وكان ويليام وليديا الآن في الجهة المقابلة من

---

(1) Ambulance _ A

العنبر الفارغ. ظاهرياً، ليديا تعيد بتمهّل ترتيب الكتب في عربتها. والتقط رين القليل من حوارهما. ولكن هذا لم يلفت عنايته. لأنّ جي لين تجلس على كرسي قرب سريره، وهي تبتسم له.

«هل تتألم كثيراً؟».

وأراد رين أن يطمئنها إلى أنّه تحسن كثيراً جداً، ولكن منعه الضعف والوهن. كان يتنفس بلا صوت. وكانت جي لين تنظر إلى وجهه الرمادي بتركيز.

وقالت: «أنت لا تبدو على ما يرام. هل أدعو الممرضة من أجلك؟».

كلا، إنه لا يريدها أن تنصرف، لكنّه كان يشعر به يُسدل؛ ذلك الحجاب الرمادي المشوِّش للرؤية والذي يشلّه ويأخذه بعيداً إلى ذلك المكان الآخر حيث بانتظاره مهمّة يجب أن ينتهي منها. وبخوف نظرت جي لين إلى ويليام وليديا، اللذين كانا في الطرف الآخر من العنبر ومستغرقين بحوار. كان كتفا ويليام المتشنّجان يمنعانها من مقاطعة حديثهما.

قالت جي لين وهي تقفز بطريقتها الصبيّانية والسريعة: «سأنادي الممرضة». في الزاوية البعيدة من العنبر، استدار رأس ويليام من الدهشة بسبب خروجها المفاجئ. وقرّبت ليديا وجهها من وجهه. كانا يبدوان لطيفين معاً، وهما يقفان بقرب النافذة. كان فمها يتحرّك. ماذا كانت تقول، وأثر على تعابير ويليام فأصبحت قاسية، وتحول فمه إلى خطّ رفيع؟

كانت تقول: «.. أنا أعرف بخصوص آيريس».

هذا هو اسم السيّدة التي يكتب ويليام لها الرسائل باستمرار. تلك الرسائل التي يكتبها على ورق سميك وناعم وبلون القشدة، التي تنبعج عندما تضغط عليها بظُفرك. لا يبدو ويليام مرتاحاً.

قال وهو يبتعد عنها: «دعينا لا نتحدث عن هذا الآن».

قالت وهي تتبعه: «متى إذن؟». ولم تهتم بأن يسمعها أحد باعتبار أن العنبر يخلو من الجميع إلا رين. وأضافت تقول: «نحن متشابهان، أنا وأنت». والتمعت عيناها، ولم يحدّد رين ما إذا كانتا تدمعان، أم أنهما كانتا تحت تأثير عاطفة أخرى. وقالت: «أود أن أساعد. من فضلك اسمح لي أن أساعد».

ابتسم ويليام لها ابتسامة إجبارية وقال: «يجب أن اذهب».

وحدّقت ليديا بظهره وهو ينسحب. ورفرفت الستائر البيض بفعل نسمة هواء هبت من النافذة المفتوحة. كان الجوّ هادئاً ويمكنك أن تسمع دقات الساعة في الممر. بدت ليديا مضطربة وهي تدفع بعربة الكتب بين الأسرّة الخالية. وتوقّفت عند سرير رين كأنها عازمة على استجوابه، ولكن في تلك اللحظة عادت جي لين. وبدت مضطربة، وعيناها تنظران إلى الأسفل.

ورمقتها ليديا بنظرة جانبية طويلة. وقالت: «أنتِ لويز، أليس كذلك؟».

بعد صمت وجيز قالت: «نعم».

«كنت أتساءل كيف تعرفت على السيّد أكتون».

«أنا لا أعرفه. تصادف أنّه يمرّ من المحطّة صباح اليوم وأقلني معه».

وبدا أن ليديا غير مقتنعة بالجواب ووجهت أسئلة إضافية. أين تعمل، وما هو عمل عائلتها، وكم عمرها. وكانت جي لين مهذّبة لكن حذرة.

قالت جي لين: «هل يمكن أن أسأل لماذا أنتِ مهتمّة؟».

وبذهول حدّق رين بالمرأتين. إحداهما بشعر فاتح ومتموج، والثانية بشعر مجزوز قصيراً وبغرّة سوداء.

قالت: «كنت أتساءل عن... عملك إن كنت تعانين من مشكلة أو تحتاجين لمساعدة». وعند كلمة *مشكلة*، التمعت عينا ليديا باهتمام. ولكن جي لين كانت متيقظة وحذرة، وقالت فقط أنّها تعمل عملاً مؤقتاً في صالة للرقص، وكل شيء يسير على ما يرام.

وتأمّلتها ليديا لفترة من الوقت. وقالت: «حسناً، أخبريني إن كنت بحاجة لمن يسمعك. أنا مهتمة بتقديم المعونة للفتيات المحليات في تأمين عمل، بهدف تحسين أوضاعهن. وتوجد وظائف كثيرة يمكن للفتيات في هذه الأيام القيام بها، إن أطلق الرجال سراحهن».

قالت: «شكرا». ويبدو أن كلماتها لمست وتراً حساساً في قلب جي لين لأنّ السكينة خيمت على عينيها وبدا أنّها متأثرة حقاً. وأضافت: «هذا لطف كبير منك».

«نحن النساء يجب أن نتضامن، في الحقيقة، أنا أعمل بتدريس الصحة لفتيات مزرعة المطاط».

واهتمت جي لين وسألت: «أي نوع من التدريس؟».

«حسناً، أساسيات الرعاية الصحية غالباً، والاحتياجات النسائية». وتبادلتا نظرة متفهمّة. وتابعت: «إن كنت بحاجة لأي من المستلزمات النسائية، أخبريني. أنّها واحدة من الطرق التي يمكنني بها تقديم المساعدة هنا. وبالمناسبة.».. وخفضت ليديا صوتها وهي تردف: «احذري من السيّد أكتون».

«لماذا؟».

«إنه، حسناً، أشياء غريبة تحدث حوله. هل لاحظت ذلك؟».

وظهر تعبيرٌ فضولي على وجه جي لين وقالت: «أي نوع من الأشياء؟».

«كلّ من تورط معه لم يكن محظوظاً. بالأخص النساء الشابات».

تنفس ويليام بحدّة. كانت معدته تؤلمه. واتكأ على بورسلين المغسلة البيضاء في الحمام، وقبضت كلتا يديه على سطحها الزلق. اعتصره إحساسٌ قابض وملتهب. ورفع وجهه الشاحب المتعرّق وحدّق بالمرآة.

إذن ليديا تعرف حكاية آيريس. كان يجب عليه أن يخمّن ذلك. خاصة بعد أن رأى التشابه بينهما. ولا يهم إن كانت الاثنتان قريبتين من الدرجة الثانية أو الثالثة، طالما أنهما متباعدتان أو أيًا يكن ما قالته ليديا. لقد كان مشغول الذهن جدّاً فلم ينتبه للأمر.

والآن، ماذا عليه أن يفعل؟ ماذا تريد ليديا؟ إنّها مشكلة محتملة. فهذه هي ليديا، بموقفها المتغطرس وسلوكها حسن النية. إنّها تمثّل بالضبط كلّ ما يمقته. مسح ويليام فمه. قبل أن يلتقيا مجدداً، عليه أن يكشف الغطاء عن كلّ معلومة يمكنه أن يصل إليها حول ليديا: أياً كان السر في ماضيها الذي أبعدها إلى هذا المنفى في المالايو ولفترة تزيد على سنة ودون زوج، دون عمل، ودون أيّ شيء لتفعله باستثناء لعب التنس في النادي والتطوّع بأداء الخدمات. وقال لنفسه: *اعرف عدوك*.

ثم، في فورة غضب عارم، تمنّى لو تختفي ليديا فحسب.

35

باتو جاجاه

الجمعة، 26 حزيران

في غضون أيام قليلة، فقد رين مقداراً كبيراً من وزنه. أصبحت وجنتاه ضامرتين، انتفخت عروقه الزرق من تحت جلدٍ يشبه الورق. صوته ضعيف ومبحوح. كما لو أنّ كلّ كلمة تكلفه جهداً. ولكن بدا مسروراً لرؤيتي.

قلتُ بتردد بعد ذهاب ليديا: «حول الإصبع التي أعطيتها لي. لا زلت أحتفظ بها لك». لم أكن أفضّل طرح الموضوع، لكن خشيت أن يكون قلقاً عليها.

مرّت على وجهه موجة من الانفعالات. نظرة قلق، أم إنّها اهتمام مُلِّح؟ همس قائلاً: «بقي يومان. أعيديها له. إلى قبره».

وانحنيت عليه لأحاول أن أسمع كلماته. كانت في عينيه نظرة رمادية براقة.

سألته: «ماذا تعني؟». لكنه لم يسمعني. وأغلق عينيه. لم يكن هناك سوى جسد ضعيف وخفيف، قشرة جندب، هذا ما تبقى منه في الفراش. وللحظة من الوقت، خفتُ أن يكون قد قضى نحبه أمامي. ولمست يده. باردة، لكن صدره الضيق كان لا يزال يصعد وينزل دون انتظام. قالت الممرضة إن رين لا يتحسن، ولا يعرفون السبب، والأفضل أن لا أرهقه. وكانت محقّة، كان يعاني من خطب ما.

سألتني: «هل أنت من أقاربه؟».

قلت بقلق: «لا، لماذا؟».

ونظرت لما ورائي بشرود وهي تقول: «حسناً، إن عرفت أحداً من أقاربه، أخبريهم أن يأتوا لزيارته. وحالاً».

غادرت العنبر بمشاعر عميقة من الهم. ما زالت هناك عندي أسئلة كثيرة لرين: كيف انتهت الإصبع إلى الدفن في الحديقة، ولماذا أراد منّي أن أضعه في القبر. أفكارٌ مضطربة، تتحرّك مثل أشكال تحت الماء. سألتُ الممرضة إن كانت بي لنغ قد شفيت من السقطة، ولكنها هزّت رأسها بالنفي. هي لم تستعِد وعيها بعد. وألقت عليّ الممرضة نظرة غريبة، كما لو أنّها تتساءل كيف تورّطتُ مع كلّ هؤلاء الأشخاص غير المحظوظين.

بدأت فترة بعد الظهيرة تخبو، وشرع الناس بالانصراف. ولم أتمكّن من إخراج تحذير ليديا المتكلّف من رأسي. ماذا كانت تعني بإخباري أن لا أقترب من ويليام أكتون؟ فالطريقة التي خفضت بها صوتها كما لو أنّها تخاف من أن يسمعها أحد جعلتني أتساءل ماذا يقلقها. وذكرت الحظ أيضاً، وهو ما ذكّرني برجل المبيعات. عندما يتكلم الناس عن حظهم الطيب، ربّما يودون ببساطة الإحساس بقوّتهم، كأنهم قادرون على التلاعب بالقدر. مثل المقامرين المهووسين بالأرقام المحظوظة، أو مثل من يشتري بطاقات اليانصيب بالاعتماد على عدد الحراشف الملونة لسمكة. كلّ ذلك يبدو لي مثل فكرة سيّئة.

انعطفت من زاوية، وتعرّفت على الموقع الذي تكلمت فيه لآخر مرّة مع بي لنغ خارج الكافتيريا. إذا تابعت مع هذا الممشى إلى أسفل الهضبة، سأمر بالمكان الذي تلقّت فيه تلك السقطة الكارثية. هنا. سقطت على السلالم وانكفأت على نفسها بعد مسافة طويلة من أسفل السلالم. الحاجز المتين على طرفي السلالم الضيقة ذكّرني بملاحظة شين. إذا تعثّرَت هنا، فمن المستغرب أنّها لم تتدبّر أمرها وتحمي نفسها بالتشبث بالحاجز. ولذلك فهناك احتمال قوي أنّها تلقت دفعة.

نظرتُ إلى الأعلى، وتنبّهتُ إلى حركة مباغتة. رأس أسود اختلس النظر من أعلى السلالم، ولكن شمس المساء المتأخر كانت في عينيّ فلم أميّزه. لمحت وميض زيّ أبيض، وللحظة، اعتقدت أنّه شين، جاء بخطّواته الواسعة ليبحث عنّي. ولكن أياً كان هذا الشخص فقد اختفى. ووجب عليّ الذهاب. كانت الممرات المظلّلة فارغة وأنا ألتفّ حول المستشفى. وأنا أعبر قريباً من الباب المألوف لمستودع قسم الأمراض، تمهّلتُ. ماذا لو أن إصبع رجل المبيعات لا

تزال بمكانها، والإصبع التي قدّمها لي رين قرينتها السحرية، وُلدَت مثل دودة من ظلام الأرض التي حفرها رين وأخرجها منها؟ كانت فكرة مزعجة حقاً، لدرجة أنّني شعرت بالحاجة إلى رؤيتها بنفسي. وأدرت أُكرة الباب. ولم أتوقّع أن تفتح. لكنها فتحت.

كان كلّ شيء في الداخل مثلما تركناه أنا وشين. سحبتُ السلّم المعدني نحو رفّ العينة. رفعت يدي، وبعد نموذج كليّة، ثم قارورة تحوي الجرذ ذا الرأسين. نظرت إلى الخلف. لا شيء. المكان الذي كانت تقبع فيه القارورة الصغيرة، وبداخلها الإصبع المجففة والمسودة؛ كان خالياً. إذن لم تتضاعف الإصبع وتخلق لنفسها قريناً سحرياً مثل كابوس. قلت لنفسي: *الحمد لله*. كنتُ على وشك أن أنزل من السلّم عندما انفتح الباب.

كان هذا ي.ك. ونغ. كان يجب أن أعلم أنّه سيكون هو، لأنه كان مثل حلم سيّئ، يظهر في كلّ مكان أذهب إليه. وأسرعَت ضربات قلبي، أمسكتُ أنفاسي وهو يغلق الباب خلفه، بتعمّد وقصد.

وسأل: «هل تبحثين عن شيء؟ عن إصبع مثلاً؟».

قلت بشيء من التحدي: «لا توجد أيّة إصبع على الرف».

دار حول الأشياء ليقترب منّي وقال: «أعلم. بحثت هناك عنها في ذلك اليوم». وراقبته بتوتّر من مكاني العالي. وتابع: «هل يعرف شين شيئاً عن عملك في ماي فلاور؟».

إذن لقد تعرّف عليّ في المستشفى في ذلك اليوم، رغم محاولاتي لإخفاء وجهي. وأحسست بأنّي مكشوفة بطريقة سخيفة وعرضة لأي خطر حيث أقف على السلم، وكأنني ضحية معدّة للشنق.

رسم على وجهه ابتسامة إجبارية فلمحت نابه المدّبب وقال: «لنعاود الكرة. لقد كذبتِ عليّ بشأن الإصبع. هل أنت واحدة من فتيات شان يو شونغ في صالة الرقص؟».

«كلا، وقعت الإصبع بين يديّ بالصدفة».

وألقى عليّ نظرة من لا يصدق. اقترب خطوة أخرى وحاصرني. ثم قال: «وماذا عن بي لنغ؟ سمعتك تسألين عنها. هل أعطتكِ شيئاً؟».

ماذا قالت بي لنغ؟ إن لرجل المبيعات صديقاً يعمل في المستشفى لا تحبّه؛ وتخشى أن يضع يده على الرزمة.

فكرّتُ، القائمة. لائحة الأطباء والمرضى ومبالغ النقود المكتوبة بيد شخص آخر. كنت لا أزال واقفة على ذلك السلّم السخيف وتبادر لذهني أنّه إذا ما دفعني إلى الخلف، فسوف أشجّ رأسي. مثلما حصل في سقطة بي لنغ على السلالم.

استدرت نصف استدارة، ومددتُ يدي إلى الخلف ولامسَت يدي القوارير الزجاجية. ورميت القارورة التي تحتوي على الجرذ ذي الرأسين على ي.ك. ونغ. وتحطّمت على ذراعه وانتشر السائل المقرف. وصدرت منه صيحة قرف وهو ينكفئ على نفسه متراجعاً. ثم قفزت أكبر قفزة في حياتي، في محاولة للإفلات منه، ولكنه قبض عليّ من معصمي. لم تكن لدي من أنفاس للصياح، وكان كلّ ما بإمكاني فعله هو أن أطبق أسناني فقط وأدفعه بقوّة. وانزلق على الأرض المبتلّة، وأسرع قبلي إلى الباب وأغلقَه. ولدقيقة وقف هناك، ووجهه مشدودٌ كأنّه يفكر باتخاذ قرار. ثم أدار أُكرة الباب، وغادر وأقفل الباب عليّ وأنا في الداخل.

صحت وأنا أضرب الباب: «دعني أخرج».

وضع فمه على الباب وقال: «فكري بسؤالي. سأعود لأحصل على جواب».

تابعتُ الصياح حتّى بح صوتي، وخلال ذلك الوقت، كان ي.ك. ونغ قد انصرف. وتصادَف أنّه كان مساء الجمعة؛ ولن يوجد غير الطاقم الأساسي للعناية بالمرضى الذين سيبقون في العنبر خلال عطلة الأسبوع. وتحت تأثير الفزع حاولت فتح النوافذ. كانت طويلة ومعظمها مغلقة ومطلية. والنافذة الوحيدة الموجودة كانت كوّة لها رافدة تُفتح أفقياً. وهي بحاجة لخطاف طويل لتحرير القفل. ولكنها كانت مرتفعة جداً.

سحبت الطاولة نحو الكوّة وصعدت عليها. لم تكن مرتفعة كفاية. وضعت السلّم المعدني عليها. بخار الفورمالديهايد المسفوح على الأرض أدمع عيني،

مع أنّي أشحت بنظري عن الجرذ ذي الرأسين الملقى على الأرض. ولابد أن الكوابيس ستنتابني من ذلك المنظر. تابعت طريقي نحو الأعلى، وشعرت باهتزاز السلّم والطاولة، وخفت من النظر إلى الأسفل. أخرجتُ رأسي من الكوّة. في النهاية سيراني أحد ما، لكن خشيت من عودة ي.ك. ونغ إذا ناديت لأستغيث. أخذت نفساً عميقاً، وألقيت سلّتي من خلال الفتحة، ورفعت نفسي. كانت ضيقة، رغم أنّي كنتُ أحشر نفسي من جانبيّ. كانت ضيقة جداً. وعلقت على ارتفاع ثمانية أقدام من الأرض. وقلتُ لنفسي: *هيّا! لن آكل بعد الآن المزيد من الكعك المبخّر*. وسمعت صوت تمزق حينما علقت تنورتي بمفصل النافذة. وكشط طرف النافذة العلوي ظهري، ثم تحرّرت، وأنا أتخبط بجنون على الإفريز، وساقاي مدلّاتان.

أفلتَت قبضتي وسقطت سقطة مؤلمة. وشعرت بألم حاد في كاحلي وأنا أحطّ على الأرض، وأحرقتني راحتا يديّ من الخدوش التي تسبّب بها الجدار. سمعت صوت خطوات سريعة حول الزاوية. وتسمّرت، مرعوبة فقد يكون ي.ك. ونغ، ولكن كان كوه بنغ. وسعدت لرؤية وجهه الوديّ والممتلئ.

قال: «سمعت صراخاً. هل أنت على ما يرام؟».

«لويت كاحلي».

ولحسن الحظ كان كوه بنغ يبدو مهتمّاً بالنظر لتنّورتي، والتي جررتها إلى الأسفل بسرعة، ولم يكن مهتماً بالسؤال كيف سقطت هكذا خلف المبنى.

سألته: «هل شاهدت ي.ك. ونغ في طريقك؟».

«لا». ورمقني بنظرة ثاقبة. وأضاف: «هل طلب منك شيئاً».

كل ما كنت أفكر به هو أن أجلس بهدوء في مكان ما حتّى تتوقّف يداي عن الارتعاش. هل يجب أن أبلّغ عن ي.ك. ونغ؟ قد يدعي أنّها مزحة، أو أنّني خدعته ليأتي إلى المستودع وراودته عن نفسه هناك. في الحقيقة، لو أُشيع خبر عملي في صالة رقص سيكفي ذلك للطعن بإفادتي. وإذا اكتشف شين ذلك، ستلاحقني المشاكل؛ بالرغم من هدوئه المسالم، لكنّه عصبيٌّ وذو مزاج قابل للانفجار. قلت بشيء من التشتّت: «كان يبحث عن رزمة».

«هل هذه الرزمة تعود إلى بي لنغ؟ رأيتكما تتكلمان قبل حادثها».

«لقد طلبَت مساعدتي». رغم أن مساعدتي لم تعُد بفائدة. وتابعت: «أيّ نوع من الأشخاص هو ي.ك. ونغ؟».

«شخصيّته غريبة. هو قريبٌ إلى الدكتور رولينغز، طبيب الأمراض. وقد قدّم له الكثير من الخدمات».

رولينغر اسم آخر موجودٌ في تلك اللائحة. هل لهذا السبب كان لدى ي.ك. ونغ مفتاح المستودع؟ وقطّبت وجهي، وأنا أفكر.

سأل: «والآن، ماذا يُوجد في تلك الرزمة؟».

إلى أيّ حدّ يمكنني الثقة بكوه بنغ؟ يبدو أنّه يعرف الكثير ممّا يجري في هذا المستشفى. فقلت ببطء: «لائحةٌ من أسماء وأرقام. ولكن رجاء لا تخبر عنها شين. فهي مسألة شخصية».

وقال كوه بنغ بتعاطف: «لا تقلقي، يمكنكِ الاعتماد علي».

بدا عليه السرور لأنّنا نشترك بهذا السرّ، وتذكرتُ كلامه عن الجماجم والناس المتحولين إلى نمور فسألته: «هل تعرف شيئاً عن خرافةٍ أو سحرٍ حول الأصابع؟».

«حسناً، الماليزيون يقولون إن كلّ إصبع لها شخصية؛ الإبهام هي الإصبع الأم، وتسمى *إيبو جاري*. ثم السبابة وهي *جاري تيلونجوك*، التي تدلّ على الطريق. الوسطى وهي *جاري هانتو*، أو الإصبع الشبحية، لأنها أطول من غيرها. والخنصر وهي إصبع الخاتم؛ وفي بعض اللهجات يشار لها بالإصبع غير المسماة. والبنصر وهي الإصبع الذكية».

شوّشتني فكرة أن لكلّ إصبع شخصية. كما لو أنّها خمسة أشخاص صغار. وألقى عليّ كوه بنغ نظرة جانبية؛ وأنا متأكدة أنّه يعلم أنّني أخفي عنه شيئاً. ولكنه اكتفى بالقول بطريقته الودية: «كانت بي لنغ صديقة جيدة لي. لذا أرغب بالمساعدة. قائمة الأسماء تلك، هل يمكنكِ أن تأتي بها لأراها؟».

أومأتُ بالموافقة. إن تمكّن من تفسير معناها، ربّما يكون عندي شيء أساوم عليه لعقد اتفاق مع ي.ك. ونغ.

36

باتو جاجاه

الجمعة، 26 حزيران

في فترة ما بعد الظهيرة الحارّة واللاهبة استغرق رين بالنوم. وتخطّى حجاب الضباب الذي يجرفه ويخدّره. كان عليه أن يمرّ منه إلى المكان الآخر. ذلك المكان المحموم والساطع حيث كلّ شيء صافٍ مثل الزجاج وحادٌّ مثل الحجر. وتطلب ذلك منه كلّ قوته ولكن فجأة ها هو هنا. الأعشاب الطويلة المبيضة، والشجيرات القصيرة المتشابكة. هنا كان يوجد نمر، كما يتذكر، ولكن لا يمكن رؤيته الآن. نظر في أرجاء الأرض الموحلة. هل كان ما يفعله شيئاً مهماً؟ نعم. نانداني. عليه أن يفتش عنها.

أخبره ويليام أنّها عادت إلى البيت بأمان بعد حفلة تلك الليلة، ولكن رين لا يصدّقه. إنّها ليست في باتو جاجاه. هي هنا. وهو متيقن من ذلك.

في ذلك المشهد الملتهب الذي يشبه الأحلام، تبع رين آثار الأقدام المطبوعة على الأرض الطرية. كانت تتابع إلى الأمام، كانت القدم اليسرى تعرج، فوق أعشاب تصل بطولها حتّى خصر الإنسان، وتقود في النهاية إلى محطّة القطار التي كانت تلوح من بعيد. وقال لنفسه بقلق: لا بدّ أنّها آثار نانداني. منذ ذلك اليوم الذي أنقذ فيه ساقها، كان يشعر بمسؤوليته تجاهها، مع أنّها أكبر منه. ولسبب ما، عادت إليه كلمات الدكتور مكفارلين، ذلك التأنيب العطوف. كان يقول له: *عاطفتك ستكون سبب موتك يا رين*. ولكن هذا غير صحيح، أليس كذلك؟

وبلا هوادة واصل تتبع آثار الأقدام. كان الأثر يتقطّع، كما لو أن من تركه يزداد

ضعفاً كلّما تقدم على الطريق. وتحفّزت حاسّة القطّة، وارتعشت باتّجاه واحد، حتّى أوصلته بمواجهة جدار أصّم مرتفع وواسع كالسماء. وخلفه، رقد يي.

وشق رين طريقه، كانت المشهد الطبيعي يحترق بالضوء الساطع وينعكس على عينيه نصف المغمضتين. كانت محطّة القطار تقترب بإيقاع ثابت وهادئ. وكانت بنفس الاتّجاه الذي يقوده إلى الجدار العازل الذي يفصله عن يي. ولسبب من الأسباب، جاءت إلى ذهنه فتاةٌ بفستان أزرق. ما هو اسمها، جي لين؟ وكانت أفكاره ترتعش وتومض. تختفي وتعود. كان ويليام يرقص معها. واتسعت عيناها لدى رؤيتها رين. كان يركض حول البيت في الظلمة، ويفحص النوافذ بحثاً عن نانداني، أم أنّه مخلوق آخر شاحبٌ ومرعب يسبب القشعريرة ويختلس النظر من النوافذ؟ تلك الروح المنتقمة للمرأة ذات الشعر الطويل التي خانها الحب. وأخيراً، جاء ذلك الصوت القصير الهادر الذي ومض في الظلام، ولكنه لم يعد يتذكر شيئاً مما حدث بعد ذلك. هذا هو الواقع الآن، هذه الأرض المشمسة التي ترتعش أمام احتمالات مجهولة.

وأغرتهُ الآثار ليمضي قُدماً. وقادته حول شجيرة لها أوراق خضر داكنة شمعية. وخمّن أنّها الدفلى من منظر البراعم الرقيقة، ولكنّه لم يتذكر من الذي كان يكرهها أشد الكره. ذلك العجوز الصينيّ الذي كان يمسح يديه بمريول ويقول بامتعاض إنّ على السيّد أن يقطعها. وطرف رين بعينيه وغابت عنه الذكرى.

وما أن التف رين حول الشجيرة، حتّى كاد أن يتعثر بها. كانت تجلس على الأرض، وتعتني بكاحلها الأيسر. وشعرُها الطويل الأسود متشابك، وحينما رفعت وجهها إليه، تلقى رين صدمة فظيعة. إنّها ليست نانداني أبداً. في الحقيقة، لم تقع عيناه على هذه المرأة من قبل.

وتبادلا النظر بصمت. إنّها صينيّة، بنظرة باهتة تشبه نظرة الأرنب. عيناها محمرّتان من الزوايا، كما لو أنّها كانت تبكي، وعندما وقفت بطريقة غريبة، لم تكن أكبر من رين بكثير. سألَته: «من أنت؟».

«أنا رين».

حدّقت به وقالت: «هل أنت شخص حقيقي؟».

«نعم».

وفجأة، قبضت على ساعده. كانت لمستها باردة جليدية، وأطلق رين صيحة تدلّ على الدهشة.

قالت: «ملمسُك دافئ». ثم انحنت، ولمست كاحلها وقالت: «لا يمكنني المشي. لا بدّ من أنّني لويت كاحلي». ومع تكشيرة خفيفة استقامت. وأصبح بمقدور رين أن يلاحظ عيباً ما فيها. كانت إحدى ذراعيها محنيّة، واتخذ كتفاها زاوية غريبة، وهي تدفع طريقها نحو الأمام وتبدو مكسورة مثل دُمية تقطعت الخيوط التي تتحكم بها.

سألها: «هل تتألمين؟».

قالت: «ليس تماماً. ثم أنّي ممرضة. وأعتقد أنّني كسرت ذراعي أو أصَبت كتفي بخلع».

«هل يمكنكِ تذكر ما حدث؟».

عبست وقالت: «لقد سقطتُ. ورأسي يؤلمني. عموماً سيتحسّن حالي ما أن نصعد على متن القطار. وأنت أيضاً ستتحسن».

نظر رين إلى الأسفل، وانتبه إلى أنّه أيضاً كان مصاباً. كانت ذراعه اليسرى وجانبه الأيسر ملفوفان بالضماد. وغمرَه إحساس غير مريح بأن عليه أن يتذكّر لماذا، مع أنّه لم يتمكّن. والتفّا حول شجيرة الدفلى. ومن هنا، هناك مشهد واضح لمحطّة القطار أمامه. ويبدو أن رفيقة رين ارتاحت من قلبها للمنظر.

قالت: «من أين أتيت؟».

نظر خلفه وقال: «لا أعلم». لم يكن هناك غير الأعشاب المتمايلة والمتموجة.

فقالت رفيقته: «هيا. علينا أن نمضي»

37

فاليم/ إيبوه
الجمعة، 26 حزيران

استقللت الحافلة إلى فاليم وأنا أرتجف. وكلما أغمضت عينيّ، يمكنني أن أرى ي.ك. ونغ بفكّه المعقوف، في تلك اللحظة التي كان يحسب حساباته فيها وينظر لي قبل أن يغلق باب المستودع ويقفله. وتساءلتُ ما هو التعبير الذي انطبع على وجهه بعد عودته واختفائي. بالتأكيد، يجب أن أجد حلاً لموضوعه وبسرعة. وقلت لنفسي: *تحلّي بالشجاعة أيتها الفتاة، تحلّي بالشجاعة*. ووضعتُ يدي على صدري لتسكين القلق المتنامي فيه.

أمضيت أمسية هادئة في المنزل أساعد أمي. وفكّرت برين وأنا أنظر لجسدها المتداعي. كان يراودني ظن فظيع عن كونه يحتضر، إذ أرعبني الشحوب الرمادي الذي علا وجهه، وعيناه المغلقتان مثل روح هائمة. ماذا يمكنني أن أفعل لأجله؟

وقاطعتني الوالدة بقولها: «لا تقلقي. سيكون على ما يرام. ثم إنّه يحبك».

وقفز قلبي من موضعه. ولكنها كانت تتكلم عن روبرت، طبعاً. وأصخت السمع بأذن واحدة، وهي تثرثر عن لطفه ودماثته.

قلت موافقة: «نعم». وكنت أفكر أنّني سأعتمد عمّا قريب على لطفه ذلك. وغمرني الخجل. لا شكّ أن روبرت لن يرفض طلبي بخصوص اقتراض النقود؟ فالأمر مختلف تماماً عن قبول طبق من حساء الدجاج. أشياء كثيرة مضت باتّجاه خاطئ مؤخراً حتّى شعرت بالغثيان من القلق. ولكن ماذا كان يعني رين بقوله إنّه *بقي يومان وحسب*؟

* * *

في صباح اليوم التالي، خرجتُ من المنزل بهدوء لكي أعود إلى إيبوه، وذكرت للوالدة أنني أساعد السيّدة تام للانتهاء من خياطة فستان. قلت لها: «طلبيّة مستعجلة». ولكن السبب الحقيقي هو وعدي للماما بالمشاركة في سهرة أخيرة مع فتيات ماي فلاور.

كان الوقت قد تجاوز موعد غداء السيّدة تام. قالت بلا مقدمات: «أنتِ هنا!»، وتابعت: «توقّعت أن تنتظري في فاليم طوال عطلة الأسبوع».

قلتُ بصوت مذنب: «يجب أن أساعد صديقة».

ولحسن الحظّ إن السيّدة تام لم تهتمّ بكلامي، إذ لديها أخبار تكاد تنفجر لتقولها. قالت: «جاء أخوكِ يبحث عنك. هو والشاب الآخر».

«أيّ شاب؟».

«الذي قادك إلى البيت بسيارته تلك الليلة. من قلت إن اسمه روبرت».

لماذا يبحث عنّي روبرت وشين بحق السماء؟ أصلاً هما ثنائي غير متوافق؛ حتّى أنّه لا يمكنهما الانسجام مع بعضهما.

قالت السيّدة تام: «في البداية جاء أخوك، وحين أوشك على المغادرة، وصل روبرت ذاك. وأخبرتهما أنّك عدتِ إلى بيتك».

«هل قالا ماذا يريدان؟».

«لا. ولكن قال أخوك إن لديه موعداً للقاء شخص ما». قالت السيّدة تام ثم اقتربت منّي وتابعت: «هل علاقتك مستقرّة مع روبرت ذاك؟».

«نحن صديقان فقط».

منحتني نظرة شكّ، ولم يكن أمامي سببٌ للومها. فروبرت وسيارته الضخمة التي تشبه زورقاً، يجذبان الانتباه. ومعظم الفتيات إذا كن في محلي، سيصلن بأحلامهن إلى القمر من السرور.

قلتُ: «إذا انتهيت باكراً قد أعود إلى فاليم الليلة».

«حسناً». ثم لوحت لي السيّدة تام بمرح وأنا أغادر. تلك هي الميزة من أن

يكون لديك مكانان للمبيت. إذ يمكنك دائماً أن تدّعي أنّك في المكان الآخر. وكنت بحاجة ليوم أو ما يقارب اليوم لتنفيذ الخطة التي وضعتُها.

في الممرّ الخلفي المعتم من ماي فلاور، أوقفتني الماما ووضعت ظرفاً في يدي. وصدر عنه صوت خشخشة رخيم وعذب. قالت: «أخيراً دفعوا لقاء تلك الحفلة الخاصة. لقد ذهب كيونغ لاستلام النقود من ذلك الطبيب ذي الشعر الأحمر. وهذه حصّتُكِ، بالإضافة للمبالغ القديمة المستحقة. هل حزمتِ أشياءكِ وأزمعت على الرحيل؟».

«تقريباً».

كنت أحتفظ برداء احتياطيّ في غرفة تبديل الثياب، وخطّطتُ لارتدائه اليوم. كلنا نحن الفتيات نفعل ذلك، تحسّباً من حادث مفاجئ كتمزق الثوب أو تبقعه. كنتُ مستغرقة في التفكير، وأسرعت في الممرّ المطلي بلون النعناع الأخضر والمتقشر في بعض الأماكن. كانت هوي في غرفة تبديل الثياب تضيف المساحيق لخدّيها. فهي تعمل في أيام السبت منذ الظهيرة وطوال نوبة المساء.

وبدا عليها الدهشة فسألتني: «هل أنتِ معنا اليوم؟».

قلت: «طلبَت منّي أن أحضر». وكنت أتصارع مع ثوبي لأخلعه.

قالت: «تعالي لأساعدك». وبسرعة حررتني هوي من خطافات الثوب. يجب أن أخبرها أنّني سأستقيل، ولكن لم يكن يبدو الوقت مناسباً الآن، ليس ونحن نسرع بتجهيز أنفسنا.

لم أعمل في أمسيات السبت من قبل، ورأيت أنّها مزدحمة. عزفت الفرقة موسيقى رقصات محلّية مثل رقصة *الجوكيت*[1] وسواها. كانت الموسيقى مرحة، فنسيت قلقي لفترة وجيزة، واستمتعتُ بها، ولكنّي لم أشاهد أحداً من زبائني المعتادين. سأفتقدُ كلّ هذا: أرضيّة الرقص الملمّعة بالشمع، وجوه أفراد الفرقة المتعرّقة الذين أعرفهم الآن لدرجة تسمح لي بتحيتهم بإشارة من الرأس وابتسامة كلما التقينا. ورائحة العرق والسجائر، ألم الساقين، وملاحظات هوي المضحكة

(1) Joget رقصة ماليزية وطنية.

والناقدة. وحينما جلستُ مع الراقصات البديلات بعد فقرة راقصة مع موظف حكومي بدين، شعرت بطعنة ندم. ربّما لم يكن علي أن أستقيل.

كنتُ أعرف القليل من الفتيات الأخريات اليوم باعتبار أننا نشغلُ نوبات مختلفة، ولكن جاءت آنا. ولم أكن قد رأيتها منذ ليلة الحفلة الخاصة. كان لآنا دائماً حضور ثقيل ومخدر، واليوم بدت بقامتها الطويلة أكثر إغراء.

قالت: «رأيتُ شيئاً جيداً للتوّ».

«ماذا؟».

«شخصٌ وسيم حقاً. ينتظر صديقه في الخارج. وأخذتُ منه وعداً ليراقصني حين يدخل».

ضحكت الفتيات الأخريات. واستمعتُ لهن بأذن واحدة.

«ماذا تقصدين بقولكِ *وسيم حقاً*؟ أنت تكرّرين هذه العبارة دائماً!».

«لكنه وسيم! لا بدّ أنّه ممثل من سنغافورة أو هونغ كونغ».

ورحنا ننظر لبعضنا البعض في عدم تصديق، لكنّنا في الحقيقة قد تملكنا الفضول، ولا أستثني نفسي. فقد هطلت رسائل الحب كالمطر على عدد من نجوم الأوبرا الصينيّة، وحصلوا على أطعمة محضّرة في المنزل، ونقود من نساء معجبات وهائجات. والشخص الوحيد الذي كنت أعرفه والذي يمكن أن يكون ممثلاً هو شين. ثم عبرت في رأسي فكرة مرعبة: ربّما كان فعلاً هو شين.

قالت آنا: «هو طويل، بكتفين متناسقين وورك نحيل. وله هيئة صينيّ من الشمال. بأنف شامخ وعظمي وجنتين بارزتين».

انطلق جرس الإنذار في داخلي؛ وجيشٌ من النمل الناريّ يغزو رقبتي بسلعاته.

ثم قالت: «انظري، ها هو».

وغاصت معدتي فزعاً. كان هو شين فعلاً، ومعه روبرت وي.ك. ونغ. شقّ ثلاثتهم الطريق عبر الزحام. وكان ي.ك. ونغ في مقدمتهم. ووجهه الرفيع بفكّه المتطاول في حالة تيقّظ وانتباه، وكان يفتش في وجوه البنات. وتقابلت أعيننا.

ولم يكن معي شيء. ولا حتّى مروحة لأخفي نفسي من نظراته المنتصرة، كنت أحمل وردة ورقية عليها رقمٌ على صدري، كأنني سلعة معروضة للبيع. وخيّم علي الفزع، ورغبت لو أستطيع أن أقفز من مكاني، لكن جمدت ساقاي. وارتفع هدير طنّان في أذني وهم يقتربون. وحتى إذا اكتشف ي.ك. ونغ وجودي، فهذا لا يعني شيئاً ما دام روبرت وشين لم يبصراني. قلت لنفسي: *اهربي!*

شهقتُ وتركتُ الكرسي، وتخطيت الفتيات الأخريات بحركة متعثرة ومرتبكة. فندت عنهن أصوات تعبر عن الاستهجان والدهشة. ولكن قبض ي.ك. ونغ على معصمي وقال: «كنت أبحث عنك».

وحدّقتُ بروبرت الذي كان خلفه، فرأيته مصدوماً. ولم أجرؤ على النظر إلى شين. اتسعت عينا روبرت، وظهر البياض حول حدقتيه، وفغر فاه. ثم أغلقه. ثم فغر فاه مجدداً وقال: «جي لين، هل تعملين هنا؟».

وطأطأتُ رأسي بخجل بائس.

ردّد مرّة أخرى: «هل تعملين هنا فعلاً؟ كعاهرة؟».

كان صوتُه مهيناً. مرتفعاً، مثل صفعة في الوجه. وتباطأ الوقت كأنّه صار يزحف مثل كابوس. ولاحظتُ تشنّج فكي شين. والحركة العصبية التي هزّت كتفيه. كنت أعرف علامات الخطر هذه عندما تثور أعصاب زوج أمي. ورأيتُ المستقبل يتجلى كشريط أخبار سريع وكئيب: سيضرب شين روبرت على فمه، ويكسر له أسنانه وأنفه، ويأوي إلى السجن بسبب خياراتي الغبية، الغبية جداً.

ألقيت نفسي أمام روبرت. ودوّت ضربة على جانب رأسي قوية بما يكفي لتصاب أذني بالطنين، ولكن لا بدّ أن شين تراجع في آخر لحظة. انكفأتُ على الأرض، إذ تعثرتُ بقدم روبرت. وأعقب ذلك صراخ واهتياج مجنون. وراحت نغمات البوق تتنافر وتراخى الموسيقيّون بالعزف، لكنهم سرعان ما عادوا لعزفهم بكل طاقتهم. وأمسك شين وجهي بين يديه، وهو يقول: «أيتها الحمقاء».

وزعقت هوي بحدة وهي تقول: «ما الذي تفعله؟».

تنهدتُ وأنا أنهض بعناء وقلت: «لا بأس. هذا أخي».

واقتربت منه. وأصاب اليأس والقنوط أذنّي المتألمتين بشيء يشبه الخدر. واقترب الحراس منا. وفي الزاوية، كان وجه الماما مهدّداً كالرعد.

ثم ناداني روبرت: «جي لين!». لكن كنت أركض مبتعدة، وأشق طريقي بين الزحام الذي أفسح لي الطريق، بوجوه تكللها الدهشة، وأفواه مفتوحة من الدهشة تردّد: *أوه!، أوه!*. وكنت أجرّ شين معي، ويده بيدي. وخلفنا، تدحرج كيونغ بين الراقصين، وهو يصطدم بهم ويعتذر منهم. ولجنا من الباب الجانبي إلى الممرّ الأخضر بلون النعناع الذي ارتفعت فوقه إشارة «*خاص*»، وفتحتُ باب غرفة الثياب بعنف، وحملت حقيبتي، وبداخلها الإصبع!

وتردّد صدى صياح كيونغ وهو يقتحم الممرّ. ثم غادرنا من الباب الخلفي إلى الطريق القذر خلف صالة الرقص، وهناك تابعنا الجري، والجري، كأن الشيطان نفسه يلاحقنا.

38

إيبوه/ تايبنغ
السبت، 27 حزيران

فكّرتُ أن هذه هي نهاية كلّ شيء. لا أعلم ماذا استحوذ علينا، فقد جرينا مثل أطفال، شين وأنا. كأننا بعمر عشر سنوات وقد ضبَطنا أحدهم ونحن نسرق المانجو من شجرة بيت الجيران. وتابَعنا من شارع إلى شارع إلى أن فقدتُ الإحساس بالمكان، فاتكأنا على جدار، ونحن نلهث.

قال شين: «أنتِ تعلمين أنّه لا يوجد أحد يطاردنا».

لم يفعل كيونغ شيئاً غير المدّ برأسه من الباب الخلفي، والصياح: «ماذا حدث يا لويز؟». وربّما لم يكن ليحصل شيء لو أنّني توقّفت وتكلمتُ معه. كان كيونغ متعقلاً، والجدل بين الزبائن يحصل باستمرار، ولكن لم يُصب أحدٌ بأذى غيري.

فحصني شين وهو يبحث عن كدمات وقال: «هل تؤلمك؟». وتابع: «لم أقصد أن أضربك».

قلت: «أنا بخير». وأبعدت عنّي يده.

قال بجفاف: «أنا متأكد أنّك بخير. أيّ إنسان يجري نصف ميل يعني أنّه بصحة جيدة. إلى أين كنتِ تهربين؟».

والتهب خدي بالحرارة من الخجل وقلت: «لم أستطع الاحتمال. نظرة روبرت، ووجودكم جميعاً معاً». كانت كلمة *عاهرة*، لا تزال ترن في أذني.

جلس شين مستنداً على الجدار الجصّي الخشن. كانت أمّي تكرّر دائماً أمامنا أن المتسولين، والسكارى، ومدمني الأفيون يجلسون في قارعة الطريق في رابعة النهار، ولكن لم يكن هناك أحد حولنا الآن، ولذلك جلستُ مثله أيضاً.

«لماذا قفزتِ أمامه بتلك الطريقة؟».

«لأنك أوشكتَ أن تضربه».

«كان يستحقّ ذلك. الوغد».

قطّبتُ، وسألته: «وهل أنت غاضبٌ منّي أيضاً؟».

قال: «ماذا تظنين؟». وألقى عليّ نظرة طويلة.

تأمّلتُ مليّاً في شقٍ في الرصيف. كان يشبه خريطة نهر كينتا. وقلت: «لم يكن أمامي خيارات كثيرة. خيارات تربح منها النقود الكافية. ولكنني لست عاهرة». وفكّرت: يا له من حوار فظيع لأجريه مع أخي غير الشقيق الذي ربّما كنت مغرمة به. عليّ أن أحتفظ بمفكرة أسجّل فيها اللحظات السيّئة من حياتي. قد تكون مسلية بعد خمسين عاماً، ولكن ليس الآن. بالتأكيد ليس الآن.

«وأنا لا أعتقد ذلك. أماكن من هذا النوع تحرص على انتقاء العاملات فيها».

«وكيف علمتَ؟». وراقبته من تحت رموش عيني، مع تقطيبة بالوجه.

قال: «زرت قاعات الرقص من قبل. يوجد كثير منها في سنغافورة».

وفجأة شعرتُ بالانزعاج من شين، ولم يعد بمقدوري النظر إليه نظرة مباشرة. قلت: «أفترض أنّه لا مكان للإحراج إذن ما دمتُ لم أخبرك بالموضوع».

رفع وجهي نحوه وقال: «هل كنت قلقة من ذلك؟».

فكّرت أنت قريب جداً. قريب جدّاً مني. وجرّدتني تلك اللمسة البريئة من سلاحي. ابتعدت عنه. ثم قلت: «ليس أنت فقط. كنت قلقة من أن تعرف بهذا الموضوع أمّي والسيّدة تام. وروبرت طبعاً. من وجهة نظره أنا فاسدة».

قال شين بصوت جليدي: «إن لم يعلم أنّك عذراء حتّى الآن فهو مغفل».

وشعرت بالإذلال لدرجة لم أعرف إلى أين أشيح بنظراتي. والتهبت أذناي، واشتعل وجهي. وافترضتُ أنّه يجب أن أسعد لأنّ شين لم يشك أنني فقدت عفّتي، لأنّ العفّة ترفع من قدر المرأة، ولكنه كان يتصرف بترفّع. وودتُ لو أصفعه. قلتُ بغضب: «ولكن هذا ليس من شأنك». ثم قفزتُ لأنهض.

أمسك بي شين من ذراعي، وجرّني إلى الأسفل. وقال من بين أسنانه المطبقة: «طبعاً هو شأني. أنا لا أحب هذا. لا أحب أن تنشغلي بعمل من هذا النوع. فهو غباء وخطر وأنت محظوظة لأنّ شيئاً لم يحدث، حتّى الآن».

قلت: «لم يكن أمامي حلّ آخر!». كيف يجرؤ شين على أن ينهاني عن شيء، وهو مشغول فقط بدراسته وأوقاته الممتعة في سنغافورة؟ ودفنت وجهي بين ركبتي.

وضع شين يده على رأسي بلطف، كما لو أنّه كان يخشى أن أبعدها. وقال: «لماذا لم تكاتبيني وتطلبي النقود؟».

«وكيف لي ذلك، فأنت لا تردّ أبداً؟».

«ذلك بسبب...»، وابتلع كلامه ولم يكمل. ومهما كان السبب، سواء فتاة أخرى أو عالم آخر أجهله، لكنّه لم يكن يريد أن يعترف بوضوح، ولم ألحّ عليه.

قال: «كنتُ أشتبه في أنّك متورطة بشيء من هذا النوع».

«ماذا تعني؟». وكان صوتي مكتوماً.

هزّ شين رأسه وقال: «عمل آخر في السر. أخبرتني الوالدة عن ديون الماهجونغ، بعد الإجهاض. وذكرت أنّك تسددينها من عملك في الخياطة، ولكنّي لم أقتنع أبداً أنّك تجنين ما يكفي من نقود».

«وهل حضرت اليوم لهذا السبب؟».

«لا، لم تكن عندي فكرة عن مكان عملك. لكن ي.ك. ونغ هو من دعاني إلى هناك».

ونهضت. وسألته: «لماذا؟».

«لا أعلم. ولكنه كان يسأل عنك بطريقة مواربة. وأيضا سأل إن انتبهتُ لاختفاء أيّة عينة من مستودع قسم الأمراض. وطبعاً تظاهرت بالغباء. وأخبرته أنّني لم أنتبه من الجرد».

إذن ي.ك. ونغ لم يخبر شين عن احتجازه لي في المستودع. فهل إحضاره لشين إلى صالة الرقص طريقته للضغط علي؟ خرجَت ربة منزل من باب مجاور ورمقتنا بنظرة جانبية. كان الوقت بعد الظهيرة من يوم السبت والشباب الذين

يتمتعون بصحتهم لا يجلسون على الرصيف هكذا، ولذلك شرعنا بالابتعاد بطريقة من يهيم على وجهه. وكنت أفكر: إذا وصلنا إلى شارع رئيسي، فلا بدّ أنّه سيكون هناك موقف حافلة، وعندها سيعود إلى باتو جاجاه. وملأتني هذه الفكرة بالوحدة.

قال شين: «كما وأنه سألني أيضاً إذا كنتُ قد سمعت شيئاً عن إصبع إنسان مستنمر».

«ماذا؟».

«يبدو أن المستشفى يحتفظ بإصبع لرجل مستنمر».

وقفز ذهني إلى ليلة الحفلة وردّة فعل رين الغريبة، وكيف انطلق إلى الظلام حينما سمع بالنمر. وقطّبت وجهي وقلت: «كوه بنغ ذكر لي ذلك حينما كنّا ننظف مستودع الأمراض».

«ي.ك. قال هناك دائماً من يرغب بشرائها».

وبلغنا موقفاً للحافلات. وكان هناك آخرون، ولذلك توقّفنا عن الكلام حول الأصابع المبتورة والنمور المتحولة، ولكن تساءلت هل إن ي.ك. ونغ كان يبيع عينات قسم الأمراض بالسر. سمعت أن الجزء القاسي المأخوذ من عين النمر، والبازهر[1] التي تتشكّل في بطن العنزة وسحالي الورل تجني مبالغ طائلة في السوق السوداء. ويُقال أنّها تجلب الحظّ، وتفتن العاشق، وتسحر العدوّ وتميته. وفكّرت بالإصبع المسودّة والذابلة التي أُعيدت لي بطريقة غامضة، والتي كانت تخشخش في حقيبتي ولا تزال حتّى الآن.

قلتُ: «شين!». وفتحت الحقيبة ليرى ما في داخلها.

اتسعت عيناه. وسأل: «من أين حصلت عليها؟».

في تلك الدقيقة، وصلت الحافلة. وكنا محظوظين ووجدنا مقعدين، وبينما الحافلة تهتز في طريقها، أخبرته بكل ما حصل. عن كلّ شيء، حتّى الأحلام ورين

(1) Bezoars بازهر أو بزوار. مادة قاسية تتكون في معدة بعض الحيوانات مثل الماعز. المترجمة.

وتوأمه الميت بي الذي يقف عند النهر. وتوجّب عليّ أن أميل نحوه وأكلمه همساً بأذنه كي لا يسمعنا أحدٌ آخر. وأحياناً أظنّ أنّني لن أنسى أبداً هذه الرحلة عبر البلدة. حرارة شمس المساء اللاهبة، والنسمات المغبرّة التي تهب علينا، وتحمل رائحة أوراق ليمون الكافير المسحوقة في حضن امرأة كانت أمامنا. والصورة الجانبية لشين وهو يرمي نظراته من النافذة، وينصت باهتمام لكلماتي. وقلت لنفسي سراً: إنّني لن أملّ أبداً من النظر إليه.

وكما لو أن الحظ كان إلى جانبنا، عبرت الحافلة البلدة إلى محطّة قطارات إيبوه، وكانت تلمع في شمس المساء مثل قصر مطرز بالأبيض والذهبي.

قلت له: «والآن سأودعك». وحاولت أن أبدو متفائلة.

«وإلى أين أنت ذاهبة؟».

تمسّكت بحقيبة يدي بقوّة وقلت: «إلى متجر السيّدة تام».

قال دون ضغينة: «كاذبة». وأضاف: «إلى أين ستذهبين فعلاً؟».

ولم يعد هناك فائدة من التظاهر. فقلت: «سأذهب إلى تايبنغ. هناك قطار مسائي». ولم أكن قادرة على العودة إلى متجر السيّدة تام، خشية أن يأتي روبرت، بوجه أحمر وهو ناقم. أو الأسوأ من ذلك، أن يأتي ليعتذر ويلوم نفسه. ناهيك عن وجود شيء آخر وعدتُ أن أنجزه.

وبدهشة بالغة رأيت شين ينظر لي ويقول: «كم بقي معك من النقود؟».

كان معي قدر لا بأس به من النقود، إن شئت الحقيقة. فالماما دفعت نقود الحفلة مع المستحقّات المتأخرة.

قال: «لدي ما يكفيني من النقود أيضاً. هيا لنذهب. حان الوقت لسرقة بعض المقابر». وبدأ يمشي أمامي متبختراً، بساقين طويلتين تلتهمان بلاط أرضية المحطّة.

* * *

طبعاً نحن لم نكن ننوي نبش القبور وإخراج الجثث، قلت بسخط، بعد أن اشترى شين لنا التذاكر. كنّا سنعيد شيئاً لمكانه. ولذلك فالأمر أشبه بإصلاح قبر

لا نبشه. قال شين إنّه لا يوجد فرق بين الاثنين. ولم أعرف كيف أفسّر المسألة له، هذا الاقتناع الصارم بأنني لو فعلتُ ما رغب به شين، ربّما سأنقذه من الموت.

قلت لشين: «قال يي: النظام يتداعى، وعلينا أن نحاول إصلاحه».

قال: «أيّ نظام؟».

«الطريقة التي تحدث بها الأشياء بالترتيب. مثل طقس». وقطبت حاجبي، وحاولت أن أتذكر ما أعرفه عن الكونفوشيوسية.

«وهل خطر لكِ أن هذا كلّه قد يكون مجرد هلوسة؟».

وصعدنا في هذه المرة على متن قطار الشمال. عربة من الدرجة الثالثة بمقاعد خشبية قاسية، ولكن معنوياتي كانت مرتفعة. فأنا أهوى القطارات.

قلت: «وماذا بإمكاني أن أفعل غير ذلك؟ وكيف تفسّر إذن الأحلام ويي؟».

«هو يخبرك بما تعرفينه مسبقاً فحسب». قال شين بصوت حانق: «كأنّكِ تجرين حواراً مع نفسكِ».

«وماذا عن رين إذن؟ فهو يبدو بالضبط مثل يي، ولكن أكبر في العمر فقط. ثم أنّه عرفني في تلك الليلة».

«هذه صدفة. كلّ الصينيّين الصغار يتشابهون».

«والدكتور مكفارلين وإصبعه؟ وخمستنا وأسماؤنا، وكيف انتظم كلّ شيء بهذا الترتيب المتناسق، هل لديك تفسيرٌ لكل ذلك؟».

هز منكبيه وقال: «كلا».

«وإذا مات رين، على الأقل أكون قد نفذت له رغبته». وهزّتي رجفة قوية. وتردّد في رأسي صدى كلمات يي «*ذلك شأن سيّده*». ظلام. أوراق تخشخش. تذكّرت مقال الصحيفة عن جثّة امرأة مقطوعة الرأس اكتشفوها في مزرعة. من أو ماذا، كان سيّد رين؟

«وماذا عن الإبهام الموجودة في رزمة بي لنغ؟».

«يجب أن تخبر الدكتور رولينغز عن ذلك. قل له إنّك تشكّ بأحدهم، ربّما ي.ك. ونغ يسرق أعضاء بشرية».

ثارت ثائرة شين وقال: «سأقتل ي.ك. حين أقابله في المرة القادمة. لأنه قام باحتجازك في المستودع».

«لا تفعل!». ثمّ نظرتُ إليه بحذر وتابعت: «لكن يجب أن تبلغ عنه. إذا كان يبيع أصابع إنسان مستنمر والله وحده يعلم ماذا غير ذلك، على أنّها تعويذات، فهذا يفسر لماذا كانت هناك إصبع في جيب رجل المبيعات. ثم أنهما كانا صديقين، بي لنغ أخبرتني، قالت إن لحبيبها صديقاً في المستشفى لم تكن ترتاح له».

«وماذا عن بقية المحتويات في حزمة بي لنغ؟».

ما تبقى كان أكثر تعقيداً. لعله ابتزاز، أو سقطات وما يشبه ذلك. وببطء وبشكل خافت، اتضح لي أن النمط بدأ يتحرّك، يتّخذ ترتيباً آخر، مثل صورة الأصابع التي احتفظُ بها في رأسي. خمسة أصابع تعزف لحناً غير معروف. وانتابني شعور مضطرب أن هذا اللحن هو ترنيمة جنائزية.

كانت الملاحظة المذكورة بجانب اسم ج. مكفارلين في لائحة بي لنغ المكتوبة بخط اليد؛ تذكُر: *تايبنغ/كاموتتنغ*. كنت متيقّنة أنّه الشخص الذي أشار له رين حينما خرج إلى الليل المظلم في تلك الليلة. وكنت متأكدة أيضاً أنّه ميت، ما دام رين قد تكلّم عن قبر.

كانت تايبنغ بلدة صغيرة وهادئة، وهي عاصمة بيراك، وهناك كلامٌ أن هذا الشرف سينتقل إلى إيبوه. ولم أكن متأكدة أين تقع كاموتتنغ. ربّما هي واحدة من تلكم القرى المترامية التي تدور بمدار تايبنغ، كما هي فاليم بالنسبة لإيبوه. وإذا كان الدكتور مكفارلين أجنبياً مات في تلك المنطقة، هناك مكان واحد يمكن أن يرقد فيه وهو المقبرة الإنجليكانية.

أوضحت الفكرة لشين، فهزّ رأسه، وهذا ما زاد شكوكي. إذ كان طيّعاً أكثر من اللازم بخصوص هذه الرحلة التي هي وليدة اللحظة.

سألته: «هل لديك عمل في الغد؟». كانت تايبنغ تبعد بالقطار أكثر من أربعين ميلاً عن إيبوه، ولكن تستغرق فترة أطول لتصل إلى هناك بسبب انعطافات المسار بالإضافة لمحطات التوقّف في شيمور وكوالا كانغسار. وبهذا المعدّل، لن نصل

حتّى الخامسة مساء. وهناك قطار عودة متأخر ينطلق في الثامنة، ويترك لنا فترة كافية لزيارة المقبرة. ولكن كنت قلقة على شين.

قال: «لن تبدأ نوبتي حتّى مساء الغد». وأغلق عينيه. ثم تابع: «والآن اصمتي، أودّ أن أفكّر قليلاً».

ولم يكن بمقدوري أن أعرف هل كان هذا مجرّد مبرّر لينام، ولكن تركته وشأنه. واندفع القطار إلى الأمام ببطء، ومرّت الأشجار بشكل ضبابي ثابت أخضر اللون. ونفخت النسمات التي هبّت من النافذة المفتوحة على شبكة العنكبوت التي كانت تلفّ دماغي بخيوطها المتشابكة.

وفكرت: *هل أنت حي يا رين؟* قال بي إنّه اكتشف أن باستطاعته جرّ رين معه إلى عالمه الآخر، عالم الأموات، طالما هو موجود على ذلك الشاطئ. وربّما كان للإصبع، ذلك الشيء المحنط والمسودّ الذي يهتز في حقيبتي؛ نفس الجاذبية التي تجرّ الآخرين إليها. فها هو رين ينقاد طوعياً لتنفيذ الوعد الذي قطعه على نفسه، إلى درجة أنّه كان مستعداً للخروج إلى الليل المخيم بالرغم من وجود نمر طليق. أو كان قد جذبه شيء ما ليخرج ويتلقّى طلقة تودي بحياته وتقتله في الظلام.

إنّ أفضل ما يمكنني فعلُه لأجله هو الانتهاء من هذا الواجب، ودفن تلك الإصبع. وبهذا أضع نهاية لارتباط مستمر يجذبه لعالم الأموات. ولكن أخشى أن ذلك العالم الآخر كان أقوى. تابع القطار مسيره، ومرّت الغابة كالحلم، وأغلقتُ عيني.

وسمعت صريراً. فجفلت من نومي لأرى أن القطار كان يتأهب للتوقّف.

بدا شين مرحاً وقال: «هل نمتِ جيداً؟». وكنت في الواقع قد نمتُ جيداً، لكنني لاحظت بإحراج شديد أن رأسي ارتمى على كتفه. وكان الركاب يحملون حقائبهم من الرفوف التي فوق رؤوسهم. وكنا وحدنا بلا أمتعة.

قلت له ونحن نهبط من القطار: «وأنت أيضاً غبت عن وعيك أم أنّك كنت *تفكّر*».

وكان من الظاهر أنّه بمزاج جيد. وردّ بقوله: «لا. انتهيت من التفكير. بالمناسبة، من هي تلك الفتاة التي كانت في صالة الرقص؟ تلك التي حاولت أن تجرني من شعري؟».

قلت: «تلك هي صديقتي هوي».

وبنحو من الأنحاء، شعرت بانقباض من هذا الكلام. وفكّرت: *من فضلك يا شين، لا تتورط مع هوي.* حتّى الآن، لم يغرم شين بأية صديقة مقربة من صديقاتي، مهما كان اهتمامهن به شديداً. وإذا لم يكن الأمر يهمّني من قبل، بسبب غرامي الأعمى لمينغ، فالأمر يهمني الآن.

كانت محطّة قطار تايبنغ بناء منخفضاً وجميلاً، مشيدة بنفس الأسلوب الكولونياليّ الذي يميّز محطّة باتو جاجاه، حيث الأفاريز والسقوف العميقة والمظللة. تتموضع تايبنغ في حوض خصب في أسفل تلال كلسية، وهي مشهورة بكونها أغزر بلدة بالأمطار في المالايو، وكذلك بقربها من ماكسويل هيل، وهي هضبة صغيرة للاستجمام ومعدة للأزواج الذين يمضون عطلة شهر العسل. ولا أعتقد أن هذا يعنيني لأنه ليس من المحتمل أن أكون في المستقبل القريب زوجة السيّد روبرت شو.

قال شين: «بماذا تفكرين؟».

قلت: «روبرت، لقد انتهت علاقتي به».

«وهل يهمّك أمره؟».

«كنت آمل أن يقرضني بعض النقود. لتسديد ديون أمي».

وتوقّف شين عن المشي. وقال: «لا تطلبي منه. إن كنت بحاجة للنقود عندي بعض المدّخرات». وتابع المشي بانزعاج.

سألتُه وأنا أسرع لألحق بخطواته: «ولماذا كان برفقتك اليوم؟».

«جاء ليبحث عنك في متجر السيّدة تام، ثم تبعني، ولم أتمكّن من التخلص منه مهما حاولت».

«أفترض أنّه كان من المحتّم أن يعرف الحقيقة. ولكني أخبرتُه من وقت طويل أننا أنا وهو لن نكون ثنائياً منسجماً».

«ماذا تقصدين بـ «وقت طويل»؟».

كانت زلة لسان. وتذكرت أن مينغ أخبرني أن لا أتكلم عن قبلة روبرت مع أحد. فقلت له: «قبل أن تنتسب لكلية الطب».

«ولماذا لم تخبريني؟».

قلتُ بنبرة دفاعية: «أخبرتُ مينغ».

ولسبب ما، يبدو أن هذا زاد من انزعاج شين، ولكنه لزم الصمت. ولماذا يهتم، ما دام أنّه أخبرني في الأسبوع الماضي، أنه من المستحسن أن أتزوج؟ وتابعنا المسير بصمت، وشعرت بالأسف لأننا عدنا إلى الجدل.

حسب أقوال بائع التذاكر، كانت المقبرة الإنجليكانية على مبعدة ميل، قرب حدائق البوتانيكال غاردنز. توقّف شين أمام دكان أو اثنين بجوار المحطّة وعاد بكيس من الورق البُنّي. ولم أرافقه إلى الداخل لأنني كنت أرتدي ثوبي الاحتياطي الذي أستعمله بالطوارئ في ماي فلاور، وهو مكشوف وبلون الكناري الأصفر. ويناسب الاستعداد لحفلة وليس للتجول في محطات قطارات المالايو الفدرالية.

سألته: «ماذا اشتريت؟».

فتح الكيس الورقي. وفيه رأيت مجرفة جديدة، وأشياء إضافية، مثل فرشاة أسنان، أشرطة لاصقة، ورزمة أخرى رقيقة، وسألته لماذا ابتاع كلّ هذه الأشياء.

«لأن شراء مجرفة فقط يثير الشبهات. وسيتساءل البائع ماذا أنوي أن أحفر».

قلت له: «دائماً كنت أعتقد أن لديك عقلاً إجرامياً».

وضحك شين وتلاشى ذلك التوتر الذي كان بيننا. أكلنا شيئاً خفيفاً وسريعاً في مقهى قريب، ولكن كنتُ على أحرّ من الجمر لنصل إلى المقبرة. ماذا لو أن الدكتور مكفارلين غير مدفون فيها إطلاقاً؟ ولكن أصرّ شين أنّه لن يتابع قبل أن يأكل، وأن علي أن أحذو حذوه.

قال وهو ينهي طبق *شار كواي تيو*[1]، وهو عبارة عن رزّ مقلي مع المعكرونة وبراعم الفاصولياء والبيض والمحار: «كلما تأخرنا أفضل. إذ سيكون هناك عدد أقلّ من الناس».

---

(1) char kway teow

«وماذا إن أمطرت؟».

هزّ شين منكبيه. وقال: «لا تنسي أن هذه هي فكرتك».

قابلت عيناه عينّي. ورغماً عنّي احمر وجهي. وشعرت بالخدر، وأنا تحت أنظاره هكذا. ولمحت نوراً يلمع في عيني شين، وميضٌ حادٌّ اعتصر معدتي كما لو أنّني أسقط في حفرة. وراحت نظرته تتحرك في داخلي ببطء صعوداً إلى رقبتي، ثم إلى تجويف بلعومي. وأخذ الثوب الكناري الأصفر شكل انحناءاتي، والتصق بي، لأنه مخيّط بطريقة مغرية. هذه طريقة جديدة من السيّدة تام لإبراز وتحسين الشكل الطبيعي للمرأة. ودون إرادة منّي قاطعت ذراعي على صدري.

سألني: «هل ترتدين دائماً هكذا في العمل؟».

«كلا». وشرحت له أن هذا ثوب إضافي لا ألجأ له دائماً. واستمع شين وأنا أتعثر بكلماتي، وطوال الوقت تابع التحديق بي بنظرته غير المفهومة، كانت مباشرة جدّاً حتّى جعلتني أشعر بعينيه تتحسّسانني وتلمسانني وليستا تنظران إلي فقط.

قلت له: «ألا يعجبكَ؟».

قال: «يعجبني. وأعتقد أنّه يعجب الرجال». واستدار برأسه للناحية الأخرى، ولذلك لم أشاهد التعبير المطبوع على وجهه.

قلت: «أنا متأكدة من إن فتيات سنغافورة يرتدين أفضل من هذا». كنت أحاول جهدي أن أبدو طريفة.

قال: «ولكن لا توجد من تشبهك».

وانتبهت فجأة إلى أننا كنّا نجلس متقاربَين جداً، وأن ساقيّ وساقيه تتقاطع تحت الطاولة الصغيرة ذات السطح الرخامي. وإذا أردت، يمكنني أن أمدّ يدي من تحت الطاولة وأضعها على فخذه. وأصعد بها ببطء، وأتحسس عضلاته وهي تتقلص. ولكن عوضاً عن ذلك، وضعت كلتا يدي على الطاولة وثبت نظراتي عليهما.

قلت له: «شين؟».

«ماذا؟».

«أنا آسفة لأنني عرّضتك لكل هذه المشاكل. أتمنى لو أنني كنتُ أختاً أفضل».
وغمرني حزنٌ خانق.

قال: «هل أنت نادمة فعلاً؟». كانت ملامحه حادّة وجازمة.

قلت: «نعم. أنا نادمة».

«لا ضرورة لذلك. وأنا أيضاً لم أكن أخاً جيداً لكِ».

ونهض فجأة ودفع الفاتورة.

39

باتو جاجاه

السبت، 27 حزيران

كان ويليام مشغولاً. مشغولاً على نحو لا يحبه، في أحاديث عابرة وتحرّي معلومات. ولكنه اضطر لذلك. وكان تحت تأثير إلحاح ليديا النهم والمتطلب، وعينيها الملتهبتين بالعواطف. قالت في عنبر المستشفى: *علينا أن نتكلم.* ماذا كانت تخطّط؟ من الأفضل أن يحضر لها كميناً من أن يكون ضحية لكمين هو نفسه، هكذا فكّر.

كان ليسلي أوّل شخص على قائمته. هو مصدر الإشاعات والثرثرات. قال ليسلي: «ليديا؟». ونظر من فوق شريحة أناناس بين يديه. كانا في استراحة لشرب الشاي في مقصف المستشفى. «هل أنت مهتم بها أخيراً؟ لطالما اعتقدت أنكما ثنائيّ جيد».

وأخفى ويليام تقطيبة وجهه. من الواضح أن ليديا ليست الوحيدة التي عندها هذا الانطباع. قال ويليام: «لماذا هي هنا؟».

«أليست هنا تبحث عن زوج؟».

«لا أعتقد أنّها ستعاني من مشكلة بهذا الخصوص على تلك الجبهة». ليديا جذابة وحولها في لندن حلقة من الرجال أكبر حتماً مما هي في بلدة ماليزية صغيرة. حتّى أنّها ليست على شاكلة دلهي أو هونغ كونغ، حيث بمقدورها مقابلة النجوم الصاعدة في الوظائف المدنية.

وحكّ ليسلي أنفه وقال: «حسناً، تدور أقوال حول سبب رحيلها. إلغاء خطوبة، يبدو أن الخطيب مات».

«وكيف مات؟».

«غرقاً. حادث قارب».

وفكر ويليام أنّه بجب أن يكون متعاطفاً مع ليديا، ولكن ذكريات اندفاعها المتهور، وطريقة قولها إنهما من طينة واحدة، لا تزال تهيج أعصابه. ولا بدّ من وجود أشياء إضافية حولها. ويمكنه أن يشعر بذلك.

الشخص التالي كان زوجة أحد مديري المزرعة، صديقة لأم ليديا. وكان من السهل عليه أن يصادفها في البلدة حينما تكون في السوق لشراء الخضار صباح السبت مع طاهيها الصينيّ. وكان ويليام يشك أن طاهيها يغشها، إذ بدت له الأسعار في الفاتورة غالية أكثر من اللازم.

قالت له وهي تدوّن الأرقام في دفتر المنزل: «يا لليديا المسكينة. لقد مرت بأوقات عصيبة. ما حدث لخطيبها أمر مؤسف».

قال ويليام: «ربّما كنت أعرفه». كان يكذب ملء فيه: «أندروز، هذا هو اسمه، أليس كذلك؟».

«لا، بل هو السيّد غرافتون. أكاديمي لطيف، كان أبواها معجبَين به جداً».

«هل غرق؟».

«آه، كلا. كانت أزمة قلبية، وهو على متن قطار عام. من الواضح أنّه كان مريضاً جداً. موته صدمة للعائلة». ولم يبق شيء لتضيفه، رغم أن ويليام تحمّل نصف ساعة أخرى من الثرثرة.

وآخر شخص كلمه ويليام هو رولينغز.

قال: «كانت ليديا في آخر فترة عصبية المزاج قليلاً. وأرادت أن تكلمني حول شيء ما، رغم أنّه ليس لدي فكرة عن السبب». هكذا ألقى الطعم، لكن رولينغز كان مشوشاً. ربّما هو ارتفاع الحرارة، وقد لفّته مثل لحاف رطب خانق.

ردّ بقوله: «يمكنك القول إنّها كانت مهتمّة بك دائماً. وقد سألَت منذ البداية إن كنتَ أنت أكتون نفسه الذي كانت تعرفه سابقاً».

فكر ويليام: هذه هي *صلتها بآيريس*. إذن كانت تعرف من هو منذ فترة. هل كانت تتحرّى عنه؟ وهذه الفكرة جعلت قفا رقبته يلتهب. كيف تجرؤ على ذلك. وعضّ بنواجذه على الفكرة وقال بدماثة: «ليست عندي أيّة فكرة. ربّما لدينا صديق مشترك».

قال رولينغز: «كن لطيفاً معها. لديها عقدة المخلّص[1]، ولكن معدنها طيب. وهي جيدة في عملها. وقلت من قبل إن على المستشفى أن يدفع لها لقاء كلّ هذه الخدمات الطوعية».

نعم، ليديا تبذل جهداً بطريقتها غير المحترفة. ولكن السؤال هو: كيف يستثمر ذلك لصالحه؟

«ولماذا هي في مالايو على أيّة حال؟».

«آه، كانت مخطوبة لشخص خشن وابتعدت عنه لتتخلص منه. زوجتي تعرف الناس الذين حول ليديا. قالوا إنهما ثنائي غير متجانس».

ويصعب على ويليام أن يتذكر أن رولينغز متزوج، لأنّ زوجته في انجلترا مع أولادها. وكل المعلومات التي جمعها الآن عن ليديا لا تساوي شيئاً. لا شك أنّها فقدت خطيبها، ولكن الحقائق متعارضة مع بعضها بعضاً.

وكان يودّ أن يسأل رولينغز عن المزيد، ولكن رولينغز كان مهموماً.

قال فجأة: «هل تثق بالطاقم المحلي؟».

ضحك ويليام وأضاف: «أنا لا أثق بأحد». باستثناء آه لونغ في بعض الأمور، وطبعاً، رين. هذا الفتى لا تتحسّن حالته، ولكن على ويليام أن لا يفكر بهذا الأمر حالياً.

ووجّه الكلام بصدد ليديا مجدداً. وقال: «ذكرتَ أنّها كانت في علاقة معقدة؟».

«يبدو أنّه حاول أن يعتدي عليها خلال مناقشة حامية الوطيس. فتاة مسكينة. ربّما لهذا السبب هي عصبية جداً».

---

(1) تسمى متلازمة الفارس الأبيض، وهي متلازمة الأشخاص الذين يبدون الاستعداد للمساعدة فوراً.

إذن ليديا ضحية. من المثير كيف يمكن لهذه الكلمة أن تغيّر الطريقة التي يراها فيها. لماذا كانت مهتمة جدّاً بويليام؟ وماذا تعرف عنه؟ وفكر بسرعة: والد ليديا يدير مزرعة المطاط التي تعمل فيها أمبيكا. نعم، يمكنه أن يتصور ليديا بطريقتها المشغولة دوماً والمحسنة للآخرين، ربّما عرفت أمبيكا، وربّما قدّمت لها المواساة بخصوص زوجها السكّير. ولكنها أيضاً قالت إنّها تعرف آيريس. وهذا أسوأ. أمبيكا وناندانى فتاتان محليّتان تورّط معهما بعلاقة، ولكن الكلام عن آيريس كان يطارده حتّى خرج من إنجلترا.

أخذ نفساً عميقاً. هل سمعت ليديا بالحكاية التي رواها عن محاولته إنقاذ آيريس؟ إنّه يشعر بالعار من ذلك، ولكن فات الأوان على التراجع. أضف لذلك، أنّ معظم الناس على ما يبدو يصدّقون هذا. وفي بعض الأيام، هو نفسه أيضاً يصدّق ذلك. ما عدا الأيام التي تعاوده فيها تلك الأحلام، أحلامه عن آيريس بجوار النهر، وتنورتها مثقلة بالرطوبة وبأعشاب النهر. وشعرُها الناعم ملتصقٌ بجبينها الأبيض العظمي.

ماذا قالت تلك الفتاة المسماة لويز حينما أقلها بسيارته؟ قالت إنّها تحلم بنهر، مثل قصة تتكشّف. وويليام لا يريد ذلك. إنّه لا يرغب إطلاقاً في رؤية ماذا سيحدث لاحقاً في حلمه عن آيريس.

40

تايننغ

السبت، 27 حزيران

استقلّينا عربة ترايشو إلى المقبرة الإنجليكانية في كنيسة اول سايتتس[1]. كانت رحلة جميلة عبر البلدة المتواضعة والمبهجة، بأبنيتها البيض الكولونيالية ومتاجرها المنزلية، وأشجار *الأنغسانا* الكبيرة المزهرة، وبَتلاتها الذهبية تهطل علينا كالمطر. وابتلعت الغيوم الرمادية السميكة المساء، فبدا المشهد الأخضر للأعشاب التي تنمو على شاطئ *بادانغ* أمام الثكنات؛ مخيفاً. توقّفتُ لشراء باقة من زهور الأقحوان الأبيض والأحمر. كانت هذه ثاني مرّة في هذا الشهر أشتري فيها الزهور من أجل ميت.

في المقبرة، دفع شين لسائق العربة، وأسرعتُ بالدخول لأبحث عن قبر الدكتور مكفارلين. كانت الكنيسة عبارة عن بناء خشبيّ كبير مع سقف شديد الانحدار وأقواس قوطية. كانت بعض القبور عليها منحوتات لملائكة وشواهد قبور صخرية منحوتة بالتفاصيل. بينما غيرها مجرد صلبان بسيطة. وكانت القبور موضوعة كما اتفق، بدأت أبحث عن الجزء الأحدث.

مشى شين فوق الأعشاب المجزوزة. سألني: «هل وجدته؟».

«ليس بعد».

لم يكن هناك أحدٌ حولنا. ولا حتّى عصفور يشقّ الصمت الشاسع المخيِّم، وكانت قبة السماء الرمادية مفتوحة، كما لو أن العالم كله بانتظار هطول المطر.

---

(1) ALL SAINTS Churh

قال شين: «في الواقع، أخبرني روبرت بمعلومة قال إنّك عرضتِ عليه لائحة». وبعد وقفة قصيرة تابع: «ولهذا السبب كان يبحث عنك».

«لماذا لم تذكر ذلك من قبل؟».

«اعتقدتُ أن قلبك مكسور عليه، ولكن يبدو أنّك على ما يرام ما دمتِ قد أكلتِ بهذا القدر وشهيّتك مفتوحة».

بحلقتُ باستهزاء. ثم قلت له: «وماذا وجد؟».

«يبدو أنّه كان هناك دكتور اسمه جون مكفارلين يعيش في منطقة تايبنغ. رجل عجوز عمل في المالايو لعشرين عاماً، وقبل ذلك كان في بورما. لم يعد له ارتباط مع مستشفى مقاطعة باتو جاجاه، ولكنه كان يُستدعى أحياناً إذا دعت الحاجة. وهو غريب قليلاً ودون زوجة أو أسرة. وكما لاحظنا من سجلات الأمراض، تبرع بواحدة من أصابعه قبل خمس سنوات، بعد رحلة على مجرى النهر برفقة أكتون».

«وماذا كان يفعل هنا في تايبنغ؟».

«ليس في تايبنغ. وإنما بمكان أبعد. احدى القرى المجاورة».

وقلت فوراً: «كامونتنغ. هذا مكتوب على الورقة».

«هناك، عاش شبه متقاعد ويقوم بأعمال طبية خاصة. وقال إنّه لن يعود إلى اسكوتلندا التي هرب منها قبل أربعين عاماً، وترك وراءه ثلاث أخوات صارمات. وهذا كلّ شيء».

«ماذا؟ لا بدّ من وجود أشياء أخرى».

كان يلقبه رين بـسيدي، لكن طريقته في لفظ الكلمة بوفاء عفوي جعلتني أقشعر. من هو سيده الحقيقي، الذي ينفذ توجيهاته دون نقاش، هل هو ويليام أكتون أم الدكتور مكفارلين؟

«هذه هي كلّ المعلومات التي أمكن لروبرت أن يصل لها. قال أيضاً إنّه سمع إشاعات، ولكنه قال إنّها من الممكن أن تكون مجرّد افتراءات، إلخ، إلخ. يبدو أنّ صاحبنا روبرت إنسان صاحب ضمير».

«روبرت شخص محترم».

«محترم جدّاً لدرجة أنّه اليوم تخلص منك مثل بطاطا حارة». قال بمرارة.

ولم أردّ لأنني وجدته. قبر حديث بغطاء رقيق من الأعشاب، والكلمات القليلة على الشاهدة غائرة بعمق كما لو أن الإزميل حفرها يوم أمس.

جون ألكسندر مكفارلين

الولادة 15 حزيران 1862 الوفاة 10 أيار 1931

خلّصنا أيها الرب

تجمّدتُ وأنا أحسب التواريخ. بالأمس، همس رين أنّه تبقى يومان فقط، إذا أضيفت إلى الحساب ستصل إلى نتيجة أنّه مرّ على موته تسعة وأربعون يوماً بالضبط. كانت أمّي قد أخبرتني أن الروح تهيم خلال أوّل تسعة وأربعين يوماً، بلا هوادة، تحسب خطاياها.

سألتُ شين: «ما كان سبب موته؟».

«الملاريا على ما يبدو. كانت تنتابه بفترات متقطعة ولسنوات».

وضعتُ باقة الزهور على القبر، باعتبار أنّه لا يوجد إناء أو فجوة. وبدت الأزهار عارية وبائسة وهي تستلقي على الأرض الجرداء، والسيقان الرفيعة تخلو من الأوراق. كان هناك شيء غريب بخصوص القبر، كانت هناك عصا خشبية مغروزة في أحد زواياه. وهي بطول ستّ بوصات تبدو وكأنها جزءٌ من يد مكنسة. ولم أجرؤ على لمسها، كانت مغروزة بطريقة متعمّدة جداً، ولم أشاهد أيّ شيء مثل هذا من قبل.

قلت له: «هات المجرفة». وهز شين رأسه بتحذير: «الماذا؟». ثم رأيت سيّدة تاميلية كبيرة بالسن، وشعرها الرقيق معقود بشكل كعكة، وترتدي إزار سارونغ بنّي داكن. كانت تشق طريقها نحونا وهي تصيح شيئاً. قلتُ: «هل تريد منا أن نغادر؟».

تراجعنا عن القبر، وتابعت المرأة اقترابها. وتبين أنّها كانت ترحب بنا. إذ يبدو أنّه لا يتردّد الكثير من الزوار على المقبرة، وسرّها حضورنا.

«*تنغال، يا، تنغال*». قالت باللغة الماليّة. «انتظرا، انتظرا. هل تريدان الماء للزهور؟». كانت أم حارس المقبرة. كان ابنها خارجاً في الوقت الحالي. قالت وهي تنظر إلى السماء: «ستمطر». وأضافت: «لماذا حضرتما بوقت متأخر هكذا؟ هل أنتما من أصدقائه أم من مرضاه؟».

ولم أعرف ماذا أقول. واكتفى شين بابتسامة. وقال لها: «هل كنتِ تعرفينه؟».

ولدهشتي هزّت رأسها بنعم بسرعة. قالت: «نعرف كلّ *الأورانج بوتيه*[1] الموجودين هنا. مع أنّه كان يعيش بعيداً في جهة كامونتنغ. عالج ابن أخي من القوباء الحلقية[2]. وللأسف مات. كان أصغر مني».

ثم ذهبت لإحضار بعض الماء للزهور. يبدو أنّها شعرت بالشفقة على الزهور الملقية فوق القبر، ولذلك جمعتها ثانية بحرص. وعادت مع وعاء للمربى، وقالت: «والآن أخبراني من أين أنتما؟».

قال شين: «إيبوه، وأنا طالب طب. أنا آسف لسماع خبر موت الدكتور مكفارلين».

قالت: «آه، أحد طلابه. حسناً، كان مريضاً لفترة. في الحقيقة، يقول الناس أنّه فقد عقله. وهجرته مدبرة منزله، ولم يبق غير العجوز وذلك الصبيّ الصينيّ».

وانتصبت أذناي. سألتها: «هل اسمه رين؟».

«لا أعلم. صبيّ خدمة صغير، حوالي عشرة سنوات أو إحدى عشرة. كان ولداً طيباً. واعتنى بكل شيء في البيت بعد رحيل مدبرة المنزل. لا بدّ أن الحال كانت صعبة مع الدكتور وهو في هذه الظروف. رأيته في الجنازة. كان مضطرباً ويرتجف ويحاول أن لا يبكي. هل تعرفينه؟».

قلت بتمهل: «نعم. هو من الأقارب». ونظر لي شين.

وسأل: «وكيف كان الدكتور في أيامه الأخيرة؟».

وضعت أمّ حارس المقبرة عينيها على القبر. ولاحظتُ أنّها ظلّت تنظر إلى

---

(1) orang puteh الرجال البيض. لغة المالايو.

(2) مرض جلدي.

العصا المغروزة فيه، وفي النهاية أصدرَت صوت امتعاض مثل آهة حادّة ثم سحبت العصا. الآن يمكن أن ألاحظ أن العصا أطول قليلاً مما اعتقدت، جزء من يد مكنسة بطول أربعة أقدام تقريباً، مع نهاية مدببة مثل وتد.

وألقتها جانباً بامتعاض. وقالت: «حسناً، كان دائماً غريب الأطوار، ولكن ليس أكثر من كلّ *الأورانج بوتيه*. كان يشتري أيّ حيوان نادر يأتي به الصيّادون. لكنه رجلٌ طيّب المعشر. وعالج العديد مجاناً. وقرابة النهاية، أصبح غريباً جدّاً ولم يعد أحد يقترب منه». وكان من الواضح أنّ أمّ حارس المقبرة مستمتعة بهذا الحديث. أضافت: «في الحقيقة، قبل موته، سمعت أنّه ذهب إلى مخفر الشرطة المحلّية واعترف بأنواع كثيرة من الجرائم».

«أي نوع من الجرائم؟».

«فلنرَ، أعتقد أنّه اعترف بسرقة المواشي، أو قتل المواشي. وحتى كلاب هذه المنطقة كانت تختفي، ولا يهم إن كانت مقيدة بالسلاسل أمام البيت أو حرّة. واعترف أيضاً أنّه قتل المرأتين المفقودتين. كلتاهما كانتا تعملان في جمع المطاط في المزرعة القريبة».

نظرت إلى شين بفزع شديد، لم يتوقع أيّ منا شيئاً من هذا القبيل.

«وهل اعتقلوه؟».

«أعادوه إلى بيته. كان يعاني من مشكلة في عقله. كانت تنتابه نوبات بين حين وآخر». وبدا عليها الغضب وقالت: «كل تلك الأشياء التي حصلت، فعلها نمر. نمر يفترس البشر. هناك العديد ممن شاهدوه. ألم تنشر الجرائد الخبر؟».

«لا بدّ أن التجربة كانت مؤلمة لك». وتصنّع شين نظرة تعاطف بالغ، فلم يسع السيّدة العجوز إلا الابتسام. وقالت: «يقولون إن هذا النمر أصبح عجوزاً ولا يستطيع أن يصطاد. عموماً، لقد اختفى الآن».

«وهل تمكّنوا منه؟».

«لا، مع أنهم جهزوا الفخاخ وأحضروا *باوانغ* ليسحرها. في النهاية اختفى في حوالي الوقت الذي توفي فيه الدكتور العجوز».

وطارت أفكاري إلى النمر الذي كان في الحديقة، في عطلة الأسبوع الماضي في باتو جاجاه. مفترس البشر الذي قالوا إنّه قتل عاملة مزرعة في الأسابيع الأخيرة. ودون سبب، تذكرت موت رجل المبيعات من جراء كسر في الرقبة وتساءلت إن كان قد طارده شيء في تلك الليلة المظلمة إلى أن سقط في حفرة. ولكن هذا تخمين خيالي جداً. هناك مسافة تبلغ ستين ميلاً أو أكثر تفصل باتو جاجاه عن تايبنغ. هل يمكن لنمر أن يتنقل كلّ هذه المسافة؟

سأل شين: «ما فائدة تلك العصا؟». وأشار إلى قبضة المكنسة التي سحبتها من القبر.

وبدا الإحراج على أم حارس المقبرة. وقالت: «ذلك غباء فحسب. يحصل من آونة لأونة. الناس المحليين يضعونها، كما ترى. وابني يزيلها دائماً. ويقول إنّها إهانة للميت».

«ولكن لماذا يضعونها؟».

«بعد يومين أو ثلاثة من وفاة الدكتور العجوز، حاول شخص أو مخلوق ما أن يحفر قبره ويخرجه. وجد ابني حفرة قرب القبر. كأن طفلاً أو حيواناً أمضى الليل كله بحفرها. ولكن لم يتمكّن من الوصول إليه، نحن ندفن الموتى عميقاً. وراقب ابني القبر لعدة ليال، ولكن لم تتكرّر الحادثة. وعندما سمع السكان المحليون بذلك، قالوا إن الرجل العجوز يحاول أن يخرج من قبره. لكنه هراء. لأنك لو رأيت الحفرة لبدى لك أن من حفرها يريد أن يدخل إلى القبر، لا أن يخرج. ولكن من حين لآخر، كان الناس يغرسون عصا في قبره لكي يتأكدوا من أنه لم يخرج. عن نفسي فأنا لستُ قلقة من الموضوع؛ أنا من أتباع الكنيسة الإنجليزية». قالت باعتزاز.

كان الضوء يتلاشى، والسماء الرمادية كانت تهبط بثقلها الملموس تقريباً. ولم أجد أيّة طريقة ممكنة لدفن الإصبع في القبر وأم حارس المقبرة تتجول حولنا هكذا. هل سيتوجّب علينا العودة في الليل؟ وملأتني الفكرة بالتوجّس.

قال شين: «هل توجد هنا دورة مياه عامة؟».

«الحجرة الملحقة بالكنيسة لا تزال مفتوحة الآن، ولكن أنا على وشك أن أغلقها».

قلتُ له بسرعة: «اذهب. وسأنتظر هنا لقراءة النقوش على الشواهد».

وما أن ابتعدا عن ناظري، حتّى سقطتُ على ركبتي، وبدأت أحفر الأرض بالمجرفة. ولحسن الحظ أن شين فكر بشرائها! كانت الأرض عند القبر طينية حمراء بسبب خام القصدير الذي أخذت المنطقة اسمها منه. واخترت البقعة التي أخرجت منها المرأة العصا، ما دام التراب هناك مقلوباً حديثاً. قلت لنفسي *أسرعي!* وتسارعت دقات قلبي، وبسرعة جرفت التراب جانباً، وطوال الوقت كانت عيني على العجوز خوفاً من عودتها. لا بدّ أنّه على عمق كبير لكي لا يمكن العثور عليه بسهولة، وبالأخص بعد أن تابع الناس إقحام العصيّ في القبر.

وبعد أن حفرتُ مقدار عمق ذراع، أخرجتُ القارورة الزجاجية. بدت لي أبرد وأثقل من قبل. اليوم مرّ على وفاة الدكتور مكفارلين ثمانية وأربعين يوماً. فهل نفّذتُ رغبة رين بالوقت المناسب؟ وتحرك شبح رأيتُه بزاوية عيني. غصن شجرة تأرجح في الريح، ولكنّه دفعني للإسراع، فأخرجت الإصبع التي حصلت عليها من جيب رجل المبيعات، ورميتها في أعماق الحفرة.

41

باتو جاجاه

السبت، 27 حزيران

كان رين يمشي، متتبعاً الأثر الباهت الذي يتموّج مثل خطوط على جلد نمر يعبر من بين الأعشاب الطويلة. كانت لديه ذكرى سطحية عن سرير في المستشفى، لكن الذكرى ظلّت تتلاشى بالتدريج. الحقيقة هي هذا العالم بشمسه وريحه، مع امرأة حقيقية وشاحبة، امرأة شاهدها جالسة بين الأعشاب. هي التي تلحّ عليه بمتابعة المسير كلما توقّف لينظر حوله. تقول: «يجب أن لا نتأخر على القطار».

قطّب رين حاجبيه وقال: «هل هناك قطار آخر؟».

نظرَت له نظرة جانبية وقالت: «لا أعلم. هيا. تعال!».

ولم تعجبه طريقتها بالحركة، بجسمها المكسور وهو يزحف إلى الأمام، وكتفها محني وتجرّ ساقها وراءها. لا يمكن لأحد التحرك بجروح من هذا النوع، ولكنه لم يسألها. كان خائفاً من أن تقبض مجدداً على مرفقه، مثل المرة السابقة بقبضتها العظمية والثلجية. غير أنّه آسف لها، ولا يمكنه أن يدعها تسير بمفردها. أضف لذلك، هناك نمر بين الأعشاب المتشابكة والشجيرات. ومن حين لآخر، كان يلمح شكلا مخططاً عابراً، لكنّه لم يكن متأكداً ما إذا كان يدله على الطريق أو أنّه ينهره ويحذّره ليبتعد. وباغتت رين ذكرى رجل عجوز، أجنبي، يجول بين الأشجار. وغمرته بفيض من الرعب والشفقة والحب، تلك الوحدة المظلمة، وأراح رأسه ونكسه للأسفل وتابع المسير.

واتجها إلى محطّة القطار البعيدة. كم مضى عليهما يمشيان، شهور، أيام،

أم دقائق؟ وفي النهاية وصلا. كانت محطّة القطار تشبه جدّاً محطّة باتو جاجاه. طويلة ومنخفضة، بأفاريز عميقة للحماية من المطر والشمس. وفيها مقاعد خشبية وساعة مستديرة عملاقة. كان القطار ينتظر، والمحرك البخاري الكبير يصفّر بهدوء. وتسكع الناس في المحطّة، وعندما كان رين ينظر إليهم نظرة مباشرة، كانوا يومضون ثم يختفون. ولكن بزاوية عينه فقط كان يمكنه أن يرى أشكالهم الضبابية. وأسرع شبح طفل عبر الرصيف، وهو يمسك بيد أمّه والتي كانت تمدها له وهما يتسلقان إلى العربة. وللحظة عابرة، شعر رين بالحسد من هذه العاطفة الدافئة.

قالت رفيقته: «أسرع!».

«إلى أين نحن ذاهبان».

كان يبدو أن صبرها قد نفد وفقدت تركيزها. وقالت: «اصعد فقط!».

«ولكنّي لا أعرف حتّى اسمك». وخيّم عليه الشك للحظة. لماذا يجب أن يتبع سيّدة غريبة إلى القطار، ثم، ألم يكن يبحث عن شخص آخر؟ وبذل جهداً ليتذكّر. نعم، إنّه يبحث عن نانداني. وقال: «لا يمكنّني مرافقتكِ، أنا أبحث عن شخص آخر».

قالت: «لا تكن سخيفاً! اسمي بي لنغ. وأنا ممرضة، وعليك أن تتبعني». ثم قطبت أساريرها، كما لو أنّها كانت لا تفهم المنطق الذي تتحدّث به تماماً.

قال رين بتهذيبٍ: «كلا، شكراً لك».

«يا للسماء! كم أنت ولد سخيف!.. هيا تعال، لا أريد أن أذهب وحدي». وأصبح وجهها بائساً، وكانت تبدو طفلة أكثر منه، وبدأ رين يتردّد.

ثم قال: «حسناً». ووضع يده على باب القطار. وحالما لمسه، انتابته رعشة قوية، ذبذبةٌ هزّت حقل رؤيته. وفي تلك اللحظة، كان قادراً على مشاهدة الجميع بوضوح، كلّ المسافرين الآخرين الجالسين أو الواقفين أو الصاعدين إلى القطار. ولكن ما من أحد كان يغادر، ولا أحد لديه أمتعة.

وصعد رين وها هي نانداني، وجهها بشكل القلب ينظر ساهماً من النافذة. وشعر رين بالسعادة وجلس إلى المقعد المجاور لها.

وقال: «مرحباً!».

ولكن لدهشته، كانت تبدو خائفة. قالت: «ماذا تفعل هنا؟».

«كنت أبحث عنك».

«كلا، لا تفعل! لا تتبعني».

ونظر رين إلى ناينداني. شعرها المتجعّد وقامتها الممتلئة والجميلة. لماذا هي ليست مسرورة برؤيته؟

قالت الممرضة بي لنغ وهي تربت على المقعد المجاور لها: «تعال إلى هنا أيها الصغير. اجلس بجانبي».

هز رأسه بالرفض. إنّه يرغب بالجلوس مع ناينداني وليس مع هذه السيّدة الهزيلة بكتفها المائل ومشيتها الزاحفة. وهو في الواقع، كلما نظر إلى بي لنغ، كلّما زاد رعبه. وحشر نفسه بجانب ناينداني، ولكنها هزّت رأسها بقلق. وقالت: «أرجوك انزل من القطار. سيغلقون الأبواب قريباً».

وشعر رين بهمهمة عميقة وخافتة، كما لو أن المسار كلّه كان مجرّد سلك كهربائي. كان يي في ذلك الاتّجاه، في مكان ما بنهاية المسار. وهو متيقّن من ذلك. وتجادلت المرأتان بهمسات خشنة. وأرادت ناينداني أن يغادر، ولكن كانت بي لنغ عنيدة وتريده أن يبقى إن رغب. ومدت يدها لتمسك يده فأطلقت ناينداني حشرجة غاضبة.

وقالت بغضب: «لا تلمسيه».

«لمَ لا؟ لقد فعلتُ وانتهى الامر». وهذا صحيح، فالساعد الذي أمسكته بي لنغ سابقاً صار بارداً ومخدّراً.

وازداد شعور رين بالسوء وهما تتجادلان. وقال لناينداني: «أريد أن أبقى». ورقّت تعابيرها.

قالت: «حسناً. سنذهب معاً».

وأغلق رين عينيه، وطمأن نفسه أن كلّ شيء سيكون على ما يرام. وأنه ذاهب

إلى بي. ثم أحسّ بدغدغة، وخزة كهربائية، تلك العزلة الهادئة بنغمتها الحزينة والدموية، التي لطالما جذبته نحوها، وتذكّره بالرجل العجوز الهائم على وجهه في الظلمات؛ وهي تومض نحوه فجأة. واشتعلت حاسّة القطّة. وانتصب شعر رأسه، وانكمش جلده. لم يشعر بإشارة قوية هكذا، منذ يوم المستشفى. ثم غمرته صور لفتاة تحفر بالجاروف، لقارورة من زجاج تُلقى في حفرة راحت تتوسع وتتحول إلى قبر. ماذا، كلا، من هذه؟ وشرع قلب رين يدق بقوّة، إنها أول مرّة ينتبه فيها منذ أن أتى إلى هذه الأرض الغريبة. وفجأة أدرك رين أنّه لا يرغب بالبقاء على هذا القطار، ليس مع نانداني، وعلى وجه الخصوص ليس مع بي لنغ المشوهة ذات اليدين المتجلّدتين.

ولكن الأبواب بدأت تغلق. ويمكنه سماعها على طول القطار وهي توصد، والأصوات تقترب. *طاخ. طاخ.* ثم الأزيز الخافت، والذي يعده بوجود بي في نهاية الطريق، يثقله ويجره إلى الأسفل حتّى وهو يصارع لينهض من مقعده، وكل عصب في جسمه تشنّج.

صاحت نانداني: «ما الأمر؟».

طاخ. صوت إغلاق الباب في العربة المجاورة، كأن حارساً خفياً كان يقفلها. وشاهد رين باب عربتهم يرتجف كما لو أنّه أوشك أن يوصد. وبيأس ألقى نفسه وارتمى بجنون. وشعر بالهواء يجرح أذنيه، ولامست قوّة الباب جلده. ثم سطوع، سطوع مبهر ولم يكن بإمكانه إلا أن يغضّن وجهه ويطرف بعينيه والدموع تسيل منهما.

كان هناك شخصٌ ينظف الأرض. ويمكن سماع صوت عصر الماء، وقعقعة الجردل. كان رين ممدداً على السرير، سرير في المستشفى، لقد تذكّر الآن. صدره يجيش، وقلبه ينبض بسرعة، هل هذا لأنه رمى نفسه للتوّ من باب قطار؟ إنّه هنا لكنه أيضاً لايزال هناك، وأجزاء المكانين تتداخل. وإذا أغلق عينيه يمكنه أن يرى تعابير نانداني المصدومة، والبسمة الباهتة على وجه بي لنغ الشاحب. كلا، هو لا يودّ أن يفكر بها.

«هل أنت مستيقظ؟». كان هناك رجل نحيل ينظر إليه. يمسكُ بإحدى يديه ممسحة. وطرف رين عينيه بألم وجاهد ليجلس. وكان فمه يابساً، وسكب له عامل التنظيف بعض الماء الدافئ في الكأس. وقال بالكانتونية: «هل أدعو لك الممرضة؟».

نهى رين بهزّة من رأسه وقال: «في أيّ يوم نحن؟».

«السبت».

سمع خشخشة، بعض الأصوات في الممرّ، ومدّت ممرضة رأسها من الباب، وطلبت من الحارس بلهجة آمرة: «هل يمكن أن تأتي لمعاونتنا؟». وتبعها إلى الخارج. واستطاع رين أن يسمع أصواتهم من العنبر المجاور تقول: «انقلوها إلى المشرحة؟».

«نعم، لقد اتّصلوا بأهلها».

بعد عدّة دقائق، عاد عامل التنظيف من أجل الممسحة، ونظرةٌ مضطربة على وجهه. ومن الباب المفتوح وراءه، لمح رين نقالة تُدفع على العجلات، فيما أحدهم ممدّدٌ عليها، ومغطّى بملاءة بيضاء. قال «من هذا؟».

«مريض آخر».

ورأى قدمين عاريتين شاحبتين تتدلّيان، رقيقتين ونحيفتين وتدلّان على أنهما لامرأة. وهناك شيء ما حيال سكونهما جعل معدة رين تنقبض.

قال رين: «ولماذا وجهها مغطى. هل ماتت؟».

تردّد عامل التنظيف، وهمهم: «أحياناً، يحين على الناس وقت رحيلهم».

فكّر رين *وقت الرحيل*. وانتابه شعور مشوّش. قال: «هل تعرفها؟».

«كانت ممرّضة هنا».

وشعر رين في بطنه بالغثيان. تلكما القدمان الرفيعتان، واليسرى منهما تتدلى بزاوية غريبة. وحاول أن ينهض في سريره. عليه أن يرى وجهها! ولكن الألم اشتّد على جانبه. وأطلق صيحة غضب. ذعر عامل التنظيف واقترب منه وأمسكه وسأله: «ماذا تفعل؟».

«أعتقد أنّني أعرفها. أرجوك، اسمح لي أن أراها!».

فجذبت الضجّة الممرضة وأتت نحوهما وسألت: «ماذا يجري؟».

«الولد يقول إنه يعرفها».

فزمّت شفتيها وهزت رأسها وقالت: «هذا مستحيل!»، قالت ورمقَت رين بنظرة تدلّ على انزعاجها وعدم موافقتها، كما لو أنّه اقترف أمراً شريراً.

تدحرجت النقالة لمسافة أبعد، وأراد رين أن يبكي. عوضاً عن ذلك، أنشب أصابعه بوسادته وقال: «ما هو اسمها؟».

«بي لنغ».

وبدأ رين بالنحيب. ليس على روح تلك الممرضة الصغيرة بي لنغ، ولكن حزناً على نانداني، لأنه فهم أخيراً إلى أين رحلت.

42

تايبنغ

السبت، 27 حزيران

ما أن ألقيتُ القارورة الزجاجية مع إصبعها المتيبسة في الحفرة التي حفرتها في قبر الدكتور مكفارلين، حتّى سمعتُ صوت شين، كان عالياً عن عمد لينبّهني لاقترابهما. ورحت بجنون أجرف التراب لأردم الحفرة وابتعدتُ. وبظهور شين وأم حارس المقبرة من الزاوية، لوّحتُ لهما وتحركّتُ باتّجاههما، بعد أن أخفيت المجرفة في الكيس.

سألتني السيّدة العجوز: «هل شاهدت كلّ شيء؟».

وقبض شين على يدي بيده وقال: «نعم. ويجب أن نرحل». وشكرناها على وقتها، وخرجنا من باحة الكنيسة بأسرع ما يمكن.

سألته بصوت خافت فيما هو يمشي مسرعاً: «ما الأمر؟ لماذا تمسك بيدي؟».

وعلى سبيل الرد، قلَب يدي وكانت ملوثة بالتراب الأحمر.

سألته: «هل تعتقد أنّها لاحظت؟».

«آمل أنّها لم تلاحظ. وأيضاً يوجد بعض التراب على ركبتيك».

ونظرتُ إلى الأسفل. كلّ نزهاتي الأخيرة انتهت بالتراب والأوساخ. من خيوط العنكبوت والغبار في مستودع الأمراض، إلى بقع دم رين، وأخيرا هذا؛ تراب من قبر أحدهم.

قال: «هل دفنتِ الإصبع؟».

قلت بهدوء: «لقد تمّ الأمر».

غطت الغيوم المتجهمّة غروب الشمس، ومنحت السماءَ هيئة غامضة ومُزرقّة. وهبط الظلام المرتعش. وأمكنني الشعور بالرطوبة وهي في حلقي تختلط مع كلّ نفس أستنشقه.

سألت: «كم الساعة؟». كنت مستسلمة للمساء مثلما حصل معي أثناء رواية العجوز لحكاياتها، ولذلك فاتني أن أتأكد من الوقت في ساعة الكنيسة.

نظر شين لساعة يده وقال: «الثامنة إلا عشرين دقيقة».

آخر قطار إلى إيبوه يغادر في الثامنة ولا يزال أمامنا ميل يفصلنا عن المحطّة. ودرت بنظري فيما حولي بعصبية، ولكن كان الشارع مهجوراً وليس في مرمى النظر أيّة عربة ترايشو.

نظر شين إلى السماء وقال: «أعتقد أنّها توشك على..».

وفتحت السماء أبوابها وهطلت أوّل قطرة بدينة، مثل شرغوف مسطح، وسقطت على الطريق المغبر.

«لنركض!».

لم أفهم تلك الكتب الإنجليزية التي يتحدّث فيها الناس عن الذهاب في نزهات طويلة تحت المطر عبر البراري[1] (مهما كان معناها) ولا يرتدون سوى قبعة ومعطف صيد لتحميهم[2]. المطر في المناطق الاستوائية مثل حوض حمام نهايته السماء. والمطر يهطل غزيراً وسريعاً حتّى أنّه بغضون دقائق يصل البلل للعظم. فلا يكون أمامك وقت للتفكير. فقط الحاجة الملحة للركض والاختباء. وهكذا ركضنا.

أقرب غطاء كان مظلة لمتجر بعيد، وأسرعنا إلى الممرّ الأمامي المغطى بعرض خمسة أقدام، ونحن نلهث. وانصب الماء من الميازيب بحفيف متواصل، وحوّل الطرق المغبرّة إلى دروب موحلة.

بعد انتظار طال خمس دقائق قلت لشين: «ماذا يجب أن نفعل؟». كان احتمال

---

(1) heath: في بريطانيا، تعني أرضاً مفتوحة غير مزروعة لها غطاء نباتي طبيعي من الأعشاب ونباتات برية. المترجمة.

(2) Inverness cape معطف بلا أكمام يشبه العباءة. المترجمة.

توقّف هذا الهطول قليلاً، وفي نفس الوقت، كانت الساعة تزحف نحو الثامنة. كيف يمكن لنا اللحاق بالقطار؟

قال شين: «لا بدّ من أن نجري».

وهكذا بدأ اندفاعنا الجنوني، بخطّ متعرج من مكان محميّ بمظلة إلى غيره، كالخنافس وهي تجاهد للخروج من تحت أصيص ورود. كانت هناك قطوعات من متاجر وأشجار مطر عملاقة متداخلة، ولكن دون أيّة فائدة. كنت متأكدة أننا سنتأخر حتّى ونحن نشق طريقنا، وشعرنا بالذعر من التأخر واحتمال مغادرة القطار دون أن نكون عليه. ابتل حذائي بماء المطر وأوشكت مرتين أن ألوي كاحلي.

سأل شين: «هل أنت على ما يرام؟».

وضعت يدي على جذع شجرة لأستند. وقلت: «نعم». وضغطت أسناني. لم أتذمّر من أشياء من هذا النوع من قبل ولن أبدأ بالشكوى الآن. إذا كانت الروح الرياضية هي أفضل طريقة تبقينا قريبين من بعضنا، فمن الأفضل لي أن أجاريه.

وركز شين عينيه بقوّة على جبيني وقال: «أمامنا القليل بعد. هناك».

لم نقترب من محطّة القطار، وحينما نظرت إلى ساعة معصمه، أشارت العقارب أنّه بقي خمس دقائق للثامنة. من المستحيل أن نصل.

«هل ما زال الخاتم الذي أعطيته لك من عدّة أيام معك؟».

حدّقت فيه، وتساءلت لماذا يهتم به فجأة. كان يتوجب عليّ إعادته إليه قبل الآن، وبخجل، فتحت عقدة المنديل.

قال: «ضعيه بإصبعك».

«لماذا؟».

وبدا ساخطاً وقال: «ضعيه واتبعيني فقط».

بعد عدّة أبواب، توقّف شين وأخذ نظرة من لافتة. ثم دخل. كان فندقاً صغيراً. لم أمكث في فندق قبل الآن. وعندما زرت أنا وأمي تايبنغ منذ فترة طويلة، مكثنا عند إحدى عماتها، وهي امرأة شرسة الطباع ويبدو أنّها ورثت كلّ القوام الذي

ينقص والدتي. وتساءلتُ هل أنّها تعيش في هذه البلدة حتّى الآن وماذا ستعتقد إن رأتني أدخل إلى فندق مع رجل. حتّى لو أنّه أخي من زوج أمي.

بقية الفتيات في الصالة علّمنَني أن أحذر من الفنادق. قلن: *لا تقابلي رجلاً في فندق*. ولا حتّى في صالة الاستقبال. أخبرنني أنّه امتحان، لتميز الفتيات اللواتي يقبلن المبيت في فندق عن اللواتي لن يقبلن. وها أنا الآن هنا، على وشك أن أدخل إلى فندق. ناهيك عن كونه فندقاً وضيعاً حسب وجهة نظري. لكن ظروف اليوم مختلفة، ثم أنا برفقة شين. إذن، لا مشكلة في ذلك، أليس كذلك؟

كان الفندق من الداخل مظلماً ورطباً. وينير مكتب الاستقبال مصباح كهربائي وحيد، وهناك وقّع شين على سجل. وكان الموظف امرأة عجوز، وألقت عليّ نظرة ثاقبة وسألت: «لا توجد أمتعة؟».

قال شين ببساطة: «تأخرنا على قطار العودة. ولذلك نحتاج لليلة واحدة».

وبدّلت نظراتها بيني وبينه. وحاولت جهدي لأبدو غير مهتمة، كما لو أنّني أتأخر على القطار يومياً. وبالمناسبة، تساءلتُ لماذا كان شين معتاداً على هذه الإجراءات؟ كم امرأة رافق إلى الفنادق؟ ونظرت لظهره وتقابلت عينا المرأة المسنة مع عينيّ بشيء من التفهم.

قالت وهي تنظر للسجل: «السيّد والسيّدة لي. هل أنتما حديثا الزواج؟».

قال: «كلا. منذ فترة طويلة». ولفني بذراعه، وتعمد أن يبرز الخاتم على إصبعي.

«هل تريدان وجبة طعام؟».

نظر شين لي. وقال: «شاي وخبز محمص فقط».

قالت الموظفة: «سأرسل ذلك إلى الغرفة». وحشرت جسدها الممتلئ للخروج من وراء الطاولة وقادتنا إلى سلالم متهالكة.

«أنتما محظوظان الليلة، هذه آخر غرفة شاغرة مع حمّام».

كانت الغرفة صغيرة وبالكاد مؤثثة، ولها نافذة بزجاج مبقّع ومصاريع مزيّنة بصور الزهور، وتشرف على بدايات الشارع الماطر. لكنني كنتُ أحملق بالسرير،

وليس المشهد من النافذة. كان مرتّباً مع ملاءات ووسادتين مرتفعتين وقاسيتين. ولحاف قطني رقيق ممدود بإحكام فوقه. كان سريراً مزدوجاً. وماذا كنت أتوقع، سريران؟

قلتُ بمجرد أن غادرت الموظفة: «شين! لماذا لم تقل إننا أخوان فحسب؟».

«ليس لدينا ما يكفي من النقود لغرفتين مفردتين. ثم الادعاء أنّك أختي لا يبدو مقنعاً ما دمنا غير متشابهين بالملامح». كان كلامه منطقياً، ولكن كان هناك شيء حيال وجهه المشيح بعيداً، جعلني أظنّ أنّه كان متوتراً. لم أشاهد شين هكذا من قبل، فاضطربتُ أكثر. وقررت أنّه من الأفضل أن أكون مرحة.

فقلت بمرح: «لم أدخل إلى فندق في حياتي كلها».

صَمَتَ. ولم أتمكّن من سؤاله إن مكث في فندق، لأنه من الواضح قد فعل، وإن كنت لا أعرف تحت أيّة ظروف. ربّما هذا من وحي تخيلاتي، ولكن لم أتمكّن من طرد فكرة شين وهو يقابل نساء في الفنادق. ولكن ما أهمية ذلك ما دام هذا ليس من شأني؟

قلت له: «سأذهب لأغتسل».

وفاجأني أن شين فتح كيس الورق البني الذي اقتناه سابقاً، وبعد بعض التنقيب، أخرج منه قميصاً رجالياً جديداً. كان من القطن الأبيض، بسيطاً مطويّاً بعناية، وياقته لا تزال مثبتة بالدبابيس على الورق المقوى.

سحب الدبابيس وقدّمه لي وهو يقول: «خذي. يمكنك أن تحتفظي به».

«ألست بحاجة إليه؟».

كانت ثيابه مبلولة، أيضاً، ولكنه هز رأسه وقال: «خذيه!».

وعندما دخلتُ إلى الحمام المجاور، الذي لم يكن أكبر من مساحة صندوق مفروش بالبلاط، فهمت لماذا أعطاني القميص. بنظرة واحدة من المرآة الضيقة، شعرت بالخزي لأنّ أجد أن ثوبي المبتلّ ملتصق بي. ولا عجب إذا احتفظ شين بعينيه مثبتتين على جبيني كلّ الوقت. ارتجفتُ، وتخلّصتُ من ثيابي واغتسلتُ بمناشف رقيقة من القطن الخشن. ثم ارتديت القميص الرجالي. ومع أنّه لا

يكشفني مثل الثياب التي كنت أرتديها، لكنه كان مغرياً أكثر بطريقة من الطرق. ولأنني لم أعرف ماذا أفعل. وقفت في الحمام لفترة طويلة، وأنا أحاول أن أستجمع شجاعتي للخروج. ولكن عندما دفعت الباب بهدوء، كان شين غير موجود.

وشاهدت صينيّة شاي على السرير. شربت الشاي، وأكلت معظم الخبز المحمص، حتّى أنّني نظفت أسناني أيضاً بفرشاة اشتراها من الصيدلية. ثم صعدتُ على السرير وأطفأتُ النور. ودون وعي، هدّدَت دموع خيبة الأمل واليأس بأن تسيل من عيني. هل خطر في بالي فعلاً أن شين سيقوم أخيراً بخطوة؟ من الواضح أن هذا لن يحدث أبداً. فالأمور التي كان يحبها في شخصيتي، كالصراحة والاستقامة والروح الرياضية؛ ليست مواصفات يمكن لأيّ كاتب أن يصنع منها بطلات رواياته. إنّها تفيد شخصيات هامشية مثل الدكتور واتسون. دفنتُ رأسي تحت الوسادة القاسية وانخرطتُ بالنحيب. وانفتح الباب فجمدتُ. وقف شين بقامته ليسدّ نور الممر. ثم أغلق الباب وأقفله بصوت خافت، وتابع إلى الحمام وبدأ يغتسل. وكان الأفضل لي أن أتظاهر بالنوم. أطبقتُ أسناني، وعاهدتُ نفسي أن لا أسمح له برؤية دموعي. وما أن اتخذتُ هذا القرار، حتّى عاد مجدّداً وتسلل إلى السرير ليتمدّد بجانبي.

وخفّ صوت المطر المنهمر بشدة، ولكنّه تابع الهطول خفيفاً. وأمكنني سماع صوت الماء يسيل على السطح، مع صرير السرير حينما تمدد شين عليه. وأمسكتُ أنفاسي، وقلبي ينبض بقوّة وعنف حتّى أنّني خشيت أن يسمعه.

سألني: «هل أنتِ نائمة؟». كانت الطريقة التي تكلم بها، ناعمة ورقيقة، وجعلت قلبي ينفطر. لم يكن إنصافاً من قِبله أن يتكلم معي بهذه النغمة. وتنفّست، لكن خرجَت أنفاسي وكأنها تنهيدة مكتومة.

جلس فجأة وقال: «ما المشكلة؟ هل تبكين؟».

كان من العبث أن أُخفي مشاعري، ليس بعد أن جرّ شين الوسادة من فوق وجهي. وأضاء ضوء الشارع من خلف النوافذ التي يقرعها بالمطر وأمكنه رؤية شعري المنفوش، والدموع التي تسيل على وجهي.

وقال: «هل هو روبرت؟».

قلت لنفسي: *يا لغبائكَ يا شين*. وأنا أمسح وجهي. كان روبرت آخر من يأتي في ذهني. وانحنى شين نحوي. لم يكن يرتدي قميصاً وداهمني ذلك الشعور ثانية. ذلك الإحساس الهادر والحابس للأنفاس، والذي يستيقظ بداخلي كلما اقترب مني. ضغطتُ على عيني وأغلقتُهما.

وسألني: «هل تحبّينه لهذه الدرجة؟ إنّه لا يستحقّك؟».

«أنا لا أبكي على روبرت».

«إذن ما الأمر؟ هل تتألمين من شيء؟».

كان هذا سخيفاً حتّى أنّني لم أعرف هل أضحك أم أبكي مجدداً، وفي هذه الأثناء كان شين يجلس بجانبي نصف عار. كلّ ما قلته كان: «لماذا خرجت قبل قليل؟».

قال: «كنت أفكر». وراقبني بعينين سوداوين لا يمكن التنبؤ بهما. واعتصرَت يدٌ خفية معدتي، بقوّة وعنف. ولم أتمكّن من الاستلقاء على ظهري، وهو ينحني فوقي هكذا. لن يكون ذلك في صالحي. متى امتلأت ذراعاه وصدره بالعضلات، وهي تتحدّد وتبرز بهذا الجمال تحت نصف الضوء القادم من وراء النافذة؟

وكافحتُ للجلوس. وقلت له: «مجدداً؟ وبماذا فكرت؟».

قال: «كنت أنتظر لسنوات. ولا يمكنني تحمّل المزيد». ووضع يده على خصري، من تحت القميص. وكانت نبضاته تتسارع في حلقه، وفي عينيه نظرة نصف متوجّسة ونصف متسائلة. ولم يعد بمقدوري التنفس.

«هل قبّلك روبرت؟».

أومأت بنعم، دون كلام.

وومض الغضبُ في عينيه ثم وقال: «حسناً أنا أفضل منه».

وكنت متأكدة أنّه سيقول شيئاً في غاية الفظاظة ولكنه بدلاً من ذلك وضع يده الأخرى خلف عنقي وقبّلني.

كان هناك إحساسٌ ضعيف في ساقيّ، وصعد بالتدريج نحو مركز جسمي.

إحساسٌ حارٌّ ذائب. وكانت شفتاه ناعمتين وقويتين، وقد تابعتا التقدّم على جلدي، فانفتحت شفتاي رغما عنّي. وأمكنني الإحساس بضربات قلبه، وبقبضة يده وهي تنزلق بشكل خطير نحو خصري. سحبتُ أنفاسي بقوّة وقلت: «شين!». ولكن ازدادت قبلاته إصراراً فوق شفتيّ، وعنقي. وبلا صبر، جرّ القميص الذي ارتديته للتو. هذا كان كلّ ما آمله، ولكنه كان سريعاً ولحوحاً إلى درجة أرعبتني. وقلتُ بأنفاس مكتومة: «انتظر». فيما تمدّدنا على السرير.

كانت يده تفكّ أزرار القميص. سألني: «لماذا؟».

قلتُ: «لأنه لا يمكننا. علينا أن لا نفعل». وتزاحمَت أفكاري، وتساقطَت، حتّى وأنا ألفّ ذراعيّ حوله.

قال: «بل علينا أن نفعل. وإلا لن تكوني لي». ودفن شين وجهه في عنقي ثانية، وقبض بيديه على نهديّ. مرّ تيار كهربائي في جسدي، شهقتُ وأبعدتهما عنّي.

قلت: «كنت دائماً لك. ولذلك أرجوك أن تتوقّف».

«كلا، أنت لم تكوني لي». وجلس، ومرر أصابعه بشعره الأسود الذي انسدل على وجهه، وتابع: «أول مرّة نظرتِ إليّ بتلك النظرة كانت في الشهر الماضي، لطالما كنت مشغولة بمينغ!».

والتهب خداي، ولم أجد شيئا أقوله.

فأردف بمرارة: «لو أنّه كان مينغ لانسحبت فوراً. ولكن ليس من أجل شخص مثل روبرت».

لمست وجهه وقلت: «شين، لم أكن أعتقد أنّني أعجبك».

«طبعاً أنا معجب بكِ. ودائماً بك».

«وماذا عن بقية البنات؟». قلت بشيء من السخط وتابعتُ: «ماذا كنت تفعل معهن؟».

«أحاول أن أنساك، أيتها الغبية».

اشعلت شفتاه بالقبل ناراً بطيئة ومحمومة بين نهديّ. ويا لخجلي، عندما خرجَت رغماً عنّي تنهيدة من بين شفتيّ ثم أطبقتهما بقوّة. وتابع شين تقبيلي،

ببطء متعمّد. يلمسني بيدٍ خبيرة، ويملؤني بألم متلهّف وغامض. اشتعل طنين في أذني، واحترق جلدي. ثمّ عاودني ذلك الشعور الغريب، وهو مزيج يعتصرني من الفضول والخوف والرغبة غير المحتملة. لم أكن أعرف شين هذا، هذا الغريب بجسده الذكوري القاسي، جسد رجل وليس جسد صبي. ولم أعرف نفسي أيضاً. ذلك الجزء الذي كان منّي واشتهى أن يعضّه، وأن يمصّ أطراف أصابعه، أن يلتهمه. بدأ يئنّ بنعومة وأنا أغرس أصابعي في ظهره، وشعرتُ بدوار الانتصار واللذّة. ثم شعرت بركبتيه تباعدان ما بين ساقيّ، وبتلك الحرارة اللجوجة وهي تضغط على فخذي، وأدركت أنّه كان جاداً.

وبإصرار دفعته بعيداً وأنا أقول: «قلت لكَ انتظر!».

بعينين ملتهبتين وناعمتين قال: «أخبرتك أريد أن تكوني ملكي. لي أنا».

ولكنّني جلست وزرّرتُ القميص حتّى النهاية وقلت: «لا يوجد شيء اسمه "ملكي"»، لكن قلبي ظلّ يدق متسارعاً. واحتوى الضباب رأسي. تنحّى شين وغطى وجهه بيديه.

وقال: «روبرت لن يرغب بكِ إن لم تكوني عذراء». وكان صوته مختنقاً.

ثار حنقي وقلت: «هل هذا كله من أجل ذلك؟ هو لا يريدني أساساً. أنا لست فتاة يُعجب بها الشبان».

«هل أنت عمياء؟ أنت لا تعرفين مقدار المشاكل التي مررتُ بها، وأنا أبعد عنك المعجبين طوال سنوات».

«ماذا فعلت؟».

«آه.. هنغ من مخزن البضائع الجافة. سنغ هوات من مدرستي. آه، وجارنا أستاذ الرياضيات». وكان يعدّهم على رؤوس أصابعه.

وبغضب ضربته بالوسادة وأنا أقول: «هل تقول إنّه كانت لدي فرصة مع أستاذ الرياضيات؟». كنت مغرمة به في أحد فصول الصيف لأنه كان يضع نظارات ويفرق شعره مثل مينغ. وأردفت: «أنت وحشٌ يا شين. أنت أناني، وحش أناني». وقبض على ذراعي وجرّني فوقه.

وقال: «وماذا يفترض بي فعله؟ أنت لم تكوني مهتمة بي. وفي كلّ الأحوال، إن لم يكونوا شجعان بما يكفي لكي يبقوا، فهم لا يستحقونك».

كنا متقاربين، ولا يفصل بين وجهينا أكثر من ست بوصات. كان قلبي يقرع، وأنفاسي مثل شهقات خفيفة. ورغم ما بذلته من جهد لأبدو غاضبة عليه، إلا أنّ سعادة مخدرة تسللت إلى داخلي.

سألني: «هل تكرهينني؟». ورأيت تلك النظرة نصف المتلهفة مجدداً. لم أشاهد شين هكذا من قبل، بيننا نحن الاثنين لطالما كان هو الشخص البارد، فاحمرّ وجهي. لا بدّ أنّه لاحظ ذلك، فقد قال: «إن كنت لا تكرهينني، اسمحي لي إذن أن أفعلها». وعاد لتقبيلي مجدداً.

وكان من السهل أن أستسلم له، وأن أدع هذا الألم البطيء يستهلكني. والتفّت ذراعاي حوله، وأنا أتلمس عضلات ظهره التي تتحرك وهو يتدحرج ليصبح فوقي. وانطلقت صافرة الإنذار في رأسي، مع كلّ التحذيرات التي تعلمتها من أميّ. ما هذا الذي أفعله؟

وقلتُ: «كلا!»، وفي هذه المرة دفعته بقوّة فسقط من السرير.

«هل أنت قلقة من الحمل؟». سأل شين وهو راكع على الأرض، وينظر لي. وفي ضوء المطر الباهت الذي يأتي من بين مصاريع النوافذ، كان يبدو وسيماً لدرجة مستحيلة. وأضاف: «لا يجب أن تقلقي، فقد اشتريت شيئاً من الصيدلية».

«إذن كنت تخطط لهذا منذ البداية؟».

قال: «طبعاً. أخبرتك أنّني كنت أفكر».

«وهل لهذا السبب رافقتني اليوم؟».

«نعم».

ورغبتُ أن أضربه، وقلت: «وكل المزاعم عن المساعدة في دفن الإصبع، مجرد كذبة؟».

«أنا لست مهتماً بالإصبع حقاً. أردت أن أكون معك فقط».

قلت: «كان يمكنك أن تكون معي في أيّ وقت. ليس عليك أن تكذب لتجد سبباً».

قال: «كلا، لقد وعدت والدي». وصمت كأنّه أفضى بسرّ.

حلّ عليّ إحساس فظيع وقلت: «وعدته بماذا؟». وتذكرت الخيالات الزرق غير الطبيعية، وظلمة قن الدجاج، والطريقة التي تدلّت بها بشناعة ذراع شين المكسورة. وقلت: «أخبرني وإلا لن أغفر لك! ماذا جرى في تلك الليلة؟».

بصوت منخفض وهادئ ومتعب فجأة، قال شين: «قال إنّه انتبه لنظراتي إليك، وأشعل هذا غضبه فدخلنا في عراك وكسَر ذراعي. ووعدته أن لا ألمسك. ليس في ذلك البيت. وبالمقابل، وعد أن يدعك وشأنك». تنهّد وختم كلامه: «وهذا كل شيء».

وضعتُ يدي على شعر رأسه، بنحو طالما رغبت فيه، وقلتُ بلطف: «وماذا سنفعل الآن؟».

دفن شين وجهه في حضني، ولف ذراعيه حول خصري. وقال: «يمكنك أن تسمحي لي بالنوم معكِ الليلة».

وفكّرت بالموضوع. وقلت: «حسناً. النوم فقط. لا شيء آخر».

رفع أحد حاجبيه، ولم ينطق بكلمة، وصعد إلى السرير مجدداً ولفني بذراعيه. وامتلأ صدري بألم عاصف وحلو، كان مثل طير يخفق بجناحيه. وعدت إلى أيام طفولتنا، وما تخللها من مجادلات وتنافس. هل تمكّنت أخيراً من اللحاق بشين، أم أنّه هو الذي أوقعني في الفخ بلعبه دور الصبور والهادئ؟ واستلقيت على جانبي، أستمع إلى صوت المطر وأنفاس شين، وأنا أشعر بسعادة مفرطة.

43

باتو جاجاه

الأحد، 28 حزيران

جرت المكالمة في مساء الأحد، وقاطعت الصمت البارد الذي خيّم على الشرفة، حيث كان ويليام يجلس بقميص قطني وإزار سارونغ. كان الهواء راكداً ولزجاً، ويمهّد للرياح الموسمية. استلقى على كرسي راتان، والثلج في كأسه يقرقع كلما حركه. وتذكر ويليام التنزّه قرب البحيرة المتجمدة والاستماع الى صوت قطع الجليد المكسورة والطافية، وهي تقرقع كلما ارتطمت بالضفة. قالت عنها آيريس: إنّها مثل جرس يدقّ، وكان وجهها الفاتن مصبوغاً بلون وردي بسبب البرد. كان هذا قبل أن تتّهمه بالخيانة، وتقبيل امرأة أخرى. من بين كلّ الأخطاء التي فعلها إلا أنّه كان وفياً لها دوماً، قال لها إنّها على خطأ. وردّت ببرود: «أنا متأكدة مما رأيت في حفلة آل بيرسون». ولكن الشخص الوحيد الذي تبادل القبلات معه في تلك الليلة في ظلام الممرّ، ودون شهود، إن استثنيت الدقات الخفيضة لساعة الجدّ؛ هي آيريس نفسها. ومن دواعي السخرية، أن ذلك جاء بعد أن شعر نحوها بعاطفة شوق مفاجئة غمرته بعد يوم ممتع أمضاه مع الأصدقاء. وتذكر هذا الظلم، وصعد في قلب ويليام إحساس عارم بالازدراء. كانت آيريس إنسانة عصابيّة، ولديها استعدادٌ عجيب لإفساد اللحظات الجميلة. ولكن هذه ذكريات من زمن آخر، حياة أخرى، ومرّر ويليام كأس الويسكي المثلّج على جبينه، وهو يسمع صوت جرس الهاتف يرنّ ويرنّ عبر الكوخ الفارغ.

وعند الرنة الثامنة، حمل آه لونغ السمّاعة. لم يكن سريعاً مثل رين، وهو يهرع لإجابة الهاتف. ثم ظهر عند باب الشرفة.

وقال: «إنّها سيّدة يا *توان*».

في الوقت المناسب، قال ويليام لنفسه. فهو لم يذهب اليوم صباحاً إلى الكنيسة، ولذلك فقدت ليديا فرصتها لفتح باب الكلام معه. وأخذ نفساً عميقاً ثم قال: «هلو؟».

كان صوتُها ضعيفاً وغير جازم، حتّى إذا لم تضع بالحسبان خشخشة الخط الهاتفي. قالت: «ويليام؟ أنا ليديا. هلا أتيت غداً في الصباح الباكر؟».

«باكر إلى أيّ حد؟»، كان كلامها مزعجاً ومهدّداً في نفس الوقت. تابع: «هل يمكن تأجيل الأمر؟».

المزيد من الخشخشة على الخطّ. ثم: «يجب أن نتكلم عن آيريس».

وهبّت ريحٌ قوية، وحركّت القماش القطني الرقيق للسارونغ الذي يصل لكاحليه. وتبعتها رائحة المطر.

صاح: «ماذا قلت؟».

«قابلني في السابعة. في الجناح الأوروبي».

ثم انفجر وميضٌ مبهرٌ من البرق وأُغلِق الخط الهاتفي. وحدق به ويليام. إذن إلى صباح الغد. وبالرغم من إشارة الخط الهاتفي الضعيفة، إلا أنّه انتبه لنغمة ظفر وانتصار في صوت ليديا، ما جعل المرارة ترتفع في بلعومه. على ماذا أزمعت، وهي تجسّ النبض بطرقها البسيطة التي تناسب الهواة؟ وأغلق عينيه بقوّة، وتوسل للحظ الشرير الذي يتبعه بعناد، ليقف إلى جانبه مجدداً.

في السادسة من صباح الإثنين، كان ويليام مستيقظاً ومرتدياً ملابسه. العاصفة التي ثارت طوال الليل ذهبَت، وتركَت وراءها كتلاً من الأعشاب المبلولة وقطرات مطر تنهمر من الأفاريز. حضّر آه لونغ إفطاراً دافئاً من الخبز المحمّص مع فاصولياء معلبة مطهوة بصلصة البندورة، بلا بيض. لأنّ ويليام لا يطيق البيض هذه الصبيحة، وأضف لذلك أنّه افتقد لعجّة رين المحضّرة بمهارة. كلّ البيت يفتقد رين. في الظلام، يبدو البيت فارغاً ومليئاً بالظلال.

وقال آه لونغ بصوت خشن: «متى سيعود الصبيّ؟».

«سأتفقده اليوم».

كانت حالة رين غريبة تماماً، كان تدهوُره ملموساً وسريعاً، وقد ملأ ويليام الخوف المثير للغثيان من أنّه سيصل إلى المستشفى ليجد رين ميتاً. ولكنه عليه ألا يخبر آه لونغ بهذه الأفكار، فهو متشائم ويؤمن بالخرافات.

كان الظلام لا يزال مخيماً على الطريق الملتوي، فالشمس لم تشرق بعد. ورسمت مصابيح الأوستن الخيالات التي ذابت في الأدغال والأشجار. ماذا تريد ليديا منه؟ كان لديه إحساس متطيّر، وسيتفاقم حالما يصل إلى المستشفى. وسالت طبقة حليبيّة من الأفق، ومع أن الأبنية كانت صامتة، إلا أن هنالك حسّاً غير مسمّى يوحي بشروع الناس في الاستيقاظ. إنّها الساعة 6:45. لقد وصل مبكراً.

كان لمستشفى المقاطعة، المبني بطراز استوائي نصفه من الخشب؛ سحرٌ فتّان. نظر إليه ويليام، وهو يقترب من الظلام الكثيف لمكاتب الإدارة في الجناح الأوروبي. وهو واحد من عدّة أبنية قليلة من طابقين في المستشفى المنخفضة الشبيهة بالحديقة. لا بدّ أن ليديا هي في مكان ما هنا. وحملته غريزته لينعطف من حول الزاوية. وها هي، يمكنه أن يتعرّف على شعرها الناصع من مسافة بعيدة.

وقفت ليديا على الأعشاب المبلولة قرب المبنى، ورأسها ينظر إلى رجل صينيّ صغير بفك معوّج. وبالاحتكام لزيّه الأبيض، تعلم أنّه ممرّض انتهى من نوبته الليلية، ولكن التوتّر الناجم عن مواجهة الواحد للآخر حذّر ويليام. وفي الضوء الخفيف، لم يلاحظا اقترابه الهادئ.

قالت ليديا: «.. لا علاقة لي. ويمكن أن تخبر الدكتور رولينغز ما تشاء».

وفتح الرجل فمه، لكن لم يسمع ويليام كلامه بسبب صوت ارتطام. خيال مرتجف هبط وضرب رأس الشاب وهشّمه فسقط ميتاً. وأسرع ويليام. وركع على ركبتيه. ولكن لا فائدة. يمكنه أن يرى فوراً أن الجمجمة مهشمة، ولاحظ نثاراً غير مفهوم على يديه، وقميصه. وغمرته رائحة الدم والدماغ. وصرخ أحدهم، بصوت هستيري مرتفع. الشيء الذي سقط تكسر، ولكن ويليام ميّز الشظايا. أنّها بلاطة صلصالية ثقيلة من السطح. النوع الذي تجده في سطح المستشفى، والممرات المغطاة، والعنابر. ونظر إلى أعلى. لا شيء يُرى، فقط النوافذ المفتوحة على الطابق الثاني وما فوقها، والإفريز غير المكسور من حافة السطح.

كان الموقف كله فظيعاً، وصادماً حتّى لويليام الذي اعتاد على الدم والجروح النازفة. ولا يمكنه أن يتخيل حالة ليديا، فقد أخذت بعيداً وهي تبكي وترتجف من هول المشهد. ووصلت الشرطة وسجّلت الإفادات. وصعدوا إلى السطح ولاحظوا أن بعض البلاطات مفقودة. ولم يمكن لأحد أن يقرر هل كان هذا بنتيجة عاصفة الأمس أم قبلها بشهور.

قال الرقيب: «يبدو أن السطح كان تحت الترميم»، وأشار لبعض البلاطات المكومة في زاوية من المبنى. تابع: «كان من الممكن أن تصيبك يا سيدي».

«السيّدة تومبسون هي المحظوظة». فعلاً كان من السهل أن تكون الضحية هي ليديا. قدمان فقط كانا يفصلانها عن الممرض سيّئ الحظ الذي تحطّم رأسه مثل بطيخة.

سأل الرقيب: «هل تعرف الضحية ونغ يون كيونغ؟ يُعرف أيضاً باسم ي.ك. ونغ. عمره ثلاثة وعشرون».

«هو يعمل مع الدكتور رولينغز بكثير من الأمور، كما أعتقد». وتذكر كلام ليديا «*ويمكن أن تخبر الدكتور رولينغز ما تشاء*»، وظل يتساءل عن معنى ذلك.

«هل ستأخذ عطلة اليوم؟».

هز ويليام رأسه بالنفي وقال: «عندي مرضى يجب متابعتهم».

وبعد أن أصبح حُراً في النهاية، انتبه للرعشة في يديه، والضعف في ركبتيه. إنّها مأساة، حادث مرعب وعجيب، ولم يمكّنه التخلص من إحساسه أن هناك أمراً مشبوهاً وخاطئاً. غريزته أخبرته، لحظة سقوط الظل، أن النهاية قريبة. وبعد صدمة مشاهدة الجثمان، أوّل ردّة فعل له كانت فكرة، هي أن الشخص الخطأ هو الذي لقي حتفه. *كان من المفروض أن تكون ليديا*، قال لنفسه. حتّى وهو يمتلئ بالذنب المثير للغثيان. ذلك الحظ الشرير الذي يتبعه، ويعيد ترتيب الأحداث لينقذه؛ اتخذ اليوم منعطفاً غير مفهوم. هناك شيء خطأ في النمط، قال لنفسه، وهو يمشي ليعود إلى مكتبه يحسّ بالدوار والغثيان. أم أنّه كان يرى كلّ شيء بالمقلوب؟

وتوقّف. هناك فعلاً شيء خطأ، شيء يراه بشكل ومضة تمرّ على بصره حتّى في غبش الصباح الباكر. وأخيراً استدار ويليام نحو ضابط الشرطة.

44

تايبنغ/ فاليم
الأحد، 28 حزيران

استلقيتُ في ذلك السرير المزدوج بالوسائد القاسية ورأسي على صدر شين، وتمنّيت لو يتوقّف الوقت على تلك اللحظة، إلى الأبد. إنّه الصباح. المطر انتهى، وهناك صمتٌ نقيّ وعذب وساطع في الهواء. وكان شين نائماً.

لقد رحل الظلام. كما لو أن الشهور والسنوات التي عشناها، في ذلك البيت الضيق والطويل فوق متجر بيع خام القصدير؛ تحولت لشيء آخر. شيء لا يمكنني أن أحدّد طبيعته بالضبط. وكل ما أعرفه، أنّني كنت سعيدة بهذه اللحظة أكثر من عمري كله. سعادة خطيرة. وضغطت بشفتيّ على عظام ترقوة شين. كان جلده دافئاً وله طعم مالح.

وفجأة، جلستُ والقلق يغمرني، ولكن كنت أرتدي القميص وهو مزرّر وثيابي الداخلية بمكانها. في الحمام، فحصت نفسي في المرآة المغشاة. لم يتسبّب لنا الحبّ بمعجزات، لكن وجنتاي تلوّنتا بلون زهري حينما تذكرت كيف ثبّتني شين في الليلة الماضية. لو أنّه أصرّ، لربّما استسلمت له مع أنّني كنت أؤنب نفسي. ما هذا الذي أوشكنا على فعله؟ لم أجد أيّ طريق واضح أمامنا.

وعندما عدتُ إلى الغرفة، كان شين لا يزال مضجعاً في سريره. انحنيت عليه، وتأمّلت رموشه الطويلة بإعجاب، ولكنه قبض على خصري. ومرّت عدّة لحظات ونحن نكتم أنفاسنا. قلت له: «يجب أن نلحق بالقطار». وبجهد جهيد حرّرت نفسي منه.

قال: «لماذا ترفضينني دائماً؟».

«لا أعتقد أنّ هذا هو الحل المناسب لنا».

قال: «ستندمين. هل تعلمين مقدار صعوبة الهرب هكذا؟ أن نسافر إلى بلدة غريبة، ونجد فندقاً لا يتعرف علينا فيه أحد؟».

واعتقدت أولاً أنّه يمزح، ولكن النظرة في عينيه كانت جادّة للغاية. فك أزرار القميص الذي ارتديتُه وبدأ يقبّل نحري. ولم أتمكّن من التنفس، وانهارت مقاومتي حينما تجولت يداه فوق جسمي، وهو يلمسني بمهارة وخبرة، ويجعل ساقيّ ضعيفتين ومعدتي منقبضة.

وشهقتُ أقول: «توقّف!».

احمرّ وجه شين. وقال: «جي لين! أرجوكِ». كان صوته جافّاً ومبحوحاً، ولم أسمع مثله من قبل. تابع: «أرجوك، أرجوك».

وكنت أعرف ماذا كان يريد مني. وقفز قلبي، لكنّني كنت متأكدة أننا إذا فعلنا هذا، سنكون قد بدأنا من الطريق الخاطئ، والترتيب الخاطئ. وقلت ببؤس شديد: «آسفة. لا يمكننا ذلك. هل ممكن أن تنتظر؟».

نهض فجأة وذهب إلى الحمام. وأمكنني سماع الماء يجري وهو في الداخل لفترة طويلة. وضعتُ رأسي على البقعة الدافئة التي كان شين يستلقي عليها، وانتابني شعور غامض باليأس. ربّما اعتقد أنّني لا أحبه من قلبي. في النهاية، هناك فونغ لان، وكانت ترغب بمنح نفسها له. والتفكير بصديقات شين الأخريات جعل صدري ينقبض ألماً. كيف تعلّم أن يقبّل بتلك الطريقة؟ وماذا فعل مع صديقاته أيضاً؟ وفكّرت أنّه يجب أن لا أكون غيورة. ولا يمكن أن أكون هكذا، لصيقة به وأبكي حتّى لو تركني ليوم واحد.

عندما عاد شين، كان طبيعياً. كان شعره الأسود مصففاً بالماء وفي يده ثوبي الأصفر الذي علّقته أمس ليجفّ. قال مازحاً: «لنعقد هذه الصفقة. هذا الثوب لقاء هذا القميص».

«وماذا عن القميص الذي كنتَ ترتديه أمس؟ ألم يجفّ؟».

«أريد القميص الذي ترتدينه الآن».

واحمر وجهي، وأدهشني أن شين احمّر وجهه أيضاً. ذهبتُ إلى الحمام، وغيّرت ملابسي، وأعطيته القميص الرجالي الجديد الذي كنت أرتديه، ولكنه الآن كان للأسف مجعّداً بعد أن نمت به. بعد ذلك، ولمّا لم يعد أمامنا ما نقوله، نزلنا إلى الأسفل ودفعنا الحساب وانصرفنا. كانت الموظفة نفسها هناك، قالت وهي تتأمّلنا: «سمعت بعض الأصوات تأتي من غرفتكما أمس».

قال شين: «نعم، سقطتُ من السرير».

فتحَت فمها، وكتمتُ ضحكة هستيرية لحوحة، وأنا أضغط على يد شين. وهكذا غادرنا تايبنغ، البلدة الصغيرة الماطرة والرومنسية الهاجعة بين هضابٍ جيرية. وفي أحد الأيام، فكرت، سأعود إلى هناك مع شين، لنفعل كلّ شيء على النحو الملائم.

* * *

توجّهتُ إلى فاليم، لأنني أردت زيارة أمي. وذهب شين إلى باتو جاجاه من أجل نوبته في المستشفى. قال: «احذري وأنت في الطريق إلى البيت». وطوال الطريق إلى القطار كانت يدي بيده في السر؛ إذ لم يكن من المناسب إظهار العواطف في العلن، ولكن عندما لم يكن أحد ينظر، اختلس شين قبلة أو اثنتين في غفلة من الآخرين. وكنت سعيدة ولا بدّ أنني احتفظت بالابتسامة على وجهي كالمعتوهين، ولم يكن شين أفضل.

قلت له: «يمكنني الاحتفاظ بالأسرار».

ورد شين بوضع شفتيه على أذني وهمهم: «هل تعلمين؟ أنّك مرتبكة تماماً الآن».

وكرهت أن أعترف، ولكنه كان محقاً. وتذكّرت كيف قال شين: *سأجعلك ملكي*، وتساءلت هل لدى كلّ الرجال هذه القوّة على النساء. وسواء بوضع الأيدي علينا، أو بالعناق والكلمات المعسولة، يمكنهم تحريكنا بالاتّجاه الذي يرغبون به. ولم أحبّ تلك الفكرة. ولكن كلا، قبّلني روبرت في السابق وكانت النتيجة كارثية.

قلت ببطء: «هل لديك صديقة أخرى يا شين؟»

«كلا».

«إذن لمن هذا الخاتم؟».

«إنه لك. ألم أقدمه لك؟».

ودُهشت. بالتأكيد، هو قدمه لي أمام رئيسة الممرضات، ولكنّني افترضت أنّه يمثل دوره لينجو. وبدا شين هادئاً. وتابع: «كنت أريد أن أفعلها بظرف أفضل، وليس كما حصل».

«اعتقدت أن لك صديقة في سنغافورة. كوه بنغ أخبرني».

«ذلك لأنني حين أكون في سنغافورة أقول صديقتي في إيبوه، والعكس بالعكس. وإلا وقعت لي المشاكل. دائماً هناك من يسأل عن حالتي العاطفية، أو يحاول أن يعرفني على فتاة. ولكن أنا مشغول بك فقط».

شعرتُ بالسرور. وقلت: «إذن اشتريت الخاتم لي؟».

ردّ بقبلة في راحة يدي. وقال: «وكنت أعتقد أنّه يمكنني أن أصارحك. ولا سيما أن مينغ خطب فتاة أخرى».

«ولكنه ليس بمقاسي».

«اعتقدت أن وزنك سيزداد بسبب الطريقة التي تأكلين فيها».

وتشابكت أصابعنا معاً وانفجرتُ بالضحك. بدا لي أنّه من الخطأ أن أكون سعيدة. وتذكرت النظرة على وجه رين. كان سعيداً كأنّه بانتظاري كلّ عمره. وهبط الظلام على وجهي.

قلت له: «أنا قلقة على رين. هل بإمكانك أن تطمئنّ عليه، وكذلك بي لنغ؟ ولترى هل شفيت من سقطتها؟».

في محطّة إيبوه، تلكّأت قليلاً، ولم أرغب بالانفصال عنه. فقال: «من الأفضل أن تذهبي. وإلا سينتهي بي الأمر لمرافقتك». ولم يكترث بالآخرين، وقبّلني بقوّة عند باب القطار، ثم عاد إلى مقعده. ووضعت يدي على زجاج النافذة؛ ووضع يده من الجانب الآخر. وحملقت بخاتم شين الذي التمع في إصبعي الوسطى.

الإصبع الشبحية أو جاري *هانتو* كما سمّاها كوه بنغ. ونقر شين على الزجاج. وبذهول قابلت عينيه. وهزّ رأسه. وقال: «*اذهبي*». وبعد نظرة أخيرة انصرفت.

عندما وصلت إلى فاليم، كان الوقت قرابة الظهيرة وقد أغلق وهج الشمس الأبيض عينيّ. ومشيت المسافة القصيرة إلى البيت وأنا أشعر بالخدر. كان المنزل من الداخل مظلماً وبارداً، واستغرقتُ عدّة ثوانٍ لأدرك أن روبرت يقف هناك، مع أمّي وزوجها.

تسمّرتُ. وأردت أن أتسلل بهدوء، دون أن أمر بلجنة الاستقبال هذه. صاحت أمّي بقلق: «أين كنت يا جي لين؟». وانتبهَت عيناها لثوبي الأصفر بلون الكناري، والذي يبدو لسوء الحظ كفستان سهرة أكثر من أيّ وقت مضى.

وضبطتُ أعصابي لأتكلم بهدوء: «لماذا؟ ما الأمر؟». ولكن دقّات قلبي كانت كالمطرقة في رأسي. ما مقدار الأسرار التي كشفها روبرت؟

قالت: «روبرت يقول أنّه لم يجدك في بيت السيّدة تام؟».

إذن لم يقل الكثير. واختلستُ نظرة منه. كانت هيئته توحي بالتشوش والاضطراب، كما لو أنّه هو وليس أنا من أمضى ليلته بعيداً عن بيته. لم ينطق زوج والدتي بكلمة، ولكن نظرته الصامتة والطويلة وتّرت أعصابي.

قلت: «كنت مع صديقتي هوي. أنت تتذكرينها، أليس كذلك؟».

لم يسبق لأمي أن التقت بهوي. وتوسلت إلى الله من كلّ قلبي أنّها فهمت توسلاتي الصامتة. ونظرَت لزوجها من جانب عينها، وأدهشتني وهي تقول: «آه، هذا صحيح. كان يجب أن أفكر بذلك. حسناً، يجب أن أذهب حالاً وأجهّز الغداء».

وهكذا، بهذا العذر خرجت هي وزوجها، ولكن ليس قبل أن يرشقني زوجها بنظرة عميقة وحادّة.

وما أن انصرفا حتّى قال روبرت: «أريد أن أكلّمك».

ولم يعجبني الإلحاح الذي رأيته في عينيه. ولكن لم يكن أمامي إلا أن أرافقه لجولة قصيرة، بعيداً عن المتجر. وتابعنا بصمت، كانت شمس الظهيرة تلتهب على رؤوسنا. وشعرت بالدوار والعطش، وضاق صدري من الخوف.

قال أخيراً: «كم مضى عليك وأنت تعملين هناك؟».

«عدة شهور».

قال بارتباك: «سألتُ وتحقّقتُ. يبدو أنّها صالة رقص محترمة، ولكن هذا العمل لا يليق بك. وأنت تعرفين ذلك، ألست معي فيما أقول؟».

طبعا كنت أعلم ذلك. ولكن روبرت تابع محاضرته الطويلة. ورغبت من كلّ قلبي أن ينصرف، ويعود لعالمه، بما فيه من خدم وسيارات ورحلات إلى أوروبا، ولكن لم أكن جاهزة لإثارة عدائه، أيضاً.

قلت أخيراً: «اسمعني. ماذا تظن أنّني أفعل في ماي فلاور؟».

«ترقصين مع الرجال، ومن أجل النقود». ولم يضع عينه بعيني. وأدركتُ أن ذهنه كان مشغولاً بتخيل أشياء أخرى غير مقبولة.

قلت: «نعم. أنا.. معلمة رقص. وأعمل هناك ليلتين في الأسبوع. ولكن لا ألبي دعوات إلى الخارج، مع أنّها مربحة».

ولم يحرك روبرت عينيه خلال هذا الكلام عن الدعوات الخارجية، وفهمت بإحساس ضعيف ومفاجئ، أن لديه فكرة بخصوص المصطلح. وربّما شارك بحفلات من هذا النوع في بعض المناسبات.

قال: «هل أنت محتاجة للنقود؟».

ورن صوت شين في حنايا رأسي: «*لا تطلبي منه شيئاً*»، قلت: «هذا شأني. ثم أنا توقّفت عن العمل في الصالة».

قضم شفته وقال: «اسمحي لي بمساعدتك يا جي لين. في النهاية أنت منعتِ شين من ضربي ليلة أمس».

قلت: «لم أكن أريده أن يتورّط بمشاكل»، ولكن روبرت لم يفهم التلميح.

وقال: «صدمني بطبعه العنيف. هل أنت على ما يرام؟».

وكانت الكلمة على رأس لساني، وأوشكتُ أن أذكر لروبرت أنّه نعتني أمس بالعاهرة وأمام شين. ولكن أمسكتُ نفسي وقلت: «أنا بخير. والآن اسمح لي، يجب أن أستبدل ثيابي».

وما أن أفلتَت الكلمات من فمي، حتّى استيقظ روبرت من سباته وانتبه إلى أنّني لا أزال بنفس الثوب الذي كنت ألبسه أمس. وشعرتُ كأنني أريد أن أركل نفسي لأعاقبها. فقد نبّهته لشيء كان غافلاً عنه.

قال: «هل أمضيتِ مع شين ليلة أمس؟ أين ذهبتما ليلة البارحة؟».

فكّرت: خطر. فقلت: «ذكرتُ مسبقاً أنّني أويت إلى بيت صديقة».

واستدرتُ، ولكن كان بيد روبرت شيء ضدي الآن. إذا اكتشف زوج أمّي أين كنت أعمل، من يعلم كيف سيتصرف؟

وقلت قدر استطاعتي من التهذيب: «أعتقد أنّه من الأفضل أن لا نتقابل. وشكراً لاهتمامك. ولكن يمكنني الاعتناء بنفسي».

قال وهو يتبعني عن مقربة: «مع ذلك أريد أن أعتني بك. أنت بحاجة للمساعدة».

اسرعت بخطواتي جاهدة للابتعاد. وبيأس، فهمت أنّه ينظر لنفسه على أنه مخلّصي ومنقذي. شخص سينقذني من خياراتي السيّئة، ومن بطش أخي العنيف. كان يمكن للأمر أن يكون مضحكاً لو لا أنّه في الحقيقة موقف فظيع. وقبض روبرت على مرفقي. فجمدت بلا حراك. كنّا نقف في الشارع وهناك دراجات وأشخاص حولنا. لذلك بالتأكيد لن يقدِم على فعل شيء متهور. ولا بدّ أنّه لاحظ خوفي، لأنه أنزل يده باضطراب.

وقال: «أنا أفكّر بمصلحتكِ فقط».

وأخيراً، وبعد إلقاء محاضرة متعثرة أخرى عن مخاطر الاختيارات السيّئة، وكيف يجب أن أكون حريصة لأنني امرأة شابة؛ تركني وشأني. ولكن مشاكلي لم تقف عند هذا الحد.

عندما عدتُ إلى المنزل، سمعت أصواتاً مرتفعة تأتي من غرفة العائلة في الطابق الثاني. وأسرعت لأصعد على السلالم بمنتهى القلق حيث قابلت زوج أمّي قادماً بالاتّجاه المعاكس. ولم ينظر لي، وإنما مرّ بجانبي بغضب. وكانت أمّي تجلس في كرسي راتان في الغرفة، وعيناها مغلقتان، ويداها تضغطان على صدغيها.

وتأمّلتها بخوف بحثاً عن إصابات واضحة ولم أعثر على شيء، وسألتها: «ماذا يجري؟ هل هذا بسببي؟».

رسمت ابتسامة ضعيفة وقالت: «لا، لا». وخفضت صوتها وقالت: «ولكن بالمناسبة، أين كنت أمس يا جي لين؟».

للحظة قصيرة، رغبت بالاعتراف بخصوص شين وكيف أننا وقعنا في غرام بعضنا، ولكن شيئاً ما حذّرني ألا أفعل. قلت: «أخبرتك، مكثت مع صديقتي هوي. ألا تتذكرينها، التي تعتني بثيابها ومظهرها كثيراً؟».

ذكرت هوي أمام والدتي من قبل، فقد ظننتُ أنّها ستهتمّ بثيابها وأزيائها، ولكن الوالدة لم تبتلع الطعم. لكنها أومأت ببساطة، وغشي القلقُ عينيها. وتمنّيت لو أن روبرت لم ينبههما! وحقيقةُ أنّي عدتُ من مكان غير معلوم وأنا بهذا الثوب الأصفر الفاضح الملتصق بجسمي؛ زاد من الشبهات. ولكن كان هذا هو الثوب الذي قبّلني شين وأنا أرتديه. والذي قال إنّه يحبّه. ولهذا السبب فقط، سيكون ثوبي المفضّل إلى الأبد، وإن كنت لا أستطيع أن أنظر إليه دون الإحساس بالذنب. ودائماً ما أشعر بالذنب وأنا بقرب أمي. فضعفها ولطفها في العتاب، دائماً ما يغلبانني.

«هل أنتِ على ما يرام مع روبرت؟».

«لن أقابله كثيرا بعد الآن». من الأفضل أن أضعها أمام هذا الاحتمال.

«لماذا؟ إنّه شابّ ممتاز».

ونظرت لوجهها المتألم وأضفت: «لسنا منسجمين. أرجوك لا تهتمي كثيراً».

«هل السبب هو شين؟».

وجمدتُ. وقلتُ: «وما علاقة شين بذلك؟».

«يبدو أن شين لا يحب روبرت لسبب ما».

قلت دون اهتمام: «شين لا يحب أحداً».

«كلا، هو يحب مينغ. ويحبّك. وأنا مسرورة لأنّ لك أخاً يُعتمد عليه، حتّى لو اختلفتما أحياناً. العائلة شيء مهم. وستكتشفين ذلك حين تكبرين بالعمر».

ولذتُ بالصمت، وتساءلتُ إن كانت تتذكر إجهاضها عدّة مرات، والأولاد الذين لم يروا نور الحياة. وارتجفت، وأنا أفكر بيي. هل لا يزال يجلس بصبر في محطّة القطار في أرض الأموات، بانتظار موت شقيقه التوأم؟

وفي النهاية قلت بتمهل: «أمي؟»، وتساءلت إذا كنت أرتكب خطأ فادحاً. قلت: «عندي شيء أخبرك به».

45

باتو جاجاه

الاثنين، 29 حزيران

هبّت الكارثة على العنابر مثل ريح شريرة، وحملت خبر حادثٍ مرعب وغريب آخر. الموت ليس غريباً على هذا المستشفى؛ إنّه يتجول في الردهات كلّ يوم، وينتقي العجائز والمعلولين. ولكن أن يقع بهذه القوّة في أعقاب موت بي لنغ، كانت له لمسة باردة ومخيفة على همسات وأقاويل الموظفين.

يقولون: في المستشفى شبح منتقم. وسقطت بي لنغ من السلالم لأنها شاهدَته. وذلك الممرّض، ي.ك. ونغ، قتل بسقوط بلاطة على رأسه هذا الصباح، لأنه شاهد الشبح وهو يمشي على سطح المستشفى.

سأل رين: «ولماذا على السطح؟». كان يستعدّ للمغادرة اليوم. ومن المدهش تعافيه بسرعة، حسب أقوال الطبيب المحلي الذي فحصه. مدهش تماماً، هذا التبدل من يوم لآخر. ولكن يبدو أن هذه هي الحال مع الأطفال.

طمأنه الدكتور قائلاً: «لا يوجد ما يبعث في حالتك على القلق». كان هو نفس الرجل الذي باضطراب أبلغ رين عن فقدان إصبعه، وكان ينظر الآن وهو مقطّب لبقعة بيضاء على مرفق رين. في المكان الذي قبضت عليه بي لنغ، الممرضة الشاحبة، التي قابلها في ذلك العالم الملتهب والشبيه بالأحلام. وحينما لمس رين بأصابع يده اليمنى تلك البقعة، دغدغته. إنّها تقوي حاسّة القطّة عنده. كأنّه يفتح بابا إلى طريق شفقيّ. وفي الخارج، هناك عدّة مخلوقات بيض باردة. وتذكر رين *البونتياناك* وحكايات أخرى عن نساء غاضبات هائمات يأتين في

الليل، وشعورهن السود الطويلة تُكفّنهن. عليك أن لا تسمح لهن بالدخول، أبداً ومطلقاً، حتّى لو غرسن أظافرهن الطويلة في باب البيت ونادين بأصوات رقيقة ومعسولة، ويعدن بالمعرفة والأسرار. ولكن ماذا لو أنّك خرجت، لمجرد فترة قليلة، للكلام معهن؟

فحص الدكتور المرفق، ولكن رين لم يشعر بالألم، فقط بالخدر. كانت العلامة تشبه إلى حدّ غريب قبضة يد شبح. همهم: «يمكنني أن أقسم أنّها لم تكن موجودة من قبل». ولزم رين الصمت. وأدرك أن هذا هو ثمن يجب أن يدفعه لأنه تخلى عن بي لنغ في ذلك القطار.

قال له: «عموماً سندعك تخرج اليوم».

وعلى الأغلب فإنّ ويليام سيصحبه في نهاية هذا اليوم. على الأقل، هذا ما فكر به رين.

ونظر له الدكتور شن نظرة غريبة. وقال للمرضة: «من الأفضل أن تتأكدي أنّه لم يعد إلى بيته باكراً. سمعت أنّه كان أول الموجودين في مكان وقوع الحادث هذا الصباح».

قالت الممرضة: «لا، إنّه يعمل». وتبادلا نظرة.

وسأل: «وماذا عن الآنسة ليديا؟».

في تلك اللحظة، ظهرت ليديا بنفسها في باب العنبر المفتوح. لم يكن لشفتيها لون، وكان شعرها منبسطاً من جانب واحد وكأنها كانت تستريح نائمة في أحد المكاتب، وهذا ما حدث بالفعل.

قالت وهي تسمع اسمها: «هل تريدان رؤيتي. أيّة خدمة؟».

قالت لها الممرضة: «آه! لقد سمعتُ أنّك كنت هناك ساعة وقوع الحادث. لا بدّ أنّه مروع».

قالت مع تقطيبة: «نعم. ووالدي سيأتي ليأخذني عما قريب. فأنا لست مستعدة للسياقة بنفسي». وتلقّت ايماءات متعاطفة تدل على قدر من الإعجاب على شجاعتها كأجنبية. وضع أحدهم وشاحاً أبيض خفيفاً من القطن على كتفيها،

ولكن هذا لم يُخفِ من ذلك الرذاذ الخفيف للنقاط البنّية المحمرّة على بلوزتها. وتأمّل رين تلك النقاط. وتحركت حاسّة القطّة. الموت يغطي بلوزتها، وينقط تنورتها، وهو الآن يشعر بالدوار من الرعب. على الرغم من وجهها الشاحب، كانت ليديا مليئة بالطاقة المتوترة.

جاءت وجلسَت قرب رين وقالت: «يا إلهي، تبدو أفضل بكثير!».

نكس عينيه وقال: «نعم». ألم يشاهد أحدٌ آخر الدم الذي عليها؟ ولكنه قليل، رذاذ فقط. ولكنّه بالنسبة لحدس رين الخفيّ، كان يشبه شبكة عنكبوت رمادية ملتصقة بها. وهو لا يعلم ما معنى هذا، وانكمش بعيداً عن روحها الودية الغريبة. وسأل نفسه: هل هي الشجاعة أم شيء آخر هذا الذي يضيّق حدقتي عينيها، الخوف أم الحماس؟

قالت ليديا وهي تُخرج شيئاً من محفظتها: «كنت أريد أن أعطيك هذه. هل سترى صديقتك لويز ثانية؟».

وتشوّش رين للحظة، من هي لويز؟ ثم تذكر أنّه الاسم الآخر للفتاة ذات الرداء الأزرق. ولم يعرف ماذا يقول، لكنه أومأ.

«هل يمكنك أن تعطيها هذا؟».

وجفل رين. كانت قارورة صغيرة. نفس النوع الذي كانت فيه الإصبع المحنطة. باستثناء أن هذه مملوءة بسائل مثل الشاي. طبعاً، هذا مستشفى، وليديا متطوعة فيه. وليس من المستغرب أن لديها نفس النوع من العبوات.

سألها: «ما هذا؟».

قالت: «دواء معدة وعدتُها به في آخر مرّة».

وتذكر رين الحوار الذي دار بين ليديا وجي لين، شيء عن نساء يتعرّضن للاضطرابات مرّة في الشهر ويشعرن بالعذاب والألم، وكيف أنّ هذا الأمر غير عادل. وبخضوع، وضع القارورة في جيبه، وتذكر الدكتور قواعد مكفارلين في العلاج. سألها: «هل توجد جرعات؟».

«أخبرها أن تأخذه كله إن كانت تعاني من ألم المعدة. وهو تونك خفيف؛ أنا

أستعمله شخصياً. ولكن لا تذكر شيئاً عنه لأي شخص آخر، فلربّما تُسبّب لها بالإحراج». ثم ابتسمَت، ونهضت لتنصرف.

شيّعها رين بنظراته. وتساءل كيف لا يشعر غيره بهذا الوشاح الذي يلتصق بظهر ليديا. إنّه شيء مثل كفن أو شرنقة. تلك الخيوط الطويلة والدقيقة المغزولة من العدم. لا بدّ أن ليديا خدعَت الموت هذا الصباح. ولكن على ما يبدو، أنّها لم تهرب من منجلِه سليمة.

46

فاليم
الأحد، 28 حزيران

وجه أمّي المتعب أساساً، أصبح أكثر شحوباً بعد أن أخبرتُها. أغلقَت عينيها للحظة طويلة.

قلت لها: «كنت أرقص فقط. صدقاً. لم أفعل شيئاً آخر أبداً».

قرّرتُ أن أعترف بعملي في صالة الرقص في حال قرّر روبرت أن يخبرها بسري في أيّة دقيقة. ولم يكن أمامي شيء أفعله حيال ردّة فعل زوج أمي، وكان الأفضل، أن تكون أمّي على الأقل مستعدة لها.

قلتُ بثقة كاذبة: «إذا سمعتِ أيّ شيء من الآخرين، فيجب أن لا يصدمك الخبر. مع هناك احتمال أن الموضوع لن يخرج للعلن أبداً. وطبعاً السيّدة تام لا تعلم».

وخشيتُ أن تبدأ بتعنيفي لارتكابي هذه الغلطة الغبية، لكن الحزن غطّاها، فقالت: «هل أن كلّ هذا في سبيل تسديد ديوني؟».

وتردّدتُ، ولكن لم تكن هناك فائدة من الإنكار وقلت: «عموماً توقّفت عن هذا العمل. وليس عليك أن تقلقي».

وتغضّن وجهها وقالت: «كان توريطك خطأ من الأساس، يجب أن لا تستمرّي بهذا العمل. وسأخبر زوجي بالديون».

«سيستشيط غضباً! ولكن شين قال إنّه جاهز للمساعدة».

قضمت شفتها وقالت: «لا أريدك أن تقلقي بهذا الشأن. هذه ليست مشكلتك. هل لهذا السبب سيتوقّف روبرت عن زيارتنا، هل لأنه اكتشف الأمر؟».

«لا. أنا من لا أريد رؤيته».

«لكن لماذا؟ فهو رجل طيب يا جي لين، وبالرغم من كل..».

«ليس من الصواب أن أفعل هذا، لأنني لا أهتم به».

وقالت: «يمكنك أن تعتادي عليه!». ثم توقّفت بعد أن أدركَت أنّها رفعت صوتها.

ثم، بصوت خافت ولجوج، أضافت: «لا تفوّتي هذه الفرصة يا جي لين. اغتنميها وانتقلي لحياة مختلفة، إذا تركتِه ستندمين لبقية حياتك».

لم أسمع أمّي من قبل وهي واثقة بهذا النحو، وبصراحة، لقد صدمتني. وهززتُ رأسي وقلت: «إنه ليس خياراً لي».

«إذن اجعليه خياراً. ولا تتكبري!».

لم تكن الكبرياء هي التي تمنعني، ولكن كيف أخبرها.

سألتني بصوت ثاقب: «هل هناك غيره؟».

فكّرت وقلت: «نعم».

«من هو؟».

وقدحتُ زناد أفكاري وقلت: «مينغ». وتأمّلتُها بالسرّ لأرى إلى حدّ كانت تريد أن يكون صهرها روبرت؟

وتنهدت أمّي بارتياح وقالت: «آه. مينغ. أنتِ تعلمين أن هذا لن يحصل. فهو مخطوب». ومع ذلك ألقت عليّ نظرة متفحّصة، هل كانت تشكّ بشيء؟

في وقت الوجبة الأساسية، تبادلنا أنا وأمي النظرات المتحفزة. وملأني الخوف من نيّة الاعتراف لزوجها عن الديون، ولكن كان يبدو أنّها أكثر اهتماماً بموضوع تضييعي فرصتي مع لروبرت. وقرأتُ الشكّ المطبوع على وجهها. لم تكن تصدق أنّني لا أزال متعلقة بمينغ، ولم تخرج من شفاهنا كلمة بسبب وجود زوج أمي. جلس بصمت ثقيل، ونحن نأكل. يمكنك أن تقطع الهواء بالسكين لشدّة توتّر الجو. نظرتُ لمقعد شين الفارغ أمام الطاولة عدّة مرات، وعندما انتبهت لنظرات أمّي، خفضت نظراتي بذنب. هذا ليس علامة جيدة. سأفضح نفسي بهذا الشكل. وهكذا انصرفت إلى السرير، وأنا أصلّي من أجل أن يأتي الفجر التالي بسرعة.

ولكن بدلاً منه جاءتني الأحلام. ليس المكان المشمس الذي أقابل به يي، ولكن رؤى غريبة أخرى. وربّما كنت قلقة جدّاً حول أحداث الأيام الأخيرة المعدودة. فقد كنت في محطّة تبديل القطارات وفيها عدّة أرصفة وممرات وسلالم موصولة بعضها بعضاً تحت مسارات القضبان. كانت أشبه بصورة معكوسة لمحطّة قطارات إيبوه. تلك بيضاء وكبيرة، وهذه مظلمة وضيقة وكئيبة. وكان الغروب يهبط، بصمت أزرق، وهناك زحام صامت، وهناك هيئات تشبه أشباحاً تسرع من حولي. وكل ما أعرفه أنّه يجب أن أختار قطاراً في الحال، وإلا بقيتُ حيث أنا.

ولم يكن الناس واضحين. إذا ما حدّقتُ بهم بشدة، فسوف يتلاشون كالدخان، وإذا صرفت أنظاري عنهم يعودون، وينهمكون بعمل مهمّ من الأعمال. اقتربت من حافة الرصيف، وتأمّلت قضبان السكة. كانت مثل سلالم ملتوية تمتد بعيداً. وكانت هناك علامتان متعاكستان تدلان على «*هولو*» و«*هيلير*»، وهذا يعني بالماليزية «مع التيار وعكس التيار»، ولكن كان هذا بلا أيّ منطق بالنسبة لمحطّة قطار. الاتّجاه الذي يحمل علامة *هيلير* جعلني أفكر أنّه بعيداً جدّاً وفي نهايته الأخرى، قد أجد يي. كانت ومضة لفكرة ألغيتها من رأسي فوراً، وإن كنت أشعر أنّني إذا ناديت يي الآن وحالاً، سيظهر بطريقته الصامتة والمرعبة.

وهبّ دخان أسود على الرصيف حينما دخل قطار يقعقع. وهرع الناس للصعود. لكنني تردّدت. وتساءلت هل سأحتجز الآن وإلى الأبد، إن لم أسرع باتخاذ قرار. وجاء رجل عجوز هزيل على حافة عمره، أجنبي بعينين براقتين ولحية رمادية شعثاء، وشقّ طريقه على الرصيف. وأطراف بدلته السوداء التي كان يرتديها تبدو تالفة وباهتة اللون وكأنها تتلاشى مع الظلام المخيم. وتحرك فمه وهو يشير إلى سلّة السفر خاصتي.

قلت له: «المعذرة، لم أسمع ما قلت؟».

بقي بلا صوت، مثل مذياع حلّ عليه الصمت، ولكن أمكنني أن أرى من الحركات الحذرة والمبالغ بها، لشفتيه، أنّه كان يحاول أن يتكلم معي.

وكأنه قال بالإيماء: «*أعيديها لمكانها*»، وأشار إلى السلة. وعلمت، بتلك

الطريقة غير المفسّرة للأحلام، أنّه يتكلم عن الإصبع المتبقية، الإبهام من رزمة لي بنغ.

«إلى أين أعيدُها؟ إلى المستشفى؟».

ولكنه اكتفى بالابتسامة. وكأنه قال *شكراً لكلّ شيء*. ثم تخطّاني، وصعد على متن القطار.

صحتُ أقول: «انتظر!». وأسرعتُ أجري وراءه.

التفت لي ونظر نحوي بحنان وتواضع. وحدّقتُ بعينيه، تلكما العينان فاتحتا اللون، وانتبهتُ إلى أنّ لهما حدقتين عموديتين ورفيعتين، مثل عيني هرة. وبرعب تراجعت خطوة إلى الخلف.

أحنى الرجل العجوز رأسه. وكأنه يقول: *«أنا راحل الآن»*. وضمّ كلتا يديه بحركة تدلّ على الاعتذار والامتنان. ولاحظتُ أن يديه سليمتان وبعشر أصابع. وهبّ البخار والدخان الأسود. ولم يكن هناك غير زعيق صفّارة القطار والاهتزازات العميقة للقضبان، ثم غطّى اللون الرمادي على كلّ شيء.

* * *

أصبحَت صفارة القطار نعيباً، صوتاً خشناً مثل غراب يصعد ويهبط على حافة نافذتي من الخارج. وضعتُ يدي على عيني، وتبادر لذهني أن كلمتي «*هولو*» و«*هيلير*» تعنيان بالماليزية «بداية ونهاية» بالإضافة لمعناهما الأول «مع التيار وعكس التيار». وجلستُ في صمت الصباح. كان حلماً ولا شيء أكثر. أليس كذلك؟ وبطريقة أو بأخرى، لم أكن أريد الكلام مع الموتى.

«أعيديها»، كان يقول. وارتجفتُ بهواء الصباح البارد، وتوجّهتُ مباشرة إلى سلّة السفر خاصتي. كنت قد حزمتُ قائمة الأسماء لأعرضها على كوه بنغ، ومعها الإبهام المقطوعة التي كانت في رزمة بي لنغ الغامضة. واليوم سأذهب إلى باتو جاجاه وأضع الإبهام بين بقية العيّنات في مخزن الأمراض، آمِلة أن أسدل ستارة الختام على كلّ شيء.

ولكن هذا ليس ما أخبرتُ به أمي. قلت لها: «أنا عائدة إلى إيبوه».

وافقت بإيماءة من رأسها من دون تعليق، ولكن عينيها كانتا مليئتين بالشكّ. فهي لا تزال تفكر بروبرت. ولكنّي لم أكن أخطط لرؤية روبرت ثانية، فقط شين. وعليّ أن أخبره بأحلامي. وتذكرت يد الأجنبي اليسرى، بالأصابع الخمس السليمة، وكنت متأكدة أننا فعلنا حسناً بدفن الإصبع في قبر الدكتور مكفارلين.

لدى وصولي إلى مستشفى باتو جاجاه، كانت الساعة تبلغ الثامنة والنصف صباحاً. وهو وقت مبكرٌ لاجتماع ذلك الحشد من الناس الذي رأيته أمام البوابة الرئيسية.

سألتُ امرأة متوسطة العمر برداء *سامفو*[1] أصفر: «ماذا يجري؟».

«حادث. والشرطة لا تسمح لنا بالدخول مع أنّني أخبرتهم أن لدي موعداً، ومع أن الضحية المسكين مات».

وانطلق إنذار في داخلي. سألتها: «ومن الميت؟».

«شابٌ يعمل هنا. ممرضٌ في المستشفى، كما يُقال».

فكّرتُ شين. هزّني الرعب، وهرعت إلى الأمام وأنا أصيح: «اسمحوا لي بالمرور من فضلكم».

كان هناك شرطي ماليزي يقف للحراسة، صارعت الزحام بجنون، وندت عنهم صيحات استنكار ثم همهمات تعاطف. قلتُ له بأنفاس مقطوعة: «أخي ممرضٌ هنا. هل تعرف من هو الميت؟».

«لا أعرف اسمه، ولكن إن كنت من العائلة سآخذكِ معي. من هذا الطريق، إلى الجناح الأوروبي».

أسرعتُ وراءه بفم يابس. وعبرت إلى قسم من المستشفى لم يسبق لي أن رأيته. واقتربنا من حلقة من الناس المجتمعين عند زاوية من مبنى من طابقين نصفه من الخشب. كانوا ينظرون إلى السطح، ثم إلى المنطقة المعشوشبة من المبنى.

أومأ الشرطي برأسه وقال: «هناك حصل الحادث بالضبط». ونظر إلى ضابط

---

(1) samfoo: جاكيت يصل لتحت الخصر وبنطال ترتديه النساء الصينيّات.

طويل سيخيّ كان يخفي مفكرته. وصاح الشرطي: «أيها النقيب سنغ! هذه الفتاة تريد أن تعرف إن كان الميت هو أخوها».

«ما اسمه؟». وقابلت عيناه عيني بنظرة ثاقبة كهرمانيّة اللون.

قلت بأنفاس مكتومة: «لي شين. أنّه ممرض هنا».

نظر إلى مفكرته. وقال: «لا. الميت هو السيّد ونغ يون كيونغ».

وارتخت ركبتاي. الحمد لله! ولكن، كان اسم الضحية مألوفاً عندي، وأفزعني ذلك.

قلت له: «تقصد ي.ك. ونغ؟».

«هل كنتِ تعرفينه؟».

ماذا يجب أن أقول؟ وتردّدت، ثم مرّ شخص ما بمحاذاتي، وقال: «حضرة المفتش. أريد أن أكلمك بموضوع». وكان هذا ويليام أكتون، مشتتاً وبعينين محمّرتين، كأنّه كان ساهراً لعدة ساعات.

التفت المفتش نحوه، وتجاهلني الرجلان.

قال المفتش: «ماذا تريد سيد أكتون؟ اعتقدت أنّك انصرفت إلى بيتك».

«لدي مرضى يجب أن أهتم بهم. ولكنّني تذكرت شيئاً للتو».

«حسب إفادتك، بلاطةٌ سقطت من السطح وحطمت جمجمة السيّد ونغ».

«هذا صحيح. ولكنها ليست من السطح».

وتبادلنا جميعاً النظر غريزياً.

وتابع ويليام: «لم أنتبه إلا بعد حين، لأنّ ما حدث، حدَث بسرعة. إنما لم تكن على علو شاهق».

«ماذا تقصد؟».

«حسناً، كانت أشبه بسقوط خيال. وأنا متأكد تقريباً أن الحجرة جاءت من الطابق الثاني وليس من السطح».

أعقب ذلك صمتٌ. وقال المحقق: «هذا اتهام خطير يا سيد أكتون. هل تقول إن أحدهم ألقى الحجر من نافذة في الطابق الثاني؟».

هذا محتمل. فكرت، وأنا أنظر إلى المبنى. كانت النوافذ مرتفعة وكبيرة، ومفتوحة لتسمح للهواء بالتدفق. وتردّد أكتون. ثم قال: «ربما».

«هل تقسم على هذا؟ كان الوقت لا يزال مظلماً».

ومسح وجهه وأضاف: «لستُ متأكداً من أنّه يمكنني القسم على ذلك. ولكن هذا إحساسي».

«الأحاسيس لا تعنيني مثل الحقائق».

وساد بين الرجلين جوّ عدائي. هل تقابلا قبل الآن؟

قال ويليام: «أنا أبلغ الشرطة المعلومات التي أعرفها فحسب».

«طبعاً، سنذهب ونتحرّى الطابق الثاني». قال المفتش بهدوء، «لكن من الظاهر أنّه كان مقفلاً حينها. وهناك مكاتب الإدارة. أليس كذلك؟».

«نعم. لكن عدد من الموظفين لديهم المفاتيح».

«شكراً لك سيد أكتون، سأضع ذلك في حسباني».

وتردّد ويليام أكتون، ثم استدار للجهة الأخرى. وأسرعتُ وراءه لأسأله عما جرى، على أمل أن المفتش نسي أمري. لماذا مات ي.ك. ونغ؟

قال أكتون عندما وصلت إليه: «لويز. لماذا دائماً تظهرين أمامي في الأوقات التي لا أتوقع رؤيتك فيها؟».

وبدأتُ بتفسيرات طويلة عن أخي، ولكنه لم يكن يسمع تماماً.

وقال: «أول مرّة في مخزن الأمراض، وسبق ذلك سقوط تلك الممرضة الصغيرة من على السلالم. هل علمتِ أنّها ماتت نهاية هذا الأسبوع؟».

وبرعب هززت رأسي بالنفي.

قال: «وكنتِ هناك في الحفلة، يوم اختفاء نانداني. واليوم صباحاً أيضاً. هل أنت ملاك الموت يا لويز؟».

«طبعا كلا!».

«ولكنك تعرفين النهر الذي أراه في أحلامي. أخبريني، هل شاهدت أمواتاً في الفترة الأخيرة؟».

ولم يكن من الوارد أن يعرف أيّ شيء عن رحلتي مع شين لحفر قبر الدكتور مكفارلين. كان قلبي يقرع دون انتظام. منحني أكتون ابتسامة يائسة وقال: «أنا آسف. أنا بمزاج متعكر اليوم. ما رأيك بكأس شراب في وقت قادم، كم تطلبين لقاء دعوة خارجية؟».

وجفلت، وأمكنني وضع ابتسامة جامدة على وجهي. نفس النظرة المهنية التي اعتدت عليها في العمل. بالنسبة له، ببساطة أنا مجرد تنّورة يلهو بها ويخفّف عن نفسه. ولكن اثنان يمكنهما أن يلعبا هذه اللعبة، وهناك أسئلة عندي يجب أن أسألها.

قلتُ: «هل فعلاً رأيت شيئاً يسقط من الطابق الثاني؟».

«ألا تصدّقينني؟».

قلتُ بجدية: «بالعكس. أنا أصدّقك، وأعتقد أن الحدس مهم».

وتنهد. «ربّما كان هناك شخص في الطابق الثاني. ولكن أخبريني بحق السماء لماذا يرمي بلاطة من النافذة؟».

لماذا حقاً؟ وتردّد صدى كلمة شين: «*سأقتله*» في رأسي بطريقة مزعجة. فبالطبع كان غاضباً بعد أن سمع أن ي.ك. ونغ حبسني في مستودع للأمراض. ولكنه لن يقدم على أمر كهذا، أليس كذلك؟ وفكّرت بغضب شين الصامت، الذي يشبه تلك الظلمة التي أخافها والتي تهيمن على قلب زوج أمي.

قال أكتون: «هل أنت على ما يرام؟». كنّا قد توقّفنا عن المشي وبدأ عابرو السبيل ينظرون إلينا.

«هل تعرف ي.ك. ونغ، القتيل؟». سألته. وهل يجب أن أخبر المفتش عن مشاحناتي المشبوهة معه، أم أن هذا سيورّطني بالمشاكل؟

حكّ فكّه: «ليس تماماً، كنت أراه هنا». كانت هيئته رمادية ورقيقة. «بطريقة ما، لا يجب أن يكون موته بسبب حادث مرعب وشاذّ كهذا، من الأفضل أن يكون سبب موته منطقياً».

«ماذا تعني؟».

صنع أكتون بوجهه تقطيبة عصبية وقال: «مجرّد فكرة. خيال غريب. هل فكّرتِ أن الأشياء تعيد ترتيب نفسها بطريقة متوافقة أكثر من اللازم؟».

واعتصر شيء ما معدتي. هذا بالضبط ما قاله بي في محطّة القطار المهجورة تلك، إن خامسنا يعيد ترتيب الأحداث. *«كل شيء يخرج عن النظام»*، قال بي.

قلتُ: «كما لو أن القدر يتغير ليكون بمصلحتك؟».

كانت طعنة في الظلام، ولكن بدا أكتون مندهشاً. ثم أطلق ضحكة كئيبة، وقال: «يا لك من فتاة استثنائية، يا لويز. ولكنك تفهمين. ربّما التقينا في حياة أخرى».

آنذاك، جاء كوه بنغ من ورائي وكان مذهولاً. وسألت نفسي كم سمع من حوارنا، ولكنه قال ببساطة: «رئيسة الممرضات تريد أن تراك يا سيدي».

قال: «حسناً»، ثم ألقى أكتون نظرة من حوله وقال لي، فيما هو يمضي إلى المبنى المجاور: «لا ترحلي».

ولم تكن عندي نيّة للامتثال، ولكنني انتظرت عدّة دقائق ليخلو المكان من الجميع. ولكن كوه بنغ مكث. وقال: «ماذا تفعلين هنا، هل كنت تكلمين السيّد أكتون؟».

«صادفتُه حينما كنت أتحدّث مع الشرطة بخصوص الحادث».

«الشرطة؟ هل أخبرتِهم بفقدان الأصابع؟»

«كلا، هل يتوجب علي ذلك؟».

وألقى كوه بنغ نحوي نظرة جانبية. كان اليوم مختلفاً، عصبي المزاج وليس مبتهجاً أبداً، كما لو أن موت زميله هزّه. وقال: «وهل معكِ القائمة التي كانت في رزمة بي لنغ؟ تذكري أنّني وعدتك بتفحّصها».

وفيما كنتُ أبحث في سلتي، أضاف: «وماذا كان يعني بكلامه السابق عن شخص في الطابق الثاني؟».

«يعتقد أنّه شاهد أحداً هناك».

«وهل أبلغ الشرطة».

«لست متأكدة من أنهم سيصدقونه». وأخرجتُ القائمة، فنظر كوه بنغ بتحمّس من فوق كتفي.

قال: «حسناً، هذا يثبت أن ي.ك. ونغ كان يبيع الأصابع. هؤلاء كلهم من المرضى الذين تعامل معهم».

«وكيف علمت؟».

وهز كوه بنغ منكبيه وقال: «أنا أتابع ما يجري. الناس في المستشفى قلقون ومكشوفون؛ والجميع يبحث عن ضمانات. انظري، هذا الشاب هنا كان بالتأكيد يقامر». وأشار إلى القائمة التي بيدي، وتابع: «المقامرون يشترون أيّ شيء. ألا تتذكرين موجة الجنون حول أعشاش *بورونغ اونتونغ*؟».[1]

والبورون اونتونغ عصفور صغير يبني عشاً مخفياً في أماكن مرتفعة يصعب الوصول إليها. وإذا ما وُضع العش في كيس الرز، يقال إنّها ستجلب الحظ السعيد والثروة لمالكها. وكان هناك هوس بها من فترة غير بعيدة، وبأسعار تبلغ عشرة دولارات أو حتّى خمسة وعشرين دولاراً ماليزياً لقاء العيّنة الجيدة. ولكنّي أفترض أن بيع عينات من قسم الأمراض هو أمرٌ أسهل، بالمقارنة مع عناء البحث عن مكان عش صغير ومخفي.

قلتُ: «لكن لا يبدو أن ي.ك. ونغ شخص يمكن أن يكون جيداً بالتعامل مع المؤمنين بالسحر والشعوذة». فقد كان خشناً، غريب الأطوار، فكّرت وأنا متجهمة الوجه. وتابعتُ: «يبدو لي من الأفضل تسليم هذه للدكتور رولينغز أو السيّد أكتون».

«ولماذا؟ لقد مات الآن».

«لا تزال هناك عينات مفقودة، ولا أريد أن يشتبهوا بشين، فهو آخر من اهتم بالمستودع».

ومرت في وجه كوه بنغ ومضة. وقال: «سأفعل ذلك من أجلك». ومدّ يده لاستلام الأوراق.

---

(1) burung ontong

حملقتُ به وقلت لنفسي: يا لي من غبيّة. كنت أبحث عن نمط لما يجري كلّ هذا الوقت، لكنّني لم أرَ هذا، كيف فاتني؟

تأهّبت لأفرّ من أمامه وأنا أقول: «لا عليك». وراعني أن الممشى كان فارغاً.

ابتسم لي ابتسامة ضيقة وغاضبة وهو يقول: «إلى أين؟».

كذبتُ قائلة: «شين بانتظاري».

قبض على ذراعي وطواها وراء ظهري وقال: «هذا من سوء حظك». وانتشر ألم من طعنة على جانب جسدي. وهمس في أذني: «إذا رفعتِ صوتك، سأطعنك ثانية».

وغلبني الذعر، ولم أشاهد ما يحمله بيده اليسرى. ولكن شعرت أنّه شيءٌ حادّ جداً.

همس: «تابعي المشي»، وأجبرني على أن أُلازمه في مسيره كأننا عاشقان يحتضنان بعضهما، وأحاط كتفي بيُمناه. نظرتُ حولي بذعر ثمّ قلت له: «هل تريد القائمة؟ سأعطيها لك».

ردّ بضغطة قوية أخرى، وغرس نصله الحاد في خاصرتي وتمزّق ثوبي بسبب ذلك. ثم أصبحنا في الخارج، نمشي على الأعشاب الرطبة. ولم يكن هناك أحد. وبيأس وجدت نفسي مرغمة على المتابعة ويديّ خلف ظهري نحو أحد المباني الخارجية.

قال كوه بنغ موضحاً: «من المؤسف أنّك اكتشفت الموضوع. كنت آمل أن لا أضطر لفعل هذا. ما الذي جعلك تشكّين بي؟».

هززتُ رأسي، ولكنه غرز سكينه فيّ مرّة أخرى. وسالت الدموع على وجهي. فقال: «أخبريني بالحقيقة الآن».

«لقد قلت إنّ بي لنغ كانت صديقة جيدة لك. ولكنها أخبرتني أنّها لا تملك صديقاً من الرجال يمكن أن تثق به لاستعادة الرزمة».

وتابعنا المشي، ليس إلى البناء الخارجي ولكن خلفه. وسألني: «هل هذا هو كلّ شيء؟». تمّهلت ولكنه دفعني إلى الأمام.

فتابعتُ الكلام: «وقالت إن لدى رجل المبيعات صديقاً لا تحبّه. أوّل الأمر اشتبهتُ أنّه ي.ك. ونغ، لكنه كان أنت». وتذكرتُ كيف خافت بي لنغ عندما شاهدت شين لأول مرّة، وأخبرتني أنّه صديق لشخص لا تحبّه.

«نعم، ي.ك. كان مزعجاً، وكان يبحث عن دليل لينقله إلى الدكتور رولينغز. ومن المؤسف أنّه كان يحتك بالناس الخطأ».

«هل بيع الأعضاء البشرية تجارة مربحة؟». نظرتُ حولي بقنوط. كنّا قد ابتعدنا عن المبنى الأساسي الآن!

«مربحة إن استمرت. ولكن ذلك الأحمق شان يو شونغ فقد إصبعاً في أسوأ مكان ممكن، وهو صالة الرقص. والأسوأ أن الإصبع كانت في زجاجة يمكن معها إثبات ملكية المستشفى لها. كان يحتفظ بها لأنّ رقمها 168 وهو من أرقام الحظ».

الأرقام، فكّرت بيأس. كلّ شيء يدور حول الأرقام.

«اعتقدتُ أنّه سيفيدني ويأتيني بالمزيد من العمل. لكنه حاول أن يبتزني. وصديقته لم تكن أفضل منه».

«يعني أنتَ من دفع بي لنغ على السلالم».

«كان هذا خطأك في الحقيقة. وقفتِ معها في الخارج أمام الكافيتريا. وكنتما تناقشان بحماقة موضوع رزمة خبأها يو شونغ. وكنتُ متأكدا أنّها الدليل الذي احتفظ به ضدي».

بي لنغ البائسة والمسكينة. كان كلّ ما يهمهما هو استرداد رسائل الحب فقط.

«وهكذا صمّمت أنّها يجب أن تختفي».

وتذكّرت أنّه أثناء الضجّة التي أعقبت اكتشاف سقوط بي لنغ، كيف كان كوه بنغ هو الشخص الوحيد الذي واصل الأكل. شغل نفسه بأن يبدو طبيعياً حتّى أنّه لم ينتبه لضرورة التظاهر بالمفاجأة. وأصابني الغثيان.

وسألني كوه بنغ: «وماذا يعرف شين؟».

«ليس الكثير»، قلتُ. ثم بيأس حاولت أن أحمي نفسي فتابعت: «ولكن لديه شكوك».

«مع أنّني ظننت أنّي سوّيت كلّ شيء أعطِني القائمة والقارورة الزجاجية، لقد شاهدتها معك حينما أخرجتِ اللائحة».

ولم يكن لديّ خيار، فسلّمته كلّ شيء. حتّى الإبهام المحنطة. وسألته: «وهل قتلت رجل المبيعات أيضاً؟».

«لا. كان حظه فقط وسقط في حفرة». وفكّر وهو مقطب القسمات.

وكان قلبي يطرق، وصدري يضيق بالرعب والفزع. ورأيت أنّه أثقل مني، ولكنه ليس أطول. ولا يمكنني أن أربح لو تعاركت معه إلا إن فاجأته. وفتح كوه بنغ باباً وأجبرني على صعود سلالم مهملة.

«ماذا جرى لـ ي.ك. ونغ اليوم صباحاً؟ هل هو الحظ أيضاً؟». قلتُ له في محاولة لتأخيره.

ولم أعتقد أنّه ابتلع الطعم، لكنه قال بلغة تشبه التهديد: «سمعته يحدّد موعداً مع تلك المرأة الإنجليزية، ليديا تومبسون. لمسألة لها علاقة بالأصابع، ولا أعلم إذا كان متأكداً مما لديها من معلومات. كان ي.ك. ونغ دائماً أحمق وعنيداً. على كلّ حال كان خطره يتفاقم، ولذلك حينما كانا يتكلمان، صعدت إلى الطابق الثاني، والتقطت بلاطة من الكومة التي في الزاوية. ورميتها على رأسه».

«وماذا لو أصبتها؟».

«لا يهمّني ذلك. دائماً الأسهل هو أفضل حل».

وصلنا نهاية السلالم، وفتح باباً آخر. وضربتنا أشعة الشمس الساطعة. وقادنا الباب إلى سطح مستو يمكنك أن تمشي عليه. قال كوه بنغ بسرور: «هذا السطح يستعمل لتجفيف الأشياء. لا توجد هنا مبان كثيرة من طابقين».

في تلك اللحظة، علمت بالضبط ماذا سيفعل ولماذا لم يخش طعني. فجروح الطعن لا تهمّ كثيراً إذا سقط جسدي من السطح وتناثرت أوصالي.

ولا بدّ أنّه شاهد ماذا يدور من أفكار في رأسي، لأنه قال: «لم أكذب عليك كما تعلمين. أنت فعلاً فتاة أحلامي. ولكن من الأفضل لو أنّك كنتِ أغبى قليلاً».

47

باتو جاجاه

الاثنين، 29 حزيران

فتح رين عينيه بسرعة. كان نائماً بانتظار نهاية رحلة علاجه اليوم، ولكنّه شعر بالرعشة. شيءٌ ما، مرعبٌ، يجري لجي لين. نهض من رقدته. وألم مخدّر يعتصره في جانبه. في الحقيقة، كان المكان الوحيد الذي لا يؤلمه هو مرفقه، الذي صار شاحباً وبارداً. ولاحظت الممرضات تلك البقعة المبيضّة على جلده. كنّ يتكلمن عنها عندما اعتقدن أنّه كان نائماً. *ألا تبدو بشكل طبعة يد؟*، قالت إحداهن وهي ترتجف. ولكن لا شيء يهمّه من كلّ ذلك الآن.

نظر فيما حوله برعب بحثاً عن ممرضة. وطلب منها وهو يتلعثم بكلماته أنّ عليها أن تبحث عن فتاة.

قالت بانزعاج: «أية فتاة؟».

«تلك التي جاءت لزيارتي يوم الجمعة».

«آه، الزائرة، أليست كذلك؟ أنا متأكدة أنّها ستأتي مجدّداً».

كلا. حاول رين أن يشرح لها أنّها في مكان ما في المستشفى. هناك، وراء ذلك المبنى الآخر. وتنهّدت الممرضة.

«إذا جاءت سنخبرك. والآن لا تغادر سريرك!».

بيأس مطبق، أطبق رين عينيه بإحكام، بإحكام شديد. إذا لمس طبعة اليد البيضاء على مرفقه، ووضع أصابعه بالضبط حيث وضعتها بي لنغ في حلمه؛ فإن حاسّة القطّة ستقوى عنده. إنّه لا يحبّ هذا الإحساس الجديد، ذلك الطنين

المكتوم الثقيل الذي يجعلُ أسنانه تصطكّ، وعظام جمجمته تؤلمه. وتحركت شفتاه وهو يركز. *أين أنتِ؟*

ربّما لن ينجح الأمرُ معها، فهي ليست يي، ولكنه يعتقد أنّه سينجح بالتواصل معها. يجب ذلك. ونشبت أصابعه بطبعة اليد الشبحية على ذراعه. وشعر بالدوار، وحبس أنفاسه، إنّه يناديها.

ثمّ أتى!

صعدت الدماء إلى أذنيه، ودقّ قلبه بجنون. إنّها ليست جي لين، إنّه شخص آخر، يقترب أكثر فأكثر بخطوات واسعة.

تشنّج كتفاه، وراقب باب العنبر المفتوح كأنّه حيوان صغير. إنّه شابّ بزيّ أبيض لم يسبق لرين رؤيته. بالتأكيد لا يعرفه. مع أنّه شخص يعلق بالذاكرة. أراد رين أن يقول: *آه. هذا أنت.* واشتعلت حاسّة القطّة، وتدفّقت نبضة كهربائية تبعث على الراحة، لكن حنجرته جافة جدّاً ولم يخرج منها أيّ صوت.

قال: «*آه كور*»[1]. أخي الكبير.

وارتفع حاجبا الشاب. ثم ابتسم ابتسامة حزينة، وقال: «هل أنت مستيقظ؟ سيسعدها ذلك».

فكّر رين من هذه الـ «هي»؟، ولكن رين كان يعلم مسبقاً. هذا هو النصف الثاني من الفتاة ذات الرداء الأزرق. كلاهما نصف متمّم للآخر. مثله هو ويي. وتذكر رين تلك القامة الطويلة التي رآها في باب غرفة الأمراض، واعتقد أنّها للدكتور رولينغز لكنّه كان مخطئاً.

قال بحماس: «لا بدّ أنّك شين».

غمرت شين الدهشة، أم أنّه شعر بالضيق؟ وقال: «نعم، أنا شين. هل أخبرَتك جي لين؟».

هزّ رين رأسه بسرعة. وقال: «قابلت الآخرين. هناك أنت وأنا، وهي، وأخي يي. وسيدي ويليام أكتون. نحن خمسة».

---

(1) Ah Kor

وبدا على شين وكأنّه على وشك أن يقول شيئاً، ولكنه ربّت على رأس رين وقال: «أتيتُ أمس وكنت نائماً. وسنتكلم لاحقاً بعد أن تتعافى».

قال رين بإلحاح: «كلا، عليك أن تجدها، إنّها في خطر!!»

«من؟». ولكن كان شين على علم مسبقاً، وكانت عيناه الثاقبتين تفحصان وجه رين.

قال: «إنها في المستشفى وشخصٌ ما يُلحق بها الأذى!».

«وأين هي؟». ووثب على قدميه

قال رين: «وراء ذلك البناء. على السطح». وأشار رين من النافذة إلى المكان الذي جذبه نحوه مثل حبل مشدود. هل هذا من تخيلاته. أم أنّه يسمع صرخة صامتة ضعيفة تستنجد به؟

وأضاف: «أسرع! وإلا فات الأوان!».

48

باتو جاجاه

الاثنين 29 حزيران

قادني كوه بنغ عبر السطح المستوي، ووضع طرف مبضع جراحيّ حادّ في المنطقة الطرية تحت فكّي. فتحت فمي لأستنجد، ولكن حتّى لو فعلت، فلن يرانا أحد ونحن بعيدون هكذا، وبمواجهة أشجار الغابة. سيسمعون عويلي فقط وأنا أسقط من الأعلى. وعوضاً عن ذلك تراخيت كأنّه أغمي علي.

وانحنى كوه بنغ غريزياً ليسندني، وحينما فعل ذلك، ألقيت بنفسي بقوّة أمام ركبتيه، وسحبته ليفقد توازنه. وسقط، ورطم كتفه على الإسمنت. ضربني واستدار. ومرفقه أمام وجهي، وكنت أكافح لأقف على قدميّ. وقال بفحيح: «عاهرة!»، وشدّ شعري. ولكنني أنشبت فيه أظافري وعضضته ثم تصارعنا. وفيما كان يجرني نحو الحافة، انفتح باب السطح وراءنا فجأة. واستدار رأس كوه بنغ من الدهشة، ولكنه لم يملك وقتاً ليبدي فيه أيّة ردّة فعل حينما ضربه أحدهم. كانت أنفاسي مقطوعة.

صحت: «شين!». ولكن لم يخرج صوتي. وسقط فوقي عندما تقدّم كوه بنغ بعنف شاهراً مبضعه. وسمعت شهقة شين، فوقع إلى الخلف فيما ارتمينا إلى الفراغ المرعب عند حافة السطح. مرّت لحظة سبّبت لي الدوار عندما رأيتُ الأرض تحتي. ثم ضرب رأسي الميزاب ونحن نهوي.

ولا بدّ أنّني خبطت رأسي بقوّة حتّى أغمي علي، وهويت إلى عالم اللاوعي وارتطمت برعب. وعلمت تماماً أين أنا، كانت أرضية الخشب المصقول لشبّاك

التذاكر المهجور. غرفة الانتظار المخصصة للموتى. وانتبهت لصمت حافل بالتوقعات في لمعان قبضان سكّة القطار تحت أشعة الشمس.

قلت: «بي».

ووقف. بعد أن كان يركع خلف الطاولة، كطفل يلعب الاستغماية، ولم يكن يبدو سعيداً لأنني وجدته. ومن نظرته الحزينة، عرفتُ مسبقاً جواب سؤالي.

قال: «لماذا لم تهربي؟».

كان يجب أن أخاطر بالهرب، حتّى تحت احتمال أنّه سيطعنني بالمشرط. لكنه الفضول، ذلك العطش الغبي للمعرفة، هو الذي أخّرني، وأنا أنتظر جواب كوه بنغ. والآن فات الأوان. سألته: «هل أنا ميتة؟».

«ليس بعد». وضيّق عينيه لينظر خلفي، كأنّه ينظر إلى شيء بعيد. «ولكنكِ ستموتين في أيّة لحظة، أنت تتدلين من السطح».

«هل سيقتلني كوه بنغ؟». سيكون مصيري مثل بي لنغ التي دفعها على السلالم. أو مثل ي.ك. ونغ، الذي تحطم رأسه ببلاطة هوت عليه. *الأسهل هو أفضل حل*، كما قال كوه بنغ بطريقته الواضحة والعملية والمرعبة.

سألت بي: «وماذا عن شين؟».

«إنه ممسك بكِ، ولكن الآخر يحاول أن يدفعه عن الحافة ليسقط».

«كلا، يا إلهي. ليس شين أرجوك!». وبمرارة غاصت ركبتاي وركعت، وألقيت رأسي على الخشب البارد لطاولة التذاكر. «*ستندمين*»، هذا ما قاله شين في ذلك الصباح وهو يستلقي على سرير الفندق. وأنا نادمة. أنا في محيط هادر وواسع من الندم. كان يجب أن أهبه نفسي ما دمت أستطيع. وسالت الدموع على وجهي.

قال بي: «انهضي! لم ينته الأمر بعد!».

«ماذا تعني؟».

قال: «عليك أن تختاري!. إما أنت أو شين؟».

«تقصد من منا يجب أن يموت الآن؟».

«نعم. أخبرتك، من مكاني هذا يمكنني تغيير الأحداث. تحريكها قليلاً». ثم قطب ملامحه بجهد، وتابع: «مثل الحادث الذي وقع لرين».

«ولكن هذا خطأ!». إذا كانت لدى بي روحٌ خالدة، فأنا متأكدة من أن هذا مجرم حتماً.

صاح يقول: «لا يهم! أنا متروك هنا وحيداً منذ فترة طويلة. والآن، ستموتين. إنما أمامك فرصة أن يموت هو بدلاً عنك».

«عليك أن لا تفعل ذلك!». قلت له بقنوط: «هذا تدخّل، مثل خامسنا، الذي قلت أنّه يعيد ترتيب الأحداث».

قال: «لي؟ لا علاقة لـلي بهذا!».

«من هو خامسنا إذن؟ هل هو كوه بنغ؟».

احمر وجه بي كأنّه يكاد أن يبكي وقال: «لماذا أنت عمياء جداً؟ طبعاً ليس هو، الآخر على السطح لا يزال يشكل خطراً. أسرعي! الوقت ينفد! إما أن تختاري أو أختار أنا».

واهتزّت المحطّة. وانبعث زئير عميق، وهزّتني رعشةٌ وصلت إلى أعماق أعماقي، ثم خيّم عليّ الإحساس المفاجئ والمرعب أن الوقت يمضي في هذا المكان مجدداً. أكان ذلك قطار قادم، أم أنّه مغادر؟ ومهما كان، فقد كانت الفرصة الضيّقة المحتملة تُغلق بابها.

صحت: «سأبقى معك يا بي! دع شين يعيش!»

«هل أنت متأكدة؟». وأفتر وجه بي عن ابتسامة صغيرة غريبة: «أنت تودّين أن تمكثي معي حقاً؟».

«نعم!».

«لا تنسيني».

ثم سطوع. سطوع شديد. وآلمني رأسي. أصوات. أشخاص يتكلّمون. وكافحت، ولوحت بذراعي بكل اتّجاه. لماذا بقيت على قيد الحياة؟ لقد خدعني بي.

وشعرت بأيد امتدت نحوي وتحسّست جسمي. وسمعتُ: «إنها محظوظة لأنّ السقطة لم تقتلها. أما الشاب الآخر فلم ينجُ».

وقلتُ بلسان ثقيل: «شين». كانت حنجرتي جافة وتؤلمني. ولكن هذا لم يكن شيئاً بالمقارنة مع الخوف الذي انتابني. وأجبرت نفسي على الجلوس.

«لا تتحركي». وتفحّصوا ذراعي وساقي. وسألوني إن كنت قادرة على تحريك رقبتي. ولكنّي لم أهتم لنفسي. وملأني الرعب.

«أين شين؟».

«إنه هنا».

وكان هنا بالفعل. وتمالكت نفسي لأنهض من على النقالة، فقد كنت ممدّدة فيها، ولم أهتم بصيحاتهم لتحذيري. كان شين ممدّداً على السرير الآخر في الغرفة. وجهه شاحب، بنظرة طباشيرية صادمة، وهناك دم على ذراعيه وقميصه. وعندما وصلت له، فتح عينيه.

قال بصوت منهك: «لماذا لم تسمعي نصيحة الطبيب؟».

ثم عانقته وأنا أبكي وأضحك.

* * *

وتبين أننا نحن الثلاثة سقطنا من السطح. وقالوا إنّها معجزة، لكنني كنتُ مصابة بجروح كانت من طعنات كوه بنغ في خاصرتي ورقبتي. وكُسر ذراع شين وجُرح ساعده، إنّها جروح دفاعية، كما قال الطبيب المحلي باهتمام. أما كوه بنغ فقد كُسرت رقبته.

ولفتت صيحاتنا انتباه عابري السبيل، وشاهدونا ونحن نتعارك. كيفما تحسب الأمر، كان يجب أن أسقط أولاً، ثم شين، لأنّ كوه بنغ كان بموقع أفضل. ولكنه فجأة وعلى نحو غير متوقع، تعثّر وتشابكت أطرافنا بعضها بالبعض، فخفّف ذلك من تأثير سقطتنا. ولا يوجد تفسير منطقيّ لما حصل، عدا عن أنّه تعثّر. أو ربّما تعمد أن يقتل نفسه، كما همس البعض.

وتخللتني رعشة من الاضطراب والتساؤل. من الجانب الآخر لنهر الموت؛ هل استبدل بي موتي بموت كوه بنغ كأنّه يلعب ببيادق على رقعة شطرنج، وأعادني من عالم الأموات بسرقة حياة إنسان آخر؟ وإذا صحّ ذلك، فماذا جرى لي؟ وهل كان ما حصل إذن، هديته السحرية الشريرة لي؟ وبدأت أرتجف دون أيّ قدرة على التحكم بنفسي.

49

باتو جاجاه

الخميس، 2 تموز

في الكوخ الفسيح، حيث الأوراق تحت الشمس في الخارج تمنح الغرفة البيضاء خضرةً فاتحة ومشرقة. كان رين في المطبخ مع آه لونغ، يحرّك الفاصولياء. وكان آه لونغ مسروراً بعودته وقد حضّر حساء الدجاج خصيصاً من أجل رين، ولكنه تظاهر بتكبر أنّه من أجل ويليام. مرت ثلاثة أيام منذ شفاء رين المفاجئ وخروجه من المستشفى. ثلاثة أيام من الخمود والراحة، والتفكير بما حدث لفتاته ذات الرداء الأزرق.

إنّها حية؛ وهو يعلم ذلك. وهناك أقاويل كثيرة، وحتى فضائح، عما جرى في المستشفى يوم الإثنين. وإشاعات عن أشباحَ ملعونةٍ وأطراف بشرية مسروقة. وتناقل خدم الجيران الإشاعات، وسألوا رين إن كان قد سمع أيّ شيء حينما كان في المستشفى. وأخبرهم بصراحة أنّه لم يشاهد شيئاً، ولكنّ هذا لا يعني أنّه لم يكن متوجساً. كان الشخص الذي يعرف كلّ شيء هو ويليام. ولكنه متكتّم ولم يخبر أحداً بشيء سوى أن لويز بحالة ممتازة ولا يوجد مدعاة للخوف.

كان «لويز» هو الاسم الذي ينادي به ويليام جي لين. وكلما ذكر اسمها، كان رين يشعر بالذنب وهو يأكله من الداخل. ويبدو أن لهذا علاقة بما قال عنه الدكتور رولينغز في ذلك الإثنين العاصف، عندما جاء في وقت لاحق إلى العنبر وكان ويليام يوقع على إذن المغادرة لرين، وقفا جانباً وسمع رين أجزاء من الحوار: *أطراف جسم مفقودة*... فضيحة... لا تتكلم عن شيء حتّى *تأخذ إدارة المستشفى الإجراء المناسب*. ومن هذه الأقاويل حزر رين أن

هناك سراً، مثل يرقة بيضاء وغير ناضجة، تهدّد بتدمير الحياة المرتبة والهادئة لهذا المستشفى.

وأياً كان السبب فقد بدا ويليام مكتئباً. وأمضى أوقات استراحته جالساً على الشرفة بقلق شديد، كأنّه بانتظار شيء سيحصل. وعندما سأله رين إن كان على ما يرام، قال إنّه بحاجة للشراب ليهدّئ معدته.

قال آه لونغ بامتعاض: «آه! أيّة معدة؟ الثلج سيّئ للهضم»، ثم حذّر رين حينما كان يحضّر كأس *ستينغا*: «لا تضع الكثير من الويسكي». لقد كان شراب الجوني ووكر على وشك النفاد؛ ولم تبق غير بوصة واحدة في الزجاجة. قال: «الآنسة ليديا ستزورنا اليوم».

كانت الساعة الخامسة بعد الظهيرة، وويليام في البيت، فقد عاد باكراً من عمله. وعوضاً عن أن يرتدي سارونغ القطن، لبث بقميصه ذي الياقة الصلبة وبنطاله، والآن أدرك رين السبب. إذا كانت ليديا قادمة، لا يمكن لسيده طبعاً أن يستقبلها برداءه المحلي. بالنسبة لوقت الشاي، حضّر آه لونغ كريات لقمة واحدة من *الأوندي ـ أوندي*[1]، وجبة محضرة من جيلاتين دقيق الرز وسكّر دقيق النخيل المغطّى بجوز الهند المبشور والمندوف.

وتذكر رين والذنب يجلله العبوة ذات السائل المشابه للشاي والتي وعد ليديا بأنّه سيسلمها إلى جي لين، ولم يجد فرصة لذلك، وهو قلق من أن ستسأله عنها. أحضر القارورة من غرفته، وأودعها في جيبه. وإذا ما سألته ليديا، سيعرضها أمامها ليثبت أنّه ليس مهملاً ولم يفقدها.

ورن جرس الباب. نهض رين بتمهّل. كانت جروحه تشفى بسرعة مدهشة، ولكنه لا يزال غير معتاد على فقدانه البنصر، الإصبع الرابعة. وآلمه عِقب الإصبع المبتورة وكانت قبضة يده اليسرى غير قوية، ولكن لم تؤخره عن أداء معظم واجباته. لكنّه لو فقد إبهامه فذلك سيعود عليه بنتائج وخيمة، كما ألمح آه لونغ بصرامته المعتادة.

---

(1) onde _ onde

جاءت أصوات من الردهة. وبدا صوت ليديا مكتوماً، مع ذلك كان هناك تيار خفيّ من الانفعال الذي لفت انتباه رين من هناك. وتذكّر الخيوط الرفيعة التي التصقت بليديا في المستشفى، واختلس النظر بقلق. هل لا زالت تحت الخطر؟ ألقت شمس المساء المائلة على الصالة خيالات معتمة ومضيئة. وتخلّت ليديا عن القبعة التي تحميها من الشمس، وجعلها الظلّ تبدو وكأنها ذات شعر طويل أسود. وتوقّف رين من الدهشة. كان أمامه باب مفتوح، وامرأة تقف فيه.

وللحظة مرعبة، تذكر *البونتياناك*، روح المرأة المنتقمة التي تأتي وتصيح عند الأبواب والنوافذ. هرع غريزياً، لكن الوقت فات. كان ويليام قد سمح لها بالدخول. ليس من المفترض أن تدعوهن للدخول. ولكن هذه أفكار حمقاء وسيكره سيده أن يسمعها منه. واحتار رين، وطرف بعينيه. انحسرت العتمة في رأسه، وبهتت حاسّة القطّة، ولكن ربّما كان ذلك للأفضل.

قدمت ليديا لرين قبّعتها ومظلتها وابتسمت له بودّ. وقادها ويليام إلى غرفة المعيشة بأثاثها المصنوع من الراتان، والذي أُعيد إلى مكانه بعد الحفلة. بالعادة هو يستقبل ضيوفه من الرجال على الشرفة، لكنه مع ليديا كان مضيافاً بنحو متكلّف.

قال لها: «ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك يا ليديا؟».

يحب رين في سيده طريقته المباشرة للدخول إلى الموضوع، دون لف ودوران. لكن ليديا راحت تثرثر بكلام ثانوي عن الطقس ثم الحادثة المخيفة في المستشفى.

قالت: «سمعت أنّك أدليت بإفادة للمفتش. هل حقّاً شاهدتَ أحداً في الطابق الثاني؟».

قال ويليام: «لا يمكنني الإفصاح عن ذلك. ولكن لدى الشرطة مشتبه به».

«ألا تريد أن تخبرني؟».

«أنا آسف، لا أستطيع، الأمر ليس بيدي».

وبدت غير راضية عن ذلك، وسألته: «ماذا قلت للشرطة عني».

قال: «أخبرتهم أنّك اتصلتِ بي وطلبت مقابلتي. وعندما وصلت، ظهر لي

أنّك رتّبت للقاء مع ي.ك. ونغ. عموماً لماذا رغبت برؤيتي ذلك الصباح؟ كانوا يريدون معرفة السبب أيضاً».

قالت ليديا وهي تتململ بتوتر: «أخشى أنّني حرّفت الحقيقة قليلاً. قلت إننا معتادان على هذه اللقاءات لأننا مخطوبان بالسرّ».

«ماذا؟».

«آسفة. هذا ما أمكنني التفكير به في حينه».

نهض ويليام وانتقل للطرف الآخر من الأريكة. وكان رين لا يزال واقفاً في الممرّ بهدوء، ويمكنه أن يرى أن ويليام كان منفعلاً، وحتى غاضباً.

«ولماذا بحق الله فعلت ذلك؟».

«لأن الأمر سينعكس بشكل سيّئ عليّ. كما ترى، ألتقي برجال قبل الفجر في مكان مهجور. ناهيك عن كون أحدهما رجل صينيّ».

وضغط ويليام على جانبه كأنّه يؤلمه وقال: «من الأفضل لك يا ليديا أن تخبريني بالحقيقة».

لم يسمع رين ما تقول لأنّ آه لونغ في تلك اللحظة استدعاه إلى المطبخ. فصينيّة الشاي جاهزة، ويهبّ منها البخار وعطر الشاي، والحلويات مرتبة بأناقة على أطباق بورسلان مزخرفة.

قال آه لونغ: «هل بمقدورك تدبر حمل الصينيّة».

قال رين باعتزاز: «نعم». ومع ذلك ساعده آه لونغ بإدخال الصينيّة، ووضعها على الطاولة الجانبية.

واسترق رين نظرة من ويليام وليديا. كان رأساهما مطأطأين. ولم يمكنه رؤية وجه ليديا. ولكن ويليام بدا مستاء. *تلبّك في المعدة. بسبب الإجهاد الشديد.* هكذا قال آه لونغ، وتذكر رين ذلك الوقت، الذي صادف فيه اكتشاف جثّة تلك السيّدة المسكينة التي التهم النمر نصفها، وحينها لم يكن بمقدور ويليام أن يأكل غير عجّة البيض المخفوق، ومن دون لحوم. ولكن ويليام لا يتعاطى الأدوية أبداً، وإنما يعتمد على الجوني ووكر فقط.

وبتردد، أخرج رين عبوة السائل التي أعطتها له ليديا. قالت: *دواء معدة. خفيف جداً. وأنا أتناوله بنفسي*. وكان له نفس لون الشاي تقريباً، وسكبه رين في كوب ويليام. وهكذا، إذا سألته الآنسة ليديا عن فائدة دوائها، يمكنه حينئذ أن يجيبها بشكل لائق. فهي تحبّ ويليام، ولذا ستكون مسرورة بشفائه.

بحرص وباعتزاز وضع رين كوب الشاي على الطاولة.

«حسناً أخبريني؟». قال ويليام بصوت هادئ، ولكنه من الداخل كان يغلي غضباً. وتابع: «ماذا جرى في صباح يوم الاثنين. ولم يمكنكِ إخبار الشرطة به؟».

بزاوية عينه، شاهد رين يصب الشاي على الطاولة الجانبية قبل أن يضع الأكواب على طاولة القهوة المنخفضة. وهذه آلية خاطئة. على صينيّة الشاي أن تكون على طاولة القهوة المنخفضة ليسكبها المضيف أو المضيفة، ولكن يبدو أن هذا شيء لا يفهمه الخدم المحليون. وأبعد ويليام ذهنه عن هذه الأفكار غير الهامة. وركز على ليديا. يجب تدبر أمرها.

ردّت شعرها إلى الوراء، ونظرت نحو ويليام. كانت تبدو جذابّة اليوم ولكن ملأه هذا بالفزع، نفس اللون الجميل، نفس العينين الساحرتين. إنّها شديدة الشبه بآيريس.

قالت ليديا: «ذلك الممرض الصينيّ، أظنّ أنّ اسمه ونغ، أراد أن يكلمني عنك».

«عني؟». كانت هذه مفاجأة غريبة حتّى أن ويليام جلس ثانية. وتابعت: «حول موضوع له علاقة بأحد مرضاك، رجل مبيعات مات مؤخراً».

رجل المبيعات! الذي ضبط ويليام وأمبيكا معاً في مزرعة المطاط، ويبدو كما لو أنّه قد مضى على ذلك فترة طويلة. الرجل الذي قضى نحبه بمحض الصدفة. وتسارعت نبضات ويليام، حتّى وهو يكافح ليحافظ على تعابيره محايدة وطبيعية.

وأضافت ليديا السكر إلى شايها، وقالت: «يبدو أن السيّد ونغ يعتقد أن لذلك الرجل علاقة ببيع الأعضاء البشرية».

قال ويليام: «هراء!». هذا هو نوع الإشاعات التي أخبره رولينغز أن يقمعها. لو أن كلمة خرجت سيترتّب عليها فضيحة تضّر بالمستشفى.

وتابعَت: «وسألني أيضاً هل حاول أن يبتزك».

«ماذا؟». وانقبضت معدة ويليام، وتذكر الرعب الذي مرّ به، بعد التعرف على جذع أمبيكا المشوه، واحتمال تقدم رجل المبيعات للإفادة وإفشاء سر علاقتهما. ولكن ليس لدى ويليام ما يخاف منه، أليس كذلك؟ رغم شكوك رولينغز آنذاك، لم تحصل تحقيقات جنائية.

ورفع كوب الشاي. كان حاراً جدّاً ولا يمكن أن يشرب منه. وقال: «ولماذا سألك عن ذلك؟».

قالت ليديا: «يعتقدون أننا متقاربان جداً. ونحن كذلك. ألست معي؟».

ارتجف ويليام من هذا الافتراض. وأجاب: «نحن لسنا متقاربين يا ليديا. ولا يمكنني أن أقبل إعلانكِ للجميع أننا مخطوبان. فهذا غير صحيح».

احمرّ وجهها، وارتعش فمها. قالت: «كيف يمكنك أن تقول هذا؟ بعد كلّ ما فعلتُه لأجلك؟».

ومرّت رعشة باردة في رقبته، وأهابت به أن يهرب، أن يهرب بعيداً والآن.

وقال: «ولكنّي لم أطلب منكِ فعل أيّ شيء لأجلي».

قالت: «لقد خلّصتك من كلّ ما يمكن أن يتسبب لك بالمشاكل».

وتنحنح باضطراب. شيءٌ ما يدنو، ويقترب من باب عقله. شيء نسيه أو تجاهله. إنّه غير معتاد على أن يكون مسكوناً وملاحقاً هكذا. هذا خطأ، خطأ فاحش. وقال وهو تحت تأثير الغضب: «ليست عندي مشاكل!».

ولكنها لم تكن تسمعه، وقالت: «ألم تشعر أنّ لديك القدرة على تبديل وتغيير الأشياء والأحداث، وأن تتحكم بها، إذا تمنّيت ذلك؟».

وجفل ويليام.

فتابعُت: «أنت تملك تلك القدرة، أليس كذلك؟ أنا أعلم أنّك كذلك. ولكن لا أحد غيري يفهم». وقبضَت على يديه وكانت أصابعها باردة، وتابعت: «حسناً، أنا أيضاً أملك هذه القدرة، هذه القوّة. وأعلم أنّك تعرف ذلك. لأنني سمعتُ أنّك سألت عن كلّ خُطّابي».

خُطّابها! قال ويليام: «إذن هناك أكثر من خطيب واحد». وأخيراً فهم.

قالت: «نعم. خُطبت مرّتين، وثلاثاً إن وضعتَ بعين الاعتبار النية. وكلهم لم يكونوا جيّدين. فكما ترى لم أُحسن الاختيار. وتوجّب عليّ التخلّص منهم».

هل تقول إنّها مثله، ومليئة بتلك القوّة المشؤومة الشريرة؟

ولم يعد ويليام يشعر بيده، لقد تخدّرت. فسحبها عن يدها، وحاول أن يقول باحتقار: «هل تقولين أنّك تمتلكين القدرة على تمنّي موتهم، فيموتون؟».

«ألا تفعل أنت ذلك؟».

لم يذكر ويليام ذلك لأحد، ولكن في تلك اللحظة، وهو ينجذب إلى نظرة ليديا الزرقاء المسعورة، شعر تقريباً أنّه يعترف بذلك.

قال: «كل إنسان يتمنى لأحدهم الموت في لحظة ما يا ليديا. ولكن هذا لا يعني شيئاً ولا يدلّ على شيء».

قالت: «فعلتُ كلّ ذلك من أجلكَ. رجل المبيعات ذاك. وكل تلكم النسوة اللواتي كنّ سيُسبّبن لك المتاعب بعلاقاتكِ معهن. لماذا كنتَ تتورط معهن؟».

ونما للرعب تعريشات من السواد والشرّ، راحت تلتف حول معدته.

«أولاً كان هناك تلك المرأة التاميلية، أمبيكا، والتي كنتَ تلتقي بها في مزرعة المطاط. لقد أخبرتُك أنّني كنت أراكَ وأنت تذهب بنزهات صباحية، ولكنك لم تشاهدني. كانت لا تليق بك طبعاً، وبدأ الناس يثرثرون وزادت الأقاويل، حتّى الخدم في البيت. ولذلك أبعدتُها عنك. ثم رجل المبيعات ذلك، الذي ظهر مجدداً. وكنت أعرفه حينما كان مريضاً هنا. ومن حين لحين، كان يأتي ويزور تلك الممرضة. وتبادلنا الأحاديث قليلاً، لقد كان مغازلاً جيداً بالنسبة لشخص محلي». ابتسمت وتابعت: «كان يسأل عنك. ويلمح أن أمبيكا خليلتك. وتوجّب علي إيقافه أيضاً».

وتسمّر ويليام، فيما يراقب فمها، الذي يشبه برعم زهرة وردي؛ يتحرك، والكلمات تسيل منه. وأخبره خيطٌ منطقيّ رفيع وبارد، أن هذا مستحيل. لا أحد يمكنه أن يتّفق مع النمر على افتراس ضحية، أو أن يجعل إنساناً يكسر رقبته.

وليديا لا شكّ تحت تأثير اضطراب عقلي، هكذا قال لنفسه، وحاول أن لا يفزعه مقدار ما تعرفه عن حياته الشخصية.

قال بصرامة: «هذا يكفي يا ليديا. أنت تتخيلين هذه الأشياء».

وحدّقت به من فوق حافة كأس الشاي وقالت: «كلا، أنا لا أتخيل. لقد فعلت كلّ ذلك من أجلك».

وثارت ثائرة ويليام وقال: «ولكنني لا أدين لك بشيء». واحترقت معدته بالأحماض. إنّها امرأة مجنونة وغبية ومضطربة عقلياً! إذا تابعت هذا الكلام في العلن، فسيضرّه ذلك. أخذ نفساً عميقاً وشرب رشفة من الشاي. كان مُراً.

ظهرت على وجنتيها بقعتان حمراوان. وقالت: «هناك نبات، شجيرة طويلة ومزهرة. وهي تنمو أمام منزلك بالضبط. ويعتقد الناس أنّها جميلة، ولكن لا أحد يعلم كم هي سامة، شجرة الدفلى تلك. وإذا حضّرت من مسحوق أوراقها شاياً قوياً، فسوف يسبب الدوار، والغثيان، والتقيؤ. ثم الغياب عن الوعي، وفشل بالقلب. وأخيراً الموت». وذكرت الأعراض كأنها تحفظها عن ظهر قلب. وتابعت: «كان والدي يدير مزرعة شاي في سيلان سابقاً، كانت الفتيات هناك يُقدمن على الانتحار بأكل البذور. وحملت معي بعضها لدى عودتي إلى إنجلترا. وثبت لي أنّها مفيدة جداً». أخذَت رشفة أخرى من الشاي، وأردفَت: «حينما أتيت إلى هنا، كان من السهل وصفها للناس. فأنا أعمل في المستشفى والناس المحليون يصدّقون أقوالي. وقد قدّمت لأمبيكا التونيك من أجل آلامها النسائية، ولا بدّ أنّها كانت تتجول في المزرعة حيث ماتت. ولكن لم أتوقع أن يأكل النمر نصفها».

قال ويليام وصوته يتقطع من التشنّج والضيق: «لم يفترسها النمر!».

تجاهلَته وتابعَت: «وفعلتُ نفس الشيء مع رجل المبيعات. أخبرته أنّه دواء للمعدة. وظل يتقيأ حتّى سقط في حفرة».

«وماذا عن ناندانى؟ هل أعطيتِه لها؟».

«كانت تجلس هناك، في مطبخك». ونظرت ليديا بعينيها المحمومتين إليه وقالت: «إنه الحل الأمثل. فقد كادت أن تتسبب بفضيحة بظهورها هكذا في الحفلة».

ارتجفت يدا ويليام. وأحس بطعم مرارة إلى حلقه. وقال: «سأتصل بالشرطة».

هل ما ارتسم في عينيها نظرة انتصار أم خيبة أمل؟ قالت: «لن تفعل ذلك».

«لا يمكنني أن أشهد زوراً من أجلكِ يا ليديا».

قالت وعيناها تلمعان: «إذن من أجل آيريس. فأنا أعلم ماذا فعلت».

وانغلقت حنجرة ويليام، وكأن أصابع عظمية تخنقه، وتعصر الهواء لتخرجه من صدره. قال: «عن ماذا تتكلمين؟».

«لقد أغرقتَها، ذلك اليوم، في النهر». قالت.

ذلك اليوم في النهر، كان الضوء يميل بلون أخضر وذهبي. لقد غضبت آيريس. وحل عليها مزاجها الأسود. واتّهمته مجدداً بوحي من غيرتها اللامتناهية، وهي تلكزه بإصبعها على صدره بالطريقة التي تثير جنونه، كما تفعل في مشاحناتهما كلها، فاضطر أن يدفعها عنه بقوّة. أم لعلها تعثّرت وسقطت بنفسها؟ لا يسعه أن يتذكر، أو أنّه لا يرغب بالتذكر.

قال أخيراً: «إنه حادث. حادث فقط».

قالت: «لكنها لن تقف على قدميها في زورق. هذا بديهي، مهما ادعيت». وبدت له ليديا دميمة. وليست فيها أيّة مسحة من الجمال، وأصبحت تشبه الساحرات، كانت عيناها متوحشتين وماكرتين. قالت: «لدى آيريس نقطة ضعف بالتوازن. وكلنا نعرف ذلك منذ أيام المدرسة. شيء له علاقة بأذنيها».

«ليديا..!».

«وحتى بعد أن سقطت، لم تحاول أن تنقذها».

كان يعتقد أنّه يلقن آيريس درساً، فكّر أنّه سيدعها تتخبّط في الماء قليلاً قبل أن يجرها. ولكنها غرقت بسرعة، كانت تنورتها الصوفية ثقيلة وجرتها إلى الأسفل. غاصت بسرعة شديدة حتّى أن ويليام ظنّ أنّها كانت تعبث به، تقوم بمزحة ثقيلة، تحبس أنفاسها تحت الماء لفترة طويلة متظاهرة بأنها تغرق. من يعلم أن المرء يمكن أن يغرق بهذه السرعة، وبهذا الهدوء، ومن دون ذلك التخبط المجنون

الذي تخيّله ويليام؟ في الوقت الذي رمى نفسه خلفها لينقذها، لم تكن شيئاً، مجرد وزن يحمله بين يديه.

«ليديا!». يجب أن يوقفها من إطلاق كلّ تلك الكلمات الكريهة.

قالت: «كتبت آيريس لي الرسائل. الكثير من الرسائل. عنك وكيف كانت تعتقد أنّك تخونها. ولدي رسالة كتبتَها قبل موتها. وقالت فيها إنّها خائفة من أنّك ستقوم بقتلها».

قال ويليام لنفسه، *لا تفزع*، وعضّ شفتيه. في النهاية، كان ذلك ما حدث في الحقيقة مع آيريس. كان يخبر الجميع: *كانت تميل إلى الأمام، وسقطت. كلا، نحن لم نتعارك*. ومع ذلك طاردته الهمسات والإشاعات. إنّها حكاية خبيثة عن الخيانة والجبن، وقد كانت كافية لتدفعه للهروب من النادي، وكافية لتدفعه للهروب إلى مكان آخر، وبلد آخر. وها هي نفس الحكاية ستتكرّر. وكافح ليتمالك نفسه.

وقال: «كانت إنسانة هستيرية، متلاعبة».

ومالت ليديا إلى الوراء وقالت: «أنت محق». وارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهها. وأضافت: «ولكن يمكن اتهامك، بالنظر للدليل الظرفي، إذا عُدت أدراجك للبلاد». أخذَت رشفة إضافية من الشاي. وقالت: «لقد صدقتُ معك، أليس كذلك؟ أخبرتُك بكل شيء عن نفسي. ولكنني لست مثلك، ويمكن أن أنكر بسهولة كلّ شيء».

قال: «وماذا عن موت كلّ أولئك الناس؟ رجل المبيعات، أمبيكا، نانداني؟».

«لماذا؟ أنت قتلتهم. كانوا جميعاً في طريقك. سأدعي أنّك تخلصت من المرأتين لأنك رغبت بالزواج مني. ولكنّني رفضتك. والشرطة تشتبه بأسباب وجود نانداني في بيتك قبل موتها، وإن حققوا بموت آيريس هناك في البلاد، ستسوء الأمور بالنسبة لك».

حلّ الصمت. وسمع صوت نبضات جريان الدم في رأسه. وفكّر لو أنّه انقض عليها الآن، وأطبق يديه على بلعومها الطويل الأبيض. وغرس إبهاميه فيه حتّى تتوقّف عن التنفس. لماذا، لماذا يحدث له هذا مجدداً؟ شبّهها مع آيريس، ونفس

المطالب الهستيرية واللجوجة. كما لو أن آيريس عادت من النهر ولن ترتاح وترضى حتّى تجره معها إلى الأسفل.

«ماذا تريدين يا ليديا؟».

عليها أن تلعب بورقتها الرابحة الآن، مهما كانت. اضطربت معدته وانقبضت. لقد أدرك ويليام أنّها تمكّنت منه وهزمته تماماً.

قالت: «أنا أحبك».

نهض. ومشى حتّى وقف خلفها، وعدة احتمالات متباينة تتسابق في رأسه. أن يدفعها إلى الأمام، ويكسر رأسها بطاولة القهوة. لقد أصابته بعدوى جنونها.

قال: «إذن تطلبين أن أخطبك؟». أو ربّما حادث عرضي مثل رصاصة تصيبها في رأسها. حينما كان يعرض عليها بندقية بوردي. لكنه سبق وأن أطلق النار على رين في حادث عرضي. إذن هذا الاحتمال سيثير عاصفة من الشك.

وابتسمت كأنّه طلب يدها فعلاً وها هو يركع أمامها على ركبته. فقالت: «نعم. أريد أن تخطبني، سبق وأن أخبرتُ الشرطة بذلك. وسيكون لطيفاً أن نجعل الأمر رسمياً. كأن نرتب لحفلة إعلان خطوبة».

«سأفكر بالأمر».

قالت: «لنشرب نخب ذلك إذن؟». وحمل ويليام كوب الشاي وهو مذهول وقرعه بكوبها. قال لنفسه: *جاريها في لعبتها. لتكسب بعض الوقت*. وأنهى شايه المرّ والدافئ. ليس هناك أيّ مقدار من الحليب والسكر يمكن أن يغطّي على القيء الذي يرتفع في بلعومه كلما حاول أن يشرب.

ثم حفيف تنورة، وذلك العبير الخفيف للياسمين الذي بدأ يمقته. وقادها إلى الباب. يجب أن يحافظ على تهذيبه عالياً حتّى لو كاد ذلك أن يقتله. تمهلت ليديا وقالت بعينين برّاقتين: «بعد أن نتزوج، لا يمكن لأحدٍ إرغامي على الشهادة ضدّك. ولا أنت ضدي. وهذا عدل وإنصاف، اليس كذلك؟».[1]

---

(1) بعض القوانين تمنع شهادة أحد الزوجين على الآخر بسبب صفة القرابة الزوجية. المترجمة.

أراد ويليام ان يصرخ، أو أن يضرب رأسها بالجدار، ولكنه قال من بين اسنانه المطبقة: «لماذا تهتمّين بشأني أساساً؟».

«آيريس قدّمتني لك في إنجلترا، لكنّك لا تتذكر. كانت ذلك في حفلة آل بيرسون، وأنت أُعجبت بي، أعجبتُك حقاً. وقبّلتني في الممرّ، ومن يومها وأنا أفكر بك».

وعاد بذاكرته إلى هناك، حيث دقات ساعة الجدّ، وذلك التخبط السريع والمحموم في الظلام. كان سعيداً مع آيريس يومذاك، ووجهها الجذاب لم يسبق له أن كان مغرياً لهذا الحد، وظنّ أنّه حاصرها في الممر. ثم أعقبت ذلك أيامٌ من المشاحنات المستمرة. واشتكت آيريس من أنّه أفرط في الشراب في نهاية الأسبوع تلك، نفس تلك الاتهامات التي يغض النظر عنها، ويعزوها للعُصاب الذي كانت تشتكي منه، وهو ما يخلق لديه صداعاً مستديماً. ثم قال بتأثير إدراكٍ مفاجئ: «كانت تلك غلطة. لم أكن أعلم أنّه أنت».

ولكن ليديا لا تهتم. ونظرَت إليه بعينين حالمتين وقالت: «ثم تابعت آيريس مراسلاتها معي عن شقائك معها، وعلمت أن شيئاً ما سيحدث وستختفي. لأننّا، أنت وأنا، مقدّر لنا أن نكون معاً، حتّى أننا نحمل نفس الاسم. في تلك الليلة، في حفلتك، عندما كتبتَ اسمك الصينيّ، أخبرتُك أن لي اسما صينيّاً أيضاً. فأنا مولودة في هونغ كونغ، كما تعلم».

عمّ تثرثر؟ ألا تشعر بالخوف منه؟

وقالت: «اسمي الصينيّ له نفس الحروف، *لي* من *لي دي يا* مثل اسمك. وهو أحد فضائل كونفوشيوس الخمسة؟».

وجاء رين إلى الردهة ليقدم إلى ليديا قبعتها ومظلتها. وحدّق بها، بعينين مفتوحتين وواسعتين داخل وجهه الصغير. وفكر ويليام بعصبية وراح يقول لنفسه: *جارِها في لُعبتها*. كان دائماً قادراً على تدبّر أمره. وسيكون أمامه متسع من الوقت ليتعامل مع مشكلتها.

قالت وهي تستعد للمغادرة: «سنكون بحاجة إلى خدم كثيرين بعد أن نتزوج». ألقت نظرة على المنزل الخشبي الواسع والفارغ.

وفكر ويليام: *على جثتي*. ولكنه ابتسم وفتح لها الباب.

50

باتو جاجاه

الاثنين، 29 حزيران

كسر شين ذراعه اليمنى. قال مُطلقاً مزحة حزينة، إن زوج أمّي كسر لي اليسرى والآن حان دوري لكسر الثانية. ويا له من تنسيق مخيف وغريب. قلت له إنّني آسفة، وأرحتُ رأسي لوقت وجيز على كتفه بعد أن تفرق الزحام وبقينا لوحدنا. وضعونا في غرفة خاصة بشكل مؤقت، فالإصابة الخطيرة الوحيدة كانت في ذراع شين مع بعض الجروح والرضوض.

قال الطبيب المحلي الذي فحصني: «أنت محظوظة جداً. الشاب الآخر خفّف من أثر سقطتك».

لذتُ بالصمت لدى ذكر كوه بنغ. كانت إفادتي للشرطة عن محاولة قتلي، وكل تفاصيل بيع الأصابع بحجّة أنّها تجلب الحظ الجيد، وضع المستشفى والشرطة في وضع سيّئ؛ المستشفى لأنه لا يحتفظ بسجلات عن البقايا البشرية، والشرطة لفشلهم في منع وقوع جريمة بعد موت ي.ك. ونغ في الصباح نفسه. ولحسن حظنا، أن إشاعة قد انتشرت مسبقاً عن جنون كوه بنغ وأنه صار مسعوراً. في هذا الوقت، كانوا لطفاء معي ومع شين.

قال شين: «يبدو أن هذه نهاية عملي هنا». ونظر للجبيرة على ذراعه.

قلت: «ربّما سيسمحون لك بالعمل في شيء آخر».

ردّ: «لا تكوني سخيفة. لا يمكنني أن أكتب، ولن يجدوا لي عملاً مكتبياً».

لا يهم. ملأني الامتنان لجلوسي هنا برفقته، وتذكّرتُ كيف اعتقدتُ أن الموت

سيفرّقنا إلى الأبد. ولكن سروري امتزج بالحزن. ماذا جرى لـبي؟ كانت كلماته الأخيرة «لا تنسِني»، وقد صدمتني وكأنها آخر صدى حزين لمرثاته السابقة عندما قال: «*لا أُريد أن ينساني رين*». هل لا يزال ينتظر في تلك المحطّة الفارغة وحده، أم أنّه يئس ومضى؟ وابتهلتُ للرب أطلب له الرحمة حيثما هو. فأنا أدين له بدين كبير.

أفلتُّ يد شين بإحساس بالذنب، مع قدوم ممرضة أخرى. ثمّ جاءت عدّة ممرضات للزيارة، وهن يضحكن بدلال عند سريره. أخبرتُ الشرطة أن شين هو أخي، ولذا، فكلّ ما كنتُ أفعله هو الجلوس والابتسام. لا بأس قلتُ لنفسي، فقد اعتدتُ على ذلك.

قال شين: «لماذا لا تدعيني أخبرهن بالحقيقة؟». وكان منزعجاً، بعد انصراف آخر ممرضة.

قلت له: «ليس الآن». علينا أن نفكّر في الأمر ملياً. ونرى كيف سنتعامل مع أبوينا أولاً، وأن لا نترك الشائعات تستشري. ستمرض أمّي إذا علمت أننا سقطنا من فوق مبنى. وغمرتني موجة من الإجهاد. كانت للمستشفى رائحة المطهّرات والبصل المسلوق.

قلتُ له: «سأحضَر غداً وأراك». ونهضتُ.

قبض على يدي وقال: «انتظري معي. سمحوا لك بليلة لتكوني برعايتهم».

«أنا لا أعاني من شيء. ويجب أن أخبر أمّي أننا على ما يرام». لقد تسربت الأخبار في كلّ باتو جاجاه وربّما وصلت الآن إلى إيبوه. أضف لذلك، جعلني المستشفى مضطربة جداً، ولكن لم أودّ أن أذكر هذا لشين كي لا يقلق. وعندما نظرتُ من النافذة، أمكنني رؤية السطح البعيد حيث حاول كوه بنغ أن يقتلني.

قال شين: «إذن سأرافقك إلى البيت».

وبالطبع، لم يسمحوا له بالانصراف، إذ كانت ذراعه بحاجة لمزيد من الفحوصات بالأشعة السينية في صباح الغد. وحاولوا أن يجعلوني أبقى أنا أيضاً، لكنني اعترضت. لم يكن للأمر علاقة بسلامتنا، بل يبدو كمحاولة للسيطرة على الأمور. وجاء مدير المستشفى، وأكد لنا أن المستشفى يتبع مقاييس صارمة وهو

آسف جدّاً لما اقترفه أحد الموظفين والذي يعاني من انهيار عصبي (وافترضت أنّه يشير إلى كوه بنغ)، وكنا نوافق بإيماءات مهذبة ووعدناه أن نتكتم على الموضوع حتّى توضح الشرطة الحقيقة.

وجاءت رئيسة الممرضات بنفسها لتودعني. ووجهها المسمّر والحاد يتفكّر ويتأمّل ونحن بانتظار سيارة أمّنتها لي المستشفى، لتقلّني في طريق العودة.

اغتنمَت الفرصة وقالت: «والآن أخبريني ما حكايتكما أنتما الاثنان، شقيقان أم مخطوبان؟».

نظرت إلى الأسفل. وقلت: «نحن أخوان لكنّا لسنا شقيقين، ولسنا مخطوبين حقاً».

قالت: «يبدو أن الموضوع معقّد». وتابعَت دون عدائية: «سأحتفظ بسرك، إن أردتِ. حظاً طيباً»، وصافحتني. أعجبتني قبضتُها الصارمة والتي تدلّ على شخصية لا تقبل بالهراء. وأضافت: «تبدين كفتاة ذكية. وعاقلة أيضاً. إن كنتِ لا تودّين الاعتماد على رجل، لدينا مكان لك للعمل عندنا».

شكرتها، وتساءلتُ لماذا لستُ متحمّسة كما يجب أن أكون. ربّما وجّهتها إدارة المستشفى لكي تعرض عليّ عملاً، ليأمنوا شري ويبقى موضوع الحادثة طيّ الكتمان. كنت متعبة. متعبة جدّاً وكل ما أردته هو أن أغلق عينيّ، ولكنّي كنتُ خائفة من أنّي لو فعلت ذلك، فسأجد نفسي في ذلك النهر المعتم. وفي هذه المرة، لن تكون هناك عودة.

ومرّت الأيام القليلة التالية بهدوء. صمتت أمّي على الحادث، وعلى غير العادة، شاركها زوجها هذا الصمت. وأبلغهما المستشفى بالحادث بطريقة بسيطة ومداهنة: «إنه حادث مؤسف مع شخص معتلّ عقلياً. وبالطبع، ستتكفّل المستشفى بكل نفقات العلاج، كما وستدفع لشين رواتبه حتّى نهاية الصيف، لكنه سيعفى من واجباته في العمل». ومع أن أمّي قلقت من جروحي، لكن سرّها أن وجهي لم يُصب بجرح بليغ.

قالت وهي تبدل ضمادة خاصرتي: «وجه الفتاة هامّ جداً. تخيلي كم سيستاء روبرت».

قلت: «وما علاقة روبرت بهذا؟».

لم يكن عليّ قول هذا. فقد اكتأب وجهها واكتسى بتلك النظرة الحزينة، قالت: «أنتما ما زلتما صديقين. أليس كذلك؟».

قلت: «بالقدر الذي كُنّاه دائماً». ولكن ذلك غير صحيح، وإنما لم تكن عندي الجرأة لأقول لها الحقيقة. نظرتُ إلى الأسفل. وقلقتُ فجأة فقلت: «هل تدبّرتِ أمر قسط هذا الشهر؟».

ولم أكن قد قدّمت لها ما يكفي من النقود لتغطية دينها، وفاجأتني بقولها: «لا تقلقي حول الموضوع بعد الآن. زوجي سدّده».

«كله؟».

تردّدت وقالت: «لا. شين أعطاني القليل من المال أيضاً». وفهمتُ، دون أن تُضيف كلمة، أن الإقرار لزوجها عن دينها حتّى بعد أن دفعت منه الكثير، كان شيئاً مرعباً.

سألتُها: «هل غضب؟». ونظرتُ إلى ذراعيها، ومعصميها النحيلين. كانت أكمامها واسعة؛ ولم يمكن لي أن أعلم هل كانت هناك إصابات.

قالت: «له الحق أن يغضب».

قلت لها: «وماذا حصل؟ هل فعل شيئاً آخر؟». وارتفع الغضب واليأس بداخلي، وضيّق بلعومي حدّ الاختناق.

نظرت أمّي إلى الأرض. وفهمتُ أنّها شعرت بالإهانة والذلّ. قالت: «توسّلت إليه. وبكيت حتّى سقطتُ على الأرض مغمى عليّ». ولتخفف عنّي رعبي قالت بسرعة: «كان شيئاً جيداً في المحصلة أنّني اعترفت له. لقد قلق في البداية، وتذكر الإجهاض. ولا بدّ أنّه أدرك أن الأمر لا يستحق أن يتحول لمشكلة. وها أنا الآن على ما يرام». ثمّ غضّنت وجهها وتابعت: «أقسمت بناءً على طلبه أن لا أعود إلى الماهجونغ من بعد أبداً».

ولاحظَت نظرة القلق في عينيّ، فألقت عليّ أمّي نظرة تحذير، معناها أن الأمر هذه المرة، كان خاصاً وليس من شأني. يبدو أن الخوف الذي رافق إجهاضها

جعل زوجها لين العريكة. وجعله يخاف من أن يترمل مجدداً. ومع ذلك شعرت براحة عارمة، فذلك الدين كان معلقاً كسندان فوق رأسينا. وابتسمت أمّي بضعف وقالت: «ربّما كان يجب أن أخبره منذ البداية. وأنا متأكدة أن روبرت سيكون أقل تأثراً حيال مواقف من هذا النوع».

قلت لها: «هل يجب أن يكون روبرت لا غير، من عليّ الارتباط به يا أمي؟».

وربّما سمعت نبرة الحزن في صوتي، لأنها توقّفت عن العمل على ضمادتي وحضنتني. وقالت: «كلا. لا يجب أن يكون هو. طالما يجعلكِ الشخص الذي تختارينه سعيدة».

وارتفعت معنوياتي وقلت: «حقاً؟». كيف عنّ لي يوماً أن أشكّك فيها؟

وسألتني: «هل وافق شين؟».

«على ماذا؟».

«على الشخص الذي تريدينه».

ولم أمنع نفسي من الابتسام وقلت: «نعم. هو موافق».

51

باتو جاجاه

الخميس، 2 تموز

راقب رين سيّده عن كثب بعد رحيل ليديا. هل تحسّنت معدته بعد شرب الدواء؟ ولكن ويليام ذهب إلى الشرفة، وهو يشد ياقته القاسية كأنّه لا يتنفس. وجلس هناك دون حراك. رأسه بين يديه، فيما طائرٌ يغرّد في مكان ما في وسط الغابة الكثيفة. طائر *ميربوك*[1]، حمامة الحمار الوحشي بصوتها الناعم الذي يتردّد صداه في الفضاء الأخضر الواسع.

سأله: «هل أنت مريض يا *توان*؟».

التفت ويليام، وجهه شاحب والعرق ينضح منه. لا يبدو على ما يرام، لكنه ابتسم ابتسامة قصيرة وقال: «أنت ولد طيب يا رين. كنت أفكر: هل تريد أن تذهب إلى المدرسة؟».

وتفاجأ رين بهذه الهدية السخية، فلم يسعه إلا أن يطرف بعينيه ويتلعثم قائلاً: «نعم. لكن ماذا عن أعمال المنزل؟».

«لا تقلق بشأن ذلك. سنأتي بخدم آخرين على أيّة حال».

هل هذا يعني أن رين فقد عمله؟ قال ويليام وفهم نظرة رين القلقة: «طبعاً لا. ستحدث بعض التغييرات، ولا مهرب منها. ولكنّني سأحرص على أن تذهب إلى المدرسة. هذا أقل ما يمكنّني أن أقدمه لك». وتغضّن وجهه.

---

(1) Merbuk

كان رين يفهم شعور الذنب والحيرة. لأنّ بي لم يعد يأتيه في أحلامه، ليس بعد آخر لقاء عند النهر. وفي الحقيقة، لم يعُد يجد أيّ أثر لأخيه التوأم. وتلك الإشارة الخافتة التي تشبه موجات الإذاعة توقّفت عن البث، أو ربّما هي تبث لمحطّة أخرى، محطّة لا يستطيع رين سماعها؟ ومهما كان الأمر فهو يفكر ببي بحبّ وبحزن. ولكنهما يوماً ما، سيجتمعان معاً ثانية.

* * *

انصرف رين عائداً إلى المطبخ. ثم استدار. ومع أنّه ليس من حقه السؤال، لكنّه استجمع كلّ شجاعته وقال: «*توان*؟.. هل ستتزوج من الآنسة ليديا؟».

مال رأس ويليام قليلاً. كان يصعب على رين قراءة تعابير سيده. ثم قال: «أنت لا تحبّ تلك الفكرة؟».

«قالت إن اسمها الصينيّ لي. مثلك».

«وهل هذا يجعل منّا ثنائياً جيداً؟». كانت هناك مرارة في صوت ويليام. وتساءل رين ماذا كان موضوع بقية الحوار بينهما. الحوار الذي وصل لنهاية جعلت ليديا سعيدة، وجعلت سيّده يائساً.

قال رين بصدق: «لا أعلم». كان مرتبكاً. من منهما *لي* الغامض؟ أو ربّما هو مخطئ وكلاهما ليس *لي*. وضغط بأصابعه على العلامة البيضاء المخدرة التي كانت على مرفقه، فشعر بالدوار وصار الهواء ثقيلاً ومعتماً. وتذكّر شبكة العنكبوت الرقيقة التي كانت ملتصقة بليديا؛ فجفل فزعاً. قال: «ستزيد تلك السيّدة من مصاعبك».

ابتسم ويليام بمرح وقال شيئاً عن الحكمة التي تأتي من أفواه الأطفال. ثم أعلن أنّه مرهق وسيأوي إلى سريره. وأنه لا حاجة للعشاء هذه الليلة. وجرجر قدميه على السلالم، مثل رجل محكوم بالإعدام.

في الصباح التالي، لم ينزل ويليام. وعبس آه لونغ بسبب الإفطار الذي بقيَ على حاله ولم يُلمس، والتفت نحو رين وقال: «اذهب وانظر ماذا حصل».

صعد رين على السلالم، وشعر بالخشب الناعم والبارد تحت قدميه الحافيتين.

وظلّ يتابع الصعود مثل صبيّ خدمة في سفينة يتسلّق على صارية الاستطلاع. وعند النافذة العلوية، تذكّر كيف كان يرى المنزل الخشبي الأبيض مثل سفينة في وسط العاصفة، والغابة الخضراء الكثيفة مثل محيط هائج مترامي الأطراف. فيه كلّ أنواع الوحوش الغريبة، ومنهم الدكتور مكفارلين، وهو يتجول بشكل نمر.

وهزّ رين رأسه، واختفى الخيال. فذلك الخوف الغامض من سيده العجوز بدأ يتراجع: العزلة الموحشة، والوعود التي قُطعت عن أصابع مبتورة وحفر للقبور. كلّ ذلك انتهى وانتهى معه القلق على مهلة التسعة والأربعين يوماً، وحل السلام محله، ولكن إذا سألت رين عن السبب لا يمكنه أن يحدد كيف ولماذا. لكنّه متأكد فقط، من أعماقه، أن الإصبع عادت إلى قبر الدكتور مكفارلين. وشاهد رؤية عجيبة، قصيرة وساطعة مثل هلوسة. شاهد جي لين في رؤياه تركع على ركبتيها، وتحفر بالمجرفة بسرعة. وألقت شيئاً ما في الحفرة، ثم ردمتها بالتراب الأحمر المبلول. ومهما حدث معها، فقد كان لديه قناعة أنّها لن تخيّب ظنه أبداً. ولكنه منذ أن استيقظ في المستشفى بعد موت نانداني، لم يعد يرى هذه الأحلام، كأن الليل الطويل انتهى وأشرق النهار. نهار يعِدُ بأمل الذهاب إلى المدرسة. وهكذا بحماس أسرع رين صاعداً على السلالم. لا بدّ أن الدكتور مكفارلين سعيد الآن، إذ كان ينوي إرسال رين إلى المدرسة.

كان باب ويليام مغلقاً. وطرق رين، ثم حاول أن يفتحه بهدوء. كان مقفلاً. واحتار وانتابه بعض الخوف، وأخبر آه لونغ.

«هل هو مريض؟».

«ربما».

ونهض آه لونغ. وبحث في درج المطبخ، وصعدا معاً على السلالم. كان البيت هادئاً جدّاً لدرجة أن رين تخيّل كلّ شيء حوله قد حبَس أنفاسه؛ من الجدران والسقف، والعشب الذي في الخارج، وبياض السماء التي تشبه قبّة. لا صوت باستثناء وقع أقدامهما على السلالم ودقات قلب رين. عند الباب المغلق، توقّف آه لونغ ووضع أذنه على ثقب الباب. لا شيء.

تنهّد آه لونغ، وضع يده في جيبه وأخرج مجموعة ضخمة من مفاتيح يحتفظ بها في درج المطبخ. وبحث فيها، وهو يعدّ بصوت خافت. وأخرج أحدها ووضعه في القفل. وما أن انفتح الباب، حتّى قال بصوت حاد: «لا تدخل!».

وانتظر رين في الخارج مرعوباً. لم يكن يحتاج ليصغي إلى حركات آه لونغ المضطربة، وهو يقترب من السرير ويغلق الستائر. ذلك صمت يعرفه، صمت يخبره أن ساكن الغرفة قد غاب إلى الأبد. واستند رين على الجدار، وشعر بدموعه الحرّى تسيل بهدوء على وجهه.

52

فاليم/ إيبوه

الأربعاء، 1 تموز

وهكذا عدنا إلى نقطة البداية في ذلك المتجر المنزلي المعتم الطويل، والمليء برائحة معدن القصدير الخام والرطوبة التي تنزّ من الأرض. خرج شين من المستشفى وعاد إلى البيت، وذراعه المكسورة ملفوفة بجبيرة أنيقة بيضاء.

كانت أمّي مسرورة بعودتنا كلينا، ولكن كان يجب عليّ العودة إلى السيّدة تام في غضون أيام. وأن أزور هوي أيضاً لأخبرها أنّني تركت العمل في ماي فلاور، رغم أنّها لا بدّ وأن أدركت ذلك الآن. هناك عدّة أمور وددتُ مناقشتها مع شين، ولكن لم نجد الفرصة المواتية. كان الحضور الصامت لزوج أمّي يملأ مقدمة المتجر حيث يقوم بعمله، وكانت أمّي تتجول في أرجاء المكان وتطهو أطباقنا المفضلة منذ أيام الطفولة، ولكنّي توسلت إليها أن لا تجهد نفسها.

قالت وهي تنظر إلى ذراع شين: «من الجيد وجودُكَ في البيت».

ولكن سرّني على الأقل اهتمامها به ورعايته، كانت تحبّه. وربّما ستنتهي الأمور على نحو طيب بالنسبة لنا جميعاً. فبعد كلّ شيء كان رين قد خرج من المستشفى بعد شفاء مدهش. ولم نمُت، لا أنا ولا شين. واحتفظت بأفكاري عن بي لنفسي، واحتضنتها مثل سرّ حزين. إذا كان الأموات يعيشون في ذاكرة الأحياء؛ إذن سأحفظه بأمان في ذاكرتي إلى الأبد.

في تلك الليلة جلستُ على طاولة المطبخ في بركة نور القنديل الدافئة، وأعدت قراءة كتاب *مغامرات شارلوك هولمز*. فقد أحببت الكتاب واقتنيت نسخة

مستعملة منه، لكن كوه بنغ وسلسلة جرائمه خفّفت من حماستي لهذه الألغاز البوليسية. ومع ذلك كان هذا أفضل من أن أبقى وحدي مع أفكاري. كانت أمّي وزوجها قد ذهبا إلى الأعلى لغرفة النوم، وغادر شين برفقة مينغ.

إنّ حقيقة ما كنتُ أفعله مع شين، أثقلتني. ما هو المستقبل الذي ننتظره؟ ربّما في هذه الحياة لا يمكن لنا، أنا وشين، إلا أن نكون أخوين، توأمين مزيّفين مقدّر لنا أن نكون معاً، وفي نفس الوقت، منفصلين. كان ما حولي هادئاً لدرجة أن باستطاعتي سماع دقات الساعة القادمة من بعيد، من مقدمة المتجر. دقات مجوفة. إنّها الساعة العاشرة. ثم سمعتُ صرير الباب الأمامي. لا بدّ أن شين قد عاد، وخطواته السريعة المألوفة تتقدّم في الممرّ الطويل المعتم، وتمرّ من الموازين الثقيلة، ثم من الباحة المفتوحة بما فيها من أكوام من خامة القصدير المجفّف.

نهضتُ وناديته بهدوء: «شين!».

كان الممرّ مظلماً، والضوء الأصفر يفيض من المطبخ. كلّ أفكاري، ونواياي الحسنة طارت من رأسي لدى رؤيته. ودون كلام، سحبته إلى الطاولة. ولكنه نظر نظرة ثاقبة إلى أعلى السلالم.

قلت له: «إنهما نائمان».

جلسنا الواحد بقرب الآخر باحتشام. وشعرت على نحو غريب بالخجل، وتسارع نبضي. كم كان غريباً أن نجلس هكذا في بيت زوج أمي. كما لو أن لا شيء قد تبدل بيننا. وإذا أغمضت عيني، يمكننا أن نعود لعمر عشرة سنوات مجدداً.

سألته: «ماذا سنفعل يا شين؟».

شبك أصابعه بأصابعي. وحاجباه المائلان كانا يبدوان مكشوفين جداً. قال: «أولاً نحتاج لنسخة من شهادة ميلادك. أما شهادتي فهي معي. ثم نذهب لتسجيل زواجنا».

عدّلتُ من جلستي وقلت: «ماذا؟».

«والدي قال ذلك، هل تذكرين؟ بعد أن تتزوجي لن تكوني ضمن مسؤوليته أبداً».

«لكنه سيقتلنا!».

عبس شين وقال: «لن يفعل. لقد وضع الشروط بنفسه. ولا يهمه من سيكون زوجكِ، ما دام يملك عملاً جيداً. وطبعاً، كان يفكر بروبرت. وعموماً، نحن لسنا أقارب، ولا حتّى على الورق. ووالدي لم يكن يتبنّاكِ، لقد تأكدت من هذا».

ولم أعرف هل أضحك أم أفزع من غرابة شين. وقلت: «هل أنت متأكد أنّك تريد الزواج مني؟ فأنت لا تزال طالباً وتدرس بمنحة دراسية؟».

كان جاداً تماماً، وقال: «كنت أخطط لهذا منذ سنوات».

«وماذا إذا لم أكن أرغب بالزواج منك؟».

«سترغبين».

ولمس بشفتيه شفتيّ بنعومة، لكن ساقاي خارتا وغلبني الدوار. كانت مثل تعويذة، خدعة ساحر قادرة على إخراج الهواء من رئتيّ. ونظر لي شين بانتصار. وانتابني ذلك الشعور نفسه ثانية، الحبّ والشوق والرغبة بصفعه، كلّ ذلك في فورة واحدة.

قلت له: «أخشى من كلام الناس».

«لا يهم. فليتكلموا».

وطبع قبلة ناعمة وعاجلة. وشعرت بالحرارة الرطبة لفمه، وبلسانه الرقيق داخل فمي. ورفرف قلبي ثانية، مثل عصفور يحنّ للطيران. أحاط شين خصري بيده السليمة؛ وارتعشتُ وهو يضغطني، بقوّة، على الكرسي. وخرجَت أنفاسي بشهقات ضعيفة. وبأسنانه ويده اليسرى القوية، بدأ يفك أزرار بلوزتي القطنية الرقيقة. كان يجب أن أمنعه، كنت أدرك ذلك، لكن أصابعي بدأت تداعب شعره.

قال شين باستفزاز ساخر: «لا تضحكي مني، أنت السبب بكسر ذراعي».

وأجبتُه بقبلة على فمه. وذاب أحدنا بالآخر ولم ننتبه لصرير السلالم، ثم أتت همسة أمّي المذعورة: «*ماذا تفعلان؟*».

وتجمّدت يد شين على بلوزتي نصف المفتوحة. ووقفنا على أقدامنا، وارتفع هدير مكتوم في أذني. وكان وجهه أحمر.

قلت: «أمي».

لكنها لم تكن تنظر لي. وقالت له: «كيف تجرؤ على لمس ابنتي!». ولكنّني لاحظت أنّها حتّى في تلك اللحظة حافظت على صوتها منخفضاً، وكانت الكلمات تخرج من فمها كالفحيح.

قلت لها: «هذه ليست غلطته، بل غلطتي».

وعندها صفعتني. لم تضربني أمّي على وجهي من قبل. كانت تعاقبني، نعم، عندما كنت صغيرة، وبضربات ضعيفة، وكانت تكتفي بالتهديد بمعاقبتي. إنما ليس هكذا أبداً، صفعة جعلتني أشهق. والغريب والفظيع في الموضوع أن الأمر كلّه جرى بما يشبه الصمت المطبق. ولم يجرؤ أحد منا على رفع صوته في ذلك البيت المعتم والصامت. كنّا نعلم ماذا سيحدث إذا استيقظ زوج أمي.

وقبضتُ على كتفي أمّي الهزيلين، ثم أفلتّهما. ولو أردتُ، فقد كان بمقدوري أن أدفعها بسهولة. على السطح وأنا أتعارك مع كوه بنغ كنت أقاتل بيأس، أركل وأخدش. ولكن ليس بوسعي أن أرفع يدي على أمي. وكذلك شين. وقف كلانا برأسين مطأطأين ومكلّلين بالذنب وهي تنهار فجأة، كأن الحياة غادرتها.

ودمدمَت: «ألم أقم بتربيتك على نحو حسن؟ لماذا تفعلين هذا؟».

قلت: «أنا أحبّه».

قالت أمي: «حبّ؟ بماذا كنتِ تفكّرين؟».

وانخرطَت بالبكاء، بتلك الطريقة البائسة والفظيعة التي تجعلني أستسلم لها. الطريقة التي تعلّمنا كلّنا أن نبكي بها في هذا البيت، دون صوت. ورغم صدمتي إلا أنّني وجدت نفسي أواسيها. كان الحال دائماً هكذا. مهما حصل، أحاول دائماً إنقاذها. نظرتُ إلى شين، وأشرت له أن ينصرف من المطبخ.

ولكنّه لم يذهب، بل ركع أمامها. لم أشاهد شين يركع على ركبتيه من أجل أيّ إنسان، كان معتّداً بنفسه جداً، وها هو الآن يحني رأسه لها.

وقال: «أنا جاد بخصوص جي لين يا أمي. وأطلب أذنك للزواج بها».

وعند كلمة زواج، انتفض جسم أمي، كأنها دخلت في نوبة. وشعرتُ بالخوف عليها، فأسندتها بين ذراعيّ.

قالت بضعف: «لا يمكنكما الزواج. لقد جمعتكما صلة القرابة العائلية. أنا أرفض ذلك قطعاً»

من الأمور المزعجة، وفي نفس الوقت، الملائمة، في كونك فرداً من عائلة؛ أنّه يمكنك تبادل الاتهامات الفظيعة في الليل، وفي الصباح التالي تتظاهر أن شيئاً لم يحدث. وهذا ما حصل فعلاً في وقت الإفطار. اجتمعنا، وكنا هادئين ومتماسكين، حضّرت أمّي طبقاً من المعكرونة الساخنة. وكانت المعكرونة باهتة، كأنها نسيت كيف تطهو. وكانت عيناها متورمتين، وأخبرت زوجها أنّها لم تنم بسبب الصداع.

زمجر، وأملتُ أنّه لم ينتبه لشيء. على أيّة حال، كان نومه ثقيلاً في العادة. وجلست أنا وشين، بسكون غير طبيعي، مثل شقيقين مصنوعين من ورق الكرتون داخل عائلة مثالية مصنوعة كلّها من ورق الكرتون.

وأعلن شين: «سأعود إلى سنغافورة في نهاية هذا الأسبوع».

هزّت الوالدة رأسها. وانحنت على طبق المعكرونة الباهت، كما كان يفعل زوجها.

قال شين: «وسترافقني جي لين. ويمكنها أن تجد عملاً هناك».

والآن، رفعا رأسيهما، كلاهما.

وضاقت عينا زوج أمّي وهو يسأل: «ولماذا هي؟».

قال شين: «في الحقيقة أن جريمة وقعت في مستشفى باتو جاجاه يوم الإثنين. قتل ممرض آخر على يد نفس القاتل الذي حاول أن يقضي على جي لين بدفعها من على السطح. وطلبت الشرطة منا أن نتكتم على الموضوع، لكن هناك فضيحة تلوح في الأفق. وإلا لماذا باعتقادك كان المستشفى يدفع لي أجوري دون القيام بعمل؟ وبالمقابل طلبوا منا أن نترك المنطقة، كلانا».

قال والد شين: «هل هذا صحيح؟».

ونظرتُ إلى شين. كان كاذباً ملهماً، يمزج الحقائق بأنصاف الحقائق.

قال: «نعم. وستنشر الصحف ذلك عما قريب».

وندّت عن الوالدة صيحة رعب، لكن عينيها كانتا مليئتين بالشكّ. وعصرتُ يد شين تحت الطاولة.

قلتُ: «يمكنك سؤال روبرت، والده عضو في إدارة المستشفى».

وأزعجني كيف أن كلّ شيء له علاقة بروبرت وعائلته كان يثير اهتمام أمي. ولاحظت الارتباك على وجهها.

وقلت: «تدبروا لي وظيفة في مستشفى سنغافورة، بصفة ممرضة متدربة. وسأسكن في بيت الممرضات». وكان هذا خيالاً محضاً، ولكن لم يكذّبني أحد. وتابعت: «وسيرافقني شين. لأنّ روبرت مشغول ولا وقت لديه».

روبرت ثانية. ولكن هذا لم يخدع أمي، وهزّت رأسها رافضة بشدّة.

قالت: «كلا، لا يمكنك أن تذهبي!».

وقال زوجها: «وما رأي روبرت بهذه الخطة، السفر إلى سنغافورة؟».

«هو يرغب أن أدرس وأحصل على مؤهلات مناسبة. وكلما ابتعدتُ عن الفضائح حسن موقفه أمام عائلته». وأدهشتني قدرتي على الكذب بسهولة عندما أكون راغبة حقّاً بشيء. واعتذرتُ من روبرت المسكين في سرّي.

«إذا رأى روبرت أنّها فكرة جيدة، فلا مانع عندي». قال زوج أمي. وفي تلك اللحظة كنتُ مسرورة، مسرورة جدّاً من كونه إنسان صلب ولا يخضع، ولا يقتنع ولا يهتم إلا برأي الرجال. وبالتالي لم يلق اعتراض أمّي منه أذناً صاغية، وعموماً لم تجرؤ أن تقدم سبباً لرفضها سوى أن سنغافورة بعيدة جداً.

قال زوج أمي: «سيرافقها شين. ولن تكون مسؤوليتها على عاتقنا لفترة طويلة».

قالت والدتي: «لكن عائلة روبرت في إيبوه». ونقلت نظرتها منّي إلى شين بألم، وتساءلتُ هل ستكشف سرّنا. إن حصل ذلك فسنُعاني جميعاً. تسارعت دقّات قلبي دون انتظام. ووضع شين على وجهه نظرة خشبية، ولكن ارتعشت عضلة في وجهه.

قال: «لديهم بيت في سنغافورة». وتأمّل معكرونته كأنّه غير مهتم إن رافقتُه أم لم أرافقه. وتابع: «وأنا متيقّن أنّه يذهب إلى هناك بين حين وآخر».

وأومأ زوج أمّي برأسه موافقاً. وهكذا تمّ الأمر.

وكان يجب أن أشعر بالسعادة. والله يعلم كم أن شين كان سعيداً. ولم يسعه منع نفسه من الابتسام طوال الأيام التي سبقت رحيلنا، ولكن باتفاقٍ غير معلن، تجنّبنا بعضنا البعض تماماً. ذهب واشترى تذكرتي قطار، لكلينا، وذهبتُ لأقابل السيّدة تام وأحزم أشيائي الموجودة في غرفتي فوق ورشة الخياطة.

سألتني: «هل ستتزوجين؟». فيما كنتُ أطوي آخر ممتلكاتي المتواضعة. ما من مجال للمراوغة معها. لذا قلت: «كلا، سأذهب لأدرس التمريض». كنت قد ردّدت هذه الكذبة مرات عديدة حتّى أنّها أصبحت بالنسبة لي مثل حقيقة، وكان يجب أن أذكّر نفسي أنّه ليس لدي فرصة عمل ولا مكان سكن. ولكن كنت أطفو على موجة هادئة من الحماسة.

قالت السيّدة تام بتفكّر: «ممرضة. لا أعتقد أنّه عمل يناسبك».

«لم لا؟». أزعجني هذا التقييم العابر؛ فقد كانت مسرورة من مهاراتي في الخياطة.

«أنتِ ستعارضين الأطباء دوماً. أعتقد أن من الأفضل لكِ أن تتزوّجي».

وانحنيتُ لأخفي ابتسامتي.

قلت: «وما الذي يجعلكِ متأكدة من أنّي لن أعارض زوجي؟».

«آه، عليك أن لا تفعلي ذلك». وبدت مفزوعة، ولكن كنّا نعلم كلانا من يحكم بيت آل تام. وقالت السيّدة تام وقد اقتربت مني: «اسمعي. سرّ الزواج السعيد هو أن تجعلي زوجكِ يعتقد أنّ كلّ شيء من بنات أفكاره. وطبعاً، عليك أن ترتدي له ما يحب وأن تكوني جميلة بنظره قدر الإمكان».

ثم ندت عنها تنهيدة عدم رضا وهي تتأمّلني. لم أكن أرتدي أزياءها الأنيقة، ولبست بنطالاً قطنياً قديماً وقميصاً مهترئاً. قالت: «احرصي عليه، لأنّ النساء سيتجمعن عليه مثل الذباب».

ومنحتني السيّدة تام نظرة العارف وهي تغادر، وتساءلتُ إن كانت تتكلم عن روبرت، أو عن غيره. ربّما اكتشفت أخيراً أنّني وشين لسنا قريبين؛ لا يمكنني أن أنفي هذا الاحتمال.

وقابلت هوي أيضاً. ولم أوضّح لها كلّ ما حصل بسبب وعدي للشرطة وإدارة المستشفى، وأخبرتها فقط بما أمكن.

قالت: «كان بمقدورك أن تخبريني أنّك تركتِ العمل. لقد عرفت ذلك وحدي».

كانت تشعر بالسخط وبالأذى قليلاً. ولم يكن أمامي إلا أن أومئ لها برأسي بأسف وأعتذر لها. كنت أحبّ هوي فعلاً، لم يكن لي صديقة مثلها، وكنت خائفة أنّني خيبت ظنها لأنني لم أشاركها بأسراري.

قلت: «شكراً لأنّك ساعدتني في مشكلة روبرت»، وتذكرت كيف عرضت نفسها للمخاطر ووقفت أمامه، حينما أتى به ي.ك. ونغ إلى صالة الرقص. قلتُ لها: «كوني لطيفة معه إذا قابلَك مجدداً».

جالت هوي بعينيها وقالت: «الشباب الأغنياء خسارة ومضيعة عليكِ». ولكنها ابتسمت أخيراً.

أما الحوار الذي كنت أحسب حسابه فقد كان مع أمي. ولم يكن هناك من مهرب منه. وكنت أرى ذلك في نظراتها المتألمة، ويديها المرتعشتين. وتمنّيت أن تتأقلم أمّي، من بين كلّ الناس، مع هذه الحقيقة، عندما تخفّ صدمتها. بالنهاية هي تحبنا كلينا، أنا وشين، لكن ليس ونحن معاً. حسناً، لكل شيء ثمن لا بدّ منه.

جلستُ على السرير والذنب يجلّلنني حتّى وقتٍ متأخر من المساء. وبعد نوم زوجها، انتظرتها أن تأتي وتؤنبني. كان شين قد تصرف بشكل دبلوماسي وذهب إلى مينغ. كان مرآه في هذه الأيام يغضبُها. لقد تحول بنظرها من ابنها المفضل، إلى مخادع يغوي ابنتها. ومهما قلت فلن أبدّل رأيها.

ظلّت تقول: «هذا الأمر ليس صحيحاً. والناس سيتكلمون عنكما بالسوء. ثم أنّ شين لم يحتفظ بصديقة لفترة طويلة. ماذا لو غير رأيه؟».

قلت لها: «عندها سأتدّبر أمري».

ورفعت يديها وقالت: «فرص الزواج الجيدة تأتي للفتاة مرّة في العمر. وهذه العلاقة كلّها خطأ فادح. أنت مشوشة لأنك تحبينه، كأخ. ثم، أن كلّ شيء يبدو لمن في عمرك رومانسياً». وفجأة جمّدتني بنظرة مخيفة وقالت: «لم تفعليها؟ لم تنامي معه، أليس كذلك؟».

لماذا يسألني الجميع هذا السؤال، ما علاقة الآخرين بذلك؟ ولكنّني بالطبع أعرف السبب. على ما في الأمر من إذلال إلا أنّه عملة دموية، فالفتاة لن تجد زوجاً إلا إذا أثبتت أنّها عذراء، حتّى لو كان الرجل عجوزاً أو بديناً أو دميماً. قلت بمرارة: «ما ظنّكِ بي؟».

وغطى الشك عينيها كالغيوم، وشعرتُ بالخيانة. وأخيرا، أومأت بهدوء: «طبعاً أنا واثقة منك. ولكن لا تفعليها. عديني! هذا يسمح لك بفرصة لتبديل رأيك. لا أريدك أن تفسدي نفسك، وأن تضيّعي كلّ فرصكِ».

قلت لها: «هل تكرهين شين يا أمّي كلّ هذا الكره؟».

«كلا. هو ولد جيد. أنا فقط لا أتمنّاه لكِ. كنت خائفة من حصول شيء كهذا، ولكنك كنت دائماً متعلقة بمينغ. وكنت أعتقد أن ابتعاد شين سيسهّل المسألة. ولم أعلم أنّه عنيد جداً. الزواج ليس أمراً سهلاً. ولا يبدو دائماً على الشكل الذي تتوقعينه». ثمّ كفّت نظراتها عنّي وقالت: «أنت تعلمين أن زوج أمك مزاجيّ وعصبي».

«شين لم يرفع يده بوجهي!».

عقدت يديها وقالت: «لكنه شاب. ولن تعرفي كيف سيكون طبعه بعد أن يكبر بالعمر».

قلتُ لنفسي: هذا إنصاف. وكافحتُ لكي لا أُظهر امتعاضي أو ألمي، لكنني أردت أن أصرخ وأحتجّ وأخبرها أنّها على خطأ وأن شين لا يشبه والده. ولكن أكثر من ذلك، كنت أريد المغفرة من أمي، وأن تباركني، وأن تطمئنني بالقول أن كلّ شيء سيكون على خير ما يرام، مثلما كانت الحال وأنا صغيرة، عندما كنّا نحن الاثنتين لوحدنا بمواجهة هذا العالم الواسع. ولكن ربّما كان هذا جزءاً من كوني كبرت ولم أعد طفلة.

في يوم السبت، وقفنا على رصيف في محطّة قطار إيبوه. كان صباحاً جميلاً، كلّ شيء أبيض وذهبي. ولم أحمل معي سوى حقيبة سفر وصندوق، ملفوف بعناية بحبل. نظرت للعقدة الدقيقة التي ربطتها أمي، وشعرتُ بكتلة تسد بلعومي. كانت فيه ثيابي الجميلة، وكنت أرتدي واحداً من أفضل أزياء السيّدة تام، فقد أصرّت على أن تودعنا، رغم اعتراضي.

وتبيّن أن مجيء أمّي مع السيّدة تام لتوديعنا كان أمراً حسناً، لأنّ تعليقات السيّدة تام المغردة خفّفت من ألم الوداع وجعلته محتملاً، رغم الدموع التي تجمعت في مقلتي أمي. وجاءتا ومعهما سلّة كبيرة من جوز الجندم [1]، وحافظة طعام فيها فطائر الخنزير المطهو بالبخار، كما لو أننا ستتضور من الجوع قبل أن نصل إلى سنغافورة. ستكون رحلة طويلة إلى الجنوب، أربع ساعات إلى كوالالمبور، ثم ليلة من ثماني ساعات ننام خلالها قبل أن نبلغ سنغافورة. مسافة تبلغ حوالي 345 ميلاً، وهي أبعد مسافة سافرت إليها في كلّ حياتي.

وما أن تحرك القطار ببطء، حتّى راح الجميع يلوّحون بجنون وبإشارات صامتة. حتّى زوج أمي، الذي لا يستعمل يديه للإيماء والتعبير بالعادة، رفع يداً، ولم أكن متأكدة هل كان يلوح لشين أم لي. وفي اللحظة الأخيرة، ركضت أمّي جانب القطار. وملأني رعب مفاجئ. هل تنوي أن تنكرنا وتلعننا؟ ولكنها ببساطة ضغطت راحة يدها على النافذة. ووضعت يدي بنفس المكان من الطرف الآخر. بأصابعي الخمس. ثم غابت، وتركها خلفه القطار المسرع.

وداعاً، فكرت، وأنا أرى قاماتهم وأشكالهم وهي تتلاشى، وقد تخطّتها العجلات التي تقرع القضبان، وهمهمة السكة الحديدية. وداعاً لحياتي القديمة، ومرحباً بالأيام المتبقية، مهما كان ما ستأتي به. واضطربت معدتي من الحماس والحزن. وفكّرت مجدداً بيي، ذلك الصبيّ الصغير الذي بقي وحيداً على رصيف المحطّة. هل رحل فعلاً؟ كانت عندي قناعة غريبة أن الروابط التي تشدّنا جميعاً أعيد ترتيبها بنمط مختلف وجديد. *لن أنساكَ*، وقطعت هذا الوعد على نفسي.

التفّت أصابعي حول الرسالة المودعة في جيبي. فقد فاتتني فرصة وضعها في علبة البريد، ولكن سأفعل حالما نتوقّف في كوالا لامبور.

كانت ضواحي إيبوه تمرّ بجانبنا بسرعة: نخيل جوز الهند، وبيوت *الكامبونغ*[2]

(1) Mangosteens: فاكهة استوائية.

(2) kampong: البيوت التقليدية الماليزية وهي مبنية من الخشب وتقوم على دعائم لتجنب الحيوانات والفيضانات. المترجمة.

الخشبية المبنية على ركائز، وبقرة ضعيفة صفراء براهماتية، إلى أن ظهرت غابة خضراء صارت تحاصرنا من الجانبين.

قلت: «يجب أن أجد مكانا للإقامة في سنغافورة». وتذكرت كذبة بيت الممرضات في المستشفى.

قال شين: «هذا سهل، لدي بعض المدّخرات».

«ولكن هذه مدخراتك. ولا أريد هدرها».

«وماذا تعتقدين أنّني كنت أعمل لأجله؟ كنت أريد أن آتي بكِ إلى سنغافورة».

وتوقّف قلبي عن الخفقان. قلت: «حقّاً؟». يا لكل تلك الشهور الطويلة الموحشة التي انتظرت خلالها ردود شين على رسائلي دون فائدة.

«رغم أنّني لم أكن متأكداً من قدومك. كنتِ متعلقة بمينغ لسنوات. وكنتُ أخافُ أن يبدل رأيه، وتعودين إليه. لقد سبّبتِ لي متاعب أكثر من كلّ متاعبي مع بقية الفتيات». وتوتّر فمه وقال: «يجب أن تجدي ما يشغلك. ربّما تحضرين محاضرات».

«أودّ ذلك».

وهزّ شين رأسه بأسف وقال: «لماذا أنت سعيدة بهذا أكثر من الخاتم؟ من فضلك لا تتخلي عنّي من أجل طبيب جراح».

انتفضتُ وقلت: «لا مزيد من الجرّاحين».

«سأقترض ملخص محاضراتك كلّ ليلة». قال بسخرية مغوية.

وخفقت معدتي قليلاً. إذا واصل شين النظر لي هكذا، سأرتبك وسأبدو حمقاء، وهو يعلم هذا جيداً.

وأخذتُ نفساً عميقاً. كان أمراً يصعب عليّ قوله. قلت له: «شين؟».

وردّ بلمسة رقيقة من إصبعه على راحة يدي.

قلتُ له: «لا يمكننا أن نتزوج». وحملقتُ من النافذة. تجمدّت إصبعه. تابعتُ: «على الأقل ليس الآن».

وران عليه السكون لفترة طويلة. ثم قال: «بسبب أمك؟».

«لا، يجب أن نفكر بالأمور جيداً، سيصعب عليك أن تجمع الدراسة مع العمل. والناس سيتكلمون. ويجب أن أعتمد على نفسي لبعض الوقت. سأجدُ عملاً، وأعتني بنفسي. ولا أريد أن تتحمل مسؤوليتي وأنت لا تزال تدرس. ثم أنّني لست مستعدة للزواج الآن».

«وكم سيطول ذلك؟».

«لا أعلم».

قال دون أن ينظر لي: «سنة. خلال سنة ويوم، إن لم تجزمي رأيك، حينها ستكونين ملكي».

«أخبرتكَ أنّه لا يوجد شيء اسمه ملكاً لأحد!».

ولكنه قال بجنون: «يجب أن تكون هناك فترة محددة، وإلا استمرّ الحال هكذا. أنا لن أقبل بعد الآن أن ألعب تمثيلية الأخوين التوأمين».

سنة ويوم. بدا الأمر مثل طريق معتم مكسوّ بالكروم الشائكة وفيه وحوش مجهولة. هل خرجنا أنا وشين من الغابة؟ لم تكن عندي أيّة فكرة عن طبيعة الأرض القادمة، ولكن ربّما هكذا أفضل. وشاهدتُ رؤيا مفاجئة عن غرف عالية السقف، وممرات طويلة مشمسة، ومكتبات هادئة. وكلية الطب في جامعة الملك إدوارد، والتي سمعت عنها كثيراً. وكان شين يقهقه وراء طاولة مع ثلّة من الطلبة. أما أنا، فكنت أصعد على متن حافلة مزدحمة وأحاول جاهدة أن أوازن نفسي فيما أحمل صندوقاً مليئاً بالكتب. أقلي الرزّ في مطبخ شقّة ضيّقة، وأستمع لوقع خطوات مسرعة أعرفها على السلالم. ثم شين وأنا، نمشي على ضفة نهر في هواء المساء البارد، ونأكل الموز المقلي ونتجادل بودّ. وبين كلّ هذه المشاهد أدهشني أنّني كنت متأنّقة لأسعد السيّدة تام. وهبّت النسمات من نافذة القطار المفتوحة على شعري القصير وغرّتي. ووثب قلبي من مكانه.

قلتُ ضاحكة: «لا بأس. هل ما زلنا صديقين؟».

وحرك شين عينيه، ورفع يده بحركة أعرفها. وقال: «أمك قالت عنّي شيئاً فظيعاً في تلك الليلة. لكنها محقّة. فأنا بالتأكيد سأغويك».

53

باتو جاجاه

بعد أسبوعين

بعد نهاية كلّ شيء، الشرطة والجنازة والمعزّين ذوي النوايا الطيبة، جلس رين على السلالم الخلفية في المطبخ. كان البيت فارغاً. ولم يبق غيره مع آه لونغ لحزم أشياء سيدهما. وهي ليست كثيرة. كان لدى ويليام القليل من الممتلكات الشخصية، لكنه بتأثير شخصيته العملية، ترك وصية. وحديثة جداً، كما قال المحامي. رين يعرف عن المحامين. وهو يتذكر محامي تايبنغ الذي تولّى شؤون الدكتور مكفارلين. وكيف عبس وهو يفتش بين فوضى الأوراق المحشورة بين شقوق وزوايا مكتبه. لكنّ أوراق وشؤون الدكتور ويليام كانت مرتبة بدقّة.

وأكّد التشخيص الرسمي أن السبب فشل في القلب. في الجنازة لفتت الآنسة ليديا الأنظار، فقد بكت عليه بكاء مريراً وقالت إنّها كانت خطيبته. وفاجأ ذلك الجميع، ومن بينهم والداها. وكان حزنها وغضبها مدهشين، بل وحتى محرجين أيضاً. وأرادت أن تحتفظ بكل شيء يخصّه، لكن المحامي أكد أن اسمها لم يرد في وصيته، وأن الخطيبة ليست بمقام الزوجة. وتداول الخدم هذه الإشاعات، وسمع بها القاصي والداني.

تنهد آه لونغ وهزّ منكبيه مستهجناً وهو يقول: «من حسن حظه أنّه لم يتزوجها». وزاد عمق الخطوط على وجهه وانكمشت قامته النحيلة. وحينما تجوّل في أرجاء البيت الفارغ، وهو يحزم أدوات المائدة من الفضة الأصلية والكريستال النقي، لإعادته إلى عائلة أكتون؛ كانت خطواته بطيئة وحائرة. ولم يكن يبدو عليه أنّه اهتم بما ورد في وصية ويليام والذي ينص على التالي:

إلى طباخي الصينيّ، آه لونغ، مبلغ وقدره أربعون دولاراً ماليزياً، إكراماً لوفائه وإخلاصه. رغم أنها كانت هدية سخية.

ولم يجد قلب رين طريقه إلى الحبور أيضاً، رغم حقيقة أنه مذكور في الوصية. هناك هبةٌ إلى رين لينتسب إلى مدرسة، ولا يمكن إنفاق المبلغ إلا على التعلم.

ولدهشة المحامي قال رين: «لا أريد من المال شيئاً».

«لم لا؟».

«لا أرغب بالدراسة. ليس الآن».

وعبس المحامي وقال: «لا تتسرّع. انتظر وخذ وقتك للتفكير».

وبعد رحيله، نادى آه لونغ على رين إلى غرفة الطعام الرسمية، كان على سطح الطاولة اللماع أكوامٌ مرتبة من الرسائل غير المفتوحة. وكلها معنونةٌ إلى ويليام، وسيتمّ توجيهها إلى عائلته.

سأله رين: «نعم، ماذا تريد؟».

رفع آه لونغ بيده مظروفاً أبيض. وللحظة ذهول قصيرة تساءل رين ما إن كان سيده قد تلقى أخيراً جواباً من تلك السيّدة المسماة آيريس، تلك التي كتب لها الرسالة تلو الأخرى. ولكن كلا، هذه الرسالة كانت لرين. واسمه مكتوب عليها بحرف صينيّ مفرد. وهذا كلّ ما أمكن أن يقرأه آه لونغ، لحسن الحظ.

«من أجلي؟». قال رين، فهو في حياته القصيرة لم يستلم أية رسالة مماثلة، مع أنه يعرف كيف يكتب. فقد علمه الدكتور مكفارلين تنسيق الرسائل، حينما كان يتلقى منه أصول الإملاء. وفتح رين المظروف بحرص. وفي داخلها قطعة ورق واحدة.

سأله آه لونغ والشك يملأ صوته: «من المرسل؟».

كان رين يقرأ ببطء. وكانت رسالة قصيرة، ليست أكثر من بضعة جمل، وبعد أن قرأها مرتين، أغلقها ووضعها في المظروف. وقال: «إنها من تلك الفتاة».

«ذات الشعر القصير، يوم الحفلة؟».

أومأ رين بنعم، وأعجب بذاكرة آه لونغ.

سـأله: «ماذا تريد؟».

وتردّد رين. كيف يشرح له تردّده بمشاركة كلماتها؟ كانت كلمات بسيطة لكنّها خاصة. ثم قال: «تقول إنّها ستتذكرني دوماً». وقال لنفسه: *«وبي أيضاً»*. وتابع: «وأننا سنلتقي ثانية. وسجّلت لي عنواناً إن رغبت بالردّ عليها، وهو باسم لي شين، كلية الطب».

ونخر آه لونغ. بطريقة ما يبدو أنّه راضٍ.

* * *

في اليوم التالي، في المساء الراكد والحار، ظهر ضيف غير متوقع. وهو الدكتور رولينغز. ورفض بإيماءة من يده طلب آه لونغ بتقديم الشاي له، وجلس على طاولة المطبخ يتأمّل شكل رين الحزين والصغير. وسأله: «هل لديك مكان تأوي له؟».

هزّ رأسه بنعم. قال: «يمكنني أن أذهب إلى كوالا لامبور. إلى العمة كوان، مدبرة منزل سيدي السابق». لا زال لدى رين عنوانها وهو مودع في حقيبة الدكتور مكفارلين المحاكة من القماش. وتساءل والشك يعصف به إن كان سيثقل عليها.

ولكن قال له آه لونغ بلغته الإنجليزية الركيكة وصوته المبحوح: «ولد يبقى معي. عمل آخر أنا أجد».

حدّق به رين، بدهشة. لم يقل له آه لونغ أيّ شيء حول هذا الموضوع من قبل، ولكن خامره إحساس دافئ تسلل إلى معدته؛ كما لو أن قطة تجلس عليها، بفرائها، وجسمها الودود والمريح.

وأمال الدكتور رولينغز برأسه مفكّراً ثم قال: «عندي لكما اقتراح. سأنتقل من مكان عملي هذا قريباً، وخدمي الحاليون لا يريدون الانتقال معي. أنا بحاجة لطبّاخ وصبي خدمة. وستكون الواجبات أشبه بواجبات عملكم في بيت عازب. فزوجتي وأولادي في إنجلترا».

وراقب آه لونغ ورين، وألقى عليه نظرة تكاد أن تكون غير مفهومة. وقال: «شكرا لك *يا توان*. أنا سيفكر بالموضوع».

وأومأ لهما رولينغز أيضاً، بحركة تشبه حركة اللقلق. ثم نظر إلى رين وقال: «أنا لست جراحاً مثل السيّد أكتون. أنا دكتور أمراض وتشريح، وهو حقل دراسات مثير للاهتمام، ولكن إذا كان هذا مخيفاً لكَ فأخبرني. سأتفهم كلّ شيء. فبالنهاية أنت نجوت من تجربة موت»

وقال رين بجدية: «هل سيكون الأمر على ما يرام؟».

قال رولينغز: «نعم. أعدك أنّني سأمنحك فرصة للتعلم. سمعت أنّك رفضت عرض المحامي، ولكن أعتقد أنّه بعد مرور الوقت، ستبدل رأيك. هذه رغبة السيّد أكتون. وكان يقدّرك».

وأشرق وجه رين. وسأله: «أحقاً؟».

«بالتأكيد. أخبرني عن علاجك لساق تلك المسماة نانداني، وقال إنّك طبيب بالفطرة. ويجب أن لا تضيع هذه الموهبة، لربّما ستنقذ حياة الكثيرين في المستقبل».

إنقاذ حياة الكثيرين. طفح رين بالأمل. نعم، هو يحب أن يفعل ذلك. ثم سأله: «وإلى أين ستنتقل يا *توان*؟».

قال رولينغز: «إلى سنغافورة. مستشفى سنغافورة للأمراض العامة. وأعتقد أنّك ستحب المكان هناك».

انتهى

ملاحظات

المستنمر:

لطالما كان النمرُ مقدّساً في التقاليد الآسيوية. فعبادة الأسلاف على هيئة نمور، هو اعتقاد مفاده أن روح الأسلاف يمكن أن تتناسخ كنمر وتعود للحياة. وهو اعتقادٌ شائع في جاوة، بالي، سومطرة، ومالايو. ومع أن هيئة الأسلاف هذه تُعتبر «ودية»، لكن أيضاً يُخشى منها كعقوبة.

والنمور الأشباح تتنكر بعدة أشكال، ومنها أرواح حارسة تحرس المعابد والأماكن المقدسة، وجثث متحولة، وجماعات من البشر المتوحشين. والنمور، مثل البشر، يُعتقد أن لها أرواحاً، وغالباً ما تُخاطب بألقاب شرفية، مثل «العمّ»، أو «الجدّ». وفي عدد كبير من الحكايات، فإن الطبيعة الحقيقية للمستنمرين تؤكّد أنهم وحوشٌ يرتدون جلوداً بشرية، وهو عكس المستذئب الأوروبي. وربّما كانت هناك علاقة ما مع المعتقدات البوذية والتاوية التي تؤمن أن بعض الحيوانات يمكنها، بواسطة السحر والتأمّل، أن تكتسب شكلاً بشرياً. ولكن مهما بلغت قوّتهم، فهم لا يكونون بشراً بالكامل.

والمتحوّلون، على وجه الخصوص، يجسدّون التوتّر بين الإنسان وطبيعته الوحشية. وفي معظم الحكايات، يتصرّف النمر بطريقة لا يتبعُها البشر بالعادة، كالتعبير عن رغبات مضمرة أو محرّمة، وأكثرها شيوعاً هي قتل البشر في بيوتهم. ويقال أن المستنمرين في كيرينسي (في سومطرة)، يرغبون بالذهب والفضة، وفي جنوب الصين تنتشر عدّة حكايات عن نساء جذّابات هن بالأصل نمرات وبحالة تنكّر، ولا يظهرن على حقيقتهن إلا عندما يحفرن القبور ليأكلن الجثث.

ولك أن تتخيّل رعب أزواجهن. والأكثر إدهاشاً، في قصة «السيّد مياو» لكاتبها بو سونغلنغ، يتشارك أحد الغرباء مع شخصية علمية في الشراب، ويشمئز من المستوى الهابط للشعر الذي يسمعه في أحد التجمّعات فيتحول إلى نمر ويقتل الجميع. (وربّما كان هذا أقسى نقد أدبي!).

مالايو:

المالايو هو الاسم التاريخي لماليزيا الحالية. استعمرها البرتغاليون، ثم الهولنديون، وأخيراً البريطانيون، قبل أن تحصل على استقلالها في عام 1957. وكانت المالايو مصدراً مربحاً جدّاً للقصدير والقهوة والمطّاط والتوابل، وكذلك موطن المرافئ التجارية الهامة في بينانغ، وميلاكا وسنغافورة.

بيراك (وادي كينتا):

هذه الرواية تدور أحداثها في ولاية بيراك، وبالتحديد في مدن من وادي كينتا، وهي باتو جاجاه، وإيبوه. ويُعتبر وادي كينتا أحد أغنى مصادر القصدير في العالم، وتُستثمر مناجمه تجارياً منذ ثمانينيّات القرن التاسع عشر. ولما يزيد على القرن، وحتى ثمانينيات القرن العشرين، تابعت ماليزيا تزويد أكثر من نصف العالم بخامة القصدير.

ولكينتا تاريخٌ طويل، فهي مسكونة منذ العصور النيوليثية (العصر الحجري الحديث). وفي القرن السادس عشر، لاحظ البرتغاليون أن بيراك كانت تدفع المستحقات السنوية بالقصدير. وخلال القرن الثامن عشر اشتهرت بالفيلة البرية التي كانت هدفاً للصيد والبيع لجيش الفيلة الخاص بأباطرة المغول. وتغلب على الطبيعة الساحرة تلال جيرية جميلة، ومعظمها تتخللها كهوفٌ طبيعية غامضة وأنهارٌ تجري تحت الأرض.

إيبوه، أكبر مدينة في بيراك، عُرفت في وقت مضى بأنها أجمل وأنظف بلدة في ماليزيا. وهي مركز التجارة والازدهار التي نتجت من فورة الاستثمار بالقصدير، وهي أيضاً معروفة بالطعام الجيد والأبنية التاريخية العديدة. وبما أن أحداث هذه الرواية تدور في إيبوه متخيلة، فقد سمحت لنفسي بإضافة بعض المعالم، مثل

فندق سيليستيال هوتيل، والذي بدأ بناؤه عام 1931، ولكن تم افتتاحه لاحقاً. وبالمثل، مع أن في إيبوه عدداً من صالات الرقص العامة، ولكن ماي فلاور من نسج خيالي، واستلهمتها من كلام بروس لوكهارت عن صالات الرقص الصينيّة في سنغافورة كما وردت في مذكراته.[1]

مستشفى مقاطعة باتو جاجاه:

تأسّس عام 1884 على مساحة خمسة وخمسين هكتاراً من الأرض، وهو مبني بنمط كولونيالي وعلى شكل حديقة منخفضة. وتم تحديث المباني لاحقاً، ولكن لا يزال بالإمكان مشاهدة بعض الأبنية الأصلية. وقد تصرّفتُ بالشكل النهائي للمستشفى بإضافة سلالم في أسفل السفوح، ومستودع لقسم الأمراض (التشريح)، وكافيتريا... إلخ. وكذلك بخصوص طاقم المستشفى، فهو مُتخيَّل بكامله، مع الحرص على تصور كيف كان يبدو عام 1931، بالاعتماد على صور قديمة لمستشفيات كولونيالية وعنابر مماثلة.

المعتقدات الخرافية الصينيّة حول الأرقام:

يمتلك الصينيّون حبّاً عظيماً للتوريات والجناسات اللغويّة. وهذا الحبّ للّعب بالكلمات، الذي رافقه اهتمامٌ بالفينغ شوي، قد قاد إلى العديد من المعتقدات الخرافية حول الأرقام المحظوظة، الاتّجاهات المحظوظة، وموضع المباني المحظوظ. ويوجد اعتقاد أنّه بتسمية الشيء أنت تمنحه قوّة موجبة أو سالبة، وهذا صحيح بالنسبة للأرقام.

وخلال مهرجان الأشباح الجائعة، سترى كمّيات كبيرة من الأشكال الورقية المصمّمة من أجل الأموات، والتي تُحرق كهبات. وكل تفصيلة تكون مهمة في هذه النسخ، ومن ضمنها لوحات الترخيص ولوحة أرقام المنزل. فعلى سبيل المثال، ستجد أن نسخة ورقية من سيارة مصنوعة من الورق ومعلقة على القصب

---

(1) بروس لوكهارت، *العودة إلى مالايو*. ج. ب. بوتغان وأولاده، 1936

أو الخيزران ومهيّأة للحرق، ستكون على الأرجح تحمل لوحة سيارة يتكرّر فيها العدد 4 كدلالة على أنها للميت.

بالنسبة للأحياء، يوجد إقبال على الأرقام التي لها معنى محظوظ. بعض الأشخاص يبذلون أقصى ما يمكنهم بذله، ليضمنوا أرقاماً محظوظة للبيت، ولرخصة القيادة، وللهاتف المحمول. والعكس صحيح، فأحياناً رقم بيت معين، مثل أربعة وعشرين أو اثنين وأربعين (يُشبه لفظه «أنت تموت» بالصينيّة واليابانيّة)، يكون مكروهاً في آسيا ويجب تجنبه لأنك ببساطة ستعاني كثيراً إذا رغبت بإعادة بيع المنزل.

وما يثير الاهتمام هنا، أن العدد خمسة يدل على التفاؤل والتشاؤم، فهو لفظة متجانسة ل «سلبي/ لا». ولذلك فإن رقماً مثل الثمانية، الذي يشبه في نطقه كلمة «ثروة»، يُصبح مستبعداً إن اقترن مع الرقم خمسة، كما في الرقم ثمانية وخمسين، الذي يشبه في لفظه كلمة «لا ثروة». وبالمثل، إن رقماً غير محظوظ يمكن أن يقلب، وبالتالي يصبح لفظ الرقم أربعة وخمسون يشبه لفظ كلمة «لن تموت».

رومنة الأسماء:

لأكون مع العصر الكولونيالي، استعملتُ مرادفات قديمة لأسماء الأماكن، مثلا «كورينشي» و«تينتسين» وليس الاسم المعاصر وهو كيرينسي وتيانجين. والأسماء الشخصية الصينيّة في تلك الفترة كانت تكتب كما تلفظ، وغالباً ما تكون على هوى موظف التسجيل وقتها، كما وأنها تختلف من لهجة إلى لهجة. والكانتونية كانت ولا تزال اللهجة الصينيّة السائدة في منطقة إيبوه، رغم أن لهجات أخرى مثل هوكين، هاكا، تياشو، هاينانيس... إلخ، لا تزال محكيّة أيضاً.

وبما أن ماليزيا مجتمعٌ متعدد الثقافات، فإنّ معظم السكان يمكنهم التكلم بعدّة لغات، وسنها المالايو، والإنجليزية، والتاميليّة أو اللهجة الصينيّة. وأنا التزمت بالتهجئة الصينيّة العادية لأسماء الشخصيات، مثل جي لين وشين والتي يجب أن تكون في الترجمة الصينيّة المعاصرة Zhilian وXin. وتقليدياً فإن أسماء العائلة الصينيّة تأتي أولاً، كما في شان يو شونغ ولي شين.

شكر وتقدير من الكاتبة

لم يكن لهذا الكتاب أن يوجد دون دعم وتشجيع عدد من الناس. وأوجه شكري الجزيل إلى:

جيني بينت، مدير أعمالي الرائع، الذي آمن بهذا الكتاب (رغم أنّه كان يزداد طولاً كلّما استمرّيت في الكتابة!)، وتحمل عبئه ببطولة إلى أن وجد مكانه الصحيح. إيمي إنهورن وكارولين بليك، المدقّقتين الرائعتين اللتين جعلتا هذا الكتاب يزهر، برؤيتهما الثاقبة ودعمهما. والشكر، كلّ الشكر أيضاً إلى كونور مينتزير، ليز كاتالانو، فينسينت ستانلي، ديفان نورمان، هيلين شين، كيث هيز، أميليا بوسانزا، نانسي ترايبوك، مولي فونسيكا، وبقية أعضاء مجموعة فلاتريون.

وإلى أصدقائي الأعزاء سو وداني يي ولي ليان تان، الذين كانوا مع هذا الكتاب وكلّ شخصياته منذ البداية، وقد اضطرّوا لقراءة عدّة صيغ وتعديلات منه، وأمضوا معي الساعات الطويلة في مناقشة نهايات بديلة.

إلى القراء كارمين شام، سوليكا شيل، شوينرو شو، بيتي كونغ، أنجيلا مارتن وميشيل إيلين سالازار، فرؤيتهم الحكيمة كانت ثمينة. وكاثي والدكتور لاري كوان، لصداقتهما المخلصة وللمعلومات الطبية بما يخص علاج الجروح الاستوائية. وداتو غون هينغ واه، لنصيحته بخصوص البنادق المستعملة في مالايو البريطانية، وأيضاً لتقديره طول مسافات خطوط القطارات القديمة. أنا مدينة بالامتنان لكل هؤلاء جميعاً.

وإلى عائلتي العزيزة التي دعمتني خلال مساعيي في الكتابة، وبالأخص

والديّ، فذكراهما ساعدت على بناء عالم «نمر الليل». وكذلك أولادي، الذين يلهمونني كلّ يوم ويساعدونني لرؤية العالم بعيون الصغار.

وإلى جيمس. أوّل قارئ وأفضل ناقد. دونك، أيها الحبيب، لا يمكنني أن أكتُب.

مز[1]: 50:10

(1) ورد السطر الأخير هكذا، وقد آثرتُ أن أدرج نصّ هذه الآية من سفر المزامير، وهو: «لأَنَّ لِي حَيَوَانَ الْوَعْرِ وَالْبَهَائِمَ عَلَى الْجِبَالِ الأُلُوفِ». المترجمة.

"إنه شهر أيار، والطبيب مكفارلين الذي يعمل عنده رين ذو الأحد عشر عاماً كصبي خدمة، يحتضر. وعلى فراش موته يضع على عاتق رين مهمة إيجاد إصبعه المبتورة والضائعة قبل مضي مهلة التسعة وأربعين يوماً، وإلا ستبقى روحه تهيم على الأرض كشبح إلى الأبد!".

• كتاب شهر نيسان 2019 الذي اختاره نادي كتاب هلو سانشاين، للممثلة ريس ويذريسبون.

• أكثر الكتب ترقباً على مواقع: غلامور، ريل سيمبل، باراد، باستل، بوك بيج، غود ريدز، بوب شوكار، بوك رايوت، ريفاينري 29، تور دوت كوم، هلو غيغلز.

• أفضل الكتب مبيعاً بحسب نيويورك تايمز لعام 2019.

• أفضل الكتب مبيعاً على أمازون في شباط 2019.

• ريفاينري 29: أفضل كتاب لهذه السنة 2019.

• باراد: أفضل كتب عام 2019.

• ناشيونال جيوغرافيك: واحد من الـ13 كتاباً التي يجب قراءتها خلال عطلة الربيع.

• "إنه واحد من تلك الكتب التي عندما تقرأها تحملك إلى الوقت والمكان الذي يدور فيه الحدث. تمكّنت الكاتبة شو من تصوير تلك الحقبة الزمنية وخرافاتها، بطريقة مزاجية خالصة. إنه كتاب رائع". نانسي بيرل، ناشيونال ببليك راديو.

• "مخلوقات أسطورية، أحاديث مع أموات، أرقام حظ، فضائل كونفشيوسية، حب ممنوع؛ كل هذه العناصر تمثّل الستارة الخلفية للغز جريمة القتل الرائع الذي كتبته شو. لقد جمعت الكاتبة بشكل مذهل بين نمط مغامرات هولمز والأساطير الشعبية الصينية". ببليشرز ويكلي.

